دعوة التقريب
بين الأديان

ⓒ دار سلف للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، أحمد بن عبد الرحمن
دعوة التقريب بين الأديان (دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية)
أحمد بن عبد الرحمن القاضي مكة المكرمة ١٤٤٤هـ
٣ مج.
ردمك: ١-٢- ٩١٩٣٨- ٦٠٣ -٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٨- ٣ - ٩١٩٣٨ - ٦٠٣ -٩٧٨ (ج١)
١- الإسلام والديانات الأخرى. ٢-العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢١٤,٢٩ ٥١٨٩/ ١٤٤٤

رقم الإيداع: ٥١٨٩/ ١٤٤٤
ردمك: ١-٢- ٩١٩٣٨- ٦٠٣ -٩٧٨(مجموعة)
ردمك:٨-٣- ٩١٩٣٨- ٦٠٣ -٩٧٨(ج١)

الطبعة الثانية
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

محفوظة جميع الحقوق

دار سلف للنشر و التوزيع
المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة
البريد الإلكتروني: salafcenter3@gmail.com
الهاتف: ٠١٢٥٣٠٦٣٨٨

توزيع: دار الأمل -مصر
Dar-al-Amal.ai

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدّم بها المؤلف لنيل درجة «الدكتوراه» في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وقد جرت مناقشتها ضحى يوم الاثنين الموافق ١٤٢١/٨/١٧ هـ، ومُنح الباحث مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بطبع الرسالة وتبادُلها بين الجامعات، وقد طُبعت الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م في أربعة مجلدات فنفدت، ثم اختصرت في مجلد واحد.

دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

تأليف

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم سابقًا

المجلد الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، فأقام الله به الحُجّة، وأوضح المَحجّة، أرسله الله تعالى على حين فترةٍ من الرسل بالهدى ودين الحق؛ ليُظهره على الدين كله، وقد كان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، يستوي في ذلك كتابيُّهم، ومشركهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة]، (قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابيٌّ معتصم بكتاب؛ إما مبدَّل، وإما منسوخ، ودين دارِس؛ بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أميٌّ من عربي وعجمي، مقبِل على عبادة ما استحسَنه، وظن أنه ينفعه؛ من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك)[1]، فحقَّ عليهم قوله تعالى في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتَتْهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء...»[2]، ففتح الله به

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، تحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الرابعة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، (١/ ٦٣).

(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر وتوزيع: إدارات

قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، من أهل الكتاب والأميين، فقال مَن آمَن من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ *﴾ [القصص:٥٣-٥٤]، وقال من آمن من الأميين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وأما الذين غلبت عليهم شقوتهم، واستنكفوا، واستكبروا، فشَرِقوا بدعوته ولم يرفعوا بها رأسًا، ولم يقبلوا ما بعثه الله به من الهدى والعلم.

لقد كانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين، وبركة على الخلق أجمعين، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وخلفه ﷺ في أمَّته الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، الذين يُمَسِّكون بالكتاب، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فأحيا الله بهذا النبي الكريم ما اندرس من ملة إبراهيم، وسنن المرسلين؛ من توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، ونَبْذ ما ابتدعه مَن سَفِه نفسه، ورَغِب عن ملة إبراهيم، من اليهود والنصارى والمشركين، وأكمل الله لهذه الأمة الدين، وأتمَّ عليها النعمة، ورضي لها الإسلام دينًا، حتى صارت خير أمةٍ أُخرجت للناس، كما وصفها ربها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ

البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، (٤/ ٢١٩٧).

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ [آل عمران]، فنسخ الله بدين الإسلام سائر الأديان، وجعل القرآن آخِرَ كُتبه نزولًا، وأحدثها عهدًا به؛ مُصدِّقًا لما بين يدَيْه من الكتاب، ومهيمنًا عليه، وافترض على جميع الخلق الإيمانَ بنبيه الخاتم واتِّباعَه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف]، فمن ابتغى غير الإسلام دينًا خاب وخسر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران]، ومن طلب الهدى من غير القرآن أضلَّه الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة]، ومَن سمع بنبيه محمد ﷺ ولم يؤمن به أكبَّه الله في النار: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[1]، وكل هذا معلومٌ من الدين بالضرورة؛ لكونه من أصول الإسلام، ومعاقد الإيمان.

ولم يَدُرْ بخَلَد أحدٍ من أمة الإسلام أن يسعى إلى توفيقٍ أو تلفيق أو توحيد أو تقريب، بين دين الإسلام وما سواه من الأديان، بل ولا يخطر بالبال، ولا يكاد، عند مَن فقه مراد الله، ودخل الإيمان قلبه، إن هي إلا هَمْهَمات ومؤامرات في دهاليز الباطنية المظلمة، وهذيانات وشطحات في عقول غلاة المتصوِّفة، ما كانوا ليَجْهَروا بها على الملأ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، وإلّا لسحَقَتْهم أقدام، وانبرت لهم أقلام، ورُفِعَت لحربهم أعلام.

ولكنَّ الزمان استدار، فعَزَّ العلم، وفشا الجهل، وانخذل أهل الإسلام، واستطال الكفار، فعصفت بأُمَم الأرض مذاهب شتى، ومقالات سوء، نشأت في أحضان الغرب النصراني، ترضع من لَبان يهود، حتى نمت وترعرعت، وامتدت

(١) صحيح مسلم (١/ ١٣٤).

أغصانها، واسترسلت في فناء المسلمين وعُقْر دارهم، وليس لعِرْقٍ ظالم حق.

فمن هذه المقالات التي استحالت دعوات دعوةُ التقريب بين الأديان، التي خرجت من حيِّز الكمون إلى فضاء الاستعلان، ومن طَوْر الفكرة إلى مرحلة التنفيذ، في العقود الأربعة الماضية، تدعو المسلمين إلى حَلِّ عُرَى الدين، ومُوادّة الكافرين، وجَعْل المسلمين كالمجرمين، وكَسْر حاجز النُّفْرة من المشركين، وقد تذرَّع دعاتُها بألوان الحِيَل، وتوسَّلوا بزخرف القول، وبَهْرَج العمل، لتسليكها بين المسلمين، وتأنيسها، وتوطينها، وأوْضَعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

فمنذ انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م) الذي تواضع فيه أساقفة الكاثوليك على هَجْر عبارتهم العتيقة: (لا خلاص خارج الكنيسة)، وتوسيع مفهوم «الخلاص» ليشمل غير النصارى، ومؤتمرات التقريب بين الأديان بعامة، وبين الإسلام والنصرانية خاصة تجري على قدمٍ وساق، حتى بلغ عددها خلال العقود الأربعة المنصرمة ـ حسب علمي ـ ثلاثمئة مؤتمر، بل فاق، وأُنشئت لها المراكز المتخصِّصة، وجمعيات الصداقة، بل وشُيِّدَت لها مجامع الأديان المؤلَّفة من كنيسٍ وكنيسة ومعبدٍ ومسجد، وأُقيمت لأجلها الصلوات المشتركة!!!

إن ظهور «دعوة التقريب بين الأديان» بثوبها الجديد، وانتشارها الواسع في جميع بقاع المعمورة، يُعَدُّ «نازلة» جديدة، «وبدعة» حديثة، تتطلَّب مواجهةً واعية تقوم على دراسة حقيقتها، وتتبُّع أصولها، واستقراء واقعها؛ لمعرفة أهدافها وبواعثها، وكشف عوارها وخطرها على المسلمين.

ومما يؤكِّد ضرورة الاهتمام بهذه الدعوة، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية ما يلي:

أولًا: خطر هذه الدعوة على أصول الاعتقاد عند المسلمين؛ من الإيمان بالله وكتبه ورسله، واستزلالهم إلى تصويب عقائد الكفار، وتصحيح أديانهم.

ثانيًا: مواكبة هذه الدعوة للاتجاه العالمي السائر نحو «العولمة»، التي ترمي إلى القضاء على الخصائص العقدية والتشريعية والاجتماعية وغيرها للمجتمع الإسلامي، وصَهْرِه في بَوْتَقة «العالمية» مع اليهود والنصارى والذين لا يعلمون.

ثالثًا: الدعم الكبير الذي تحظى به هذه الدعوة من قِبَل أئمة الكفر، وترويجها بمختلف الوسائل الإعلامية، وإدانة ما يضادُّها، ووَصْفه بـ«التعصب» و«الأصولية»؛ تمهيدًا لسلخ المسلمين عن دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

رابعًا: الانفتاح العالمي الهائل الذي حصل في العقود الأخيرة؛ اجتماعيًّا، وثقافيًّا، وإعلاميًّا، واختلاط الأعراق والشعوب المختلفة، وشيوع المعتقدات والعادات المتنوعة عبر القنوات الفضائية، مما أحال العالم الفسيح إلى قرية كونية دانية الأطراف، وسَوْغ الدعوة إلى التقريب بين الأديان والحضارات.

خامسًا: عدم التكافؤ المادي بين الأمم الإسلامية، وكثير من أمم النصارى واليهود، حيث يرزح المسلمون تحت ضغط التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، مما يسلبهم الشعور بالاستعلاء والخيرية الضروريَّيْن للأخذ بزمام المبادرة، ويجعلهم مسوقين للطرف الأقوى.

سادسًا: انزلاق بعض المنتسبين إلى الإسلام، والمحسوبين عليه، إلى مزالق عقدية خطيرة في هذا المجال؛ حيث فاهوا بما يخالف الكتاب والسنة والإجماع، واجترحوا من الأفعال والممارسات ما ينقض عقيدة الولاء والبراء. ثم نالوا حظًّا من التصدير والتفخيم ليغترَّ بهم العامة، ويتخذوهم أئمة.

سابعًا: عدم وجود دراسة متوسِّعة ـ حسب علمي ـ عُنِيَت بفحص مناشط هذه الدعوة على المستوى العالمي، وتحليلها، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية.

ثامنًا، وهو الأهم: الحاجة الماسة إلى إحياء المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واهتبال الإمكانات الإعلامية الكبيرة، والأوضاع الديموقراطية السائدة في

الغرب لتبليغ دين الله، وهداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

لهذه الأسباب وقع اختياري، وانصبَّ اهتمامي على هذا الموضوع.

وقد أدركت منذ البداية ـ إدراكًا مجملًا ـ سعةَ الموضوع في الرقعة الزمانية والمكانية، وتشعُّب طرقه، وصعوبة لوازمه، من حيث جمع المادة ودراستها، ولكني استخرت الله تعالى، واستعَنْتُ به، واستشرت أهل الخبرة من مشايخي الأجلاء، وإخواني الكرام، فألفَيْتُ انشراحًا في نفسي، وهمةً في عزمي، وتشجيعًا وحَفْزًا من مشايخي وإخواني، وما ندم مَن استخار الخالق، وشاوَر المخلوق، وتثبَّت في أمره، وإني لأرجو الله أن يكون هذا البحث عملًا مبرورًا، وجهدًا مشكورًا، خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، مفتاحًا للخير، مِغلاقًا للشر، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراحل إعداد هذه الدراسة:

أ ـ جمع المادة العلمية: قام الباحث بحضور معارض الكتب التالية؛ لتوفير مادة البحث:

١ ـ معرض «عمَّان» الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٢٤ ـ ٢٨/ ٥/ ١٤١٧هـ).

٢ ـ معرض الكتاب اللبناني الدائم في بيروت، ومكتبات النصارى المختلفة.

٣ ـ معرض القاهرة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (١٤ ـ ٢٤/ ٩/ ١٤١٧هـ).

٤ ـ معرض الشارقة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٤ ـ ١٥/ ٧/ ١٤١٨هـ).

بالإضافة إلى الاستفادة من الخدمات الثقافية المميزة التي يقدِّمها كلٌّ من:

- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.
- مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض.

-زيارة المكتبات الجامعية والعامة في الداخل والخارج، ومحفوظات رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

كما أن حيوية الموضوع والاهتمام العالمي به، وتتابُع مؤتمراته ومنتدياته في العديد من المواقع في العالم أوجبَ متابعةً مستمرة لما تنشره وسائل الإعلام حول هذه القضية، ومراجعةً لما سبق نشره.

ب ـ زيارة المراكز والمؤسَّسات المعنية بقضية التقريب والحوار بين الأديان، والوقوف عن كَثَب على أهدافها، ومناشطها، وإنتاجها الفكري، ومشاريعها العملية، وكان منها:

١ ـ زيارة المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمَّان، الأردن، يوم الأربعاء الموافق ٢٧/ ٥/ ١٤١٧هـ.

٢ ـ زيارة مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، التابع لجامعة البلمند الأرثوذكسية قرب طرابلس، لبنان، يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ.

٣ ـ زيارة معهد الدراسات الإسلامية والمسيحية، التابع لجامعة القديس يوسف في بيروت يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ.

٤ ـ زيارة مقر المجمع البابوي للحوار بين الأديان PCID في الفاتيكان، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ.

٥ ـ زيارة مقر جمعية سانت إيجيديو في روما، إيطاليا، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ.

٦ ـ زيارة مقر جمعية «كريسلام» CRISLAM في مدريد، إسبانيا، يوم الأربعاء الموافق ٥/ ٤/ ١٤١٩هـ.

٧ ـ زيارة المركز الثقافي في القلعة الحرة، في قرطبة، إسبانيا، مؤسَّسة روجيه جارودي، يوم الجمعة الموافق ٧/ ٤/ ١٤١٩هـ.

كما قام الباحث بزيارة بعض دول جنوب شرقي آسيا (ماليزيا، سنغافورة،

إندونيسيا)، والوقوف على بعض آثار هذه الدعوة في الأوساط الإسلامية، في صيف عام ١٤٢٠هـ.

ج ـ إجراء لقاءات ومحاورات مع المعنيين بقضية التقريب والحوار بين الأديان؛ لاستجلاء أبعاد الموضوع وجوانبه التي لا تكشفها الكتابات والشعارات المُعلَنة، بل تتبدَّى في مُجْرَيات النقاش، وقد تحاوَر الباحث مع العديد من المسلمين، وغير المسلمين -النصارى خاصة- في هذا الموضوع، ومن أبرزهم:

١ ـ المونسنيور: ميشيل فيتزجيرالد؛ أمين المجمع البابوي للحوار بين الأديان في الكنيسة الكاثوليكية، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ، في الفاتيكان.

٢ ـ الدكتور: ياناري؛ نائب رئيس جمعية سانت إيجيديو، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ، في روما.

٣ ـ الدكتور طارق متري؛ أمين مجلس الكنائس العالمي للعلاقات بين الأديان، يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ، في بيروت.

٤ ـ الدكتور رضوان السيد؛ رئيس تحرير مجلة الاجتهاد المشارك، يومَي الجمعة والسبت الموافقَيْن ٢٩، ٣٠/ ٥/ ١٤١٧هـ، ويوم الجمعة ٥/ ٤/ ١٤١٨هـ، في بيروت.

٥ ـ الدكتور جورج مسُّوح؛ نائب مدير جامعة البلمند، ومدير مركز الدراسات الإسلامية والمسيحية، يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ، في البلمند، قرب طرابلس.

٦ ـ الأب الإسباني إيمليو غالليندو آغيلار؛ مؤسِّس جماعة «كريسلام»، يوم الأربعاء ٥/ ٤/ ١٤١٩هـ، في مدريد.

بالإضافة إلى عددٍ من الشخصيات العلمية والدعوية في أوروبا وإندونيسيا وماليزيا، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

د ـ صياغة البحث: توافَر لدى الباحث مادة علمية كثيرة، متعدِّدة الجوانب، متشعِّبة الأطراف، تحتلُّ مساحة جغرافية واسعة، وتُوغِل في أعماق التاريخ، وتتفاعل باستمرار في الراهن، وتستشرف المستقبل، وكانت أبرز صعوبات البحث تتمثَّل في الجوانب التالية:

١ ـ سعة مجال البحث؛ فهو لا يختص بحقبة تاريخية معينة، ولا يقتصر على دراسة قضية التقريب بين الأديان في بلدٍ معين، ولا يقف عند حدٍّ زمني معين.

٢ ـ تعدُّد اللغات التي كُتبت بها بعض مراجع البحث، مما حمل الباحث على ترجمة بعض النصوص إلى العربية بنفسه، كالإنجليزية، وبالاستعانة بالناطقين بها، كالإيطالية والإسبانية والإندونيسية.

٣ ـ كثرة محاولات التقريب في السنوات الأخيرة، وتلاحُقها، بما يَشُقُّ معه حصرها والإحاطة بما يُكتب حولها في الصحف والمجلات ودور النشر، فلا يكاد يمر أسبوع أو نحوه حتى يقع الطرف على - أو يطرق الأذن - نبأ جديد ذو صلة بالموضوع.

وقد قسمت البحث إلى: تمهيد، وثلاثة أبوابٍ، وخاتمة، وبعض الملاحق التوثيقية والتوضيحية.

فجعلت التمهيد متضمِّنًا جملةً من الأصول العقدية والتشريعية التي تضبط العلاقة بين دين الله الإسلام، وسائر المِلَل والنِّحَل التي تسمى «أديانًا» عبر خمسة مباحث:

فعرَّفت بدين الإسلام، ثم أتبعته بتعريف الراغبين عنه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكيف حادوا عن ملة إبراهيم، وثلَّثْت ببيان الأحكام العقدية التي يستحقونها في باب أسماء الدين والإيمان، والأحكام العملية في باب الموالاة والمعاداة، وصفة معاملتهم، ثم كشفت عن موقف أهل الكتاب الذين يريد دعاة التقريب مقاربتهم، من الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ، وأخيرًا ألمَمْتُ بلمحة تاريخية عن طبيعة العلاقات بين أهل الإسلام وأهل الكتاب عبر القرون

الخالية حتى عصرنا الراهن، فيها عبرة وذكرى لمن هَمَّ أن يخرق النواميس الشرعية، والسنن الإلهية.

أما الباب الأول: فخصصته لاستجلاء حقيقة التقريب، وتحديد مدلولاته المختلفة، ودرجاته المتفاوتة، وبيان الخطوط العريضة لكل درجة، والتمثيل لها ببعض المحاولات القديمة والحديثة.

ثم تتبَّعْت الأصول التاريخية لنشأة الدعوة إلى التقريب بين الأديان لدى مختلف الفُرَقاء، من يهودٍ ونصارى ومنتسبين إلى الإسلام في العصور السالفة.

ثم أفْضَت في الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث، من خلال ما صدر عن المجامع الدينية، والقيادات المرجعية لأهل الكتاب من مختلف طوائفهم الكبرى، كالكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، ومجالس النصارى العرب، وما جرت به أقلام بعض المفتونين من الإسلاميين العصرانيين من دعاة التقريب، وحاولت تحليل مفهوم التقريب لدى كل طرف، واستخلاص نتائجه.

ثم ختمت الباب الأول باستنباط بواعث التقريب المختلفة والمتعدِّدة، التي تحمل كلَّ طائفة على السعي في هذا المضمار.

وبعد بيان الجانب النظري لحقيقة التقريب في الماضي والحاضر، ومعرفة بواعثه في **الباب الأول**، جعلت **الباب الثاني** في بيان المحاولات الفردية والجماعية للتقريب بين الأديان في العصر الحديث، فاخترت في الفصل الأول منه نماذج بارزة جمعت بين التنظير الفكري والنشاط العملي لترسيخ هذه الدعوة، أما الفصل الثاني فحشدت فيه كل ما بلغه علمي من أنواع المحاولات الجماعية الصادرة عن هيئاتٍ أو جهاتٍ دينية أو مدنية في صورة مؤتمرات ثنائية، أو ثلاثية، أو متعدِّدة، حتى تجاوز عددها ثلاثمئة مؤتمر في شتى أصقاع المعمورة، وحاولت إلى جانب التوصيف الإحصائي تحليل بعض المحاولات ودوافعها لدى الأفراد والجهات المختلفة.

أما الباب الثالث: فأفردته للنقد والتقويم، ففي الفصل الأول منه نقدتُ هذه الدعوة في ضوء العقيدة الإسلامية، واستشهدت بدلالة الواقع الراهن على فسادها، ثم كشفت بعض الشبهات التي يتعلَّل بها الراكضون خلف سراب التقريب.

وفي الفصل الثاني قدَّمت الأصل الشرعي ـ ولا أقول البديل ـ الذي يتعيَّن الرجوع إليه، والعَضُّ عليه بالنواجذ، وهو الدعوة بدعاية الإسلام مضمونًا وأسلوبًا، مهتديًا بنصوص الكتاب والسنة والسيرة النبوية المحفوظة، مستنيرًا بعمل سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى عصرنا الحاضر.

ثم إني ختمت البحث بخاتمة تتضمَّن تلخيصًا مركَّزًا لأهم نتائجه، وجملةً من التوصيات العملية التي تعتمد سلامة المنهج، وتأخذ في حسبانها الواقع الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، والمجتمع البشري، متحاشيًا أنماط التفكير الغالية، والعبارات الخطابية العاطفية، فالأمة الإسلامية مؤهَّلة لأن تقوم بدورها الريادي الهادي لجميع الناس إن هي أخذت بأسباب الخيرية، وسلكت منهج النبيِّين.

وقد ذيَّلْت البحث ببعض الملاحق التوثيقية لفتاوى بعض علماء الأمة المعاصرين حول هذه النازلة؛ من هيئات وأفراد، إضافةً لبعض الملاحق التوضيحية التي وردت الإحالة إليها في ثنايا البحث.

هذا، وقد التزمت ـ ما وَسِعَني ـ بقواعد البحث العلمي المقرَّرة، ومعاييره المعتبَرة، من:

١ ـ ترقيم الآيات القرآنية، وعزوها إلى مواضعها في كتاب الله.

٢ ـ تخريج الأحاديث النبوية، والآثار، وبيان درجتها، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيتُ بالعزو إليهما، وإن كانت في سواهما نقلت ما وجدت من كلام الأئمة المتقدِّمين أو المتأخِّرين في الحكم عليها.

٣ ـ ترجمة الأعلام، سوى المشهورين، في أول موضع يَرِد ذِكْرُهم فيه من البحث.

٤ ـ توثيق المادة العلمية من مصادرها الأصلية ـ ما أمكن ـ من كتبٍ ودوريات ونشرات معتمدة.

٥ ـ التعريف بالفِرَق والطوائف والمواضع والمصطلحات الغريبة.

٦ ـ التعليق والاستدراك في الحاشية على بعض المعاني والألفاظ الخاطئة التي لا يعالجها صميم البحث، وتَرِد كثيرًا في المنقولات عن اليهود والنصارى، وبعض العصريين من المسلمين، فأكتفي بالتنبيه عليها في موضع عن تكرار ذلك في سائر المواضع.

كما صنعتُ بعض الجداول والفهارس الفنية لتسهيل الرجوع والاستفادة من مادة البحث، وهي:

١ ـ جدول يتضمَّن مسردًا بمؤتمرات التقريب بين الأديان، حسب ترتيب وقوعها الزمني، وتاريخ انعقادها، وأماكنها، وموضوعاتها، والجهات المنظِّمة لها.

٢ ـ جدول يتضمَّن قائمة بالجمعيات والمؤسسات والمراكز المعنية بقضية التقريب ـ حسب الترتيب الهجائي ـ ومقارِّها، مع الإحالة في الجدولَيْن على مواضع ورودها في غضون البحث.

٣ ـ فهرس بالأحاديث النبوية الشريفة، ومواضع ورودها في البحث.

٤ ـ فهرس بالآثار، ومواضع ورودها في البحث.

٥ ـ فهرس بالأعلام المترجَم لهم في الحاشية، ومواضع ورود أسمائهم في البحث.

٦ ـ فهرس بالفِرَق والطوائف، ومواضع ورودها في البحث.

٧ ـ فهرس بالمراجع، من كتب عربية وأعجمية، ودوريات، ونشرات، وخلافه.

٨ ـ فهرس عام بالموضوعات.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى إماطة اللثام عن الوجه الكالح لهذه البدعة الخطيرة التي هي من آخر ما تفتَّقَت عنه عقول أهل الكتاب

والمشركين لاستزلال المسلمين عن دينهم الحق، واستدراجهم إلى سبيل المجرمين، وفتنتهم عما أنزل الله إليهم، أو بعضه.

كما أرجو أن أكون قد أوقفتُ الباحثين والمعنيِّين على حجم المحاولات الضخمة التي يبذلها دعاة التقريب بين الأديان من الغربيين، والعصرانيين من بني جلدتنا، عن طريق الكتابات والمؤتمرات والمشاريع العملية، لإرساء هذه الدعوة الكفرية، وإحلالها محل الدعوة الإيمانية إلى توحيد الله تعالى وعبادته، عن طريق الجمعيات والمراكز المختلفة التي عرَّفتُ بالعشرات منها في هذه الدراسة، وناقشت شبهاتهم، وكشفت عن أهدافهم ومراميهم، تحذيرًا للأمة، ونصحًا لله ورسوله وكتابه، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم.

وإني لمُدرِك تمامًا أن إيفاء الموضوع حقَّه، يتطلَّب توافر عددٍ كبير من الباحثين عليه؛ لسعة رقعته الجغرافية، وعُمقه التاريخي، وتجدُّد مادته، وحسبي أن أكون رَسمتُ بعض الخطوط العامة، وشرعت السبيل لغيري لاستكمال النقص، فما كان من خيرٍ وصواب فمن الله وحده، وبفضله وتوفيقه، وما كان سوى ذلك فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله أولًا وآخرًا.

ولا يفوتني أن أتقدَّم بوافر الشكر والتقدير والامتنان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التي أتاحت لي الفرصة، وأعانتني على جمع المادة العلمية، وأُزجي بالغ الشكر والعرفان بالجميل لشيخي الفاضل، المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، حفظه الله، الذي تابَع جميع مراحل إعداد الرسالة، وأفادني بتوجيهاته وتصويباته، وغمرني بلطفه وتواضُعه، وكريم خُلقه، جزاه الله عني خيرًا، كما أشكر فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد الذي زوَّدني ببعض المعلومات والملاحظات القيِّمة.

كما أشكر جميع الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية والدعوية التي قدمت لي يد العون والتشجيع، وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وغيرها، في الداخل والخارج، وكل فاضلٍ، من عالم أو أخٍ أو أهل، أمدَّني برأي ثاقب، أو لفت انتباهي إلى كتاب أو خبرٍ، أو قضى لي حاجةً، أو دعا

لي دعوةً صالحة، أسأله تعالى أن يُعظِم له الأجر والمثوبة، وأن يجعل له سهمًا في هذا العمل، يفرح به يوم يلقاه، كما أرجو ممن وقف على هذا الكتاب ورأى فيه خطأً أو خللًا أو نقصًا أن ينبِّهني عليه كتابيًّا أو هاتفيًّا، مشكورًا مأجورًا؛ فإن العبد مَظِنّةُ الزلل والقصور، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضًا، وحتى يمكن تدارُكه في طبعات لاحقة إن شاء الله.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلَّم وبارَك على خاتم النبيين، المبعوث إلى الناس أجمعين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه والتابعين.

كتبه/ أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

عنيزة، المملكة العربية السعودية

ص.ب. (٢٤٦) الرمز البريدي (٨١٨٨٨)

جوال (٩٦٦٥٠٥١٣٢٤٦٨)

البريد الإلكتروني: qadisa@yahoo.com

التمهيد

ويتضمَّن خمسة مباحث:

- **المبحث الأول**: دين الإسلام.
- **المبحث الثاني**: أهل الكتاب.
- **المبحث الثالث**: حكم الإسلام في أهل الكتاب.
- **المبحث الرابع**: موقف أهل الكتاب من الإسلام.
- **المبحث الخامس**: لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب.

المبحث الأول

دين الإسلام

خلق الله آدم عليه السلام بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجَدَ له ملائكته، وأسكنه وزوجَه جنَّتَه، وأباحها لهما يأكلان منها رغدًا حيث شاءا، ومنعهما من قربان شجرة معينة، فأزلَّهما الشيطان بوسوسته وإغرائه وفتنته، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

ثم أنشأ ذريته من الأرض واستعمرهم فيها، وسخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وجعلهم خلائف فيها؛ ليبلُوَهم فيما آتاهم من فضله، وما خوَّلهم من نِعَمه، وينظر كيف يعملون، فـ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: على دينٍ واحد، وملة واحدة، وشريعة من الحق، فاختلَفوا[1]، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأنبياء الله هم صفوته من خَلقه، والواسطة بينه وبين عباده في تبليغ أمْره ونهيه، وخبره وموعظته، أنزل عليهم كتبه، وأيَّدهم بالآيات البيِّنات، والمعجزات الباهرات التي على مثلها يؤمن البشر، يقيم الله بهم الحجة،

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، (٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧).

ويدحض بهم الشبهة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

فمن رحمته بخلقه، وإعذاره إليهم، أنه لم يَدَع أمةً إلا بعث فيها رسولًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل (الإسلام العام):

ودين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلىٰ آخرهم واحد هو «الإسلام» كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ودعوة الأنبياء واحدة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، ومفتاح دعوتهم التي يبادئون بها أقوامهم واحد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. ومنهجهم واحد: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]، فلا يجوز التفريق بين رسل الله وقد جمعهم الله، ووحَّد دينهم ودعوتهم: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وأكفرَ سبحانه مَن فرَّق بينه وبين رسله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء].

وسمَّاهم الله المسلمين، ووصفهم بالإسلام، الذي هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد والإذعان؛ فقال عن نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة]، وعنه وعن إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، ووصف بذلك أنبياء بني إسرائيل قاطبة فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وعن يعقوب وبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]، وقال عن لوطٍ وأهل بيته: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات]، وعن يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف]، وعن موسى وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس]، ولهذا قال سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف]، وكذا فاهَ بذلك فرعون لما أدركه الغرق لعِلْمِه من موسى أنه سبيل النجاة، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، ولكن حيث لا ينفعه ذلك، وعن سليمان وملكة سبأ: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل]، وعن الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، حتى الجن تسمَّوْا بذلك فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾﴾ [الجن].

وبما أمر الله به الأولين من الأنبياء والمرسلين، أمر نبيَّه محمدًا ﷺ فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر]، ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل]، فامتثل أمْرَ ربِّه، وقال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وبذلك يتبيَّن أن دين الله واحد هو «الإسلام»، ولا دين سواه، ولهذا أرشد الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يعتصم بهذا الأصل العظيم، ويأوي إلى هذا الركن المتين عند مجادلة أهل الكتاب وغيرهم، ويفاصلهم على أساسه،

فقال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]، فمن سبقت له من الله الحسنى اغتبط بنعمة الله، وعرف دين الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، ومن تولى وأعرض فقد أمر الله عباده أن يقولوا لهم: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]، فليس لله دينٌ يُعبَد به سوى الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وإنما حصل التنوع في الشرائع التي شرعها الله لكل أمة على لسان نبيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لِعَلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»(١). قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) رحمه الله تعالى: (فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يُعبَد في كل وقتٍ بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت، وتنوُّع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع، كتنوُّع الشريعة الواحدة، فكما أن

(١) صحيح البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل، المكتب الإسلامي، إستانبول، طبعة ١٩٧٩م، (٤/ ١٤٢)، صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٧).

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، ابن تيمية، ولد في حران ثم انتقل إلىٰ دمشق، فنبغ واشتهر وبرع في كل فن، وأفتىٰ ودرس وهو دون العشرين، وكان قويًّا في ذات الله، شديدًا علىٰ أهل البدع، ولقي بسبب صدعه في الحق الأذىٰ الكثير، وسُجن مرارًا بسبب ذلك، فصبر واحتمل حتىٰ لقي ربه وهو معتقل في قلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ)، فخرجت دمشق كلها في جنازته، وكان رحمه الله يحارب التقليد والبدع، وتعتبر مؤلفاته مرجعًا لمذهب أهل السنة والجماعة، فمن مؤلفاته «منهاج السنة النبوية» و«درء تعارض العقل والنقل» و«الإيمان» وغيرها كثير، وهي غزيرة الفوائد، مكنوزة بالعلم المستند علىٰ الكتاب والسنة، وقد جمع فتاويه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في سبعة وثلاثين مجلدًا، راجع الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة السادسة ١٩٨٤م، (١/ ١٤٤)، فوات الوفيات (١/ ٣٥ ـ ٤٥)، الدرر الكامنة (١/ ١٤٤)، البداية والنهاية (١٤/ ١٣٥)، آداب اللغة (٣/ ٢٤٣)، النجوم الزاهرة (٩/ ٢٧١).

دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو دين واحد، مع أنه قد كان في وقتٍ يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة، كما أمر المسلمون بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة، ويَحْرُم استقبال الصخرة، فالدين واحد وإن تنوَّعت القبلة في وقتَين من أوقاته، فهكذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت، ثم نسخ ذلك وشرع الجمعة، فكان الاجتماع يوم السبت واجبًا إذ ذاك، ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة، وحرَّم الاجتماع يوم السبت، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلمًا، ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلمًا)[1].

وقال أيضًا: فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده.

وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمر ثانيا باستقبال الكعبة، كان كل من الفعلين حين أمر به داخلا في دين الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوّع بعض صور الفعل وهو وجهة المصلِّي، فكذلك الرسل دينهم واحد، وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدِّين واحدا، كما لم يمنع ذلك في شرعة الرسول الواحد.

والله تعالى جعل من دين الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩).

فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[(١)].

وهذا هو المعنى الصحيح الوحيد لوحدة الدين، وما سوى ذاك وسواس الشياطين.

وقد ختم الله النبوة بمحمدٍ ﷺ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وجعل رسالته للناس كافة عربهم وعجمهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، فالإسلام العام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لَدُن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإسلام الخاص هو ما جاء به محمد ﷺ من هدى وبيان، وحلالٍ وحرام: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٨٤]، فنسخ الله به جميع الرسالات والشرائع السابقة، فمن أدركه ولم يدخل في عقده كان من أهل النار، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة[(٢)] مرفوعًا: (والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت وهو لم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به إلا كان من أصحاب النار)[(٣)]. فتلك هي وحدة الدين التي تنتظم الشرائع جميعًا في عقد الإسلام العام، ثم تختمها بما أكملَ الله به الدين، وأتَمَّ به النعمة، وهو الإسلام الخاص، فلا يُعبَد الله في

---

(١) التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي. مكتبة دار المنهاج ١٤٣١ه (ص: ١٦٩- ١٧٠).

(٢) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث، قدم علىٰ رسول الله ﷺ، في السنة السابعة من الهجرة، وروىٰ عنه ما يقرب من (٥٣٧٤) حديثًا، وتوفي سنة ٥٩هـ رضي الله عنه وأرضاه، الأعلام (٣/ ٣٠٨)، الإصابة ت (١١٧٩)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٧٠)، حلية الأولياء (١/ ٣٧٦)، الجواهر المضية (٢/ ٤١٨).

(٣) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

المشرق بما لا يُعبَد به في المغرب، بل الدين واحد، كما أن المعبود واحد، فمَن جَوَّز أو سَوَّغ «تعدُّد الأديان»، وأنها الآن طرق تؤدِّي إلى الله فقد افترى على الله الكذب، وقال على الله بغير علم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام].

ولهذا ذهب بعض المحققين المعاصرين، وهو الشيخ محمود محمد شاكر[(١)] رحمه الله، إلى منع إطلاق لفظ «الدين» على ما سوى «الإسلام»، فقال: (فصار بَيِّنًا بعد هذا أن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نسمي شيئًا من المِلَل؛ من نصرانية ويهودية وغيرهما «دينًا»، سوى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وملة أنبيائه جميعًا، وهي «الإسلام» «دين الله» الذي لا يقبل من عباده دينًا سواه، والذي أرسل به رسوله محمدًا ﷺ ليبطل المِلَل كلها، ولا يكون شيءٌ منها يسمى «دينًا» سوى «الإسلام»، وإذًا فقول المسلم مثلًا: «الأديان السماوية» قول مخالفٌ لعقيدة أهل الإسلام في حقيقة هذه المِلَل)[(٢)]، وما قاله رحمه الله حقٌّ لا مرية فيه بالنظر إلى المدلول الشرعي لكلمة «دين»، وهو ما بعث الله به أنبياءه ورسله، فهو واحدٌ لا يتعدد، وهو «الإسلام»، ولكن بالنظر إلى المعنى اللغوي الدالِّ على العادة والشأن ومُطلَق الطاعة[(٣)] فإن الأمر واسع، فيتناول الدين الحق

(١) ولد في الإسكندرية عام (١٣٢٧ هـ ١٩٠٩م)، تلقىٰ تعليمه الأولي في القاهرة، وفي عام (١٩٢٦م) التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة المصرية، واستمر بها إلىٰ السنة الثانية، ثم نشب بينه وبين طه حسين خلاف شديد حول منهج دراسة الشعر الجاهلي أدىٰ إلىٰ تركه الدراسة الجامعية، سافر إلىٰ الحجاز عام (١٣٤٧م ١٩٢٨م)، وأسَّس مدرسة جدة السعودية الابتدائية بناءً علىٰ طلب من الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ عاد إلىٰ القاهرة بعد عام واحد واشتغل بالتأليف والكتابة الصحفية، وتحقيق النصوص وإخراج التراث، من مؤلفاته: (المتنبي)، (أباطيل وأسمار)، وحقَّق ثمانية كتب من كتب التراث، وله قصائد ومقالات منوعة، نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (١٩٨١)، وعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، وجائزة الملك فيصل، وتوفي في الثالث من ربيع الآخر عام (١٤١٨ هـ) رحمه الله. انظر: النشرة التعريفية الصادرة عن هيئة جائزة الملك فيصل.

(٢) أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م، (٢/ ٥٥٠ـ٥٥١).

(٣) قال الجوهري: (والدِّينُ بالكسر: العادة والشأن، قال:

الذي هو الإسلام، وسائر البِدَع والضلالات والأحوال والتقاليد التي يسير عليها بعض الناس، ولهذا قيد الله تعالى لفظ «الدين» في مواضع من كتابه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ووصفه بما يخصِّصه فقال: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، و﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠، ٤٣]، و﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، و﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

كما أضاف سبحانه لفظ «الدين» إلى غيره، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وسمَّى ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب والكفار دينًا فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، وعن فرعون وقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، وعن اليهود: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [آل عمران]، وذمَّ ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩، الروم: ٣٢]، وعن أهل الكتاب: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]، وإنما تديَّنوا بسواه، بل سمَّى سبحانه ما أحدثه المحرِّفون من اللعب واللهو دينًا، فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١].

فتبيَّن بذلك جواز إطلاق لفظ «الدين» و«الأديان» على ما سوى الإسلام، باعتبار تديُّنهم بها، كما جاز إطلاق لفظ «الآلهة» على ما يُعبَد من دون الله، مع أنه «الإله» الواحد الحق، باعتبار تأليههم لها، وعلى هذا الإطلاق جرى المصنِّفون من المسلمين قديمًا وحديثًا[1].

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي أَهَذَا دِينُهُ أبدًا ودِينِي

والدين: الطاعة، ودان له، أي: أطاعه، قال عمرو بن كلثوم: وأيام لنا ولهم طِوال عصينا المَلْك فيها أن نَدِينَا، ومنه الدين؛ والجمع الأديان، يقال: دان بكذا ديانةً، وتديَّن به، فهو دَيِّن ومتديِّن)، الصحاح: الجوهري، إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، (٥/ ٢١١٨ ـ ٢١١٩).

(١) من ذلك قول الإمام مالك رحمه الله في كتاب الأقضية: (ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها، إلا الإسلام) الموطأ (٢/ ٧٣٦)، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

أما وصف تلك الأديان ـ سوى الإسلام ـ بـ «السماوية» فوصْفٌ باطل؛ لما يحمله من دلالة باطلة، من كونها نزلت من السماء، والواقع أنها تحريف لما نزل من السماء[(١)]، وكذلك التعبير بـ«الأديان الثلاثة» عن الإسلام واليهودية والنصرانية، فإن فيه غضًّا من الإسلام، وإيحاءً بأن هذه «الثلاثة» متساوية، قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين[(٢)] رحمه الله: (قد يسمع ما بين حينٍ وآخر كلمة «الأديان الثلاثة» حتى يظن السامع أنه لا فرق بين هذه الأديان الثلاثة، كما أنه لا فرق بين المذاهب الأربعة، ولكن هذا خطأ عظيم، إنه لا يمكن أن يحاول التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين، إلا كمن يحاول أن يجمع بين الماء

---

(١) انظر في هذا أيضًا رسالةً بعنوان: (الدين السماوي هو الإسلام) للدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

(٢) فضيلة شيخنا محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين، من آل مقبل الوهيبي التميمي، أبو عبد الله، وُلِد في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٧ هـ في مدينة عنيزة، بالمملكة العربية السعودية، تتلمذ علىٰ العالم الرباني المفسر الفقيه، شيخ عنيزة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦ هـ)، رحمه الله، فقرأ عليه التوحيد والفقه والتفسير والأصول والنحو، ثم سافر إلىٰ الرياض سنة ١٣٧٢ هـ للدراسة في المعهد العلمي، فتتلمذ علىٰ الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٣٣٠ ـ ١٤٢٠ هـ) رحمه الله، وتأثَّر به في علم الحديث، والشيخ المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ ـ ١٣٩٣ هـ) وغيرهما من الأفاضل، وبعد وفاة شيخه السعدي سنة ١٣٧٦ هـ خلفه في الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الكبير في عنيزة، بالإضافة إلىٰ تدريسه في المعهد العلمي في عنيزة منذ عام ١٣٧٤ هـ، ثم انتقل من المعهد إلىٰ التدريس في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم سنة ١٣٩٨ هـ إلىٰ قريب وفاته، وكان مواظبًا علىٰ التدريس والإمامة، وله حضور قوي في مختلف المناسبات، ومشاركات علمية في وسائل الإعلام، والتدريس والإفتاء في المسجد الحرام في شهر رمضان، وامتاز بحسن التقرير، وتنظيم العرض والتقسيم، وتسهيل العلم، ودقة الفتيا، فقصده الطلبة من كل مكان حتىٰ بلغوا المِئِين في حلقته، وانتشرت كتبه ودروسه المسجلة وفتاواه في أصقاع الأرض، ونال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٤١٤هـ، وعين عضوًا في هيئة كبار العلماء سنة ١٤٠٧هـ، كان وقته عامرًا بالإفادة والاستفادة، وقضاء حوائج الناس، وكان ورعًا عابدًا صوامًا قوامًا دؤوبًا علىٰ الوظائف الدينية لا يكل ولا يمل، حازمًا في أموره كلها، كما كان سهلًا يكره التكلف، بسيطًا في ملبسه ومسكنه ومركبه، قصدًا في منطقه، يكره التملق والتشدق والمديح، ألَّف عشرات الكتب في الفقه والتوحيد والمصطلح والأصول والفرائض، توفي رحمه الله بعد مرضٍ عانىٰ منه سبعة أشهر، ليلة الخميس ١٦/ ١٠/ ١٤٢١ هـ عن أربع وسبعين سنة.

والنار)[١].

والإسلام بالمعنى العام الذي جاءت به جميع الرسل متضمِّنٌ لأصول الإيمان والشرائع والأخلاق، وأمهات العبادات والشرائع، وإن اختلفت كيفياتها، وأحوال المعاد والجزاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرُّهم، وتكميل ما يُصلِحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعِثُوا جميعًا بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق المُوصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

فالأصل الأول: يتضمَّن إثبات الصفات والتوحيد والقَدَر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصَّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمَّن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي، والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه.

والأصل الثالث: يتضمَّن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب، وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخَلْق والأمر، والسعادة والفلاح، وموقوفه عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل)[٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

وقال واصفًا حال مؤمني أهل الكتاب: ﴿۞لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران]، وقال ناعيًا على الذين تفرَّقوا منهم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ

(١) من خطبة يوم الجمعة «الأولى» الموافق ١٥/ ١/ ١٤٢٠هـ.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، وابنه محمد، الطبعة الأولى ـ١٣٩٨هـ (١٩/ ٩٥ ـ ٩٦).

إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة].

ثم أكمل الله الدين، وأتمَّ النعمة ببعثة نبيه الخاتم، ورسوله إلى الناس كافة محمد بن عبد الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك هو الإسلام الخاص الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وإليه ينصرف المراد عند الإطلاق.

الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ (الإسلام الخاص):

● قال تعالىٰ مبيِّنًا ما عليه رسوله محمد ﷺ وأتباعه من أصول الاعتقاد: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

● وعيَّن لهم أركان البر الاعتقادية والعملية، فقال: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة].

● وعرَّف أهل الكتاب بعلامات نبيِّه الخاتم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف].

● ولهذا عَرَفه هرقل عظيم الروم حين سأل أبا سفيان، لمّا بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فكان من جملة ما سأله: ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان ـ وكان إذ ذاك على الشرك ـ: يقول: (اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة)[1].

● ولما أراد الله تعالى أن يبيِّن معالم دينه، ويُرتِّب لعباده أركانه، انتدب أفضل رسولٍ مَلَكي إلى أفضل رسولٍ بشري، كما في هذا الحديث العظيم الذي

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٥).

رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبتَيه إلى رُكبتَيه، ووضع كفَّيْه على فخذَيْه، وقال: يا محمد، أخْبِرْني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، قال: صدقت. قال: فعَجِبْنا له يسأله ويصدِّقه. قال: فأخْبِرْني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخْبِرْني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخْبِرْني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخْبِرْني عن أمارتها. قال: أن تَلِد الأمَةُ رَبَّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: يا عمر، أتدري مَن السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[(١)].

● وعن عبد الله بن عمر[(٢)] رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بُنِي الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)[(٣)].

● وعن عمرو بن عبسة[(٤)] رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، ما الإسلام؟

(١) صحيح مسلم: (١/ ٣٧ ـ ٣٨)، قال ابن رجب في شرحه: (وهو حديث عظيم جدًّا، يشتمل علىٰ شرح الدين كله) جامع العلوم والحكم: (١/ ٩٧).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، ولد بعد المبعث بيسير، واستُصغر يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، وهو أحد المكثرين من الصحابة، والعبادلة، وكان من أشد الناس اتباعًا للأثر، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها، تقريب التهذيب (١/ ٤٣٥).

(٣) صحيح البخاري: (١/ ٨)، صحيح مسلم: (١/ ٤٥).

(٤) عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد السلمي، أبو نجيح، صحابي مشهور، أسلم قديمًا، وهاجر بعد أحد، ثم نزل الشام، تقريب التهذيب (٢/ ٧٤).

قال: (أن يَسْلَم قلبُك لله عزَّ وجل، وأن يَسْلَم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأيُّ الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأيُّ الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء. قال: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأيُّ الجهاد أفضل؟ قال: مَن عُقِر جواده، وأهريق دمه. قال رسول الله ﷺ: ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا مَن عمل بمثلهما: حجة مبرورة أو عمرة)[١].

● وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو[٢] رضي الله عنهما، أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: (أن تُطعِم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[٣].

● وفيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: (أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)[٤].

فتبين من هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التعريف الجلي بدين الإسلام، وأنه متضمِّنٌ للهدىٰ ودين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ

---

(١) رواه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني تحقيق: أبي عاصم، حسن بن عباس بن قطب وآخرين، مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، مكتبة الخراز ـ جدة الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ ١٩٩٧م): (٤/ ١١٤)، (٥/ ٣)، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات (١/ ٦٤).

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، صحابي جليل، من الزهاد النساك، أسلم قبل أبيه، وشهد مع النبي ﷺ حروبه وغزواته، وكان من المكثرين من الحديث، وله ما يقرب من (٧٠٠) حديث، توفي سنة ٦٥هـ. انظر: الأعلام (٤/ ١١١)، طبقات ابن سعد (القسم الثاني من الجزء الرابع ٨ ـ ١٣)، الإصابة رقم (٤٨٣٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٨٣)، صفة الصفوة (١/ ٢٧٠).

(٣) صحيح البخاري: (١/ ٩)، صحيح مسلم: (١/ ٦٥).

(٤) صحيح البخاري: (١/ ١١ ـ ١٢)، صحيح مسلم: (١/ ٥١ ـ ٥٣).

وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]. فالهدىٰ هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح.

فأصول الإيمان ستة:

(١) أعظمها الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

● في ربوبيته: فلا خالق سواه، ولا مالك سواه، ولا مدبِّر سواه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف]، فمن زعم أن للكون خالقين أو أكثر، أو أن العبد يخلق فِعْل نفسه، أو سمَّى أحدًا من خلقه ـ كعيسى عليه السلام ـ رَبًّا فقد أشرك في ربوبيته.

● في ألوهيته: فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة]، فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة القلبية من محبة أو خوفٍ أو رجاءٍ أو توكل، أو العملية من سجودٍ أو ركوعٍ أو ذبحٍ أو طواف، أو لسانية من دعاءٍ أو ذِكْرٍ أو تلاوة، أو مالية من زكاةٍ أو صدقة أو نَذْر، لغير الله فقد أشرك في ألوهيته.

● في أسمائه وصفاته: فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا مثيل له ولا نِدَّ، ولا سَمِيَّ ولا كفء له سبحانه، ولا يُقاس بخَلْقه، ولا تُضرَب له الأمثال. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف]، فمَن سمَّى الله بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له أبًا، أو وصفه بصفات النقص والعيب ومماثلة المخلوقين كقول اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأنه استراح بعد خَلْق السماوات والأرض، سبحانه وتعالى، فقد ألحد في أسمائه وصفاته.

فهذا هو التوحيد الحق، المبني على محبة الله وتعظيمه، المستلزم لإفراده بالعبادة دون ما سواه من ملكٍ مقرَّب، أو نبي مُرسَل، أو ولي صالح، أو هوًى متَّبَع.

(٢) الإيمان بملائكته الكرام: الذين وصفهم بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء]، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۝٣٨﴾ [فصلت]، وما صح في السنة المطهَّرة من أسمائهم وصفاتهم وأعمالهم، ووجوب محبتهم وموالاتهم، خلافًا لليهود الذين عادوا جبريل عليه السلام، والنصارىٰ الذين غلوا فيه واتخذوه إلهًا في عقيدة التثليث الفاجرة.

(٣) الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله من عنده، مما سمّاه الله لنا، كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وما لم يُسَمَّ لنا نؤمن به على سبيل الإجمال، وتصديق ما صح من أخبارها، والعمل بما لم ينسخ من أحكامها، وقد حفظ الله القرآن من التحريف والتبديل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، ونسخ به الشرائع السابقة، فقال بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: حاكمًا وأمينًا وشاهدًا عليه[(١)].

(٤) الإيمان برسل الله جميعًا، وعدم التفريق بينهم، واعتقاد أنهم بشرٌ تلحقهم خصائص البشرية من المرض والجوع والعطش والموت، لكن اصطفاهم الله واختارهم لتحمُّل وحيه، وتبليغه للناس، وأنهم أكمل الناس عبوديةً، ليس فيهم شيءٌ من صفات الألوهية البتة، ثم تصديق ما صح من أخبارهم والعمل بشريعة خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

(٥) الإيمان باليوم الآخر: ويشمل الإيمان بكل ما جاء في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ الصحيحة، مما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذابه أو نعيمه،

---

(١) انظر: جامع البيان (٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، أبي الفداء، إسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة ـ الرياض، الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ ١٩٩٧م) (٣/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

والبعث بعد النفخ في الصُّور، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

(٦) الإيمان بالقَدَر خيره وشَرِّه، حلوه ومُرِّه، وذلك يتضمَّن الاعتقاد الجازم بعلمه سبحانه بالكائنات، ذواتها وصفاتها وحركاتها، جملةً وتفصيلًا، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وهو خالِق كل شيء، والعباد فاعلون حقيقةً، مختارون حقيقةً، والله خالقهم وخالِقُ قدرتهم وإرادتهم، كما قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

وتفاصيل هذه الأركان والأصول العظام معلومة موجودة في كتب أهل الإسلام، وهي - بحمد الله - عقائد متينة، لا تفاوُت فيها ولا خلل، ولا تناقض ولا اضطراب، موافقةٌ للفِطَر السليمة، والعقول المستقيمة، عباراتها بيِّنة، ودلالتها واضحة، يقبلها العاميُّ البسيط، ولا يشبع منها العالم المحيط.

ومباني الإسلام العملية خمسة:

(١) الشهادتان: المُعبَّر عنهما باللسان لقصد الاستعلان، فمَن أقرَّ بهما صار مسلمًا حُكمًا، ثم لزمته بقية خصال الإسلام، ومن لم يتلفَّظ بهما لم يدخل في عقد الإسلام، وهما أساس صحة سائر الأعمال وشرط قبولها، فشهادة أن لا إله إلا الله تدل على الإخلاص، كما في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[(١)]، وشهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي كمال المتابعة؛ لقوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ)[(٢)]، وفي رواية: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ)[(٣)]، فلا يمكن لأحدٍ كائنًا من كان أن يرفع شيئًا أو يضع شيئًا في دين الله، كما صنع اليهود

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٨٩).
(٢) صحيح البخاري: (٣/ ١٦٧)، صحيح مسلم: (٣/ ١٣٤٣).
(٣) صحيح مسلم: (٣/ ١٣٤٤).

والنصارى في أديانهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فيُحِلُّون لهم ما حرَّم الله عليهم، ويحرِّمون عليهم ما أحلَّ الله لهم[١]، فدين الإسلام مبنيٌّ على الاتباع لا على الابتداع، كما أنه مبني على الإخلاص لا على الشرك.

(٢) إقام الصلاة: وهي خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، في أوقاتها وهيئاتها الشرعية.

(٣) إيتاء الزكاة المقدَّرة شرعًا في الأموال الزكوية إلى مستحقيها.

(٤) صوم رمضان من كل عامٍ بالإمساك عن المُفطِرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(٥) حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا مرة في العمر.

فمن أتى بهذه الأركان الخمسة صار مسلمًا حقًّا، واستحق الجنة.

ويلتحق بكل واحدٍ من هذه العبادات الواجبة تطوُّعٌ من جنسها، لمن كان لديه نهمة في العبادة، ورغبة في التزوُّد من العمل الصالح.

والعبادات في الإسلام مبنية على اليسر والتخفيف ورَفْع الحرج، بخلاف ما عليه اليهود من إفراطٍ وتشديد، وما عليه النصارى من تفريط وتساهُل.

فالضرورات تبيح المحظورات، والمشقة تجلب التيسير، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وأما الإحسان فوصفٌ يدل على إتقان العبادة، والنصح فيها، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، كما لو كان العابد يرى معبوده تُجاهه، أو يستشعر رؤيته إياه، قال ابن رجب رحمه الله: (فقوله ﷺ في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله

---

(١) انظر: جامع البيان: (١٠/ ١١٣ ـ ١١٥).

كأنك تراه... إلخ» يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي: استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف، والهيبة والتعظيم... ويوجب أيضًا النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها)[1]، وتفاصيل هذه العبادات وأحكامها وآدابها مبثوثة في كتب الفقه ودواوين السنة.

كما تضمَّنَت الشريعة الإسلامية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تنظيمًا دقيقًا لأحكام المعاملات والعقود والولايات التي تتناول جميع الجوانب الشخصية والاجتماعية والمالية والسياسية للفرد والأمة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، فليس الإسلام مقتصرًا على النُّسُك الخاص كما هو الحال في النصرانية المحرَّفة، بل يتناول جميع مجالات الحياة المختلفة لتحقيق العبودية التامة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]، فلا فصل بين الدين والدنيا، ولا بين الدنيا والآخرة، وليس ثَمَّ إلا حكم الله أو حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

ومن أصول الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال؛ من الصدق والعفاف، والصلة والعفو، وحسن الجوار، والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وفي الرقاب، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام.

وفي سبيل تحقيق هذه المقاصد العظام شرع الله لعباده الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وجعل ذلك شارة مميزة لهذه الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فرسوله ﷺ للناس

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٦).

جميعًا، ورسالته للناس كافة، وأمَّته تعلِّم الناس الخير، فليس في الإسلام «شعب مختار» منكفئٌ على نفسه، ولا «رهبانية» مبتدَعة سلبية، بل هو الأمر والنهي، والدعوة والتعليم، حتى إذا حِيلَ بين هذه الأمة وتبليغ رسالة ربها، وخُشِي أن تكون فتنة، فهو الجهاد في سبيل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ [الأنفال].

وقد صدق الله وعده، فأظهر دينه على الدين كله بالحجة والبيان، والسيف والسنان على يد صحابة رسوله الكرام، فلم يكد ينقضي قرنهم حتى كان الإسلام قد بلغ الصين شرقًا وبلاد الغال «فرنسا» غربًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

ثم لم يَزَلْ حال أهله يعلو ويهبط، بحسب تمسُّكهم بحبل الله، والتزامهم بشرعه، وفقًا للناموس الرباني المطرد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

المبحث الثاني
أهل الكتاب

ورد هذا المصطلح «أهل الكتاب» في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، على سبيل الخبر أو الطلب، وورد مثل هذا العدد بلفظ «الإيتاء» بتصرفاته المختلفة، مثل: «أوتوا الكتاب»، «آتيناهم الكتاب»، ونحوها، وفي أربعة مواضع بلفظ «الميراث» مثل: «أورثوا الكتاب»، فضلًا عن المواضع الكثيرة التي يعبَّر عنهم بأسمائهم الخاصة، ومجموع ذلك يدل على العناية التامة التي أوْلاها الإسلام لدعوة أهل الكتاب، كيف لا وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

فمَن هم «أهل الكتاب» الذين يتناولهم هذا اللفظ بأخباره وأحكامه؟

قال ابن جرير[(١)] رحمه الله: (يعني تعالى ذكره بقوله: «يا أهل الكتاب»: يا أهل التوراة والإنجيل)[(٢)]. وقال أيضًا: (عنى بقوله: «يا أهل الكتاب»: أهل الكتابين؛ لأنهما جميعًا من أهل الكتاب، ولم يَخْصُصْ جل ثناؤه بقوله: «يا أهل الكتاب» بعضًا دون بعض، فليس بأن يكون موجهًا ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه، بأن يكون موجَّهًا إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأوْلى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة؛ وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر؛ لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح، فالواجب أن يكون كل كتابي معنيًّا به... وأهل

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، وُلِد سنة ٢٢٤هـ في آمل طبرستان، واستوطن بغداد، إمام في التفسير والتاريخ، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل علىٰ علم غزير وتحقيق، اهـ له «جامع البيان في تفسير القرآن»، و«أخبار الرسل والملوك» وغيرها، توفي سنة ٣١٠هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٦٩)، إرشاد الأريب (٦/ ٤٢٣)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٣٥١)، الوفيات (١/ ٤٥٦)، طبقات السبكي (٢/ ١٣٥)، مفتاح السعادة (١/ ٢٠٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٣/ ٣٠٤).

الكتاب يَعُمُّ أهل التوراة وأهل الإنجيل، فكان معلومًا بذلك أنه عُني به الفريقان جميعًا)[١].

فأهل الكتاب إذًا هم اليهود والنصارى، وهذا أمر واضح متقرِّر لدى جميع المفسرين، ويزيد الأمر وضوحًا إضافة «الكتاب» إلى هاتين الطائفتين خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام]، قال ابن جرير رحمه الله: (فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد، لئلا يقول المشركون: لم ينزل علينا كتاب فنتبعه، ولم نُؤْمَر، ولم نُنْهَ، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر؛ إذ لم يأتِ من الله كتاب ولا رسول، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا، فإنهما: اليهود والنصارى. وكذلك قال أهل التأويل)[٢]، ثم روى بسنده عن ابن عباس[٣] ومجاهد[٤] وقتادة[٥] والسدي[٦] نحوه، وهذه القَبْلية المتقرِّرة لدى المشركين بشأن طائفتَيْ

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣).

(٢) جامع البيان: (٨/ ٩٣).

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الإمام البحر الحبر، ابن عم رسول الله ﷺ، ولِدَ وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث، دعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، كان يُلقَّب بحبر هذه الأمة، وقال فيه ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، مات بالطائف سنة ٦٨هـ رضي الله عنهما وأرضاه، الأعلام (٤/ ٩٥)، الإصابة ت (٤٧٧٢)، صفة الصفوة (١/ ٣١٤)، حلية الأولياء (١/ ٣١٤)، ذيل المذيل (٢١).

(٤) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، وُلِد سنة (٢١هـ) ويُعَدُّ من كبار التابعين، من الأئمة المفسرين، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٤هـ). الأعلام (٥/ ٢٧٨)، صفة الصفوة (٢/ ١١٧)، ميزان الاعتدال (٣/ ٩)، حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)، غاية النهاية (٢/ ٤١).

(٥) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، مات سنة مئة وبضع عشرة سنة، تقريب التهذيب (٢/ ١٢٣).

(٦) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد الكوفي، صدوق يهم، ورُمِي بالتشيع، مات سنة مئة وسبع وعشرين، تقريب التهذيب (١/ ٧٢).

أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، هي القَبْلية المذكورة في حديث أبي سعيد الخدري[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سَنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍّ خَرِبٍ لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٢].

وإطلاق مصطلح «أهل الكتاب»، وإرادة اليهود والنصارى بذلك خاصة مستفيضٌ في السنة المطهرة، ومن شواهد ذلك:

(١) ما روى البخاري[٣] عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثلكم ومثل أهل الكتابين، كمثل رجل استأجر أُجَراء، فقال: من يعمل لي من غُدوةٍ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملًا وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء»[٤].

(٢) وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا

---

(١) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، من الملازمين للنبي ﷺ، توفي سنة ٧٤هـ، الأعلام (٣/ ٨٧)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٧٩)، صفة الصفوة (١/ ٢٩٩)، حلية الأولياء (١/ ٣٦٩).

(٢) رواه البخاري: (٨/ ١٥١)، ومسلم: (٤/ ٢٠٥٤).

(٣) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب «الجامع الصحيح»، وُلِد عام ١٩٤هـ في بخارى، وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠هـ في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وله من التصانيف: «التاريخ الكبير»، و«خلق أفعال العباد»، و«الأدب المفرد»، و«جزء القراءة خلف الإمام» وغيرها، وكتابه الصحيح انتقاه من ستمئة ألف حديث يحفظها، وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ، الأعلام (٦/ ٣٤)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٢٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٧)، وفيات الأعيان (١/ ٤٥٥)، تاريخ بغداد (٢/ ٤ ـ ٣٦)، طبقات السبكي (٢/ ٢).

(٤) صحيح البخاري: (٣/ ٤٩ ـ ٥٠).

غفرانك ربنا وإليك المصير... الحديث»[١].

(٣) وفي مسند الإمام أحمد[٢] عن زياد بن لبيد[٣] ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا أوان ذهاب العلم -قال شعبة: أو قال: هذا أوان انقطاع العلم- فقلت: وكيف وفينا كتاب الله، نعلِّمه أبناءنا، ويعلِّمه أبناؤهم أبناءهم؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد! ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل المدينة، أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله تعالى؟ قال شعبة[٤]: أو قال: أليس اليهود والنصارى فيهم التوراة والإنجيل ثم لم ينتفعوا منه بشيء؟ أو قال: أليس اليهود والنصارى أو أهل الكتاب -شعبة يقول ذلك- فيهم كتاب الله عزَّ وجلَّ؟»[٥].

(٤) وفي سنن أبي داود[٦] عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فِرقة، وتفرَّقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فِرقة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقة»، ثم رواه

(١) صحيح مسلم: (١/ ١١٥).

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، الإمام الحافظ المحدث الفقيه أحد الأئمة الأربعة، وُلِد سنة ١٦٤هـ ببغداد، وسافر في طلب الحديث، امتحن في فتنة القول بخلق القرآن، فثبت، وأوذي فصبر، وأعز الله به السنة، من مصنفاته: «المسند»، و«فضائل الصحابة»، و«الزهد»، و«الأشربة» وغيرها، توفي سنة ٢٤١هـ. الأعلام (١/ ٢٠٣)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، صفة الصفوة (٢/ ١٩٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٥)، تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢).

(٣) زياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي شهد بدرًا، وكان عاملًا على حضرموت لما مات النبي ﷺ، مات سنة إحدى وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٢٧٠).

(٤) شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي، مولاهم، أبو بسطام الواسطي، ثم البصري، ثقة حافظ متقن، كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة، وكان عابدًا، مات سنة مئة وستين. تقريب التهذيب (١/ ٣٥١).

(٥) المسند: (٤/ ٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: (٢/ ٣٧٧).

(٦) سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، ورحل رحلة كبيرة في طلب الحديث، وتوفي بالبصرة، من تصانيفه: «السنن»، و«المراسيل»، و«الزهد»، وهو من تلاميذ الإمام أحمد، وله عنه «مسائل»، توفي سنة ٢٧٥هـ. الأعلام (٣/ ١٢٢)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٥٢)، تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٤٤)، تاريخ بغداد (٩/ ٥٥)، وفيات الأعيان (١/ ٢١٤)، الذريعة (١/ ٣١٦).

من حديث معاوية[١] بن أبي سفيان بلفظ: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا، فقال: «ألا إنَّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين مِلّة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»[٢].

وعند أحمد من حديث معاوية رضي الله عنه أيضًا، قال: «إن أهل الكتابين... الحديث»[٣].

فتبيَّن بهذا أن الله سبحانه سمَّى «اليهود» و«النصارى» «أهل الكتاب»، ولم يُسَمِّهم «مسلمين»، وذلك لرغبتهم عن ملة إبراهيم «الإسلام» ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]، قال ابن جرير رحمه الله: (عنىٰ الله بذلك اليهود والنصارىٰ؛ لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية علىٰ الإسلام؛ لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالىٰ ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ـ ثم ساق بسنده عن قتادة ـ: رغب عن مِلَّته اليهود والنصارىٰ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم، يعني الإسلام حنيفًا، كذلك بعث الله نبيه محمدًا ﷺ بملة إبراهيم. وعن الربيع بن أنس[٤] مثله)[٥].

---

(١) معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية، الأموي أبو عبد الرحمن، الخليفة، صحابي، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي، ومات في رجب سنة ستين وقد قارب الثمانين، رضي الله عنه وأرضاه. تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٩).

(٢) سنن أبي داود: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٨هـ، (٥/ ٤ ـ ٦).

(٣) المسند: (٤/ ١٠٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٠٤) وجمع طرقه وشواهده.

(٤) الربيع بن أنس البكري، أو الحنفي، بصري، نزل خرسان، صدوق له أوهام، رمي بالتشيع، مات سنة مئة وأربعين أو قبلها. تقريب التهذيب (١/ ٢٤٣).

(٥) جامع البيان: (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩).

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا بمسلمين، ولا يشملهم وصف الإسلام؛ لمفارقتهم ما كان عليه أنبياؤهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وقد زعم بعض المتأخرين المداهنين لأهل الكتاب، الداعين إلى التقارب معهم، أنهم مؤمنون، وأنه يسعهم ـ فيما بينهم وبين ربهم ـ البقاء على دينهم، والعمل بما في أيديهم من كتب، وأنه لا يلزمهم الدخول في الإسلام، والإيمان برسالة محمدٍ ﷺ[1]، وشبَّهوا ببضع آيات، وهي:

- قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَٰخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧].

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ﴾ [المائدة: ٦٦].

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ [المائدة: ٦٨].

والجواب عن ذلك يسير بحمد الله:

- فأما آية البقرة وما شابهها فللمفسرين فيها ثلاثة مسالك:

الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير رحمه الله: (كان يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وعد مَن عمل صالحًا من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنةَ، ثم نسخ ذلك بقوله: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ»)[2].

---

(١) سيرد ذكر مقالاتهم في مبحث «الإسلاميون العصرانيون» من الباب الأول.

(٢) جامع البيان: (١/ ٣٢٣).

الثاني: أن معنى القيد في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أن: (إيمان اليهود والنصارى والصابئين التصديقُ بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمد، وبما جاء به، وباليوم الآخر، ويعمل صالحًا، فلم يبدِّل ولم يغيِّر حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله، وأجره عند ربه)[١]، واستظهره ابن جرير[٢].

الثالث: أن الآية تتناول مَن كان قبل بعثة نبينا محمدٍ ﷺ وحسب، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي[٣] رحمه الله: (الصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم... وذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمَّهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبيِّن مَن لا يلحقه الذم منهم بوصفه)[٤].

ولم يرَ ابن كثير[٥] رحمه الله منافاةً بين هذه المسالك: (فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحدٍ طريقةً ولا عملًا إلا ما كان موافقًا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع

---

(١) جامع البيان: (١/ ٣٢٠).

(٢) جامع البيان: (١/ ٣٢٤).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ)، التميمي، مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد، مولده ووفاته في عنيزة بالقصيم، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة ١٣٥٨هـ، له نحو ثلاثين كتابًا، منها: «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، و«طريق الوصول إلىٰ العلم المأمول»، و«توضيح الكافية الشافية لابن القيم» وغيرها. الأعلام (٣/ ٣٤٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعيدية، الرياض ـ السعودية، مطابع الدجوي ـ القاهرة طبعة عام (١٣٩٦هـ ١٩٧٦م)، (١/ ٩٣).

(٥) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه محدث، وُلِد سنة (٧٠١هـ) في قرية من أعمال بصرىٰ، ثم انتقل إلىٰ دمشق، ورحل في طلب العلم، من تصانيفه «البداية والنهاية» و«شرح صحيح البخاري» ولم يكمله، وتفسير القرآن العظيم و«جامع المسانيد والسنن» وغيرها، توفي عام ٧٧٤هـ. الأعلام (١/ ٣٢٠)، الدرر الكامنة (١/ ٣٧٣)، البدر الطالع (١/ ١٥٣)، (٢٥٨٢)، شذرات الذهب (٦/ ٢٣١)، آداب اللغة (٣/ ١٩٣).

الرسول في زمانه فهو على هدًى وسبيل نجاة)[١].

● وأما قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧] فتوجيهه على القراءتين في (وليحكم).

(«وَلِيحْكُمَ» بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل فيه هدًى ونور لِيحكمَ أهل مِلَّته به في زمانهم، وقُرِئ: «وَلْيَحْكُمْ» بالجزم، اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أُمِرُوا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمدٍ ﷺ، والأمر باتِّباعه وتصديقه إذا وُجد)[٢].

● وأما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾... الآية، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾... الآية [المائدة: ٦٦، ٦٨] فإن المراد بـ: «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ/ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ»: (ما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمدٍ ﷺ وتصديقه، وتُقِرُّوا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذبوا بشيءٍ منه، ولا تفرقوا بين رسل الله، فتؤمنوا ببعضٍ وتكفروا ببعض، فإن الكفر بواحدٍ من ذلك كفر بجميعه؛ لأن كتب الله يصدِّق بعضها بعضًا، فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها)[٣].

فلم يبقَ بحمد الله مُستمسَك للذين يريدون أن يفرِّقوا دين الله، أو يفرِّقوا بين رسل الله، ويكونوا شِيَعًا، ثم ينادي بعضهم بالتقريب بين الأديان، فدين الله واحد، ووحدته وتوحيده باتباع ما جاء به الرسول الخاتم ﷺ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨٥)، وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: د. علي بن حسن ناصر، د. عبد العزيز العسكر، د. حمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ، (٣/ ١٢١ ـ ١٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٢٦)، وانظر: جامع البيان: (٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٣) جامع البيان: (٦/ ٣٠٩).

ويَحسُن في هذا المقام أن ننبِّه على ثلاث شُبَه تتعلَّق بمدلول «أهل الكتاب».

الشبهة الأولى: أن اليهود والنصارى، أو معظمهم ـ على الأقل ـ لا يستحقون اليوم وصف «أهل الكتاب»؛ إذ قد هجروا دينهم وغيَّروا وبدَّلوا، وليسوا كأهل الكتاب وقت تنزُّل القرآن، وناتج هذه المقدمة أنه لا تجري على المنتسبين إلى هاتين المِلَّتَيْن الأحكام العلمية والعملية المتعلقة بأهل الكتاب.

والجواب: أن هذه دعوى باطلة، فإن انحرافهم عن كتاب ربهم وتغييرهم له وتحريفهم الكَلِم عن مواضعه سابق لإطلاق هذا الوصف عليهم، فإن الله تعالى الذي أباح للمسلمين ذبائحهم والمحصَنات من نسائهم، بوصفهم أهل الكتاب في صدر سورة المائدة بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة] هو الذي أكْفَرَهم بعدها ببضع آيات بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، وبقوله في نفس السورة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وحكى عنهم في آخرها مقالة الكفر في خطابه لنبيه عيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الحال بالنسبة لليهود، وقد لعنهم الله في هذه السورة بنفسه، وعلىٰ لسان أنبيائه، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾ [المائدة]، وحكىٰ عنهم فيها مقالة السوء والكفر، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكانت سورة المائدة من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، وأما إخلالهم

اليوم بشرائع دينهم، وهَجْرهم لأحكام كتبهم، فإنه قديم فيهم، وليس حادثًا، فقد كانوا يتحايلون على أحكام التوراة ووصايا الأنبياء، ومع ذلك استحقُّوا هذا الاسم، فلا يزول عنهم لمجرد تماديهم في الكفر والفسوق والعصيان.

وجماع القول: أن القوم ما داموا ينتسبون إلى أديانهم، ويُظهرون تعظيم أنبيائهم، وبِيَعِهم، وكنائسهم، ويحتفلون بأعيادهم الدينية، وغير ذلك من شعائرهم الظاهرة، وتقاليدهم الدينية الخاصة، فهم «أهل الكتاب» الذين عنى الله بكتابه، ورسوله ﷺ في سنته، فتتعلق بهم أحكام أهل الكتاب العلمية والعملية، ولا يزول هذا الوصف عن جملتهم وآحادهم إلا إذا فارقوا ذلك بإيمانٍ بالله ورسوله ﷺ، فيكونون من جملة المسلمين، أو تحوُّلٍ إلى مِلَّةٍ من المِلَل الإلحادية أو الوثنية، سوى اليهودية والنصرانية، فحينئذٍ تجري عليهم أحكام سائر المشركين والملحدين، وتزول عنهم خاصية «أهل الكتاب».

الشبهة الثانية: تتعلَّق بالنصارى خاصة، ومفادها: أن النصارى المذكورين في القرآن، المشمولين بوصف «أهل الكتاب»، ليسوا هم «نصارى اليوم»، بل هم فِرقة تاريخية خارجة عن النصرانية الرسمية التي أقرَّها مجمع نيقية عام ٣٢٥م، وبالتالي فنصارى اليوم غير معنيِّين بأحكام الكفر والغلو والضلال التي دمغ القرآن بها تلك الفِرقة، ولا تنسحب عليهم آثارها.

ويُروِّج لهذه الشبهة بعض دعاة التقارب والحوار من النصارى العرب خاصة، وربما تابَعَهم عليها بعض المنتسبين إلى الإسلام، والحق أنه لا فرق بين النصارى المذمومين في القرآن، ونصارى اليوم البتة مهما تمحَّل هؤلاء وتحذلقوا بالألفاظ، فالحقائق واحدة، وعقائدهم متطابقة[1].

الشبهة الثالثة: أن مصطلح «أهل الكتاب» يشمل المسلمين أيضًا، بناءً على أن الكتاب إذا أُطلق في القرآن يُقصَد به كل كتاب جاء من عند الله، ومراد

(١) سيرد ذكر مزاعم هؤلاء النصارىٰ ومناقشتها في مبحث «النصارىٰ العرب» في الباب الأول.

القائلين بذلك مؤانسة اليهود والنصارى بالاندماج معهم في هذا الوصف تحقيقًا للتقارب؛ لإقامة جبهة «أهل الكتاب» في وجه الإلحاد[١].

ولا ريب أنه قولٌ ساقط متهافت شاذٌّ لم يُسبَق إليه قائله، ولا يغيِّر شيئًا من ثوابت الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

فكما تجب المحافظة على الألفاظ الشرعية، ويحرُم العدول عنها إلى مصطلحات حادثة، تجب المحافظة على مدلولاتها التي أرادها الشارع، فلا يُدخَل فيها ما ليس منها، ولا يُخرَج منها ما هو منها بأنواع التعطيل والتحريف.

وحتى تستبين سبيل أهل الكتاب، من يهودٍ ونصارى، وأنها مجافية لسبيل المؤمنين، راغبةٌ عن مِلَّة إبراهيم، نقدم تعريفًا باليهودية والنصرانية من حيث هما ديانتان فقط، دون الاستطراد في الجوانب التاريخية، إلا ما دعت إليه الحاجة؛ لمقارنتهما بدين الإسلام الذي جاءت به الرسل.

---

(١) سيرد ذكر هذه الدعوىٰ في مبحث «الإسلاميون العصرانيون» في الباب الأول.

اليهودية

بعث الله نبيه موسى عليه السلام لغايتين:

إحداهما: دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده۞ وموعظته وهدايته.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات]، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

الثانية: تخليص بني إسرائيل من أذى فرعون وقومه، وقيادتهم وهدايتهم.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم].

فأما المهمة الأولى فقد جرى في سبيلها مواقف مشهودة، انتهت بإغراق فرعون وقومه بعد عنادهم واستكبارهم وجَحْدِهم آيات الله، وقد استيقنتها أنفسهم.

وأما المهمة الثانية: فقد تمَّت بآية باهرة، ومِنَّة عظيمة على بني إسرائيل حين فَرق بهم البحر، فكان كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم، وتحقَّق مراد الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا

كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ *﴾ [الأعراف].

ولكن هذه الأمة المنعتِقة لتَوِّها من نير العبودية والاستذلال لم تفقه الحكمة، ولم تشكر النعمة، ولم تَعِ حقيقة التوحيد التي جاء بها نبيها عليه السلام، ففاجؤوه بجملة من الاقتراحات الكفرية، والأفعال الشركية، والتمرد على طاعة الله:

- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف].

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥]، ولما قال لهم نبيهم:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة].

موقف اليهود من التوراة:

تلك حال أسلاف هذه الأمة المغضوب عليها؛ من الكفر بالله، وسوء الأدب معه، وأذية نبيه الذي كتب الله نجاتهم من عدوِّهم على يديه، ولكن المصيبة الأعظم التي مُنِيَت بها هذه الأمة المغضوب عليها، وتجاوَز أثرها ذلك الجيل إلى كل يهودي في الأرض ـ إلا مَن رحم الله ـ موقفهم من كتاب الله ووحيه الذي به العصمة والنجاة، والهدى والنور، قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾

[الأعراف: ١٤٥] ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] فكان موقف أسلافهم الذين عاينوا الآيات البينات الرفض والعصيان:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف] فلم يرفعوا بذلك رأسًا، ولم يقبلوا هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله، وسلك خُلُوفهم مسالك شتىٰ في الحيدة عن هدىٰ الله منها:

● تحريف الكلم عن مواضعه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، فوقع التحريف منهم في التأويل، وهو الأكثر، وفي التنزيل بزيادة ألفاظٍ أو تبديلها بغيرها(١).

● كتمان ما أنزل الله وإخفاؤه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة] ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

● التحايل على شرع الله بوجوه الحِيَل للتخلُّص منه: وهم أئمة هذا المسلك الدنيء، ولهم فيه أفعال مشينة، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق وتعليق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت ـ مكتبة الخاني ـ الرياض، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٧هـ ١٩٨٧م)، (٢/ ٤٨٠ ـ ٤٩٦).

فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «قاتَلَ الله يهود؛ حُرِّمَت عليهم الشحوم، فجَمَلوها، فباعوها ـ وفي رواية ـ: وأكلوا أثمانها»[(١)]، جملوها أي: أذابوها.

وهذا مُشابِه لما فعله أسلافهم «أصحاب السبت» الذين مسخهم الله قردة وخنازير، لمَّا حرَّم عليهم الصيد يوم السبت، فاحتالوا على صيد الحيتان يوم السبت، ولم يأكلوها إلا ليلة الأحد[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟

---

(١) رواه البخاري: (٣/ ٤٠)، ورواه مسلم: (٣/ ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨)، ومن حيلهم المسِفَّة التي وصفها أحدهم للتحايل علىٰ تحريم الحلب يوم السبت، فقال: (رأىٰ الحاخامات الصهاينة أن الحلب الممنوع يصبح مباحًا إذا لم يكن الحليب أبيضَ وصبغ باللون الأزرق، وهذا الحلب السبتي الأزرق يخصص لصناعة الجبن حصرًا، ويغسل الصباغ الأزرق بالمصل، وابتدع الحاخامون غير الصهاينة حيلةً أكثر مكرًا، شاهدت بنفسي إجراءها في أحد الكيبوتزات الدينية ـ أي المستوطنات التي أقاموها في فلسطين ـ عام ١٩٥٢م؛ اكتشفوا حكمًا قديمًا يسمح بإفراغ ضروع البقرة يوم السبت بغرض تخفيف معاناة البقر من امتلاء ضروعها، بشرط أن يسيل الحليب علىٰ الأرض ويهمل، والآن ما الذي يجري فعلًا؟ صباح السبت يذهب أحد المتدينين في الكيبوتز إلىٰ حظيرة الأبقار، ويضع الدلاء تحت البقرة..، ثم يذهب إلىٰ الكنيس ليصلي، فيأتي زميلٌ له معتزمًا «بحسن نية» تخفيف معاناة الأبقار، بجعل حليبها يسيل علىٰ الأرض، فإذا وجد بالصدفة، دلاءً تحت الأبقار، فهل هو ملزم بإزاحتها؟ بالطبع لا، ولذلك يتجاهل الدلاء ويؤدي مهمته الرحيمة ويذهب إلىٰ الكنيس، وختامًا يأتي ثالث من زملائه المتدينين إلىٰ حظيرة الأبقار، ويكتشف، مندهشًا، الدلاء الملأىٰ بالحليب، فيضعها في برَّاد، ويلتحق برفاقه في الكنيس، الأمر كله جيد الآن، ولا حاجة لتبديد الأموال لشراء الصباغ الأزرق)، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة: للكاتب اليهودي: إسرائيل شاحاك ترجمة: صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م، (٦٩)، وقد ذكر أمثلة عجيبة لتحايلهم علىٰ شرائعهم. انظر أيضًا: (٧٨ ـ ٧٩).

(٢) انظر جامع البيان: (٩/ ٩٠ ـ ١٠١).

عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

● هَجْر العمل به: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

● الاستعاضة عنه بغيره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

الكتب المقدسة عند اليهود:

١ ـ توراة «عزرا»:

قد كان للأحداث التاريخية التي عصفت باليهود من بعد موسىٰ عليه السلام أثر بالغ في ضياع التوراة، ثم محاولة صياغتها من جديد، ثم استحداث كتبٍ أخرىٰ تُزاحِمها في المنزلة حتىٰ فاقتها، يقول السموأل بن يحيىٰ[(١)]، الذي كان من أحبار اليهود ثم اهتدىٰ إلىٰ الإسلام في القرن السادس الهجري: (ذكر السبب في تبديل التوراة، علماؤهم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم لا يعتقد أحدٌ من علمائهم وأحبارهم أنها المُنزَّلة علىٰ موسىٰ البتة؛ لأن موسىٰ صان التوراة عن بني إسرائيل، ولم يَبُثَّها فيهم، وإنما سلَّمها إلىٰ عشيرته أولاد ليوىٰ... وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم؛ لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم، ولم يَبْذُل موسىٰ من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة[(٢)]... فأما بقية التوراة فدفعها إلىٰ أولاد هارون، وجعلها فيهم،

(١) كان اسمه رحمه الله شموائيل بن يهوذا بن أبوان، وكان والده من فاس وأمه من البصرة، وكلاهما من علماء اليهود، وقد اشتغل في صباه بعلوم الآلة والمنطق والرياضيات، ثم قرأ التواريخ فقاده ذلك إلىٰ التفكر في المذاهب والأديان، فقرأ القرآن، فبهرته فصاحته، ورأىٰ النبي ﷺ مرتين في المنام فأسلم، وحسن إسلامه، وصنَّف «إفحام اليهود» توفي رحمه الله سنة ٥٧٠هـ. انظر قصته في كتابه المذكور آنفًا: (٧٤ـ٧٥).

(٢) لعل المراد نصف سورة من نسخة التوراة المكتوبة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

وصانها عن سواهم، وهؤلاء الأئمة الهارونيون الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قتلهم «بخت نصَّر»[١] علىٰ دمٍ واحد يوم فتح بيت المقدس، ولم يكن حِفْظُ التوراة فرضًا ولا سنة، بل كان كُل واحدٍ من الهارونيين يحفظ فصلًا من التوراة.

فلما رأىٰ «عزرا»[٢] أن القوم قد أُحرِق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرَّق جمعهم، ورُفِع كتابهم، جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفَّق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن... فهذه التوراة التي بأيديهم ـ علىٰ الحقيقة ـ كتاب عزرا، وليس كتاب الله[٣].

لقد سبق السموأل بن يحيىٰ المغربي الباحثين الغربيين بقرابة تسعة قرون في الإفصاح عن هذه الحقيقة، فقد ظل اليهود والنصارىٰ يعتقدون لقرونٍ طويلة أن موسىٰ هو كاتب التوراة، ولكن هذا الاعتقاد الموروث قد تداعىٰ تحت مطارق النقد الحديث، يقول الدكتور موريس بوكاي[٤]: (أما اليوم فقد هُجِر هذا

مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ *﴾ [الأعراف:١٥٤]، وأما تبليغ الرسالة فقد جرىٰ كاملًا ولا ريب، ولم يكتم شيئًا منه عليه السلام، حاشا رسل الله من الكتمان: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الأحزاب:٣٩] قال تعالىٰ: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *﴾﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *﴾ [الجن:٢٧].

(١) بخت نصَّر/ أو نبوخذ نصَّر: ملك كلداني بابلي، اجتاح دولة يهوذا، ودمّر أورشليم ونهب الهيكل سنة ٥٨٦ق.م، وأهلك الكثير من سكانها، واستاق الناجين إلىٰ بابل، فيما عرف بالسبي البابلي. انظر: العهد القديم، سفر الأخبار الثاني (٨٣٠).

(٢) عزرا: كاهن وكاتب يهودي، ظهر في فترة السبي البابلي، عاصر عفو الملك الفارسي «قورش» عن اليهود، وإذنه لهم بالعودة لفلسطين، وكان له دورٌ بارز في تنظيم اليهود، وجمع شملهم، وعزلهم عن باقي الشعوب، وإعادة شريعتهم. انظر: العهد القديم، سفر عزرا (٨٤٧ـ٨٥٣).

(٣) إفحام اليهود، للسموأل بن يحيىٰ المغربي تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) (١٣٥ ـ ١٤٠).

(٤) كاتب وطبيب فرنسي معاصر، كان كاثوليكيًّا، عاش فترة شبابه في المغرب إبان الاحتلال الفرنسي،

الفرض تمامًا)[١]، ثم ذكر بعض الدراسات النقدية الجادة التي قام بها المتخصِّصون، وخلص إلىٰ النتيجة التالية: (بهذا إذًا يمتدُّ تحرير نص أسفار موسىٰ الخمسة علىٰ ثلاثة قرون بأقل تقدير... وبهذا يتَّضح تكوُّن أسفار موسىٰ الخمسة من أقوالٍ موروثة مختلفة، جمعها بشكل يقل أو يزيد حذفًا[٢] محرِّرون وضعوا تارةً ما جمعوا جنبًا إلىٰ جنب، وطورًا غيَّروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركَّبة، تاركين للعين أمورًا غير معقولة، وأخرىٰ متناثرة، كان من شأنها أن قادت المُحدَثين إلىٰ البحث الموضوعي عن المصادر)[٣]، ويكفي أن تلك الأسفار المنسوبة إلىٰ موسىٰ عليه السلام قد خُتِمَت بحكاية وفاة موسىٰ نفسه[٤].

ويقول العالم اليهودي باهليل سلفر في كتابه «موسىٰ والتوراة الأصلية»:

(حتىٰ الوصايا العشر[٥] التي يكاد يجمع العلماء علىٰ أنها الشيء الوحيد

اطلع علىٰ القرآن الكريم، وانبهر بما فيه من الآيات المتعلقة بالخلق والفَلَك والظواهر الكونية والإنسانية المطابقة للحقائق العلمية الحديثة، فاعتنق الإسلام عام ١٩٧٢ م في الرياض، وزار مكة والمدينة، وتعلم اللغة العربية، من مؤلفاته بعد إسلامه: (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) و(ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة). انظر التعريف به في كتاب: مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، د. محمد بن عبد الله السحيم، ج١ (٣٨٣ـ٤٠٦).

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د. موريس بوكاي، ترجمة: قسم الترجمة بالدار، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م، (٣٠).

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها: حذقا، وهي الأقرب للصواب، فقد وقعت في ترجمة أخرى (وهكذا ظهرت الأسفار الخمسة مشكلة من التقاليد المختلفة المجموعة بمهارة..)، ينظر: (ص٣٤) من الطبعة الثالثة للمكتب الإسلامي ببيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٣) المرجع السابق، (٣٣).

(٤) انظر: العهد القديم: دار المشرق ـ بيروت، توزيع: المكتبة الشرقية، جمعيات الكتاب المقدس في المشرق ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، (٤١٣ ـ ٤١٤)، سفر التثنية: (٣٤/ ١ ـ ١٢).

(٥) وردت هذه الوصايا في سفر التثنية (٥/ ١ ـ ٢٢)، العهد القديم: (٣٦٧ـ٣٦٨)، وملخصها:

- لا يكن لك آلهة أخرىٰ تجاهي.
- لا تصنع لك منحوتًا، أية صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لها، ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك إله غيور.

المتبقِّي من التوراة الأصلية لم تكن بكاملها، وعلىٰ هيئتها الحالية كالتي أتىٰ بها موسىٰ)[١].

فإذا كان هذا في «التوراة» التي عليها المعوَّل في الديانة اليهودية، فكيف بغيرها مما كتبه الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟ وأيُّ سند رباني لليهودية وقد اختلط كتابها، وصبَّت فيه روافد متعددة؟!

لقد تزعَّم «عزرا» حركة الكتابة هذه، ويصفه مؤلف (التوراة.. تاريخها وغاياتها) بأنه: (أول الكَتَبة، ومعه ابتدأت تلك الفئة من المؤلِّفين الذين «وضعوا» التوراة والشريعة الشفهية، والتي سيطرت لقرونٍ عديدة علىٰ عقول وجميع مقدرات اليهود، وكان للكَتَبة هؤلاء حزبٌ منظَّم هو حزب «الفريسيين»، وهم الذين حملوا فيما بعد اسم الحاخاميين، أي مُعلِّمُو الشريعة. تقول الموسوعة اليهودية أمام كلمة «كتبة»: (هم هيئة من المعلِّمين، كانت مهمتهم تفسير الشريعة للشعب، وقد ابتدأ تنظيمهم مع عزرا الذي كان رئيسهم، وهؤلاء الكتبة كانوا أول من علم التوراة، وهم واضعو الشريعة الشفهية)[٢].

٢ ـ العهد القديم:

- لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلًا.
- احفظ يوم السبت لتقديسه، كما أمرك الرب إلهك، فلا تصنع فيه عملًا.
- أكرم أباك وأمك.
- لا تقتل.
- لا تزنِ.
- لا تسرق.
- لا تشهد علىٰ قريبك شهادة زور.
- لا تشتهِ امرأة قريبك، ولا تشتهِ بيتَه ولا حقله ولا خادمه ولا خادمته ولا ثوره ولا حماره...).

(١) نقلًا من: اليهود تاريخ وعقيدة: (١٤٢).

(٢) التوراة، تاريخها وغاياتها، ترجمة وتعليق: سهيل ديب، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م)، (٤٧)، وقد نسبه إلىٰ لاهوتي أمريكي.

لقد تتابَع هؤلاء الكتبة علىٰ الإضافة إلىٰ التوراة، وإلحاق أسفار جديدة، حتىٰ تكوَّن لديهم ما يسمىٰ بـ«العهد القديم»، وصار يبلغ خمسة أضعاف الأسفار الخمسة الأولىٰ المنسوبة إلىٰ موسىٰ عليه السلام، والتي تؤرِّخ لبني إسرائيل حتىٰ سنة ٢٤٠٠ق.م، وتؤلِّف القسم الأول المسمىٰ: «أسفار الشريعة» أو «التوراة»، وهي: سفر التكوين، والخروج، الأحبار «اللاويين»، العدد، وتثنية الاشتراع، يتلوها أسفار تاريخية تبلغ ستة عشر سِفرًا تغطي تاريخ اليهود منذ دخولهم الأرض المقدسة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلىٰ السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، ثم سبعة أسفار تُعرف بكُتب الحكمة، تضم أشعارًا وأناشيد وأمثالًا، ثم ثمانية عشر سفرًا تُعرف بكتب الأنبياء، تغطي الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني قبل الميلاد[١].

لقد استغرق تدوين «العهد القديم» زمنًا طويلًا (يربو علىٰ تسعة قرون وبلغات مختلفة، واعتمادًا علىٰ التراث المنقول شفويًّا، وقد صُحِّحَت وأُكمِلت أكثرية هذه الأسفار بسبب أحداثٍ حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحيانًا... ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح، كما يرىٰ الكثيرون)[٢].

ولا يخفىٰ أن هذه المدة الطويلة، وما شهدته من أحداثٍ جسيمة تعرَّض لها بنو إسرائيل من داخلهم وخارجهم، قد حادت بهم عن نهج النبوة والدين الحق.

يقول السموأل بن يحيىٰ رحمه الله: (إن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها، وأخْذِها بلادها، انطمست حقائق سالِف أخبارها، واندرس قديم آثارها، وتعذَّر الوقوف عليها... وهذه الطائفة -بلا شك- أعظم الطوائف حظًّا مما ذكرناه؛ لأنها من أقدم الأمم عهدًا، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من

---

(١) انظر في دراسة هذه المجموعات ونقدها: القرآن والتوراة والإنجيل، موريس بوكاي (٢٠ ـ ٦٥) تاريخ بني إسرائيل، محمد عزة دروزة.

(٢) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، (٢٦ ـ ٢٨).

الكنعانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارىٰ والإسلام.

وما من هذه الأمم إلا مَن قصدهم أشد القصد، وطلب استئصالهم، وبالَغ في إحراق بلادهم، وإخرابها، وإحراق كتبهم[1]، إلا المسلمين، فإن الإسلام صادف اليهود تحت ذمة الفرس، ولم يبقَ لهم مدينة ولا جيش إلا العرب المتهودة بخيبر.

فالأشدُّ علىٰ اليهود من جميع هذه الممالك ما نالهم من ملوكهم العصاة... وغيرهم من الملوك الإسرائيليين، الذين قتلوا الأنبياء، وبالَغوا في تطلُّبهم ليقتلوهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنةً للأصنام لتعظيمها، وتعليم رسوم عبادتها، وابتنوا لها البِيَع العظيمة، والهياكل، وعكف علىٰ عبادتها الملوك ومعظم بني إسرائيل، وتركوا أحكام التوراة والشرع مدة طويلة، وأعصارًا متصلة، فإذا كان هذا تواتُر الآفات علىٰ شرعهم من قِبَل ملوكهم، ومنهم علىٰ أنفسهم، فما ظنك بالآفات المتفنِّنة التي تواتَرت عليهم من استيلاء الأمم فيما بعد عليهم، وقَتْل أئمتهم، وإحراق كتبهم، ومَنْعهم إياهم عن القيام بشعائرهم)[2].

---

(١) ذلك مصداق قضاء الله عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (الأعراف: ١٦٧)، ومن أشهر الحوادث التي وقعت عليهم في التاريخ:

- تسلط فرعون مصر «شيشنق» عليهم حتىٰ نهب أورشليم في حدود ٩٠٠ق.م.
- هجوم «سارجون» ملك الآشوريين عليهم، وقضاؤه علىٰ دولة يهوذا، وسبي بعض أهلها سنة ٧٢٢ق، م.
- هجوم «نبوخذ نصّر» ملك البابليين عليهم مرتين سنة ٥٩٨ق.م، ٥٨٦ق.م وتدمير أورشليم، وإحراق الهيكل، واستياق عشرات الألوف من اليهود أسرىٰ فيما عُرف بالسبي البابلي.
- تسلط السلوقيين والبطالسة عليهم في حدود سنة ٣٠٠ق.م.
- اضطهاد القائد الروماني «تيتوس» إياهم وتدمير أورشليم وحرق الهيكل، واسترقاقهم سنة ٧٠ق.م.
- تجدد الاضطهاد الروماني علىٰ يد تراجان ١١٦م، وهادريان ١٣١م وهيرقليدس.
- اضطهاد «يزدجرد» الثاني ملك الفرس إياهم سنة ٤٣٨م. انظر: اليهود تاريخ وعقيدة (١٨ ـ ٢٦).

(٢) إفحام اليهود، وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ، (١٤٣ ـ ١٤٥).

٣ ـ التلمود:

وإلىٰ جانب «العهد القديم» طوَّر حاخامات يهود عبر القرون تراثًا دينيًّا ضخمًا، يَعُدُّونه الأصل الثاني في ديانتهم، وإن كان في حقيقة الأمر هو محل عنايتهم وحفاوتهم ودرسهم، ذلك هو «التلمود»، ويعني بالعبرية «التعليم».

ويتكون التلمود -حسب دائرة المعارف اليهودية Jewish Encyclopaedia- من جذرين أساسيَّين:

أحدهما: المشناه: Mishnah وهي مجموع المرويات الشفهية المنسوبة إلىٰ موسىٰ عليه السلام التي يزعم الحاخامات أنهم تناقلوها جيلًا بعد جيل.

وقد شرع في تدوينها الحاخام «يوضاض» بعد المسيح بمئة وخمسين عامًا. ثم ضمَّها مع زيادات أُلْحِقَت بها الحاخام يهوذا هاناسي في حدود عام ٢٠٠م. ويحاول اليهودي المستعرب «موسىٰ بن ميمون» تنظير هذه المرويات بالسُّنَّة النبوية لدىٰ المسلمين، فيقول: (منذ أيام معلِّمنا موسىٰ حتىٰ حاخامنا المقدس يهوذا هاناسي لم يتفق أحدٌ من علماء اليهود علىٰ أي عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانيةً باسم «القانون الشفهي»، بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيُّه يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجِّهيه، لينقلها شفهيًّا إلىٰ شعبه... وهكذا تقدَّم الزمن حتىٰ أتىٰ حاخامنا المقدَّس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنَّة والأحكام والقرارات وشرح القانون المروي عن موسىٰ، ـ معلِّمنا ـ المأمور به في كل جيل)[1].

وقد قام الحاخام يهوذا هاناسي بتنسيق مدونات مئتي عالم يهودي يُعرفون باسم «تنائيم»، كتبوها لفترة تمتد من السنة العاشرة للميلاد حتىٰ نهاية القرن الثاني للميلاد، ويُضارع مشروع المشناه كتاب «بريثا» Braitha، الذي وضعه

(١) عن التلمود.. تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان، دار النفائس ـ بيروت، الطبعة السادسة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، (١٢ ـ ١٣).

الحاخام إليعازر بن يعقوب.

الثاني: جمارا Gemara: وهي شرح لما استغلق فهمه من المشناه مع زيادات وتعليقات، ابتدأها ابنا الحاخام هاناسي، وتابعهما آخرون في هذه المهمة عُرِفوا باسم «أمورائيم»، ولهذا فإن كلمة "جمارا" تعني: الإكمال.

وثم نوعان من الجمارا: جمارا أورشليم، أو فلسطين، صُنِّف في حدود ٤٠٠م، وقيل: ٣٢٠م، وجمارا بابل، صُنِّف في حدود ٥٠٠م، نسبةً إلىٰ موطن الشرَّاح من الحاخامات، فمن ثم تنوَّع «التلمود» إلىٰ: تلمود أورشليم، وتلمود بابل.

ويزعم اليهود أن أصل التلمود هي «الوصية» المذكورة في سفر الخروج: (وقال الرب لموسىٰ: اصعد إليَّ إلىٰ الجبل، وأقِمْ هنا حتىٰ أعطيك لوحَي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) ٢٤/ ١٢[1] بحسبان أن لوحَي الحجارة هما ما يتضمن الوصايا العشر، والشريعة هي التوراة المكتوبة، والوصية هي المشناه، وذلك مِصداق قول الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويَصِفه السموأل بن يحيىٰ: (وأما التلمود فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حِمْل بغل لكثرته، ولم يكن الفقهاء الذين ألَّفوه في عصرٍ واحد، وإنما ألَّفوه في جيل بعد جيل)[2]، أما الطبعات الحديثة التي ظهرت في هذا القرن ما

(١) العهد القديم: (١٩٤ ـ ١٩٥)، وجاء في التلمود، تاريخه وتعاليمه: (قد أعطىٰ الله الشريعة علىٰ طور سيناء، وهي التوراة والمشنا والجمارا، ولكنه أرسل علىٰ يد موسىٰ الكليم التلمود شفهيًّا)، عن الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة كتابَيْ: اليهودي علىٰ حسب التلمود د. روهلنج، تاريخ سوريا لسنة ١٨٤٠م، شارل لوران، ترجمة د. يوسف نصر الله، دار القلم ـ دمشق، دارة العلوم ـ بيروت، طبعة دار القلم الأولىٰ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، (٥١).

(٢) إفحام اليهود: (١٦٢).

بين عامَيْ ١٩٣٥ ـ ١٩٥٢م فقد بلغت خمسة وثلاثين مجلدًا[١].

وقد أضفىٰ أحبار السوء من الحاخامات علىٰ «التلمود» هالة من القداسة والتبجيل ليعظِّمه البُلْه من بني إسرائيل، وبالَغوا في وصفه وإطرائه وصَوْنه، فمن مأثوراتهم:

(إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشنا فعل فضيلة استحقَّ أن يكافأ عليها، ومن درس الجمارا فعل أعظم فضيلة.

من احتقر أقوال الحاخامات استحقَّ الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسىٰ.

إن التوراة أشبه بالماء، والمشنا أشبه بالنبيذ، والجمارا أشبه بالنبيذ العطري، والإنسان لا يستغني عن الثلاثة كُتب المذكورة، كما أنه لا يستغني عن الثلاثة أصناف السالف ذكرها)[٢].

تلك نظرة شاملة علىٰ مصادر الديانة اليهودية، وكُتبها المقدسة لديهم، تكشف بوضوح عن انقطاع السند بين اليهودية وملة إبراهيم، وطروء زيادات خطيرة، وحصول تحريفٍ، وكتمان لما أنزل الله، أنتج ديانةً محرفة، لا تستقيم وقانون الإسلام العام في شقَّيْها العقدي والتشريعي علىٰ نحو ما سنوضحه في الصفحات التالية:

العقائد اليهودية:

(١) في باب الإيمان بالله:

---

(١) التوراة تاريخها وغاياتها: (٨٢).

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (٥٠ ـ ٥١).

بالرغم مما بقي في الأسفار الخمسة المنسوبة إلىٰ موسىٰ عليه السلام، والمعدودة عندهم توراةً؛ من التأكيد علىٰ التوحيد، ونَبْذ الوثنية والشرك، فقد حفل العهد القديم والتلمود بأنواع الكفر والشرك في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، مما تقشعرُّ منه الأبدان، ولا يصدر من أهل إيمان، ومن شواهد ذلك:

فِرية الرؤية في الدنيا: جاء في سفر الخروج: (ثم صعد موسىٰ وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، فرأوا إله إسرائيل، وتحت رجلَيْه شبه صنع بلاط سفير أشبه بالسماء نفسها نقاءً، وعلىٰ أعيان بني إسرائيل هؤلاء لم يمد يده، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) ٢٤/ ٩ ـ ١١[1]، وفي سفر العدد يَرِد تَشَفُّع من موسىٰ وهو يناجي الله قائلًا ـ حسب زعمهم ـ: (... إنك يا رب، في وسط هذا الشعب الذي تراءيت له، يا رب، وجهًا لوجه، وإن غمامك مقيم فوقهم، وإنك سائر أمامهم بعمود غمام نهارًا، وبعمود نار ليلًا) ١٤/ ١٤ ـ ١٥[2]، وهذا مما افتروه علىٰ الله، فإذا كان موسىٰ عليه السلام قد سأل الرؤية فلم يَنلْها في الدنيا، فكيف بهؤلاء الذين شرطوها علىٰ موسىٰ لقاءَ إيمانهم فأخذتهم الصاعقة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥﴾ [البقرة].

فِرية وَصْفه تعالى بالندم: جاء في سفر التكوين: (فندم الرب على أنه صنع الإنسان على الأرض، وتأسَّف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتُ، الإنسان مع البهائم والزحافات وطيور السماء؛ لأني

(١) العهد القديم: (١٩٤).

(٢) العهد القديم: (٣٠٨).

ندمت على أني صنعتهم) ٦/ ٦ ـ ٧[١].

وفي سفر الخروج: (فعدل الرب عن الإساءة التي قال إنه ينزلها بشعبه) ٣٢/ ١٤[٢]، ويرى السموأل بن يحيى أن المترجم حرَّف اللفظ، وصوابه: فندم[٣].

وفي سفر صموئيل الأول: (إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكًا) ١٥/ ١١[٤]، فسبحان العليم الحكيم.

أما التلمود فيغرق كاتبه في الإسفاف والتفريط في جنب الله، فيقول: (يتندَّم الله على تَرْكه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيُسمَع دويُّهما من بَدْء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل)[٥]، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم.

فِرية وَصْفه تعالى بالتعب: جاء في سفر التكوين: (وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع) ٢/ ٢[٦]، وقد أكذَبَهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

فِرية وصفه تعالى بالنوم والغفلة: حكى السموأل بن يحيى أن اليهود يقولون في العشر الأُوَل من كل سنة في صلاتهم دعاءً بَشِعًا معتدًى فيه: (لِمَ تقول الأمم:

---

(١) العهد القديم: (٧٧ ـ ٧٨).

(٢) العهد القديم: (٢٠٩).

(٣) إفحام اليهود: (١٣٣)، ويرئ رحمه الله أن متأخريهم هذَّبوا بعض الألفاظ بما استفادوه من توحيد المسلمين: (١٣٢).

(٤) العهد القديم: (٥٤٩).

(٥) الكنز المرصود: (٥٦).

(٦) العهد القديم: (٧٠).

أين إلاههم؟ انتبه! لِمَ تنام يا رب، استيقظ من رقدتك)، ثم علَّق قائلًا: (وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيانات والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصَّغار، وانتظار فرجٍ لا يزداد عنهم إلا بُعدًا)[١]، فسبحان من ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٢) في باب أنبياء الله:

إذا كان القدح وسوء الأدب والجرأة في كتب اليهود قد بلغت جناب الله سبحانه وتعالى، فلا غرو أن تطال أذيتُها رسلَه الكرام، ومصطفَيْه الأخيار، عليهم صلواته سبحانه، ومن شواهد ذلك:

نوحٌ عليه السلام: جاء في سفر التكوين: (وابتدأ نوحٌ حارث الأرض يغرس الكَرم، وشَرِب من الخمر، فسَكِر، وتكشَّف في داخل خيمته) ٩/ ٢٠ ـ ٢١[٢]. وصدق الله وكذبت يهود: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء].

إبراهيم عليه السلام يصوِّره سفر التكوين باذلًا عرض زوجته سارة لرؤساء الفراعنة حين قدومه مصر؛ لتحقيق مطامع دنيوية: (فلما قارَب أن يدخل مصر قال لساراي امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني، ويُبقونَكِ على قيد الحياة، فقولي: إنك أختي حتى يُحسَن إليَّ بسببك وتحيا نفسي بفضلك... فأحسن إلى أبرام بسببها، فصار له غنمٌ وبقر وحمير، وخُدَّام وخادمات، وحمائر وجمال) ١٢/ ١١ ـ ١٧ كل هذا وامرأته في بيت فرعون[٣].

---

(١) إفحام اليهود: (١٣١).

(٢) العهد القديم: (٨٢).

(٣) العهد القديم: (٨٦ ـ ٨٧)، وأصل القصة ثابت في صحيح البخاري: (بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتىٰ علىٰ جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هذا الرجل معه امرأة من أحسن النساء فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتىٰ سارة فقال: يا سارة ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب ليتناولها

فحاشا نبي الله الذي أُلقِيَ في النار في ذات الله أن يتجر بعرضه، وأن يرضى السوء في أهله.

إسماعيل عليه السلام: لعل بِشارة الملك لهاجر في البرية بتكثير نسل ابنها قد أغاظ كَتَبة سفر التكوين، فنفثوا فيه من حَرِّ غيظهم هذه الجملة: (ويكون حمارًا وحشيًّا بشريًّا) ١٦/ ١٢[(١)]، وهي عبارة نشاز لا تتَّفِق مع سياق البشارة.

لوط عليه السلام وأهل بيته المؤمنون: يَقلِب كاتب سفر التكوين الحقائق في شأن أهل هذا البيت، فلا يقدح بكلمة واحدة في امرأة لوط الخائنة لزوجها في دينه وضيافته، بل يجعلها مشمولة أصلًا بالنجاة، فيقول عن المَلَكين حين أمرَا لوطًا بالخروج من قرية «سدوم»: (فأمسك الرجلان بيده، وبيد امرأته وابنتَيْه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه، ووضعاه خارج المدينة ١٩/ ١٥ ـ ١٦[(٢)]، والواقع أنها تبعتهم لما أحسَّت بالخطر، ولهذا لا يكاد يُذكَر في القرآن إنجاء الله للوط عليه السلام وأهل بيته إلا مقرونًا باستثناء امرأته، وبالمقابل فإن سفر التكوين يصوِّر لوطًا الذي وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ووصف أهل بيته ـ سوى امرأته ـ بقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات]، بصورة هابطة: (وصعد لوط من صُوعَر، وأقام في الجبل هو وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يقيم في صوعر، فأقام في مغارة هو وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى: إن أبانا قد شاخ،

بيده فأُخِذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، فدعا بعض حَجَبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان، فأخدَمَها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر) (٤/ ١١٢)، فهذا السياق النبوي المعصوم للقصة، يكشف عن حال إبراهيم عليه السلام في هذه المحنة التي ألمَّت به وزوجه، وأنه فزع إلىٰ الصلاة، ولم يشتغل باستثمار الحمير والجمال مستغلًّا حظوة زوجته الجميلة كما يصور سفر التكوين، وانظر: فتح الباري، (٦/ ٢٧٨).

(١) العهد القديم: (٩١).

(٢) العهد القديم: (٩٥).

وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها، تعالي نسقِي أبانا خمرًا، ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلًا، فسقَتَا أباهما خمرًا هذه الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباها، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها، فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنَسْقِه خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلًا، فسقتَا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها، فحملت ابنتَا لوط من أبيهما) ١٩/ ٣٠ ـ ٣٦[1]، فهذه وقيعة الذين يفترون على الله الكذب، ويؤذون أنبياءه، وقد شهد لآل لوط خصومُهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٨٢، والنمل: ٥٦].

موسى عليه السلام: لم يَسْلَم من أذاهم مع ما أجرى الله على يديه من إنجائهم من آل فرعون، وقيادتهم وتعليمهم، حتى إنه عاتَبَهم على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي: وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم.

ومن جملة ما سجَّله سفر الخروج من أذيتهم إياه: (فتذمَّر الشعب على موسى، وقال: ماذا نشرب؟) ١٥/ ٢٤[2]، (فتذمَّرَت جماعة بني إسرائيل كلها على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا مِتْنا بيد الرب في أرض مصر، حيث كنا نجلس عند قِدْر اللحم، ونأكل من الطعام شِبْعَنا، في حين أنكما أخرجتمانا إلى هذه البرية لتُمِيتَا هذا الجمهور كله بالجوع) ١٦/ ٢ ـ ٣[3]، (فصرخ موسى إلى الرب قائلًا: ماذا أصنع إلى هذا الشعب؟ قليلًا ويرجمني) ١٧/ ٤[4].

---

(١) العهد القديم: (٩٦).
(٢) العهد القديم: (١٧٩).
(٣) العهد القديم: (١٧٩ ـ ١٨٠).
(٤) العهد القديم: (١٨١).

وفي سفر العدد: (وتكلَّم الشعب على الله وعلى موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر؟ لنموت في البرية؟ فإنه ليس لنا خبز ولا ماء، وقد سَئِمَتْ نفوسنا هذا الطعام الزهيد) ٢١/ ٥[١].

فلذلك نهى الله هذه الأمة المحمدية عن سلوك سبيل هؤلاء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾[٢] [الأحزاب].

هارون عليه السلام: نسب سفر الخروج إلى هارون عليه السلام الضلوع في صناعة العجل الذهبي، والتهيئة لعبادته، استجابةً لطلب مشركي قومه: (ورأى الشعب أن موسى قد تأخَّر في النزول من الجبل، فاجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا، فإن موسى -ذلك الرجل الذي أصعَدَنا من أرض مصر- لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انْزِعُوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وأتوني بها. فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها هارون، فأخذها وصبَّها في قالب، وصنعها عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه إلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما رأى هارون ذلك بنى مذبحًا أمام العجل، ونادى قائلًا: غدًا عيدٌ للرب. فبَكَّروا في الغد، وأصعدوا مُحرقات، وقَرَّبوا ذبائح سَلامِية، وجلس الشعب يأكل ويشرب، ثم قام يلعب) ٣٢/ ٢ ـ ٦[٣].

فالحمد لله الذي برَّأ نبيه في القرآن من بهتان الذين كفروا وظلموا، فقال: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ [طه]، وإنما صنعه سلفهم السامري، وقد أُشْرِبوا في قلوبهم حب العجل، والشرك بالله تعالى، فلم يَزَل يعاودهم الحنين إلى عبادة

(١) العهد القديم: (٣٢١).
(٢) انظر في بيان معنىٰ الأذىٰ: جامع البيان: (٢٢/ ٥٠ ـ ٥٣)، تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٧).
(٣) العهد القديم: (٢٠٨).

الأوثان، حتى عبدوها في أزمنة لاحقة، كما شهد عليهم سفر القضاة: (وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب، وعبدوا البعل، والعشتاروت، وآلهة آرام، وآلهة صيدون، وآلهة مؤاب، وآلهة بني عمَّون، وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب، ولم يعبدوه) ١٠/ ٦[١].

داود عليه السلام: يَصِمُه سفر صموئيل الثاني بوصمة شنيعة، وعمل منحط لا يصدر إلا من أعتى المجرمين، وأدنى الخونة، حيث زعم أنه زنى بزوجة أحد جنوده المجاهدين المخلصين «أوريا»، وتعمَّد إرسالَه إلى أخطر جبهات القتال، وحمَّله كتابًا فيه: (ضعوا أوريا حيث يكون القتال شديدًا، وانصرِفوا من ورائه، فيُضرَب ويموت)[٢] ١١/ ١٥، كل ذلك ليستأثر بها! حاشا نبي الله، وخليفته في الأرض، عن اتباع الهوى، وهو الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧﴾ [ص]، ووصف مُلكه وحُكمه بقوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص] فهل تستقيم هذه الشهادة الصادقة العادلة مع ما تتنزَّل به الشياطين على كل أفَّاكٍ أثيم؛ للنيل من نبي مبرَّأ كريم؟!

فالحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

عيسىٰ عليه السلام وأُمُّه رضي الله عنها: بُعِث عليه السلام رسولًا إلىٰ بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف]، فما صدَّقوا رسالته، ولا قبلوا بِشارَته، بل وَصَمُوه بأبشع الألقاب، وقذَفُوا أمه العذراء البتول بأقذع السباب، وسَعَوْا في أذيته وقَتْله، ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧]، ومما جاء

(١) العهد القديم: (٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٢) العهد القديم: (٤٩٠).

في تلمودهم: (إن يسوع الناصري موجودٌ في لُجَّات الجحيم بين الزفت والنار، وإن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا بمباشرة الزنىٰ)[١]، وجاء وَصْفه فيه عليه السلام بأنه «ساحر» و«مجنون» و«كافر لا يعرف الله» و«تمثال» و«مرتد» و«تعاليمه كفر»[٢]، وأنه (ولد يوسف النجار سفاحًا)[٣].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(٣) في باب الإيمان باليوم الآخر:

مع كون الإيمان باليوم الآخر من أُسُس الإسلام الذي بعث الله به الرسل كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، إلا إنَّ ذِكْره في العهد القديم نادرٌ جدًّا، لا يتناسب مع أهميته العقدية في ترتيب الثواب والعقاب علىٰ الأعمال والشرائع التي تطفح بها كتبهم الدينية، وربما كان أوضح نصٍ يشير إلىٰ البعث والجزاء والحساب الأخروي ما ورد في سفر دانيال، وهو من الأسفار التي وُضِعَت في وقت متأخر[٤]: (وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والرَّذْل الأبدي، ويضيء العقلاء كضياء الجلد، والذين جعلوا كثيرًا من الناس أبرارًا كالكواكب أبد الدهور) ١٢/ ٢ ـ ٤[٥].

وقد حدَا هذا ببعض الحركات اليهودية الحديثة (الحركة الإصلاحية) إلى عقد مؤتمر في مدينة «فيلادلفيا» الأمريكية عام ١٨٦٩م، ثم في مدينة «بيتسبرج»

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود، المقدمة: (٢٧).
(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (١٠٥ ـ ١٠٦).
(٣) إفحام اليهود: (١٠٣).
(٤) انظر «مدخل» للتعريف بسفر دانيال في العهد القديم: (١٨٥٢)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٢٨).
(٥) العهد القديم: (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦).

تضمَّن كلاهما توصية صريحة بـ (إنكار نظرية بعث الجسد... مع الاحتفاظ بمبدأ أزلية الروح، ينكر المؤتمر المبدأ القائل ببعث الأجساد، وبالعذاب بعد الموت)[١].

وقد أغرب بعض الكُتَّاب المعاصرين حين زعم أن هذا القدر الضئيل من الإشارة إلى البعث والحياة الآخرة اقتبسه اليهود من الفرس، وأنه لا أصل له في ديانتهم[٢].

والحق أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان الذي جاءت به رسل الله قاطبة، ولهذا وعظ سحرةُ فرعون لما آمنوا فرعونَ فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه] وهم حديثو عهدٍ بكفر، فدلَّ ذلك على أن الإيمان بالبعث من أشهر ما جاء به موسى عليه السلام[٣].

أما السبب الحقيقي لنُدرة ذِكْر البعث واليوم الآخر في كتبهم الدينية، فلعلمهم بما أعدَّ الله لهم من العقوبة، فهم ينفرون من ذِكْره، ويطمسون مواضعه، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة].

---

(١) عن: الملل المعاصرة في الدين اليهودي، د. إسماعيل راجي الفاروقي، مكتبة هبة ـ القاهرة، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ١٩٨٨م)، (٥٥، ٥٦).

(٢) انظر مثلًا: اليهودية أحمد شلبي: (١٩٥)، اليهود تاريخ وعقيدة: (١٦٧)، قصة العقائد، سليمان مظهر: (٣١٨).

(٣) قال ابن كثير رحمه الله: (الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون: (٥/ ٣٠٥).

الشريعة اليهودية:

كما رغبت اليهودية عن ملة إبراهيم في الإيمان والاعتقاد، رغبت عنها كذلك في الأحكام والشرائع، فإنَّ مِلَّة إبراهيم عليه السلام مبنيةٌ على رفع الحرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾[1] [الحج: ٧٨]، موسومة بموافقة الفطرة: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾[2] [البقرة: ١٢٤]، أما الشريعة اليهودية فقد آلت إلى جملة من الأغلال والآصار المضروبة على رقاب اليهود، بعضها عقوبة من الله، بسبب معاصيهم وتفريطهم في جنب الله، وبعضها من وضع أحبارهم وحاخاميهم.

فأما الصنف الأول فدلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام]، وقد كان حال بني إسرائيل قبل ذلك على البراءة الأصلية، كما قال تعالى: ﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد فتح الله لهم باب الفرج، لو أنهم وَلَجُوه مرتين؛ حين جاءهم عيسى عليه السلام بالتخفيف: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ثم حين جاءهم محمد ﷺ المنعوت لهم بجملة أوصاف، منها: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) قال ابن جرير رحمه الله: (نصب ملةَ، بمعنىٰ: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسعه عليكم كملة أبيكم): جامع البيان: (١٧/ ٢٠٧).

(٢) ذهب جمعٌ من المفسرين إلىٰ أن المراد بهؤلاء الكلمات خصال الفطرة، والصحيح أن خصال الفطرة من هؤلاء الكلمات. انظر: جامع البيان: (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٨).

وأما الصنف الثاني فمِمَّا شدَّدوا به على أنفسهم في باب الذبائح والأطعمة وغيرها (مما ليس له أصل عن موسى، ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع الحاخاميم وآرائهم)[١]، ونقتطف جملة من قوانينهم المعقَّدة التي يسمونها «هالاخاه شوخيطا»، أي: علم الذبائح: (لا بد من غسل الأطباق والحلل والسكاكين والملاعق مع الصلاة عليها، وهم لا يُجِيزون أكل اللحم والأسماك معًا؛ لاعتقادهم أن ذلك يؤدي إلى البرص، كما لا يُجِيزُون الجمع بين اللحم والحليب ومشتقاته، ويحرم طبخ اللحم في السمن أو الزبد، بل يجب أن تطبخ في زيوت نباتية، كما يَحرُم وضع اللحم في إناءٍ كان قد وُضِع فيه لبن أو جبن من قبل، أو أن تستعمل سكين واحدة في تقطيع اللحوم والجبن وما إليه، ولذلك يتعيَّن على اليهودي الأكل بأوانٍ تُخصَّص للحوم فقط توضع في مكان، وأخرى للألبان ومشتقاتها وتوضع في مكان آخر... ولا يجوز أن يقوم بعملية الذبح إلا رجل دين يسمى «شوحيط» يُتقِن الذبح بالطريقة الشرعية، فإن لمس الحيوان أو الطير أثناء ذبحها أو قبل أن يصفِّى دمها غيرُ رجل الدين المسؤول تصبح الذبيحة محرَّمة... ولا يجوز للذابح أن يذبح إلا بعد حصوله على ترخيص من حاخام... ويجب أن يكون نصل السكين ضِعْفَ زور الطائر أو الحيوان المراد ذبحه... ثم يمر بالسكين مرة واحدة وباتجاهٍ واحد على عنق الحيوان، وإلا كان الأكل محرَّمًا، وإن ضغط الذابح بالسكين على الزور، كما لو أنه يقطع شيئًا ما، أو كمن يضرب بسيفٍ حرمت الذبيحة، وإذا غطى الريش أو الشعر السكين فالذبيحة محرَّمة)[٢].

ومن صور هذا التشديد الذي ابتدعه حاخاماتهم ما حكاه السموأل بن يحيى: (أنهم أمروهم بأن ينفخوا الرئة حتى تمتلئ هواءً، ويتأملوها حتى يخرج الهواء من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها الهواء حرَّموه، وإن كانت بعض أطراف الرئة

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٤٤٩).

(٢) الأعياد والمناسبات والطقوس لدىٰ اليهود: غازي السعدي، دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمّان ـ الأردن، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٤م، (٦٥ ـ ٦٦).

لاصقة ببعض لم يأكلوه.

وأيضًا فإنهم أمروا الذي قَدَّ الذبيحة أن يُدخِل يده في بطن الذبيحة، ويتأمَّل بأصبعه، فإن وجد القلب ملتصقًا إلى الظهر أو أحد الجانبَيْن، ولو كان الالتصاق بعِرْق دقيق كالشعرة، حرَّموه ولم يأكلوه، وسَمَّوْه «طريفًا»، ويعنون بذلك أنه نجس)[1].

ويرجع السموأل بن يحيى الأمر في تشديدهم الإصر على أنفسهم إلى سببَين:

أحدهما: (أن الحاخاميم هم الذين شدَّدوا على هذه الطائفة دينَهم، وضيَّقوا عليها المعيشة، والإصر، فقصدوا بذلك مبالغتَهم في مضادَّة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى خروجهم من دينهم.

والسبب الثاني في تضييق الإصر عليهم أن اليهود مبدَّدون في شرق البلاد وغربها، فما من جماعةٍ منهم في بلدةٍ إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلادٍ بعيدة يُظهر لهم الخشونة في دينه، والمبالغة في التورُّع والاحتياط، فإن كان من المتفقِّهة فهو يشرع في إنكار أشياء عليهم، ويُوهِمُهم التنزُّه عما هم فيه، وينسبهم إلى قلة الدين، وينسب ما ينكره عليهم إلى مشائخه وأهل بلده، ويكون في أكثر ذلك الإسناد كاذبًا... فأما إن كان القادم أحد أحبار اليهود وعلمائهم فهنالك ترى العجب من الناموس الذي يعتمده، والسنن التي يُحدِثها ويُلحِقها بالفرائض، ولا يَقْدِر أحدهم على الاعتراض عليه، فتراهم مستسلمين إليه وهو يحتلب دَرَّهم ويجتلب ـ بحِيَلِه ـ درهمهم)[2]، فصدق الله العليم بحالهم ومآلهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

(١) إفحام اليهود: (١٦٦).

(٢) إفحام اليهود: (١٧٥، ١٧٧).

النصرانية

بعث الله عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحًا منه، عيسى عليه السلام، إلى بني إسرائيل الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، آيةً للناس ورحمةً منه، مسبوقًا بالبشارات النبوية والملائكية؛ فقد تقدَّمه يحيى بن زكريا عليهما السلام: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقالت الملائكة لأمه مريم بنت عمران: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران]، ورافَقَ مولده من خوارق العادات، والخروج عن المألوفات؛ بكونه من أمٍّ بلا أبٍ، وتكليمه الناس في المهد، ما يُوجِب أن يهز العقول البليدة، ويُلين القلوب القاسية، ويلفت الأنظار والأفكار إلى ما جاء به: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم].

وحين شرع في دعوة بني إسرائيل أيَّده الله بروح القدس، فأجرى على يديه الآيات العظام التي لا يعرض عنها إلا مفتون مطموس: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران].

أما مضمون دعوته ورسالته، فكما قيل للرسل من قبله: عبادة الله وتوحيده:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف]، وكانت رسالته عليه السلام موجَّهةً إلىٰ بني إسرائيل خاصة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦]، ومن أغراضها التخفيف عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقد آتاه الله كتابًا من أعظم كتبه، وهو الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة]، وكانت رسالته عليه السلام حلقةَ وصل بين الرسالات السماوية السابقة واللاحقة: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾[1] [الصف: ٦].

ومع ما احتفَّ بحَمْله ووضعه ومَهْده من آيات، وما أُيِّدَت به رسالته بعد ذلك من معجزات، فإنه بشرٌ خالص البشرية، مخلوقٌ كما خُلِق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وتلحقه صفات البشرية: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة]، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٥٩]، وكما كانت ولادته آية، كانت وفاته الأولى آية: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء]. ثم إن له جولة أخرى على الأرض قبل موته كما أقسم على ذلك نبينا محمد ﷺ، فيما رواه أبو هريرة: (والذي نفسي بيده، ليُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا مُقسِطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله

(١) ولهذا قال نبينا ﷺ: (أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم في الأولىٰ والآخرة، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتىٰ، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي) رواه مسلم: (٤/ ١٨٣٧).

أحد)، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [١]. ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم].

مواقف الناس من عيسى بن مريم عليه السلام ورسالته:

انقسم الناس تجاه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، عيسى عليه السلام، ثلاثة أقسام:

● قسم كفر به، وهم عُتاة اليهود، وعادَوْه وكذَّبوه، ورَمَوْه وأمَّه بالبهتان العظيم، وسعَوْا في دَمِه لدىٰ الحكام الرومان، ورامُوا صَلْبه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء].

● وقسمٌ آمَن به وصدَّقه، وناصَرَه، ودعا إلىٰ دينه وشريعته، واحتمل الأذىٰ الفظيع في سبيل ذلك، وهم الحواريون ومَن تابَعَهم: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

فكانت نتيجة دعوته: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف] ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ [٢] ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ

---

(١) رواه مسلم: (١/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، ويقع له عليه السلام في نزوله هذا أحداثٌ عظام من قتل الدجال واجتماع المؤمنين إليه بعد فتح يأجوج ومأجوج، وحجه وعمرته مما صحت به السنة.

(٢) للمفسرين في المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قولان: أحدهما: المؤمنون به حقًّا من النصارىٰ، ثم المسلمون من هذه الأمة، قال ابن جرير: (الذين اتبعوك علىٰ منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوتك، وخالفوا بسبيلهم جميع أهل الملل فكذبوا بما جئت به، وصدوا عن الإقرار به،

بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

٣ ـ وقسم غلا فيه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله إياها، وهي العبودية والرسالة، وبالَغ في إطرائه، حتى خرج به من وَصْف البشرية إلى مرتبة الألوهية ـ والعياذ بالله ـ إما انبهارًا بما أجراه الله على يدَيْه من الآيات المعجزات، وإما دسيسة من اليهود الكافرين الحاقدين ليُفسِدوا دين النصارى، كما وقع من شاول «بولس» وأشياعه من الغلوِّ كما سيأتي، قال ابن كثير رحمه الله: (إن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرَّقت أصحابه شِيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمَته، ومنهم مَن غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقالتهم في القرآن، ورَدَّ على كل فريق، فاستمرُّوا كذلك قريبًا من ثلاثمئة سنة)[1].

حال النصارى بعد رفع المسيح:

لا ريب أن حواريي المسيح عليه السلام، ومَن تَبِعَهم بإحسان قد ساروا على

فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم)، جامع البيان (٣/ ٢٩٢)، وقال الشوكاني: (أي اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلىٰ ما بلغ من جعله إلهًا، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسىٰ عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو..، وقد ذهب إلىٰ هذا كثير من أهل العلم) فتح القدير (١/ ٣٤٥)، الثاني: إنهم النصارىٰ من حيث الجملة، فوق اليهود، قال ابن جرير: (وجاعل الذين اتبعوك من النصارىٰ فوق اليهود) جامع البيان (٣/ ٣٩٣)، وقال ابن كثير بعد ذكر تفرق النصارىٰ، وظهور الملك قسطنطين: (وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم؛ لأنهم أقرب إلىٰ الحق منهم، وإن كان الجميع كفار عليهم لعائن الله)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨)، وللشوكاني في هذا رسالة بعنوان: (وبل الغمامة في تفسير: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾).

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٧).

سنن المرسَلين؛ من توحيد رب العالمين، والعمل بشريعته المبلَّغة بالإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧]، ولكن المصادر الدينية التي تؤرخ لتلك الحقبة المهمة قد صِيغَت وللأسف وفق اعتقاد ضُلَّال النصارى السائد اليوم، ومع ذلك فإنها تشير إلى وجود جماعة واحدة من كبار تلاميذ المسيح وأقربائه مُلتزِمةً بالشريعة اليهودية، معظِّمةً للناموس الذي جاء به موسى عليه السلام، ولا تعزل نفسها عن أداء العبادات والصلوات في الهيكل كسائر بني إسرائيل، لكنها تؤمن بالمسيح عليه السلام، وتدعو إلى دينه في أوساط اليهود خاصةً دون سائر الأمم، وتلقَّت في سبيل هذا التميُّز صنوف الاضطهاد النفسي والبدني من رؤساء الكهنة اليهود.

ومن أقدم المصادر التي تَصِف حال الحواريين بعد رَفْع المسيح سفر «أعمال الرسل»[(١)]، وقد جاء فيه: (وكانوا يواظبون على تعليم الرسل، والمشاركة، وكسْر الخبز، والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كلَّ شيءٍ مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قَدْر احتياج كل منهم، يلازمون الهيكل كلَّ يوم بقلبٍ واحد... وكان الرب كل يوم يضم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص) ٢/ ٤٢ ـ ٤٧[(٢)].

ويضم ذلك السِّفر ذِكْر حكايات وكرامات جرت لـ«الرسل»[(٣)] تُشابِه آيات عيسى عليه السلام من إحياء الموتى، وشفاء المرضى بإذن الله، كما يضم ذِكْر

---

(١) يُظن أن كاتب هذا السفر هو «لوقا» صاحب أحد الأناجيل الأربعة. انظر: مدخل إلىٰ أعمال الرسل العهد الجديد: دار المشرق ـ بيروت، توزيع: المكتبة الشرقية، جمعيات الكتاب المقدس في المشرق ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (٣٧٢).

(٢) العهد الجديد: (٣٨٠).

(٣) مصطلح «الرسل» عند النصارىٰ يعني تلاميذ المسيح الاثني عشر، بعد الاستعاضة عن يهوذا الإسخريوطي، الخائن، بـ«متّيا» بطريق القرعة. انظر: أعمال الرسل: (١/ ٢١ ـ ٢٦)، العهد الجديد: (٣٧٦).

عظات لبني إسرائيل على لسان بطرس -أكبر الحواريين- وقد نَدَّت في أحدها الجملة التالية:

(إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إله آبائنا، قد مجَّد عبده «يسوع» الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام بيلاطس) ٣/ ١٣، مما أحوج المُحَشِّي أن يُثبت التعليق التالي: (قد يكون هذا اللقب لقبًا طقسيًّا... يتفرَّد به سفر أعمال الرسل... ولا شك أنه قديم)[١]، وتكرَّر هذا التعبير في هذا السِّفر في موضعَيْن آخرين: (على عبدك القدوس يسوع الذي مسحته) ٤/ ٢٧[٢]، (ليجري الشفاء والآيات والأعاجيب باسم عبدك القدوس يسوع) ٤/ ٣٠[٣]، مما يدل على صفاء العقيدة عند أوائل النصارى، وإن حاول مشركوهم طمسها.

ولعل أول خلافٍ نشأ بين أتباع المسيح عليه السلام ليس حول شخص المسيح وطبيعته، وإنما حول دعوة الأمم من غير اليهود، والآثار المترتبة على ذلك، فينسب سفر أعمال الرسل إلى بطرس رؤيا أو «جذب»، أوَّلها على مشروعية تعميد الوثنيين، وقبولهم مؤمنين بالمسيح ولو لم يكونوا يهودًا، فاستنكر أصحابه ذلك: (وسمع الرسل والإخوة في اليهودية أن الوثنيين هم أيضًا قبلوا كلمة الله، فلما صعد بطرس إلى أورشليم أخذ المختونون[٤] يخاصمونه، قالوا: لقد دخلتَ إلى أناس قُلْف وأكَلْتَ معهم) ١١/ ١ ـ ٣[٥]، وتكرَّر الموقف مع بعض المؤمنين الفارِّين إلى الأمصار من اضطهاد اليهود، فكانوا (لا يكلِّمون أحدًا بكلمة الله إلا اليهود... فلما قَدِموا أنطاكية أخذوا يكلِّمون اليونانيين أيضًا) ١١/ ١٩ ـ ٢٠[٦]، وحين قَدِمَها بولس وبرنابا، ووُوجِهَا بشغب اليهود قالا

(١) العهد الجديد: (٣٨١).
(٢) العهد الجديد: (٣٨٥).
(٣) العهد الجديد: (٣٨٥).
(٤) المقصود بهم النصارى الذين يعتقدون لزوم العمل بشريعة موسى، ومنها الختان.
(٥) العهد الجديد: (٤٠٤).
(٦) العهد الجديد: (٤٠٥).

بجرأة: (إليكم أولًا كان يجب أن تُبَلَّغ كلمة الله، أما وأنتم ترفضونها، ولا ترون أنفسكم أهلًا للحياة الأبدية، فإننا نتوجَّه الآن إلى الوثنيين) ١٣/ ٤٦[١]، وترتَّب على هذا التوسع في الدعوة مشكلة تطبيقية في حق المهتدين من الوثنيين: (ونزل أناسٌ من اليهودية، وأخذوا يُلقِّنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سنة موسى لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص، فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلافٌ وجدال شديد، فعزموا على أن يصعد بولس وبرنابا، وأناس منهم آخرون إلى أورشليم حيث الرسل والشيوخ للنظر في هذا الخلاف) ١٥/ ١ ـ ٢[٢].

وكان أن عقد أول مجمع نصراني لمناقشة وضع المؤمنين من غير اليهود، تمخَّض عن القرار التالي: (قد حسن لدى الروح القدس ولدينا ألَّا يُلقَى عليكم من الأعباء سوى ما لا بد منه، وهو اجتناب ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنا، فإذا احترستم منها تُحسِنوا عملًا عافاكم الله) ١٥/ ٢٨ ـ ٢٩[٣].

فإن صحَّ النقل فهذه أول بادرة لهجر الشريعة وقعت من النصارى، وما زالت تتفاقم حتى تحلَّلوا من جميع الشرائع، وكان ذلك من أعظم أسباب تفرُّقهم وعداوتهم وضلالهم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤].

إن مؤرخي النصرانية يمنحون لمن يسمُّونهم «الرسل» ومَن دونهم مزايا تشريعية لا تنبغي إلا لله سبحانه، بدعوى متهافتة، وهي إلهام الروح القدس[٤]، ومن ثم يسوِّغون لأسلافهم إحداث تعديلات في صلب الدين، يقول

(١) العهد الجديد: (٤١٢).

(٢) العهد الجديد: (٤١٤ ـ ٤١٥).

(٣) العهد الجديد: (٤١٧).

(٤) أبطل الشيخ رحمة الله الهندي هذه الدعوة من سبعة عشر وجهًا. انظر: إظهار الحق: الهندي، رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني، تحقيق: محمد أحمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، (٢/ ٣٥٣ ـ ٤٥٢).

الأرثوذكسي الروسي أفغراف سميرنوف: (لم يكن اليهود المؤمنون بالمسيح يتميَّزون كثيرًا في البداية عن الكنيسة اليهودية العامة، فكانوا يجتمعون للصلاة... في هيكل أورشليم، ويقدِّمون فيه تقادم، وبالإجمال يُتمِّمون كل ناموس الطقس الموسوي، وبما أنهم نشأوا على احترام الناموس الموسوي، فما استطاعوا بسرعة أن يكوِّنوا لذاتهم فكرةً بأن ناموس الطقوس كان ظلًّا فقط للخيرات المقبلة، وصار بمجيء المسيح لا لزوم له، وكثيرون منهم كانوا يؤكدون بأنه من الواجب أن يُحفَظ في المسيحية أيضًا، وتحت تأثير الفكرة اليهودية القديمة بأن وعود الله بـ«مسيا» ومملكته تختص بالشعب اليهودي وحده، فكثيرون من المؤمنين من اليهود كانوا يؤكدون بأن اليهود وحدهم يجب أن يدخلوا في الكنيسة المسيحية، ولكي يصير قبول الوثنيين في الكنيسة يجب عليهم أن يصيروا أولًا يهودًا، أعني يقبلوا الختان، ويتمِّموا كل ناموس الطقوس الموسوي... إن بَدْء التبشير بين الوثنيين يُنسَب إلى بَدْء السنة الأربعين بعد ميلاد المسيح)[1].

ولا شك أن هؤلاء اليهود المؤمنين بالمسيح عليه السلام هم أنصاره إلى الله وحواريوه، وإن كانت كتابات ضلَّال النصارى، تبخسهم منزلتهم، وتغمطهم حقهم، وسَبْقهم، وتحاول إقصاءهم، مع علمهم التام بأنهم كبار تلامذة المسيح وحواريوه، مثل بطرس، وينبزونهم بألقاب التنقُّص مثل: «أساقفة الختان»، و«المسيحيين اليهود».

ولا شك أيضًا أن هؤلاء هم حفظة الإنجيل الحقيقي المتضمن للهدى والنور والموعظة، فإلامَ آلَ أمرهم، ومِن ثم أمْر دين المسيح؟

يقول الأمير الحسن بن طلال في تعريفه بالمسيحية ـ حسب تعبيره ـ: (ومن

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٦)، ألفه باللغة الروسية أفغراف سميرنوف، تعريب: الكسندروس جحا، مطرانية الروم الأرثوذكس بحمص ـ سوريا، طبعة ١٩٦٤م، وقد منحه المجمع المقدم الروسي جائزة، وحبذه ليكون كتابًا مدرسيًا لطلبة الصفوف العالية ـ من المقدمة.

بعد يسوع عمد هؤلاء الأتباع «العبريون» أي الإسرائيليون، وهم الذين عُرفوا باسم: «النصارى» باليونانية Nazarenoi إلى تنظيم أنفسهم في أورشليم كمذهبٍ خاص بقيادة يعقوب بن يوسف أحد إخوة يسوع الأربعة[1]، ثم بقيادة آخرين من أقربائه باعتبارهم من نسل داود، فتوجَّس الرومان خيفةً من أن هؤلاء يطالبون بملك محلي، ولذلك قاموا باضطهادهم بين حين وآخر... وقدامى مؤرِّخي الكنيسة أَسْمَوْا يعقوب بن يوسف وخلفاءه «أساقفة الختان»... لا لأنهم كانوا أنفسهم أيضًا مختونين، كونهم إسرائيليين، بل لأن الكنيسة التي قادوها كانت تعتبر نفسها جماعةً دينية إسرائيلية أصولية تعتزُّ بتشدُّدها في اتِّباع شريعة موسى، وفي جَعْل الختان مُلْزِمًا لجميع الذكور من سائر الأمم الذين يختارون اتِّباع مذهبهم، ولم يختلف مذهب هؤلاء «النصارى» عن اليهودية إلا قليلًا، وأهم اختلاف هو أن «النصارى» اعترفوا بيسوع الناصري مسيح الوعد، في حين أن اليهود لم يُقِرُّوا بذلك، ولهذا أنكر اليهود على «النصارى» مذهبهم، وصنَّفوهم على أنهم «مينيم»، وهي لفظة عبرية تعني «منشقين» أو «هراطقة»، أما بالنسبة إلى شريعة موسى فقد كان تمسُّك «النصارى» بتفاصيلها -بل على نحو أدق: بحذافيرها- كتمسُّك أكثر اليهود تشدُّدًا، وهم -على التقائهم كأبناء «كنيسة» ـ باليونانية Ekklesia، أي «جماعة» لها مذهبها الخاص، استمروا يقيمون عباداتهم في كنيس اليهود حتى نحو ٨٠م، عندما منع اليهود جماعات «المينيم» من استعمال كنيسهم، وعندما أخرج الإمبراطور «هدريان» اليهود من أورشليم عام ١٣٥م كان النصارى من جملة مَن أُخرِج من المدينة، على أساس أنهم ليسوا إلا فرقةً من فِرَق اليهود.

ومع جلاء «النصارى» عن أورشليم في ذلك العام انتهت سلالة «أساقفة الختان» فيها... وبانقضاء هذا المذهب ازدادت الفرص لانتشار المسيحية بدلًا

(١) يزعم النصارىٰ أن عيسىٰ عليه السلام هو ابن يوسف النجار، وإخوته هم: يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان، ويسمونهم «إخوة الرب»، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا عظيمًا. انظر: إنجيل مرقس (٦/ ٣)، متىٰ (١٢/ ٣٦)، قورنتس الأولىٰ (٩/ ٥).

من أن تتضاءل)[١].

بولس وإفساد النصرانية:

لقد استحالت النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام من دين توحيدي إلى نصرانية خِدَاجٍ مشوَّهة، رَسَم معالمها خصم عنيد للحواريين من عتاة اليهود كان يضطهد المؤمنين، اسمه شاول، فما لبث أن ادَّعى الإيمان بالمسيح، وتغلغل في خاصة أصحابه، وأحدث في دينه ما أفسده، وخرج به عن مِلَّة إبراهيم –الإسلام– إلى أوضاعٍ شركية، ومقولاتٍ كفرية، وتحلَّل من الشريعة، وشق كلمة القوم، وطرح بينهم بذور الشقاق والافتراق، حتى ساد مذهبه، وغلب على أتباع المسيح.

لقد كان ذلك الدعيُّ هو بولس، جاء في سفر أعمال الرسل: (أما شاول فما زال صدره ينفث تهديدًا وتقتيلًا لتلاميذ الرب، فقصد إلى عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق، حتى إذا وجد أناسًا على هذه الطريقة رجالًا ونساءً ساقهم موثَّقين إلى أورشليم، وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نورٌ من السماء قد سطع حوله فسقط إلى الأرض، وسمع صوتًا يقول له: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا رب؟ قال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل) ٩/ ١ ـ ٦، وتمضي الأسطورة لتصنع منه قديسًا ممتلئًا من الروح القدس ـ على حد تعبيرهم ـ[٢] ويُبدي نشاطًا ملحوظًا، وحماسًا وقَّادًا في نشر معتقده بين أبناء الأمم، وتُنسَب إليه خوارق وتضحيات، ويطوف مدائن فلسطين من أورشليم إلى قيصرية فطرطوس فأنطاكية فقبرص، ثم يمتد إلى مدن آسيا الصغرى واليونان ومالطة حتى بلغ روما في رحلاتٍ متتابعة، ونشاط دائب فرض له مكانةً

---

(١) المسيحية في العالم العربي: الحسن بن طلال، المعهد الملكي للدراسات الدينية، مكتبة عمّان ـ عمّان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م، (٢٤).

(٢) العهد الجديد: (٣٩٦ـ٣٩٧).

ومنزلةً في الجماعة الناشئة.

لقد كان واضحًا منذ البداية أن بولس ينتهج خطًّا مخالفًا لخط الحواريين، ويتكلم بلغةٍ مشوبةٍ بمعتقداتٍ وأفكار غريبة عن الهدي النبوي للمسيح عليه السلام، كما يُقِرُّ بذلك المعجبون به من نصارى اليوم، يقول جون لوريمر، أستاذ تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة «بروتستانتي»: (يؤخذ من بعض الإشارات أنه كان يمزج في تعاليمه المسيحية بعضًا من الحكمة الوثنية، وربما نوعًا من الغنوسية[١]، أو بعض الفلسفات اليونانية)[٢].

وسواءٌ كان «شاول» يهوديًّا حاقدًا تظاهَر بالنصرانية ليفسدها، أم كان «بولس» متنصِّرًا متحمسًا ذا مواهب شخصية فذة، لم يستطع أن يتخلَّص من آثار سابقة، ولم يفقه دعوة المسيح وغاياتها، أيًّا كان الأمر، فقد أحدث شرخًا عظيمًا في مسيرة النصرانية، ونقلها نقلةً واسعة من ديانةٍ توحيدية إصلاحية موجَّهة إلى بني إسرائيل خاصة، إلى ديانةٍ أمشاج صبَّتْ فيها ثقافات شتى، في محاولته الرامية لاستيعاب الأمم الأخرى، عبر صياغات عقدية دخيلة، بلغة تفهمها الأمم الوثنية.

وكان بذكائه وأناته يداري تلاميذ المسيح عليه السلام، ويحرص على إظهار المرجعية لكنيسة أورشليم، حيث كبار التلاميذ «الرسل» والشيوخ، لينال الشرعية المطلوبة لمشاريعه الأممية الطموحة، حتى استطاع بقوة بيانه أن ينتزع

---

(١) الغنوصية Gnosticism والغنوسية أيضًا، أو الغنوسطية، فلسفة صوفية، واسم علم علىٰ المذاهب الباطنية، غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال، فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سرًّا..، وتقول بإلهين: أحدهما كبير، خير، مفارق لا يدركه العقل، ولا يحيط به العلم..، وروح الشر أو إلهه الملقب أركون، ومنه خرج العلم السفلي..، ولقد ظهر الغنوص أول ما ظهر في الأديان الفارسية..، وعرفت اليهودية الغنوصية، وتجلت فيما عرف عند اليهود باسم «القَبالة»، وكانت القبالة أكبر غنوص عرفه تاريخ الأديان..، والمسيحية كما طرحها بولس الرسول دينًا غنوصيًّا، واقتصر الغنوص فيها علىٰ المسيح وحده، الموسوعة الفلسفية (٢٩٦ـ٢٩٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: جون لوريمر، ترجمة: فهيم عزيز، دار الثقافة، القاهرة، طبعة ١٩٨٢م، (١/ ٦٥).

قرارًا من مجمع أورشليم بإعفاء الوثنيين المهتدين من بعض أحكام الشريعة كما تقدَّم، في حين أنه كان يطوي البساط من تحت النصارى الحقيقيين، وقد بلغ من مداراته لهم أن ختن تلميذه «طيموتاوس» ذا الأب اليوناني والأم اليهودية[١].

ومع ذلك تحوَّل النصارى الخُلَّص السائرون على درب المسيح أمام التيار البولسي المتنامي إلى مجرد فِرقة صغيرة صُنِّفَت فيما بعد ضمن الهراطقة، بعد أن وقفت موقفًا حازمًا واضحًا من تجاوزات بولس وتلاميذه.

ويتابع أفغراف سميرنوف وَصْف مآل هذه الفِرقة الأم، فيقول: (في بادئ الأمر لم يكن لهذه العقيدة صفة هرطقة؛ لأن جميع المسيحيين من اليهود الموجودين في فلسطين كانوا يُتمِّمون حسب العادة المرعية ناموس موسى ويختتنون، ولكن في بَدْء العصر الثاني استقلَّ حزب الغيورين على ناموس موسى كهراطقة، وفي الثلاثين سنة من ذاك العصر بعد خراب أورشليم عندما لم يَعُد من الممكن المحافظة على ناموس موسى بحذافيره، فقِسْم المسيحيين من اليهود أعرض عن إتمامه بالكلية، وانضم إلى المسيحيين الذين من الوثنيين وألَّفوا كنيسة في المدينة التي بُنِيَت مكان أورشليم ـ إيليا كبيتولينا ـ ووافقوا على انتخاب أسقفٍ ليس من ذوي الختان.

أما حزب المسيحيين من اليهود المدافع عن إتمام الناموس الموسوي، فقد انفصل بحزمٍ عن الكنيسة، وألَّف جمعية منفصلة هرطوقية تمامًا، وانشق هذا الحزب إلى قسمين: الغيورون المتعصبون للناموس، والمعتدلون[٢]، فالقسم الأول معروف باسم: يفيونيين[٣]، والثاني باسم: ناصريين[٤]، فالناصريون لم

(١) انظر: أعمال الرسل: (١٦/ ٣)، العهد الجديد: (٤١٨).

(٢) هكذا في الأصل، ومقتضىٰ اللغة: (الغيورين المتعصبين للناموس، والمعتدلين).

(٣) ويقال: الإبيونيين، وهو الأشهر في الكتابات الحديثة.

(٤) ناصري: لقب كان يطلق علىٰ المسيح نفسه، نسبة إلىٰ الناصرة، وكان يوصف به أتباعه كما في القرآن، ونصارىٰ اليوم يتنصلون منه، ويقصرون استعماله علىٰ المتهودين منهم، وقد تضمَّن سفر أعمال الرسل ٢٤/ ٥ إطلاقه عليهم، حيث وصف بولس أثناء محاكمته لدىٰ الحاكم الروماني فيلكس بأنه

يتراجعوا عن جوهر التعليم الكنسي العام، معترفين بيسوع المسيح مسيا[١] وإلهًا، وموافقين على ولادته الخارقة للطبيعة، وغير ذلك، ولكن مع هذا يَعُدُّون من الواجب على المسيحيين من اليهود المحافظة على ناموس موسى، ولم يعطوا للناموس مثل هذه الأهمية لأجل المسيحيين من الوثنيين، ويعترفون بالرسول «بولس» من أجل المسيحيين من الوثنيين، وقد نظرت الكنيسة بتساهل إلى هذا الحزب من المتهوِّدين غير حاسبة إياهم «هراطقة» بالمعنى الخاص. وشيعة الناصريين بقيت موجودة بعدد قليل حتى العصر الرابع.

وعكس ذلك شيعة الأفيونيين الذين اتخذوا هذا الاسم من الكلمة العبرانية أفيون ومعناه «فقير»، هؤلاء أوجبوا إتمام ناموس موسى على جميع المسيحيين، معتبِرين لهذا السبب الرسول بولس، الذي ناهض الناموس، مرتدًّا عن الإيمان، والديانة اليهودية -بموجب مفهومهم- لها أهمية عظيمة كالسابق في أمْرِ خلاص البشر حتى بعد مجيء المسيح المخلص، وهكذا صارت الديانة المسيحية محدودة، مع أن غاياتها أن تشمل جميع العالم، والأفيونيون لم يعتبروها ديانة جديدة، بل امتدادًا للديانة اليهودية ذاتها.

ومن هنا كان تعليمهم عن المسيح المخلِّص هو غير الذي تمسَّكَت وتتمسَّك به الكنيسة المسيحية الحقيقية، لقد اعتبروه «مسيا»، لكن ليس الله الفادي، بل نبيًّا عظيمًا فقط يشبه موسى جاء ليُكرز بمجيء مملكته التي يمكن أن يدخلها اليهود فقط، وكل مهمته انحصرت حسب مفهومهم بتفسير الناموس، وإكماله بإعطاء وصايا جديدة، وقد أنكروا على يسوع المسيح استحقاق الألوهية، معتبِرين إياه إنسانًا عاديًّا، ابن يوسف ومريم، ونال قوة إلهية، واستحقاق مسيا في المعمودية فقط. وعلى هذا لم تكن عند الأفيونيين

(أحد أئمة شيعة النصارىٰ)، وعلق المُحَشِّي بقوله: (هذه هي المرة الوحيدة التي يسمىٰ فيها المسيحيون «نصارىٰ» علىٰ مثال يسوع، العهد الجديد: (٤٤٢).

(١) (مسيا، أو مشيح (Messiah Messie) هو المسيح الذي أنبأ العهد القديم بمجيئه لتحرير البشر من عبودية الخطيئة، وإقامة ملكوت الله في الأرض)، العهد القديم، مصطلحات لغوية (٢٨).

العقيدة المسيحية عن فداء البشرية، بواسطة الرب يسوع المسيح من الخطيئة واللعنة والموت، وموت المسيح المخلِّص ليس له عندهم أهمية فدائية...)[١].

ويتَّضح من هذا السياق أن الأفيونيين من جملة النصارى الذين أثنى عليهم القرآن الكريم، في حين ذمَّ غيرهم، وأن عقائدهم كما دوَّنها أفغراف سميرنوف - وهو مخالف لهم- هي عين ما يعتقده المسلمون من أمة محمد ﷺ في المسيح، مع التحفظ على نسبة المسيح إلى يوسف النجار، وقد يكون مخالفوهم أرادوا أن يُظهِروا إلى أي مدًى يرفض الأفيونيون فكرة تأليه المسيح، فألصقوا بهم إنكار الولادة الخارقة من أمٍّ بلا أب، وهم من ذلك براء.

لقد كان هؤلاء هم المدافعون عن الدين الصحيح أمام التيار البولسي لتبديل دين المسيح، وقد صمدوا ما شاء الله، ولكن الله غالب على أمره، يقول جون لوريمر: (لا نعرف من العهد الجديد طول المدة التي استمرت فيها قضية التهوُّديين مشتعلة داخل الكنيسة، ولكن ما نعرفه هو أن الرسول بولس هو الذي حارب، واستطاع أن يعيد التوازن إلى الكنيسة كمؤسسة لا يحتاج من يدخل فيها وينضم إليها سوى الإيمان بالمسيح يسوع، ومما ساعَدَ على أفول هذه الحركة التهوُّدية أفول نجم الكنيسة في أورشليم، وارتفاع نجم كنائس الأمم، وازديادها في العدد والأهمية والتأثير)[٢].

وهكذا طُوِيَت صفحة هذه الفئة المؤمنة من أنصار المسيح الذين كانوا على ملة إبراهيم، وسادَ أنصار بولس، فحين جاء الإسلام كان ثمة بقايا من هؤلاء الموحِّدين من أهل الكتاب منتشرين في بعض الدِّيارات والصوامع، قد فارَقوا المشركين الذين صارت لهم الدولة والغلبة، فما أعظم فرحتهم ببعثة محمد ﷺ، وما أشد بهجتهم بالقرآن، وقد وصف الله ذلك الفرح عليهم بقوله: ﴿*وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨٥ـ٨٧).

(٢) تاريخ الكنيسة (٦٩).

قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]، وفي وصفٍ آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

الكتب المقدسة عند النصارى:

إذا كانت الجماعة المؤمنة التي حملت دين المسيح بحق قد توارت عن الأنظار، حتى التحق آخرها بدين الإسلام، فما مآل كتابها الذي آتاه الله نبيها، الإنجيل، ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة] ؟ ذلك أن المِلَل تتعرَّض لأحوالٍ متفاوتة من الظهور والأفول، فإذا كان بين ظهرانَيْها كتابٌ محفوظٌ تعتصم به أمكن أن تهتديَ به وتعود إلى رشدها، ويستقيم أمرها، فهل «الإنجيل» الذي أنزله الله لا يزال موجودًا؟ وهل سَلِم من التحريف والزيادة والنقصان؟

إن النصارى اليوم يعترفون بـ«الكتاب المقدس»، وهو يضم جزأين:

١ ـ العهد القديم: وقد سبق التعريف به، ونَقْده عند الحديث عن اليهودية[(١)].

٢ ـ العهد الجديد: ويتكون من الأناجيل المنسوبة لأربعة من رواة سيرة المسيح عليه السلام، وهم: متَّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، تمثِّل أكثر من ثلث

(١) ثَمَّ جدال قديم بين اليهود، وبين النصارىٰ في تحديد قائمة الأسفار المعتمدة «القانونية» انعقدت لبحثها مجامع مسكونية، ولا يزال الخلاف قائمًا بين مختلف الطوائف حول أسفار بعينها. انظر: مدخل إلىٰ العهد القديم، العهد القديم: (٤٧ ـ ٥٢).

الكتاب، يعقبها سفر «أعمال الرسل» يُظَن أن كاتبه «لوقا»، ثم أربع عشرة رسالة موجَّهة إلى أهالي بعض المدن، وبعض الأفراد، وضعها «بولس»، تمثِّل قرابة ربع الكتاب، ثم مجموعة من الرسائل العامة لبعض قديسيهم؛ واحدة ليعقوب، واثنتان لبطرس، وثلاث ليوحنا، وواحدة ليهوذا، وتختتم برؤيا يوحنا، فيكون مجموعها سبعة وعشرين سفرًا.

جاء في تصدير الرهبانية اليسوعية للطبعة الثالثة للعهد الجديد عام ١٩٨٩م ما نصه: (كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثَّل عند مسيحيِّي الجيل الأول في مرجعين: أولهما العهد القديم، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب استشهادهم بوحي الله، وأما المرجع الآخر الذي نما نموًّا سريعًا فقد أجمعوا على تسميته «الرب»، وكان يُطلَق هذا الاسم على كل من التعليم الذي ألقاه يسوع... ولكن العهد القديم كان يتألَّف وحده من نصوصٍ مكتوبة، وأما أقوال الرب، وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحفاظ مدةً طويلة، ولم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة كلٍّ من تدوين أهم ما علَّمه الرسل، وتولِّي حِفْظ ما كتبوه... ويبدو أن المسيحيين، حتى ما يقرب من السنة ١٥٠، تدرَّجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلًا جدًّا إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة، وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستعملوها في حياتهم الكنسية... ولا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهورًا واضحًا، كما يظهر شأن رسائل بولس... ومهما يكن من أمر فليس هناك قبل السنة ١٤٠ أيُّ شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعةً من النصوص الإنجيلية المكتوبة...

وكان بعد السنة ١٥٠ بقليل أن مسَّت الحاجة في الكنيسة إلى قاعدةٍ شاملة، فاتجهت الأنظار إلى مجموعة الأناجيل الأربعة؛ لأنها نالت، حتى ذلك الوقت انتباه الناس؛ لِمَا تحلَّت به من الصفات، ولصحة الشهادة التي تؤديها

«للرب»)[1].

ويتَّضح مما سبق بعض الحقائق المتصلة بالكتب المقدسة لدى النصارى:

١ ـ أن المرجع الديني المكتوب هو «العهد القديم» الذي يجمعهم مع اليهود، وقد تقدَّم ذِكْر ما اعترى هذا المرجع من انقطاع سند وضياع، وإعادة صياغة، وما لحقه من تحريف وزيادات كتبتها الأيدي الآثمة ونسبتها إلى الله، فيلزم النصارى ما لزم اليهود.

٢ ـ أن عيسى عليه السلام لم يقم بإملاء نصٍ مكتوب هو «الإنجيل»، بل تم حفظ تعاليمه وأقواله عن طريق الحفظ في الصدور، وظلَّ الأمر على هذه الصفة حتى منتصف القرن الثاني للميلاد، بعد انقراض جيل «الرسل».

٣ ـ أن رسائل «بولس» هي التي حَظِيَت بالاهتمام والدرس والتداول بين أتباع الكنائس خارج أورشليم، وكانت شهرتها وأثرها تفُوق الإنجيل.

٤ ـ أن مسوِّغ اختيار الأناجيل الأربعة من بين سائر الأناجيل هو أنها نالت انتباه الناس وصحة الشهادة التي تؤديها.

هذه نظرة ضُلَّال النصارى إلى ظروف تكوين «العهد الجديد»، وحقيقة الأمر أن الله تعالى علَّم عبده ونبيه عيسى الإنجيل كما علَّمه التوراة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران]، وهو عليه السلام قد بلَّغ رسالات ربه، وعلَّم حواريه ما علَّمه ربه من الإنجيل، مميِّزًا إياه عن سائر مواعظه ووصاياه، وقد وُجِد بالفعل نسخٌ متعددة من الأناجيل بعضها منسوبٌ إلى كبار حواريه؛ كإنجيل بطرس، أو كبار الرسل؛ كإنجيل برنابا، أو إلى طوائف معينة؛ كإنجيل الناصريين، وإنجيل الأبيونيين، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل المصريين وغيرها، ولكن أتباع بولس الذي نشَّئوا المتنصرين من أبناء الأمم غير اليهود على رسائل بولس أقصَوْا ما لا يتفق وتعاليمهم الشركية،

(١) العهد الجديد: (٨ ـ ٩).

ووصفوا تلك الأناجيل بأنها «منحولة»، واستبقوا ما يوافق أهواءهم، فكانت هذه الأربعة.

يقول أفغراف سميرنوف: (.. في العصر الرابع اعترفت الكنيسة بهذه الكتب أنها قانونية، وفيما الكنيسة تقبل في قانون الكتب المقدسة الكتب الرسولية، فقد فرزت من عدد الكتب التي ليست رسولية، ورفضت بكل حزم الكتب المزيفة والمدسوسة، مثلًا: «إنجيل اليهود» و«إنجيل المصريين» و«إنجيل نيقوديم» و«إنجيل توما» و«أعمال بولس» و«رؤيا بطرس» وغيرها)[١].

إنه لمِمَّا يدعو للدهشة والاستغراب أن تُضَم رسائل بولس الأربع عشرة إلى قانون العهد الجديد، ولم يكن بولس أحد الحواريين الاثني عشر «الرسل»، ولم يلقَ المسيح، وتُستبعَد كتابات تلاميذ المسيح! سيما وأن رسائل بولس تنحى منحًى مجافيًا لتعاليم المسيح وهديه، ويقول جون لوريمر: (من الأهمية بمكان أن نذكر أن الوثائق الأولى كانت رسائل الرسول بولس، وقد ركَّزَت أساسًا على أمور لاهوتية، وتعاليم خاصة بالسلوك الشخصي والأمور الدينية، ولم يكن بها شيءٌ يُذكَر عن حياة المسيح أو أية اقتباسات من تعليمه أو صلواته أو أمثاله)[٢].

أما الأناجيل الأربعة المنتخَبة وفق شرط الإيمان البولسي فهي عبارة عن قصص تاريخية تروي سيرة النبي يحيى عليه السلام ـ يوحنا المعمدان عندهم ـ ثم سيرة عيسى عليه السلام، وما أحاط بحمله وولادته ونشأته من آيات، ثم دعوته وخُطَبه ومواعظه، وما يصاحب ذلك من آيات أجراها الله على يديه، ثم كيد اليهود له وسعيهم في قتله لدى الحكام الرومان، ثم محاكمته والحكم بصَلْبه، ودعوى صَلْبه فعلًا، ودَفْنه ثلاثة أيام، ثم قيامته من قبره، ومكوثه أربعين يومًا، ثم رفعه إلى السماء، ووعده حواريه بالعودة إلى الأرض ثانية.

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٧٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: (٨٣).

إن كنيسة أتباع بولس منذ عام ١٧٠م[١] وحتى المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في روما لعموم أساقفة الكاثوليك في الفترة (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥)[٢]، وإلى ساعتنا هذه تؤكد بجمودٍ وإصرار على مصداقية هذه الأناجيل الأربعة، وتخلع عليها ألقاب القداسة والثقة، وتدعو إلى التشبث بها، فقد جاء في وثيقة المجمع «دستور عقائدي» في الفصل الخامس «العهد الجديد» ما نصه: (لا يغرب على أحدٍ أن الأناجيل تفضل حقًّا سائر الكتب المقدسة، كانت ما كانت، ولو من العهد الجديد؛ لأنها شاهِدٌ ما بعده شاهِدٌ على مخلِّصنا، لكلمة الله المتجسِّد على سيرته وتعاليمه.

لقد اعتبرت الكنيسة في كل مكان وفي كل زمان أن الأناجيل الأربعة هي من وضع الرسل: إن ما كرز[٣] به هؤلاء بأمر من المسيح قد نقلوه فيما بعد، هم أنفسهم أو بعض مَن أحاط بهم من المعاونين، مدوِّنين إياه بوحي من الروح القدس، في أسفار أصبحت سند الإيمان، نعني بها الأناجيل الأربعة التي تنوَّعت شكلًا، على حسب ما وردت على يد متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا.

إن الكنيسة المقدسة -أمُّنا- قد أصرَّت دومًا، وتُصِرُّ الآن على التأكيد أن الأناجيل المتعارف عليها هي من الكتب التاريخية، من غير أن يساوِرَها أي شك، وأن هذه الأناجيل قد نقلت بصدقٍ وأمانة ما قام به يسوع ابن الله من أعمال، وما نُشِر من تعليم طيلة حياته بين الناس، لا ينوي منها إلا خلاصهم الأبدي، إلى اليوم الذي رُفِع فيه... إن الرسل بعد أن صعد الرب عنهم نقلوا إلى مستمعيهم كلَّ ما ساقه من أقوال، وكل ما أجراه من أفعال، بعد أن فقهوا كامل معانيها، على ضوء ما جرى له من أحداث مجيدة، وعلى ضوء ما استناروا به من إشراقة روح الحق، فكان أن دوَّن الكُتَّاب الإلهيون الأناجيل الأربعة

(١) يرجح النصارىٰ أن هذا التاريخ هو تاريخ اعتماد الأناجيل الأربعة قانونيًّا. انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية (٧٧)، مدخل إلىٰ العهد الجديد (١٠٨)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٧٧ـ٧٨).

(٢) سيتم التعريف بهذا المجمع علىٰ سبيل التفصيل في الباب الأول.

(٣) كَرَزَ كرزًا: وعظ ونادىٰ ببشارة الإنجيل، «سريانية»، المنجد في اللغة (٦٨٠).

مستخدمين أساليب متنوعة: فتارةً انتخلوا بعضًا مما وصل إليهم روايةً، أو مما صادف أن انتهى إليهم كتابةً، وطورًا دمجوا أحداثًا وأقوالًا عديدة في خلاصاتٍ موجزة، وحينًا شرحوا أمورًا مرتبطة بالمسيح على ضوء ما كانت عليه كنائسهم آنذاك، وحينًا اعتمدوا النمط الإرشادي في التبشير برسالة المسيح، لقد حرصوا في كل هذه الأساليب أن ينقلوا لنا دومًا عن يسوع حقائقَ ثابتة، وخالصة الصدق، لقد سطروا مؤلفاتهم هذه، فمكَّنونا من اختبار «قوة» التعليم الذي تسلَّمناه... سواء اعتمدوا على ذاكرتهم وما سجَّلوه بأنفسهم، أو ركنوا إلى أقوال أولئك الذين كانوا منذ البدء شهود عيان، وخدامًا للكلمة)[1].

إن هذا النص العقدي الذي نقلناه بكامله عن أحدث مجمعٍ من مجامع النصارى ليكشف عن حقائق مهمة، تتعلَّق بالأناجيل المعتمدة عند النصارى:

١ ـ أنهم يعترفون أن أيًّا من هذه الأناجيل ليس كلام الله، لا حقيقة ولا مجازًا، وليس من إملاء المسيح عليه السلام ابتداءً، بل يسلِّمون ـ ولا يستطيعون غير ذلك ـ بأن تلك الأناجيل عمل بشري مِن وَضْع الرسل أو معاونيهم، شأنهم شأن أي مصنِّف كتاب، فهم مجرد رواة ومؤرِّخين؛ نقلوا، ودوَّنوا، وانتخلوا، ودمجوا، وشرحوا، وسطروا، وسجَّلوا، وركنوا... إلخ من الأفعال البشرية المسندة إلى بشرٍ عاديين.

وغاية ما يُبَهْرِجُون به هذه «المذكرات» أن يزعموا أنها تمَّت بوحيٍ من روح القدس، وتلك دعوى عريضة يلوِّح بها النصارى كثيرًا لتمرير بدعهم وإفكهم، فإذا كان «الروح القدس» ينزل على الحواريين الاثني عشر «الرسل عندهم» ـ أعمال الرسل ٢/ ١ ـ ٤[2]، وعلى قورنيليوس الوثني، قائد المئة، وأهل بيته أثناء

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني دساتير ـ قرارات ـ بيانات: ترجمة: الأب حنا فاخوري ـ معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت حريصا، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م، (١٣٤ ـ ١٣٦).

(٢) العهد الجديد: (٣٧٦).

عظة بطرس ـ أعمال الرسل ١٠/ ٤٤ ـ ٤٦[(١)]، وغير ذلك من مزاعم، فأي مزية لأنبياء الله على سائر البشر؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

إن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام لا يمكن عقلًا أن يكون قصة حياته، وذهابه وإيابه، وقصة صَلْبه ودَفْنه ـ كما يزعمون ـ، وغاية ما تبلغ أن تكون بمنزلة «السيرة النبوية» أو «السنة النبوية»، التي يشترط لقبولها صحة الإسناد، وفق معايير منضبطة، وبناءً عليه فليست هذه الأناجيل هي «الإنجيل» المنزَّل من عند الله، بل اكتسبت هذا الاسم الشريف ظلمًا وافتياتًا على الحقيقة، وعرفًا فاسدًا كما قال أ. تريكو A. Tricot في تعليقه على ترجمة للعهد الجديد: (منذ وقتٍ مبكرٍ جدًّا، منذ بداية القرن الثاني، استقرَّ العرف على استخدام الكلمة «إنجيل» للإشارة إلى الكتب التي كان القديس جوستين، في نحو ١٥٠ يسميها أيضًا «مذكرات الرسل (« Memoires des Aportres[(٢)].

وحقيقة الأمر أن النصرانية البولسية طمست كتاب الله «الإنجيل»، واستعاضت عنه بهذه المرويات التاريخية لسيرة المسيح بعد أن لوَّثَتْها بتعاليم بولس الكفرية، وخلعت عليها لقب «الإنجيل»، وهكذا يتَّضح باعتراف المجمع الفاتيكاني الثاني، أضخم مجمع مسكوني للنصارى منذ وجودهم، فقدان الكنيسة للإنجيل الأصلي المُوحَى به من الله إلى عيسى بن مريم، ولو محرَّفًا كالتوراة. وتلك قاصمة الظهر.

٢ ـ أنهم يعترفون أن واضعي هذه الأناجيل ليسوا جميعًا من تلاميذ المسيح. وتلك حقيقة تاريخية لا يملك النصارى إنكارها، وتمثِّل طعنًا في ثبوت ما

---

(١) العهد الجديد: (٤٠٣).

(٢) عن: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ ـ ٧٨)، ولم يسلِّم د. موريس بوكاي استنادًا علىٰ دراسات متخصصين كاثوليك وبروتستانت علىٰ وجود تلك الكتب في بداية القرن الثاني، وأقصىٰ تاريخ ممكن هو ١٤٠م.

تضمنته من أخبار بسبب انقطاع السند.

فأهَمُّ هذه الأناجيل وأولها في الترتيب لدى الكنيسة «إنجيل متى» المنسوب إلى أحد الحواريين، ويدور جدلٌ عميق بين دارسي العهد الجديد حول صحة نسبة الإنجيل إلى متى الحواري، وقد خلص د. موريس بوكاي إلى القول: (لنَقُل صراحةً إنه لم يَعُد مقبولًا اليوم القول إنه أحد حواري المسيح)[١]، كما يدور جدل حول تاريخ تدوينه، وقد خلص الشيخ محمد أبو زهرة[٢] إلى القول: (والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سَدُّه)[٣]، كما أن مترجمه من العبرانية إلى اليونانية مجهول تمامًا.

أما إنجيل مرقص، وهو أقدمها من حيث الظهور التاريخي، وذلك بعد منتصف القرن الأول، ربما بين ٦٥ ـ ٧٠م[٤]، فليس مؤلِّفه من الحواريين قطعًا، لكنه تتلمذ لخاله «برنابا»، ورافَقَه في رحلته مع بولس إلى إنطاكية، وثَمَّ خلاف بين مؤرخي النصرانية حول كاتبه الحقيقي أهو بطرس عن مرقص، أم هو مرقص بتوجيه من بطرس، أم مرقص بغير توجيه من بطرس[٥]، وهذا «الاضطراب» ولا ريب يوهن النسبة، فضلًا عن العيوب المتعلقة بالتحرير والسرد القصصي المضطرب[٦].

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٣).

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة، من الشخصيات البارزة في العصر الحديث وُلِد سنة ١٣١٦هـ بمصر، وتعلَّم بمدرسة القضاء الشرعي وتولىٰ تدريس العلوم الشرعية والعربية، ثم تدرج حتىٰ أصبح أستاذًا محاضرًا للدراسات العليا في الجامعة، وعضوًا للمجلس الأعلىٰ للبحوث العلمية، من تصانيفه: «أصول الفقه»، «الوحدة الإسلامية»، «أبو حنيفة»، «مالك»، «الشافعي»، «أحمد»، توفي سنة ١٣٩٤هـ، الأعلام: (٦/ ٢٥).

(٣) محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ مصر، الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ، (٤٥)، وانظر: إظهار الحق: (١/ ١٥١).

(٤) انظر: تاريخ الكنيسة: (٨٣)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

(٥) انظر: محاضرات في النصرانية: (٤٧)، وإظهار الحق: (١/ ١٥٢).

(٦) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

أما إنجيل «لوقا» فقد ظهر بعد مرقص وقبل متى، ولوقا طبيب أنطاكي وليس من الحواريين، ولا من تلاميذ الحواريين، بل هو تلميذ لبولس، صَحِبَه في بعض أسفاره.

أما إنجيل «يوحنا» فآخرها ظهورًا، ويختلف عن الثلاثة السابقة اختلافًا بيِّنًا في ترتيبه وأسلوبه، بل ومضامينه العقدية، حيث إنه الإنجيل الوحيد الذي صرَّح بألوهية المسيح، والنصارى ينسبونه إلى الحواري يوحنا بن زبدي الصياد، حِبّ المسيح عليه السلام ـ كما تحكي كتبهم ـ. ولكن هذه النسبة أيضًا محل خلاف. يقول د. موريس بوكاي: (إن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس تحدِّد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحريرٍ قام به يوحنا الحواري، وإن كان ذلك احتمالًا غير مستبعَد برغم كل شيء، ولكن كل شيءٍ يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حاليًّا ينتمي إلى أكثر من كاتبٍ واحد)[(١)]، فلا يخلو الأمر من أن يكون قد كتبه «يوحنا» آخر، ويؤيد هذا تأخُّر ظهوره رغم نسبته إلى أحد الحواريين، أو أن يكون وضع أصله يوحنا الحواري، ثم دسَّ فيه إضافات ليست منه[(٢)].

وعلى كلا الاحتمالين فالباعث الرئيس لاعتماده قانونيًّا، وربما لتأليفه، إدراج عقيدة ألوهية المسيح في الأناجيل، بسبب خُلُوِّ الثلاثة السابقة منها؛ إذ كيف يُعقَل أن تهمل الأناجيل هذه العقيدة البولسية الأساسية؟!

وبهذا تسقط نسبة الديانة النصرانية إلى سُنَّة عيسى عليه السلام الشفهية، كما سقطت نسبتها إلى كتاب الله الإنجيل، وحُقَّ لنا أن نقول: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ [الأحقاف]، فلا وحي ولا أثر.

٣ ـ أنهم يعترفون أن هذه الأناجيل الأربعة متنوعة شكلًا، وأسلوبًا، وتتفاوت في طريقة التصنيف وفي النمط الإرشادي... إلخ، وهذا كافٍ بالقطع بأنها ليست

(١) المرجع السابق: (٩٤).

(٢) انظر: إظهار الحق: (١/ ١٥٤ ـ ١٥٧).

من عند الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، فتحقُّقُ جواب «لو» دليلٌ على ثبوت شرطه، ومع ذلك يزعم النصارى أنها نقلت كل أقوال المسيح وأفعاله بأمانةٍ وصدق، والدراسات النقدية الجادة والمتجرِّدة من قِبَل النصارى أنفسهم أثبتت وجود ثغرات كبيرة، وتناقُضات صارخة، تجعل قارئها من النصارى -فضلًا عن غيرهم- في حيرةٍ بالغة لا مخرج منها إلا باليقين التام أنها محاولات بشرية تمَّت في أجواء خصومة وتحزُّب، حملت محرِّريها، سواء كانوا مَن نُسِبَت إليهم فعلًا، أو مَن نَسَبُوها إلى غيرهم، وهم منها براء، على التحريف.

وبإزاء التوثيق الفاتيكاني المطلق لهذه الأناجيل الأربعة تقول دراسة متأنية تَوفَّر عليها أكثر من مئة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت، كمقدمة للترجمة المسكونية للعهد الجديد، ونشرت عام ١٩٧٢م أن هذه الأناجيل (تتكيَّف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس، وتعبِّر عن تأمل في الكتاب المقدس، وتصحِّح الأخطاء، وترد بهذه المناسبة على حُجَج الخصوم، بهذا الشكل جمع ودوَّن المبشرون، كلٌّ بحسب وجهة نظره، ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهية)[١]، ويقول الأب كايننجسر: (لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل، فهي كتابات ظرفية وخصامية حدَّد محرِّرُوها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح)[٢].

وقد أدَّى هذا التنوع إلى حصول تناقضات كبيرة في الحدث الواحد، مما يقطع بعدم مصداقيتها، وأن النصارى أسَّسوا بنيانهم على شفا جُرُفٍ هارٍ، وتفاصيل هذه التناقضات مبسوطةٌ في الكتب المتخصصة في مجادلة أهل الكتاب[٣].

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٩).

(٢) المرجع السابق: (٨٠).

(٣) انظر: علىٰ سبيل المثال: ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: (٢/ ٢ ـ ٣٨)، الجواب

وهكذا حُجِب النصارى عن نور الحق، وانقطعت صلتهم بمشكاة النبوة المضيئة بسبب مكر بولس وأتباعه الذين غيَّبوا الإنجيل الحق، واستعاضوا عنه برسائل بولس الكفرية.

العقائد النصرانية:

أدخل بولس جملة من العقائد الوثنية المستمَدة من عقائد الأمم الكافرة على النصارى، متَّخِذًا من شخص المسيح عليه السلام مظهرًا لتلك العقائد، كما أنه ما زال يفتل في الذروة والغارب لفصل النصارى عن شريعة موسى عليه السلام التي جاء عيسى عليه السلام متمِّمًا لها، لا ناقضًا، حتى فسخهم منها.

وقد جُوبِهَ في العقود الأولى التالية لرفع المسيح برفضٍ من الحواريين وكبار التلاميذ بعد أن تكشَّف لهم فساد طويته ومذهبه، وقد كان من أوائل الدعاة «الرسل» الذين تبيَّنوا أمره «برنابا»، رغم أنه هو الذي عرَّف به أولًا وزكَّاه أمام التلاميذ، فقد استصحبه في بعض أسفاره، ثم نشأت بينهما مشادة ومشاجرة شديدة في أنطاكية يصوِّرها سفر أعمال الرسل ١٥/ ٣٧ ـ ٤٠[١] خصومة شخصية حول استصحاب مرقص معهما، ومثل هذا الأمر لا يوجب هذا الافتراق، فلا بد أن برنابا وجد منه ما يستحق النكير الشديد، ولهذا ورد في الكتاب المنسوب إلى برنابا في مقدمته ذِكْر الذين أضلَّهم الشيطان بدعوى بُنُوَّةِ المسيح لله، وتَرْك الختان: (الذين ضلَّ في عدادهم أيضًا بولص)[٢]، وفي آخر فصلٍ منه: (وآخرون بَشَّروا ولا يزالون يُبَشِّرون بأن يسوع هو ابن الله، وقد خدع في عِدادهم بولص)

الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، تحفة الأريب في الرد علىٰ عباد الصليب، للميورقي، (٢٠٣ ـ ٢٢٢)، إظهار الحق، لرحمت الله الهندي، (١/ ١٨٧ ـ ٢٤٦)، (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٥٢)، مناظرات الداعية المعاصر أحمد ديدات للنصارىٰ، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ ـ ١٣٩).

(١) العهد الجديد: (٤١٨).

(٢) إنجيل برنابا: ترجمة: د. خليل سعادة، تحقيق: سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، (٣٨)، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا (١٣٢ ـ ١٣٩).

٥/ ٢٢٢[١].

وثَمَّ إنجيل آخر يسمى الأغنسطي ينسج على نفس المنوال في مقدمته وخاتمته في التنديد ببولس[٢]، كما أن قارئ رسائل بولس يلمس بشكل واضح الروح العدائية التي كان يُواجَه بها بولس من قِبَل أتباع المسيح أينما توجَّه، مما يحمله على النيل منهم، ومحاولة إثبات استقلاله عنهم بكونه تلقَّى عن المسيح مباشرة ـ رغم أنه لم يَلْقَه ـ في الحادثة التي يزعم أنها جرت له على طريق دمشق[٣].

● ففي رسالته إلى أهل غلاطية يُصدِّرها بقوله: (من بولص وهو رسول، لا من قِبَل الناس، ولا بمشيئة إنسان، بل بمشيئة يسوع المسيح والله الآب الذي أقامه بين الأموات، ومن جميع الإخوة الذين معي إلى كنائس غلاطية... عجبت لسرعة ارتدادكم هذا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى بشارة أخرى، وما هي بشارة أخرى، بل هناك قوم يُلْقُون البلبلة بينكم، وبُغْيَتُهم أن يبدِّلوا بشارة المسيح... فأُعلِمُكم أيها الإخوة بأن البشارة التي بشَّرْتُ بها ليست على سنة البشر؛ لأني ما تلقيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل بوحي من يسوع المسيح) ١/ ١ ـ ٢، ٦ ـ ٧، ١١ ـ ١٢[٤]، فهو هنا يشير إلى نوعين من البشارة موجَّهَتَيْن إلى نصارى ذوي كنائس، ويشير إلى مخالفين له يبلبلون تعاليمه، ويؤكد أنه يتلقى الوحي مباشرة من المسيح، فليس بحاجة إلى مرجعية الحواريين، ويتَّضح الخلاف الناشب بين الفريقين مع قَدْر أكبر من تحديد الخصوم حين يقول: (أما الأعيان[٥] ـ ولا يهمني ما كان شأنهم: أن الله لا يحابي أحدًا من الناس ـ... ولكن

(١) إنجيل برنابا: (٢٩٧).
(٢) انظر: مقدمة مترجم «إنجيل برنابا» د. خليل سعادة: (٢٧).
(٣) تقدم ذكرها: (٦٦).
(٤) العهد الجديد: (٥٧٢ ـ ٥٧٣).
(٥) قال المعلق: أي الاثني عشر، العهد الجديد: (٥٧٤) حاشية (٦)، يعني الحواريين.

لما قدم صخر[١] إلى أنطاكية قاوَمَتْه وجهًا لوجه؛ لأنه كان يستحق اللوم... حتى إن برنابا انقاد هو أيضًا إلى ريائهم، فلما رأيت أنهم لا يسيرون سيرة قويمة، كما تقضي حقيقة البشارة، قلت لصخر أمام جميع الإخوة: إذا كنت أنت اليهودي تعيش عيشة الوثنيين، لا عيشة اليهود، فكيف تُلزِم الوثنيين بأن يسيروا سيرة اليهود) ٢/ ٦، ١١، ١٣ ـ ١٤[٢]، ينكر بذلك على كبير الحواريين «بطرس»، وأحد كبار التلاميذ «برنابا» عدم تبشيرهم الوثنيين القُلف، ونهيهم المؤمنين عن مؤاكلتهم، مع زعمه أن بطرس كان يؤاكلهم.

● ومما يدل على حجم الانقسام الذي أحدثه بين النصارى ما جاء في رسالته الأولى لأهل قورنتس: (كل واحد منكم يقول: أنا لبولس، وأنا لأُبلُّس، وأنا لصخر، وأنا للمسيح) ١/ ١٢[٣].

وأخطر العقائد الكفرية التي دسَّها بولس في الإيمان النصراني ثم صارت مع مرور الزمن أركان العقيدة النصرانية ما يلي:

أولًا: دعوى ألوهية المسيح وربوبيته:

● (في البدء كان الكلمة، والكلمة كانت لدى الله، والكلمة هو الله) إنجيل يوحنا ١/ ١[٤].

● (أجابه توما: ربي وإلهي! فقال له يسوع: ألِأَنَّك رأيتني آمنتَ؟ طوبى للذين يؤمنون ولم يروا)، إنجيل يوحنا ٢٠/ ٢٨ ـ ٢٩[٥].

● (وهو فوق كل شيء إلهٌ مبارك أبد الدهور)، رسالة بولس إلى أهل رومة

---

(١) لقب لكبير الحواريين «بطرس».

(٢) العهد الجديد: (٥٧).

(٣) العهد الجديد: (٥١١)، وانظر: النصرانية تاريخًا وعقيدة، وكتبًا ومذاهب: د. مصطفىٰ شاهين، دار الاعتصام، القاهرة، طبعة ١٩٩١م، (١٤٨ ـ ١٥٣).

(٤) العهد الجديد: (٢٨٩).

(٥) العهد الجديد: (٣٥٨).

٩/ ٥[١].

● (ولا يستطيع أحدٌ أن يقول: «يسوع ربٌّ» إلا بإلهامٍ من الروح القدس) رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس ١٢/ ٣[٢].

● (فليعلم يقينًا بيت إسرائيل أجمع، أن يسوع هذا الذي صلبتموه، قد جعله الله ربًّا ومسيحًا) أعمال الرسل ٢/ ٣٦[٣].

● (فدنوا منه، وأيقظوه، وقالوا له: يا رب، نجِّنا، لقد هلكنا) إنجيل متى ٨/ ٢٥[٤].

والأناجيل الأربعة تعجُّ بوصف المسيح بـ «الرب» ومناداته بذلك بما يشق حصره.

ثانيًا: دعوى بنوَّة المسيح:

● (... فقال لهم: ومَن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي، فأجابه يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا، فليس اللحم والدم كشفَا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات) إنجيل متى: ١٦/ ١٥ ـ ١٧[٥].

● (وإذا صوتٌ من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت) إنجيل متى ٣/ ١٧[٦].

● (فقال له عظيم الكهنة: أستحلفك بالله الحي لتقولن لنا، هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: هو ما تقول) إنجيل متى ٢٦/ ٦٣ـ ٦٤[٧]، وعند مرقص

(١) العهد الجديد: (٤٨٧).
(٢) العهد الجديد: (٥٢٨).
(٣) العهد الجديد: (٣٧٩).
(٤) العهد الجديد: (٥٩).
(٥) العهد الجديد: (٨٢ ـ ٨٣).
(٦) العهد الجديد: (٤٣).
(٧) العهد الجديد: (١١٢).

(أنا هو) ١٤/ ٦٢[١].

- (لأنهم يصلبون ابن الله ثانية) رسالة بولس إلى العبرانيين ٦/ ٦[٢].
- (فأخذا يصيحان: وما لنا ولك يا ابن الله) إنجيل متى ٨/ ٢٩[٣].

ثالثًا: مقالة التثليث:

- (اذهبوا وتلمِذُوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم: الآب والابن والروح القدس) إنجيل متى ٢٨/ ١٩[٤].
- (ولتكن نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم جميعًا) رسالة بولس إلى أهل قورنتس ١٣/ ١٣[٥].

إن هذه العقائد الثلاث: ألوهية المسيح وبنوَّته لله والثالوث الأقدس عقائد متلازمة:

(فالمسيحيون يعتبرون أن شخص يسوع البَشَري هو «ابن» الله الذي يشترك مع الله «الآب» في الألوهية والأزلية، وفي إنجيل يوحنا ١/ ١ ـ ١٨ أن يسوع هو كلمة الله الأزلية... التي صارت جسدًا ـ أي كائنًا إنسيًّا ـ فعاش يسوع إنسانًا مملوءًا نعمةً وحقًّا مُظهِرًا للعالم المجد الذي حَلَّ به لكونه «الابن» الوحيد لله «الآب».

وعلى هذا الأساس... فإن المسيحية تَعُدُّ الله «ثالوثًا أقدسًا» غير قابل للتجزئة تتوحَّد فيه ثلاثة أقانيم إلهية ـ باليونانية Hypostasis مادة طبيعية، ماهية ـ وهذه الأقانيم الثلاثة هي «الآب» وهو الله المنزَّه؛ و«الابن» وهو الله المتمثِّل

---

(١) العهد الجديد: (١٧٣).
(٢) العهد الجديد: (٧٠٢).
(٣) العهد الجديد: (٥٩).
(٤) العهد الجديد: (١١٩).
(٥) العهد الجديد: (٥٦٤).

بالمسيح؛ والروح القدس وهو «الرب المحيي» الذي يمثِّل الوساطة الإلهية في الكون، التي تكلمت تاريخيًّا على ألسنة الأنبياء من بني إسرائيل، والتي تستمر في التبيان عن نفسها من خلال «شركة القديسين»، مشكِّلة بذلك الرابطة الأبدية بين الإلهي والإنساني على الأرض)[١].

لعل هذه الصياغة الحديثة للعقائد الثلاث السابقة تحاول جاهدة أن تجلي الغموض الذي يكتنف النصوص النصرانية القديمة حول عقيدة التثليث من جنس قول يوحنا: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله، كان في البدء لدى الله، به كان كل شيء، وبدونه ما كان شيءٌ مما كان، فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس... لم يكن هو النور، بل جاء ليشهد للنور، كان النور الحق الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم، كان في العالم، وبه كان العالم، والعالم لم يعرفه... والكلمة صار بشرًا، فسكن بيننا، فرأينا مجده، مجدًا من لدن الآب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق... إن الله ما رآه أحدٌ قط، الابن الوحيد الذي في حضن الأب هو الذي أخبر عنه) ١/ ١ ـ ٤، ٨ ـ ١٠، ١٤، ١٨[٢].

ومن جنس نشيد بولس: (قد أُظهر في الجسد، وأُعلِن بارًّا في الروح، وتراءى للملائكة، وبُشِّر به عند الوثنيين، وأُومِنَ به في العالم، ورُفِع في المجد) رسالة بولس الأولى إلى طيموتاوس ٣/ ١٦[٣].

إن العقل السليم ليَحار أمام هذه الجمل والمقاطع، ويتردَّد الذهن جيئةً وذهابًا بين مدلولاتها المحتملة، فما يكاد يفهم أن المراد بجملةٍ ما «الله»، حتى يطوِّح به النص نحو «الابن»، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن عامة العقلاء.

وحقيقة الأمر ـ مهما حاول النصارى قديمًا وحديثًا أن يتنصَّلوا من هذه الحقيقة الدامغة ـ أنهم يُثبتون ثلاثة آلهة منفصلة، ويخلعون على كلٍ منها

(١) المسيحية في العالم العربي: (١٦).
(٢) العهد الجديد: (٢٩٨ ـ ٢٩١).
(٣) العهد الجديد: (٦٦٣ ـ ٦٦٤).

خصائص الألوهية والربوبية، ولا تغني عنهم مماحكتُهم اللفظية الممتنعة ببداهة العقول، كقولهم: الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحد، تثليث في وحدة، ووحدة في تثليث.

فها هو ذا يوحنا يقول في إنجيله: (فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، فكذلك الابن يحيي من يشاء؛ لأن الآب لا يدين أحدًا، بل جعل القضاء كله للابن) ٥/ ٢١ ـ ٢٢[1].

فأين القوم من توحيد الربوبية، بله توحيد الألوهية والعبادة؟!

وقد أكفر الله النصارى بهذه المقالة الفاجرة التي لا تصدر إلا ممن لم يَقْدِرِ الله حق قَدْرِه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ثم دحض مقالتهم: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة]، وكرَّر تكفيرهم، وأقام عليهم الحجة البالغة من قول المسيح نفسه، وحُكمه على مَن وقع منه ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

وأما دعوى البنوَّة فمهما حاولوا تصويرها تصويرًا فلسفيًّا للنأي بها عن صورة الولادة البشرية، فإن مجرد نسبة الولد لله فِرية عظيمة مهولة لا انفكاك لهم عن عارها وشؤمها، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ

(١) العهد الجديد: (٣٠٢).

ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥] فلأجل هذه المقالة البائرة قاتَلَهم الله، ومَن قاتَلَه الله قتله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

وأما أسطورة «التثليث» بقولهم: «إن الله ثالث ثلاثة» فمن أعظم أسباب شقاء القوم، فهم يعجزون عن تقريرها بعبارة معقولة مقبولة، ويُقِرُّون بذلك[(١)]، فيَفِرُّون إلى ما ينافي العقل، وبئس المفر، فإن النصوص الشرعية الصحيحة قد تأتي بمحارات العقول، ولكنها لا تأتي بمحالات العقول[(٢)]، فالعقل يَحار ويَكَلُّ عن إدراك كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، أو أحوال اليوم الآخر، لكنه لا يحكم باستحالة ذلك، يحكم قطعًا بأن التوحيد ينافي التثليث، قال ابن كثير رحمه الله: بعد ذِكْر تفرُّقهم إلى مَلَكية ويعقوبية ونسطورية: (وكل هذه الفِرَق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم، هل اتحدَا أو ما اتحدَا، بل امتزجَا، أو حلَّ فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفِّر الفِرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة)[(٣)].

ولما كانت خرافة التثليث من أسْفَهِ المقالات زجرهم الله زَجْرَ السفهاء الذين يُلقَّنون الحق ولا يُنظَر في قولهم لتهافُته، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟

---

(١) نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله عن أحد مصنفيهم بعد تقريره عقيدة التثليث قوله: (قد فهمنا ذلك علىٰ قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهمًا أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض)، محاضرات في النصرانية: (١٠٣)، وسوف يفهمون حقيقة الأمر جيدًا إذا ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ *﴾ [ق: ٢١، ٢٢].

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٥/ ٢٩٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٧٩).

ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

وقد أقام الله دليلًا عقليًّا قاطعًا لمقالة مدَّعِي الولد ومشركي الألوهية، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

وفي هذه الأدلة القرآنية كفاية في نقض عقائد النصارى، وأما اللوازم الفاسدة التي تترتَّب عليها فكثيرة واضحة مبسوطة في مظانها[1]، قال ابن القيم[2] رحمه

---

(١) انظر: في الرد علىٰ النصارىٰ:
- الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، لابن حزم.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية.
- المختار في الرد علىٰ النصارىٰ، للجاحظ.
- الرد الجميل لألوهية عيسىٰ بصريح الإنجيل، للغزالي.
- أدلة الوحدانية في الرد علىٰ النصرانية، للقرافي.
- الرد علىٰ النصارىٰ، للجعفري.
- هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، لابن القيم.
- الأجوبة الجلية في دحض الدعوات النصرانية، للدمشقي الطيبي.
- تحفة الأريب في الرد علىٰ أهل الصليب، للميورقي.
- إظهار الحق، لرحمت الله الهندي.
- المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، لمحمد وصفي.
- حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، لعلي الجوهري.
- المناظرة الأولىٰ، لعلي الجوهر.
- النصرانية: تاريخًا وعقيدة وكتبًا ومذاهب، لمصطفىٰ شاهين.
- حقيقة النصرانية، لهشام أحمد عبد الحي، مناظرات الداعية أحمد ديدات.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية، لنخبة من المسلمين والنصارىٰ.

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، من كبار العلماء المحققين، والمصنفين المتقنين، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتىٰ كان ينتصر لجل أقواله، وهو الذي هذب

الله: (إن هذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقلٍ ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق، وجزءًا منه، وإلهًا آخر معه، وأنِفُوا أن يكون عبدًا له.

والثاني: تنقُّصُ الخالق وسَبُّه ورميه بالعظائم... وبالجملة فلا نعلم أمَّةً من الأمم سَبَّت ربها ومعبودها وإلهها بما سَبَّت به هذه الأمة، كما قال عمر: إنهم سبوا الله مسبَّةً ما سَبَّه إياها أحدٌ من البشر)[1]، يريد اعتقادهم أن عيسى هو الله مع ما وقع له من حملٍ ووضعٍ ورضاعٍ وسائر صفات البشر، ثم ما وقع عليه من إهانةٍ ولطمٍ وبصق وصَلبٍ في زعمهم.

رابعًا: أسطورة الخطيئة والتكفير والخلاص بالصلب والفداء:

(فكما أن الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس لأنهم جميعًا خطئوا... فإذا كانت جماعة الناس قد ماتت بزلة إنسان واحد، فبالأَوْلَى أن تفيض على جماعة الناس نعمة الله والعطاء الممنوح بنعمة إنسان واحد، ألا وهو يسوع المسيح) رسالة بولس إلى أهل رومة ٥/ ١٢، ١٤ ـ ١٥[2].

● (مع أننا كنا أمواتًا بزلَّاتنا، أحيانًا مع المسيح «بالنعمة نلتم الخلاص»، وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماوات في المسيح يسوع، فقد أراد أن يُظهر

كتبه ونشرها، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه وطيف به علىٰ جمل مضروبًا بالعصا، وكان حسن الخلق محبوبًا عند الناس، وألف تصانيف كثيرة منها «إعلام الموقعين»، و«أحكام أهل الذمة»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة»، وغيرها، وكان مولده سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ، الأعلام (٦/ ٥٦)، الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠)، البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤)، آداب اللغة (٣/ ٢٤٥)، شذرات الذهب (٦/ ١٦٨)، التيمورية (٣/ ٢٥١).

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٩٧ـ٣٩٨).

(٢) العهد الجديد: (٤٧٨).

للأجيال الآتية نعمته الفائقة السعة بلطفه لنا في المسيح يسوع) رسالة بولس إلى أهل أفسس ١/ ٥ ـ ٧[١].

● (هو وسيط لعهد جديد، بوصية جديدة، حتى إذا مات فداءً للمعاصي المرتكَبة في العهد الأول نال المدعوون الميراث الأبدي الموعود؛ لأنه حيث تكون الوصية فلا بد أن يثبت موت الموصي... إنه لم يظهر إلا مرةً واحدة في نهاية العالم ليزيل الخطيئة بذبيحة نفسه... قُرِّب مرة واحدة ليزيل خطايا جماعة الناس، وسيظهر ثانية بمعزل عن الخطيئة للذين ينتظرونه للخلاص) رسالة بولس إلى العبرانيين ٩/ ١٥ ـ ١٦، ٢٦، ٢٨[٢].

● (جميع الناس قد خطئوا فحرَّموا مجد الله، ولكنهم بُرِّروا مجانًا بنعمته، بحكم الفداء الذي تم في المسيح يسوع، ذاك الذي جعله الله كفارةً في دمه بالإيمان ليُظهر برَّه، بإغضائه عن الخطايا الماضية في حِلْمه تعالى، ليُظهر برَّه في الزمن الحاضر، فيكون هو بارًّا، ويبرر مَن كان من أهل الإيمان بيسوع) رسالة بولس إلى أهل رومة ٣/ ٢٣ ـ ٢٦[٣].

إن هذه العقائد المتلازمة من سريان خطيئة آدم إلى ذريته، وحصول التكفير والخلاص بافتداء المسيح نفسه عن البشرية على خشبة الصليب، منظومة فلسفية وضعها بولس وأقام عليها سوق النصرانية، ومع أن الأناجيل الأربعة تفيض في ذكر حادثة الصلب المزعومة، بما يجعلها من المعلوم عندهم بالضرورة، إلا أنها تعرضها عرضًا مأساويًّا مُحزِنًا، وتُظهِر المسيح ضحية لخيانة يهوذا الإسخريوطي، وليس بطلًا فدائيًّا يقوم بمهمة شريفة سامية كما يصوِّر بولس في رسائله[٤]، ويقرِّرها أتباعه على النحو التالي: (محبة الله ظهرت في

(١) العهد الجديد: (٥٩٢).

(٢) العهد الجديد: (٧٠٨).

(٣) العهد الجديد: (٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٤) انظر: متىٰ (٢٧/ ١١ ـ ٦١)، مرقس (١٥/ ١ ـ ٤٧)، لوقا (٢٣/ ١ ـ ٤٩)، يوحنا (١٨/ ٢٨ ـ ٣٧).

تدبيره طريق الخلاص للعالم؛ لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعدًا عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته، وفيض نعمته رأى أن يقرِّبه إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم؛ ليخلِّص العالم... وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب، ولهذا صُلِب، ورضي الله عن صلبه وهو ابنه، ودُفِن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيامٍ من قبره)[1].

وكل هذا مما أدخله بولس على دين المسيح، وأفسد به أهل مِلَّته، وابتدعه من عند نفسه، وهو طعن في عدل الله سبحانه وحكمته، فكيف يؤخذ اللاحق بجريرة السابق؟ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ [النجم]، فكيف إذا كانت خطيئة آدم عليه السلام مغفورة، وصاحبها مجتبًى مَهْدي: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه]، وثالثًا: كيف إذا لم يكن عيسى عليه السلام قد صُلِب: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء][2].

خامسًا: دعوى دينونة المسيح:

● (وإذا جاء ابن الإنسان في مجده، تواكبه جميع الملائكة، يجلس على عرش مجده، وتُحشَر لديه جميع الأمم، ويفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء، فيُقِيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مَن باركهم أبي، فرثوا الملكوت المُعَدَّ لكم منذ إنشاء العالم... ثم يقول للذين عن الشمال: إليكم عني أيها الملاعين

(١) محاضرات في النصرانية: (١٠٧).

(٢) وانظر: في إبطال عقيدة الصلب والفداء: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ١٠٨ ـ ١١٦).

إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته... فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية) إنجيل متى ٢٥/ ٣١ـ ٣٤، ٤١، ٤٦[١].

● (الحقَّ الحقَّ أقول لكم: تأتي ساعة ـ وقد حضرت الآن ـ فيها يسمع الأموات ابن الله، والذين يسمعونه يحيون، فكما أن الأب له الحياة في ذاته، فكذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته، وأوْلَاه سلطة إجراء القضاء؛ لأنه ابن الإنسان، لا تعجبوا من هذا فتأتي ساعة فيها يسمَعُ صوته جميع الذين في القبور فيخرجون منها، أما الذين عملوا الصالحات فيقومون للحياة، وأما الذين عملوا السيئات فيقومون للقضاء) إنجيل يوحنا ٥/ ٢٥ـ ٢٨[٢].

فهذان النصَّان الصريحان من الأناجيل، وأمثالهما من رسائل بولس، يكشفان عن اعتقاد النصارى: أن الذي سيتولى الفصل بين الخلائق يوم القيامة والجزاء على الأعمال هو المسيح وليس ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة]، وهذا من شركهم في الربوبية، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار]، ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية]، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء].

وفي حديث الشفاعة الطويل أن الناس في الموقف يأتون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ليشفعوا لهم عند ربهم في فصل القضاء، فيعتذرون،

---

(١) العهد الجديد: (١٠٧).

(٢) العهد الجديد: (٣٠٢ـ ٣٠٣).

وكل واحدٍ منهم يقول: (نفسي نفسي)[١]، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فينتدب لها، وهذا غاية المجد ذلك اليوم، وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء]، وهو الشفاعة لأهل الموقف أن يقضي الله بينهم.

وهذه العقائد النصرانية التي أدخلها بولس، مستمَدةٌ في الواقع من النِّحَل الوثنية، كما أخبر سبحانه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة]، قال ابن القيم رحمه الله: (ثم أخذ دين المسيح في التبدُّل والتغيُّر، حتى تناسخ واضمحل، ولم يَبْقَ بأيدي النصارى منه شيء، بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّاد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسَّدة إلى عبادة الصور التي لا أصل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل، إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس)[٢].

وقد اعتنى بعض المعاصرين الحاذقين بالتنظير بين العقائد النصرانية والعقائد الوثنية، والمقابلة بينهما بما يكشف كشفًا جليًّا عن مضاهاة بولس لقول الذين كفروا من قبل، واستمداده منهم[٣].

المجامع النصرانية:

ظل الصراع قائمًا بين أتباع المسيح وأتباع بولس، وكان الظهور للمؤمنين الموحِّدين حتى عام ٧٠م حين حصار أورشليم من قِبَل الرومان، وفتكهم

---

(١) رواه البخاري: (٥/ ٢٢٦).

(٢) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٨٤).

(٣) انظر: كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: لمحمد بن طاهر التنير البيروتي، ت (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)، تحقيق: د. محمد بن عبد الله الشرقاوي، دار عمران ـ بيروت، مكتبة الزهراء ـ القاهرة، الطبعة الأولىٰ (١٤١٤هـ ١٩٩٣م)، وانظر: أيضًا: محاضرات في النصرانية: (٣٣ـ ٣٩).

بأهلها من اليهود، وحيث إن أتباع المسيح كانوا متمسكين بالناموس الموسوي فقد بدوا في أعين الرومان يهودًا فتعرَّضوا للاضطهاد والشتات، في حين بدَا البولسيون مجافين للمظاهر اليهودية، فساعَدَ ذلك في تمكينهم، ومع ذلك فقد احتاج أتباع بولس إلى عدة قرون لخلخلة العقائد الصحيحة، وزرع العقائد الوثنية في أجيال النصارى، ونظرًا للاضطهاد العام الذي لقيه النصارى في أرجاء الدولة الرومانية وتَخفِّي علمائهم، وصعوبة التواصل بينهم، فقد حال ذلك دون كشف الشبهات، ومقاومة العقائد الدخيلة، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا، ولما اطمأن القوم في مطلع القرن الرابع وتنفَّسوا الصعداء، وجهروا بما يعتقدون تكشَّف الحال عن خلافٍ عريض، وانقسام عميق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلا يجمعهم سوى مجرد الاسم، وفوجئ الإمبراطور الروماني قسطنطين لما اعتنق النصرانية عام ٣١٢م بهذا التشرذم، فأراد أن يجمع كلمتهم في مجمع يضم رؤوسهم، مفتتحًا بذلك سلسلة من المجامع المتعاقبة لتقرير العقيدة النصرانية، ونَبْذ ما يخالفها.

مجمع نيقية:

هو أول مجمع مسكوني، وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين، فانعقد في مدينة نيقية في شهر مايو عام ٣٢٥، وحضره ألفان وثمانمئة وأربعون أسقفًا، لمناقشة عقيدة آريوس، وهو كاهن في كنيسة الإسكندرية، الذي أنكر إنكارًا شديدًا أن يكون «ابن الله» مساوٍ لـ«الأب» في الجوهر، (وحَظِيَت هذه العقيدة الأريوسية، وما رافقها من تعاليم بالقبول السهل لدى جماعات مسيحية في أرجاء مختلفة من العالم الروماني، وما يحيط به من مناطق، وأفضى هذا إلى بدعة حظيت بانتشار شعبي واسع، فهددت وحدة الكنيسة كما لم تُهدَّد من قبل، وقد جعلت هذه البدعة من «الابن» في الثالوث الأقدس، وكذلك ضمنيًّا من الروح القدس، وسيطين للآب، وكائنين مخلوقين، الأمر الذي حول المسيحية إلى نوعٍ متطوِّر من الإيمان اليهودي، يجعل الآب هو الله الخالق، وهو وحده الأبديّ، لكن المذهب الآريوسي أقرَّ في الوقت نفسه الماهية الإلهية للابن وللروح القدس في

الثالوث، وبذلك خرج عن مبدأ التوحيد؛ إذ جاء في الواقع معترفًا بثلاثة آلهة: واحدٍ أولي، واثنين ثانويَّيْن)[١].

وكان هذا الحشد الكبير من الأساقفة يمثِّلون طوائف شتى متباينة الأقوال في أصول الإيمان، فأتاح لهم قسطنطين أن يتناظروا ويتجادلوا، وشارك في تلك المناقشات آريوس نفسه، ثم جنح قسطنطين إلى مقالة أتباع بولس القائلين بتأليه المسيح وعددهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفًا فقط (أي: ١٥,٥٪ من المجتمعين) واستبعد من سواهم، وفوضهم أن يصُوغُوا قانونًا للإيمان يحمل عليه الكافة، ويبدِّع مَن لم يقل به، فكان مجمع نيقية الذي تمخض عن (قانون الإيمان النيقاوي) أو ما يسمِّيه النصارى العرب (الأمانة الكبرى)[٢]، ونصها المعدل بعد مجمع القسطنطينية الأول المنعقد عام ٣٨١م ما يلي:

(أنا أومن:

(١) بإلهٍ واحدٍ آب قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يُرى ولا يُرى.

(٢) وبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إلهٍ حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، هو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنسانًا، وصُلِب عنا في عهد بيلاطس البنطي، وتألَّم وقُبِر، وقام أيضًا في اليوم الثالث، على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وهو جالس عن يمين الآب، وسيأتي أيضًا بمجدٍ ليَدِين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه نهاية.

(٣) وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب (والابن)[٣]،

(١) المسيحية في العالم العربي: (٣٩).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: (التي هي الخيانة الحقيرة) (٢/ ٤٨).

(٣) هذه اللفظة (الابن) أدخلت علىٰ النص اللاتيني دون اليوناني لاحقًا، وصارت مدعاة للخلاف أيضًا.

المسجود له، والممجَّد مع الآب والابن، الذي تكلم بالأنبياء.

(٤) وأعتقد بكنيسة واحدة رسولية.

(٥) وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.

(٦) وأنتظر قيامة الموتى.

(٧) وحياة الدهر الآتي)[١].

وسواء كان آريوس موحِّدًا حقًّا، أو جاء بتوحيد مهجَّن من توحيد اليهود وتثليث النصارى، فقد انقرض مذهبه تحت حملات الإرهاب البولسي المدعوم بسيف الإمبراطور.

(وقد أمر قسطنطين في الرسالة التي وجَّهها بعد المجمع إلى جميع الأساقفة والشعوب أن تحرق تآليف آري ـ أي آريوس ـ ويهدَّد بالموت كلُّ مَن يخفيها)[٢]، فاندثرت مقالة آريوس وسائر المقالات الأخرى التي لا تتوافق مع قانون الإيمان النيقاوي، ولكن ذلك لم يوحِّد كلمة النصارى، فلم تزل الانشقاقات تعصف بهم حول أتفه خلافٍ لفظي أو سلطة كنسية، فيعقدون لذلك المجامع المسكونية الكبرى لفض النزاع، فلا يزيدهم ذلك إلا فُرقة[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضَّلال وتفترق على اللعن، فلا ينفضُّ إلا وهم ما بين لاعن وملعون. ـ وقال بعد أن ذكر مجامعهم الكبار ـ: فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم مشهورة، اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفًا من البتاركة والأساقفة والرهبان، كلهم ما بين لاعن وملعون، فهذه حال المتقدمين مع قُرْب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره

(١) أُخِذ نَصُّها من: المسيحية في العالم العربي: (٤٢ ـ ٤٣).

(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٢٨).

(٣) اكتفينا بذكر مجمع نيقية لأهميته البالغة في رسم عقيدة عامة النصارىٰ، وانظر: تفصيل القول فيه وفي بقية المجامع: تاريخ الكنيسة المسيحية، الفصل الثاني (٢٢٠ ـ ٢٩٦)، هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ: (٣١٨/ ٣٤٦)، محاضرات في النصرانية: (١٢٠ ـ ١٤٨).

فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم، واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون، ضالُّون مُضِلُّون، لا يثبت لهم قدم، ولا يستقر لهم قولٌ في إلههم، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، وصرَّح بالكفر والتبرِّي ممن اتبع سواه، فقد تفرَّقَت بهم في نبيهم وإلههم الأقاويل، وهم كما قال الله سبحانه: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[1] [المائدة].

الشريعة عند النصارى:

جاء عيسى عليه السلام مصدِّقًا لما بين يديه من التوراة، ومتمِّمًا لشريعة موسى، ومخفِّفًا عن بني إسرائيل بعض ما جُوزُوا به ـ كما تقدَّم ـ ولم يأتِ ناقضًا لشريعة بني إسرائيل التي أودعها الله في التوراة، وحكم بها النبيون الذين أسلموا ـ وهو أحدهم ـ للذين هادوا، وقد جاء في إنجيل يوحنا أنه قال: (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل، بل لأُكْمل، الحقَّ أقول لكم: لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء، أو تزول السماء والأرض، فمن خالَفَ وصيةً من أصغر تلك الوصايا وعلَّم الناس أن يفعلوا مثله، عُدَّ الصغيرَ في ملكوت السماوات، وأما الذي يعمل بها ويعلِّمها فذاك يُعَدُّ كبيرًا في ملكوت السماوات) ٥/ ١٧ ـ ١٩.

وهكذا كان الحواريون وكبار التلاميذ محافظين على الناموس، ملتزمين بالشريعة الظاهرة التي عليها قومهم بنو إسرائيل، حتى أجلب عليهم بولس في شأن المتنصِّرين من الوثنيين، وطالب بإعفائهم من الختان وأحكام الشريعة، سوى ذبائح الأصنام، والدم، والميتة، والزنى. أعمال الرسل ١٥/ ٢٣ ـ ٢٩، ولم يزل يهوِّن من شأن الشريعة حتى أبطلها بعقيدة الصلب والفداء؛ ذلك أنه لم

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان: (٢/ ٣٨٩، ٣٩٥) وما أصدق قول الله فيهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

يكتفِ باتخاذ هذه العقيدة تكفيرًا وخلاصًا من خطيئة آدم الموروثة ـ بزعمه ـ، بل جعل منها بزخرف القول، وتشقيق الكلام، ذريعة للتحلُّل من أحكام الشريعة التي كانت مضروبة على بني إسرائيل، وسببًا لحلول اللعنة عليهم بزعمه، يقول في رسالته إلى أهل غلاطية: (إن أهل العمل بأحكام الشريعة هم جميعًا في حكم اللعنة، فقد ورد في الكتاب: «ملعون من لا يثابر على العمل بجميع ما كتب في سفر الشريعة»، أما أن الشريعة لا تبرِّر أحدًا عند الله فذاك أمرٌ واضح؛ لأن «البارَّ بالإيمان يحيا»، على حين أن الشريعة ليست من الإيمان، بل مَن عَمِلَ بهذه الأحكام يحيا بها، إن المسيح افتدانا من لعنة الشريعة إذ صار لعنةً لأجلنا، فقد ورد في الكتاب: «ملعونٌ من عُلِّق على الخشبة»، ذلك كيما تصير بركة إبراهيم إلى الوثنيين في المسيح يسوع فننال بالإيمان الروح الموعود به... فقبل أن يأتي الإيمان كنا بحراسة الشريعة مُغلَقًا علينا من أجل الإيمان المنتظر تَجَلِّيه، فصارت الشريعة لنا حارسًا يقودنا إلى المسيح لنبرر بالإيمان، فلما جاء الإيمان لم نبقَ في حُكم الحارس؛ لأنكم جميعًا من أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع)[1]، (٣/ ١٠ ـ ١٤، ٢٣ ـ ٢٦).

لقد أرسى بولس عقيدة «الإرجاء» لدى النصارى، الذي يجعل الإيمان مجرد المعرفة، وفق الفلسفة التالية: البشر مرتهنون بخطيئة أبيهم آدم، وقد أعطى الله لإبراهيم عهدًا بالخلاص لذريته من بني إسرائيل لقاء الالتزام بأحكام الشريعة، فمن خالفها فهو ملعون، وبالتالي فأهل العمل بأحكام الشريعة ـ فضلًا عن الوثنيين ـ في حكم اللعنة، والعمل الخلاصي الذي قام به المسيح هو أنه قَبِل ميتة الملعون، وصار لعنةً من أجل البشر ليحررهم من لعنة الشريعة الناتجة عن الخطيئة، ودفع حياته ثمنًا لهذا الخلاص، فصار مجرد الإيمان بيسوع من يهودي أو وثني؛ مختون أو غير مختون هو سبب الخلاص دون العمل بأحكام الشريعة، فالإيمان يفتح قلب الإنسان على الحياة التي في المسيح والشريعة

(١) العهد الجديد: (٥٧٧ ـ ٥٧٨).

تحبسه في الخطيئة وتتركه في اللعنة، وبذلك يتَّسِع العهد الخلاصي الممنوح لذرية إبراهيم ـ فرع إسحاق ـ ليشمل جميع البشر ببركة الإيمان بالمسيح وحسب[1].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]، هذا هو الأساس النظري لتنصُّلهم من الشريعة، وقد ساعد علىٰ ذلك ما وقع عليهم من اليهود من اضطهادٍ ومضارَّة، فأرادوا مفاصلتهم والخروج عن شعارهم الظاهر، كيدًا وتشفيًا، قال ابن القيم رحمه الله: (... أخذ القوم في التغيير والتبديل والتقرب إلىٰ الناس بما يهوون، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة، فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح: إنه ساحر مجنون ممخرق ولد زنية. فقالوا: هو إله تام وهو ابن الله، ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان، ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة، ورأوهم يتجنَّبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة فجامعوها، ورأوهم يحرِّمون الخنزير فأباحوه، وجعلوه شعار دينهم، ورأوهم يحرِّمون كثيرًا من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلىٰ البعوضة، وقالوا: كل ما شئت ودَعْ ما شئت لا حرج، ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا هم الشرق، ورأوهم يحرِّمون علىٰ الله نَسْخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاءوا، ويُحلِّلوا ما شاءوا، ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه، فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت، مع إقرارهم بأن المسيح كان يحرم السبت ويحفظه... فذهبت النصارىٰ تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم)[2]، فلا عجب إذًا أن كثر أتباعهم من حصب جهنم.

---

(١) انظر: الشروحات والتعليقات علىٰ النص السابق من رسالة بولس إلىٰ أهل غلاطية، العهد الجديد: (٥٧٥).

(٢) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ: (٢٦٦).

الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى:

استعاض النصارى من أتباع بولس بالعبادات الشرعية طقوسًا وثنية كهنوتية لم تَرَح رائحة ملة إبراهيم، ولم تخرج من مشكاة النبوة، وهي ما يسمونها «الأسرار الكنسية»، ويعرِّفونها بأنها: (أعمال مقدسة تُمنح بواسطتها بصورة غير منظورة نعمةُ الله التي تعيد وتجدِّد وتقدِّس الإنسان الذي يقبلها... مصدر الأسرار إلهي، وأنه يجب أن تتم بطرقٍ معلومة محدَّدة على أيدي أناسٍ مفوَّضين بذلك)[1].

وهذه الأسرار المزعومة سبعة؛ ثلاثة أصلية، وأربعة مُلحَقة:

(١) سر المعمودية أو العماد: وهو غَمْس الجسم «تغطيسه» في الماء، أو غسله، أو رَشُّه ثلاث مرات ـ على خلاف بين مذاهبهم ـ ثم مسحه بالزيت المقدس «الميرون» باسم الآب والابن والروح القدس، بغرض تطهير طالب الدخول في النصرانية، أو الطفل المولود لأبوين نصرانيين من الخطيئة الأصلية؛ خطيئة آدم، وغفران جميع الخطايا.

(٢) سر القربان المقدس «العشاء الرباني»: حيث يقوم الكاهن من أسقفٍ أو قسيس بتقديس خبزٍ وخمرٍ ليأكله الجمهور بعد استدعاء الروح القدس على التقدمة، فالخبز يصبح بمثابة جسد المسيح، والخمر دمه، حقيقة! ويسمى أيضًا «سر الشكر» «الأفخاريستيا».

(٣) سر السيامة: وهي انتقال سلطة يسوع الروحية التي وهبها ـ بزعمهم ـ للرسل من جيل إلى جيل لقيادة الكنيسة عن طريق «وضع الأيدي» على الرؤوس، فحينئذٍ تسري «الخلافة الرسولية» في الرُّتَب الكنسية الثلاث: الأسقفية، المشيخة أو القسوسية والشَّمَّاسية، وهذا السر هو ما يميِّز رجال الدين النصارى «الأكليروس» عن العلمانيين، أي المؤمنين العاديين، فهذه الأسرار

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨١ ـ ٨٢).

الثلاثة أصلية قديمة.

(٤) سر الزواج المقدس: بالاقتران الشرعي ـ في مقابل المدني ـ بين الزوجين في مراسم كنسية، فيجعلهما هذا السر جسدًا واحدًا بمباركة الكنيسة.

(٥) سر الإماتة أو الغفران: وهو نَيْل الغفران، والتكفير عن الخطيئة بالاعتراف أمام الكاهن، ويلتحق به سر الصلاة على المحتضر «الطقوس الأخيرة» لتحقيق الغفران أيضًا.

(٦) سر مسحة الميرون: لمنح نعمة مواهب الروح القدس لتثبيته في الحياة.

(٧) سر مسحة الزيت: لشفاء المرضى نفسيًّا وبدنيًّا[١].

وهذه الأسرار الأربعة مُلحَقة، وهكذا اتخذ النصارى دينهم هزوًا ولعبًا، وهجروا شريعة الله التي فيها الهدى والنور.

إنجيل برنابا:

وقد جدَّد الله إقامة الحجة على النصارى في القرون الأخيرة حين اكتُشِفَت نسخة تامة وحيدة من كتاب لأحد كبار تلاميذ المسيح المُخلِصين، وهو «برنابا»، وذلك في مطلع القرن الثامن عشر، عُرِفت باسم «إنجيل برنابا»[٢].

والكاتب لم يزعم أن ما كتبه هو «الإنجيل» المنزَّل من عند الله، رغم أنه كُتب على طُرَّتِه: الإنجيل الصحيح لعيسى المسمى المسيح[٣]، وغاية ما ذكر أنه حكى في الفصل الحادي والعشرين بعد المئتين، الفصل قبل الأخير، ما يلي: (والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال: يا برنابا، عليك أن تكتب إنجيلي حتمًا،

---

(١) انظر: تفاصيل هذه الأسرار في تاريخ الكنيسة المسيحية: (١٦١ ـ ١٦٦)؛ و: المسيحية في العالم العربي: (٤٥ ـ ٥٠).

(٢) انظر: في قصة العثور عليها: مقدمة المترجم لها الدكتور خليل سعادة في كتاب إنجيل برنابا: (١٧ ـ ٢٠).

(٣) المرجع السابق: (٣٧).

وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضًا ما حل بيهوذا[١]؛ ليزول انخداع المؤمنين ويصدِّق كل أحد الحقَّ، حينئذٍ أجاب الذي يكتب: إني لفاعلٌ ذلك إن شاء الله يا معلم...)[٢] ١٢١/ ١ ـ ٣.

فالكاتب قد كتب في هذا الكتاب ما حدث بشأن المسيح مدةَ وجوده في العالم من البشارات به، وولادته الخارقة، وآياته المؤيَّدة بروح القدس، ودعوته إلى عبادة الله تعالى، وبشارته بنبيه محمد ﷺ، وما وقع له من أذى اليهود واضطهادهم، وسعيهم في محاكمته وصَلْبه لدى الحاكم الروماني، ثم رفعه إلى السماء، وضمَّن ذلك خطبه ومواعظه، وأمثاله ووصاياه، التي ربما كان بعضها نصوصًا من الإنجيل الحقيقي، كل ذلك بأسلوبٍ إيماني مشرق، ووضوح تام وحميَّة صادقة، تُشعِر القارئ أن كاتبه يقبس من مشكاة النبوة، ويَمْتَح من مَعين التنزيل، حتى إن مترجم هذا الكتاب الدكتور خليل سعادة، رغم كونه نصرانيًّا مخالفًا لكاتبه في المعتقد، أطراه بما يلي: (الحقيقة التي لا مِرَاءَ فيها أن كاتب إنجيل برنابا على جانبٍ كبير من الفلسفة، وسمو المدارك، وقوة الحجة، وشدة العارضة، وجلاء البيان، وإن مباحثه الفلسفية في الجسد والحس والنفس من الوجهة الدينية لمِن أسمى ما كتب الباحثون الدينيون في هذا الموضوع)[٣].

وقد أفصح برنابا رضي الله عنه في مُفتتَح كتابه وختامه بنُفرَته مما أحدثه بولس وأشياعه من كفر وضلال، فاستهلَّ بالخطبة التالية: (برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلامًا وعزاءً، أيها

---

(١) يهوذا الإسخريوطي: أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، باع معلمه بثلاثين من الفضة، فصار اسمه عنوانًا للخيانة، شنق نفسه يأسًا، المنجد في الأعلام (٧٥٢) هكذا عند النصارىٰ، والصحيح أن الله ألقىٰ شبه المسيح عليه، فشبه لهم وصلبوه، وأما المسيح عليه السلام فما قتلوه وما صلبوه، بل رفعه الله إليه.

(٢) المرجع السابق: (٢٩٦).

(٣) المرجع السابق، المقدمة: (٢٩)، والنصارىٰ يعبرون بـ«الفلسفة» و«المباحث الفلسفية» عن «العقيدة» و«المباحث العقدية».

الأعزاء إن الله العظيم العجيب[١] قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعاليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشِّرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا، مُجوِّزين كل لحمٍ نجس، الذين ضلَّ في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلَّم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا، ولا يضلّكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحدٍ يبشِّركم بتعليمٍ جديد مضادٍّ لما أكتبه لتخلصوا خلاصًا أبديًّا، وليكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر، آمين)[٢] ١ ـ ١٠.

فهذا هو الباعث على تأليف هذا الكتاب، وفي آخر فصل منه يختتم بما يلي: (وبعد أن انطلق يسوع تفرَّقَت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة، أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل، كما هي الحال دائمًا، فإن فريقًا من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشَّروا بأن يسوع مات ولن يقوم، وآخرون بشَّروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام، وآخرون بشَّروا ولا يزالون يبشرون أن يسوع هو ابن الله، وقد خدع في عدادهم بولص، أما نحن فإنما نبشِّر بما كتبتُ، الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله، آمين) ٢٢٢/ ١ ـ ٦[٣].

لقد روى برنابا مما سمعته أذناه ووعاه قلبه عن المسيح مباشرةً ما يدحض كفريات بولص وأشياعه، وهو ما يشهد له القرآن العظيم الذي جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، فنذكر أهمها، ونستشهد بموضوعٍ واحد من كتابه لكل مسألة، ونشير إلى مواضع أخرى بأرقامها، طلبًا للاختصار:

---

(١) هكذا جاء في النص المترجم، ومعلومٌ أن هذا اللفظ ليس من «الأسماء الحسنىٰ»، ولعل ترجمته الصحيحة: «القدير» كما سيدل عليه نص لاحق: (٢١٦/ ٣).

(٢) إنجيل برنابا: (٣٧ـ٣٨).

(٣) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

● أولًا: إنكاره عليه السلام دعوى ألوهيته، وانزعاجه البالغ من ذلك، وأنه عبد الله ورسوله: (لقد ضللتم ضلالًا عظيمًا أيها الإسرائيليون؛ لأنكم دعوتموني إلهكم، وأنا إنسان... أشهد أمام السماء، وأُشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم؛ لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية، وعُرضةٌ لحكم الله، مكابِد شقاء الأكل والمنام، وشقاء البرد والحر كسائر البشر) ٩٣/ ١ ـ ٢، ١٠[١].

● ثانيًا: إنكاره عليه السلام دعوى بنوَّته: (ليكن ملعونًا كل مَن يدرج في أقوالي أني ابن الله) ٥٣/ ٣٥[٢].

● ثالثًا: إثباته العهد لإسماعيل عليه السلام وأنه الذبيح: (صدِّقوني لأني أقول لكم الحق: إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحاق) ٤٣/ ٣١[٣].

(فكلَّم الله حينئذ إبراهيم قائلًا: خذ ابنك بِكْرَك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر وهو لمَّا وُلِد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟) ٤٤/ ١٠ ـ ١١[٤].

● رابعًا: بشارته ببعثة محمد ﷺ وأنه «مسيا» الذي ينتظره بنو إسرائيل: سأله كهنة الهيكل وغيرهم في مناسباتٍ عدة: هل أنت مسيا؟ فمن أجوبته: (لست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه؛ لأني لست أهلًا أن أحلَّ رباطات جرموق، أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا، الذي خُلق قبلي، وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية) ٤٢/ ١٤ ـ ١٥[٥].

(إن اسم مسيا عجيب؛ لأن الله نفسه سمَّاه لما خلقَ نفسه... إن اسمه

---

(١) إنجيل برنابا: (١٥٤)، وانظر: أيضًا: (٤٧/ ٩ ـ ١١) (٩٩) ٥٩/ ١ ـ ٤ (٢٣٦).

(٢) إنجيل برنابا: (١٠٧)، وانظر: ٧٠ (١٢٨، ٢١٢/ ٥ (٢٨٥).

(٣) إنجيل برنابا: (٩٤).

(٤) إنجيل برنابا: (٩٥).

(٥) إنجيل برنابا: (٩٢)، وفي نقل برنابا هاهنا ما يستنكر من الغلو، فليتنبه لذلك.

المبارك محمد) ٩٧/ ١٤، ١٧[١].

● خامسًا: تأكيده على العمل بشريعة الأنبياء: (أتظنون أني جئت لأجل الشريعة والأنبياء؟ الحق أقول لكم، لعمر الله إني لم آتِ لأُبطلها، ولكن لأحفظها... لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، لا يمكن أن يكون مرضيًّا لله من يخالف أقلَّ وصاياه) ٣٨/ ٢ ـ ٣، ٥[٢].

● سادسًا: إثباته الدينونة لله سبحانه وتعالى، والشفاعة العظمى لنبيه محمد ﷺ: تضمَّنت الفصول: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦ شرحًا وافيًا لأحوال يوم القيامة وأهواله ومحاسبة الله للخلائق، وفيه: (تعالوا للدينونة أيتها الخلائق؛ لأن خالقك يريد أن يدينك) ٥٤/ ١٨، وشفاعة النبي ﷺ، وفيه: (ويكلِّم الله رسوله قائلًا: مرحبًا بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد تنلْ كل شيء... وبعد أن يتكلم يعطي الله رسوله كتابًا مكتوبًا فيه أسماء كل مختاري الله) ٥٥/ ١٦ ـ ١٧، ٣٧[٣]، حتى لكأن القارئ يقرأ حديث الشفاعة.

● سابعًا: إثبات رفع المسيح إلى السماء، ونفي صَلْبه: (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع... جاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبِّح الله إلى الأبد) ٢١٥/ ١، ٥ ـ ٦[٤].

(ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نيامًا، فأتى الله العجيب بأمرٍ عجيب، فتغيَّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار

---

(١) إنجيل برنابا: (١٦١ ـ ١٦٢)، وانظر: (٣٩/ ١٤ ـ ٢٦) (٨٨، ٤١/ ٣٠) (٩١) (٤٤/ ١٩ ـ ٣١) (٩٦، ٨٢/ ٧ ـ ١٩) (١٤٢، ١٤٣، ٩٦) (١٥٩) وغيرها كثير.

(٢) إنجيل برنابا: (٨٦).

(٣) إنجيل برنابا: (١٠٥ ـ ١١٢).

(٤) إنجيل برنابا: (٢٨٨)، وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

شبهًا بيسوع) ٢١٦/ ١ ـ ٤[١].

هكذا روى برنابا مشاهداته الأخيرة بوصفه «شاهد عيان»، وتفيض الفصول التالية في وصف ما جرى ليهوذا الخائن من محاكمة وإهانة وصلب بنفس الترتيب الذي ترويه الأناجيل الأربعة منسوبًا إلى المسيح، كما يصف برنابا الاضطراب الذي حصل في صفوف أتباعه من جرَّاء ذلك، وكيف زاغ بعضهم، وثبَّت الله الراسخين في الإيمان بسياقٍ يتفق من حيث الجملة مع ما قرَّر القرآن.

يقول الدكتور خليل سعادة، مترجم كتاب برنابا، في مقدمته: (ولما شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر أحدث دويًّا عظيمًا في أندية الدين والعلم، ولا سيما إنكلترة، فكثر بشأنه الجدل، واحتدمت بين العلماء مناقشات)[٢].

لقد كان اكتشاف هذا الكتاب وشيوعه بارقة أمل وفرصة نادرة للمراجعة واتباع الهدى، وإيثاره على الهوى، سيما والكتاب يفوق ما يسمونها «الأناجيل الأربعة» سموًّا في المعاني، وجزالة ووضوحًا في الأسلوب، وتمكُّنًا في العلم بالكتب السابقة، وعلوًّا في الإسناد، حتى قال مترجمه: (إنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلمامًا عجيبًا بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد له مثيلًا بين طوائف النصارى إلا في أفرادٍ قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفًا على الدين كالمفسرين، حتى إنه ليَندُر أن يكون بين هؤلاء أيضًا مَن له إلمامٌ بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا)[٣].

فيا سبحان الله! لِمَ لا يكون كاتب إنجيل برنابا هو برنابا نفسه؟ لقد نُكِس القوم على رؤوسهم، وآثروا رسوم آبائهم، وأصرُّوا على مِلَّة بولس.

وقد تشبَّث بعضهم بوجود تعليقات باللغة العربية على هوامش المخطوط،

(١) إنجيل برنابا: (٢٨٨).
(٢) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٠).
(٣) المرجع السابق: (٢٤).

فحاولوا نسبة الكتاب إلى مؤلفٍ مسلمٍ مجهول! وما أحسن ما أجاب به الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: (ومن الغريب أن يُتَّخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي، ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلًا على أصله المسيحي)[(١)].

ومن الثابت لدى مؤرِّخي النصرانية وجود جملة من الأناجيل والرسائل الرسولية، سوى ما تضمَّنه قانون العهد الجديد، وأن الكنيسة دأبت على اعتبارها «منحولة» و«مزوَّرة»، ومن ذلك «إنجيل برنابا»[(٢)]، ويذكرون أن البابا «جلاسيوس الأول» أصدر قرارًا في أواخر القرن الخامس الميلادي يتضمَّن قائمةً بالكتب المحرَّمة، المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب اسمه: إنجيل برنابا[(٣)]، وذلك قبل بعثة النبي محمد ﷺ بأكثر من قرنٍ من الزمان، فكيف يتسنَّى أن يؤلِّفه مسلمٌ عربي؟! وأما وجود البشارة في النبي محمد ﷺ باسمه الصريح «محمد» فذاك دليلٌ على صدقه لا على تزويره، لموافقته ما في القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦].

وبعد:

فإن اليهود قد رغبوا عن مِلَّة إبراهيم، ورسالة موسى عليه السلام، وهجروا التوراة، واتبعوا «عزرا»، وعظَّموا التلمود.

وإن النصارى قد رغبوا عن ملة إبراهيم ورسالة المسيح عليه السلام، وضيَّعوا الإنجيل، واتبعوا «بولس» واشتغلوا برسائله.

فخرجت هاتان الأمَّتان عن دين الإسلام الذي ابتعث الله به جميع رسله، إلى معتقداتٍ وأحوالٍ وأوضاع ليست على هدى الله ولا سنن المرسلين، تتراوح بين الغلو والتساهل، والإفراط والتفريط، فحينئذٍ (بعث الله محمدًا ﷺ إلى

(١) محاضرات في النصرانية: (٦٣).
(٢) انظر: تاريخ الكنيسة: (١٥١)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (١٠٣).
(٣) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٧).

الخلق على فترةٍ من الرسل، وقد مَقَتَ أهل الأرض؛ عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا ـ أو أكثرهم ـ قبل مبعثه.

والناس إذ ذاك أحد رجلَين: إما كتابي معتصِمٌ بكتاب إما مبدَّل، وإما منسوخ، ودينٍ دارس بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أمِّي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسَنه، وظن أنه ينفعه؛ من نجمٍ أو وثنٍ أو قبرٍ أو تمثالٍ، أو غير ذلك، والناس في جاهليةٍ جهلاء، من مقالاتٍ يظنونها علمًا وهي جهل، وأعمالٍ يحسبونها صلاحًا وهي فساد، وغاية البارع منهم علمًا وعملًا أن يُحصِّل قليلًا من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، وقد اشتبه عليهم حقه بباطله، أو يشتغل بعمل القليل منه مشروع، وأكثره مبتدَع لا يكاد يؤثر في صلاحه إلا قليلًا، أو أن يكدِّح بنظره كدح المتفلسفة، فتذوب مهجته في الأمور الطبيعية والرياضية وإصلاح الأخلاق، حتى يصل ـ إن وصل ـ بعد الجهد الذي لا يوصف إلى نَزْرٍ قليل مضطرب، لا يروي ولا يشفي من العلم الإلهي، باطلُه أضعافُ حقِّه ـ إن حصل ـ وأنَّى له ذلك مع كثرة الاختلاف بين أهله، والاضطراب، وتعذُّر الأدلة عليه والأسباب، فهدى الله ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هدايةً جَلَّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمَّته المؤمنين عمومًا، ولأولي العلم منهم خصوصًا، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جُمِعت حكمة سائر الأمم، علمًا وعملًا، الخالصة من كل شَوْب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتَا تفاوُتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فللَّه الحمد كما يحب ربنا ويرضى)[1].

وبهذا يُعلم أن من يسعى للتقريب بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية يحاول الجمع بين النقيضين، والتوفيق بين المتضادين، وأنه لم يفقه حقيقة الدين الذي بعث الله به المرسَلين.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٦٣ ـ ٦٤).

المبحث الثالث

حكم الإسلام في «أهل الكتاب»

أرسل الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، وحجةً على الناس أجمعين؛ كتابِيِّهم ومشركهم، عربهم وعجمهم، في وقتٍ كانوا أشد ما يكونون حاجةً إلى نبيٍ من عند الله يُخرِجهم من الظلمات إلى النور، ويذكِّرهم بأيام الله، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، ذلك أنهم قد آل أمرهم إلى مأزقٍ لا يمكنهم الانفكاك من قبضته إلا ببيِّنة من ربهم، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [البينة].

فجاء هذا «القرآن» الذي هو كلام الله بيانًا شافيًا، وحكمًا فصلًا، وقضاءً عدلًا، فيما كانوا فيه يختلفون، سيما أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم شيعًا، وتفرَّقت بهم المذاهب والأهواء، ولم يقيموا التوراة والإنجيل، فلذلك خُصُّوا بالذكر في آياته، واستُهدفوا في مقاصده وغاياته، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾ [النمل] فهو يرفع الخلاف، ويهدي ويرحم، ثم يقضي ويحكم.

وقال تعالى بعد ذِكْر الكتابَين السابقَين؛ التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال في معنى «مهيمنًا عليه»: (وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى؛ فإن اسم «المهيمن» يتضمَّن هذا كله، فهو أمين وشاهد

وحاكم على كل كتابٍ قبله)[1].

فمن سبقت له من الله الحسنى من أهل الكتاب، وقَبِل البشرى أُوتي أجره مرتين، ونال الحُسنيَين، وصار من جملة المسلمين، كما حكى الله ذلك عن بعضهم: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة]، فليس عن هؤلاء «السعداء» نتكلم في هذا المبحث، فقد ارتفع عنهم وصف «أهل الكتاب»، وصاروا من «أهل الإسلام»، وإنما الكلام على مَن أصرَّ على دينه، وتشبَّث برُسوم مِلَّته، وأخذته العزة بالإثم، فلم يرفع بالإسلام رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي بعث به نبيه محمدًا ﷺ.

وقد حكم الإسلام في أهل الكتاب حُكمَين:

أحدهما: حكم علمي: في بيان حقيقة ما هم عليه من الاعتقادات والأعمال، وتعيين مُسمَّاهم في باب أسماء الدين والإيمان، وبيان جزائهم في باب وعيد الله.

الثاني: حكم عملي: في وَصْف معاملتهم، وما يختصون به من أحكام دون سائر الناس.

فالأول: ثابتٌ لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال. والثاني: أصله ثابت كذلك، لكن قد تتغيَّر بعض أحكامه بتغيُّر الأحوال، وفق ما تقتضيه السياسة

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٢٨).

الشرعية على نحو ما سنبين لاحقًا إن شاء الله.

أولًا: حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية الاعتقادية:

توافرت نصوص الكتاب والسنة عل ذم عامَّة أهل الكتاب، وحكاية مقالاتهم الفاسدة في مختلف أبواب الإيمان، وأعمالهم البدعية والشركية، وأخلاقهم الذميمة، مما سبق ذِكْرُ طرفٍ منه من صميم كتبهم التي يقدسونها، وتاريخهم الذي يُسلِّمون به، في المبحث السابق، ونذكر هاهنا حكم الإسلام الفصل في حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقائد وأعمال حين أدركهم الإسلام، دون الاستطراد في ذِكْر معايبهم السابقة مع أنبيائهم على سبيل التفصيل مما قصَّه الله في سورة البقرة والنساء والأعراف وطه وغيرها، عن اليهود، وما قصَّه في سورة آل عمران والمائدة وغيرهما عن النصارى.

١ ـ الحكم بنفي الإيمان عنهم:

- ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١].

- ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣﴾ [المائدة].

- ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

- ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾ [البقرة].

٢ ـ الحكم بكفرهم:

وردت النصوص بتكفير اليهود والنصارى صريحةً واضحة لا تحتمل اللبس

والتأويل، مقرونةً بذِكْر سبب كفرهم، وقد تنوَّعت موارد كفرهم، فمن ذلك:

أ ـ القول بألوهية المسيح:

● ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].

ب ـ القول بالتثليث:

● ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

جـ القول بالبنوَّة:

● ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

د ـ الكفر بآيات الله:

● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢].

● ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٨].

● ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

هـ عدم إقامة التوراة والإنجيل:

● ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة].

و ـ الكفر برسالة محمد ﷺ:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

ز ـ كفرهم بإطلاق:

● ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء].

● ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

● ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة].

٣ ـ الحكم بشركهم وعبادتهم غير الله:

● ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

● ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

● ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

● ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ الحكم بضلالهم:

● ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة].

● ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

٥ ـ الحكم بفِسْقهم:

● ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

● ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة].

● ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف].

● ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد].

● ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

● ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

٦ ـ الحكم عليهم باللعن والغضب:

● ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ

لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة].

● ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ٦١، ٩٠، آل عمران: ١١٢].

● ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

● ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

● ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ﴾ [المائدة: ١٣].

● ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤].

● وقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». متفق عليه[1].

٧ ـ الحكم عليهم بالنار والخلود فيها:

● ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

● ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة].

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة].

● ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ١١٠)، صحيح مسلم: (١/ ٣٧٦).

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

● ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة].

● ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران].

● ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

● وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم[1].

فهذا حُكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية العلمية الاعتقادية:

فهم في باب أسماء الدين والإيمان: كفارٌ، غير مؤمنين، مشركون، ضُلّالٌ، فُسّاق، ضلالًا وفسقًا مُخرِجَيْن عن حد الإيمان، مغضوبٌ عليهم، ملعونون.

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

وهم في باب وعيد الله: خالدون مُخلَّدون في النار.

فجملة ما أكفر الله به اليهود والنصارى:

١ ـ عدم إيمانهم بالله الإيمان الصحيح، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح بن مريم، ونسبوا إليه الولد وألَّهُوا المسيح، وجعلوا الله ثالث ثلاثة، ووصفوه بصفات العيب والنقص ومشابهة المخلوقين.

٢ ـ أذيتهم لأنبياء الله بالقتل والسبِّ والتكذيب.

٣ ـ إنكارهم لنبوة محمدٍ ﷺ بعد قيام الحجة عليهم.

٤ ـ كفرهم بآيات الله، بتكذيبها وكتمانها وإخفائها وتحريفها تحريفًا لفظيًّا ومعنويًّا، والاختلاف فيها، وعدم إقامتها، والإعراض والتولِّي عنها.

٥ ـ كفرهم باليوم الآخر.

الحكم بنسخ شرائعهم بشريعة الإسلام:

فلما آل حال القوم إلى الكفر بالله وتكذيب رُسُلِه وتحريف كتبه، واستزلال الشيطان لهم في عباداتهم إلى الشرك والبدعة، وفي معاملاتهم إلى الظلم والعدوان، حتى انطمس انتماؤهم إلى ملة إبراهيم، وتحلَّلوا من عُرَى الدين، نسخ الله شرائعهم بشريعة الإسلام، وأبطل اليهودية والنصرانية، وأثبت الحنيفية المسلمة، فلا يقبل دينًا سوى الإسلام، وأدلة ذلك:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].
- ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران].

وصَدْرُ سورة آل عمران قد نزل في محاجَّة نصارى نجران الذين وفدوا على النبي ﷺ.

- ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

● ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

وذلك بعد ذِكْر أمْره السابق لليهود بالحكم بالتوراة، وأمْره للنصارى بالحكم بالإنجيل.

● وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١).

● وقال أيضًا: «إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية»(٢).

وإلى جانب هذا الحكم العقدي الفاصل كشف الله تعالى في كتابه لعباده المؤمنين من صفات السوء التي طُبِعُوا عليها، وصارت سِمةً لعامَّتهم، ما يكفيهم للحذر منهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه، وأكثرها في اليهود، ومن ذلك:

١ ـ الحسد:

● ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

(٢) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح (١٣/ ٢٠٤، ٢٦٤)، ورواه أحمد بلفظ: (إن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية): المسند: (٥/ ١٣١)، وقال محققوه: إسناده حسن. انظر: تكملة تحقيق المسند طبعة مؤسسة قرطبة الجزء الثاني من المجلد الخامس: (٧٢ ـ ٧٣).

حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ النفاق والخيانة:

● ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١].

● ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

● ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

● ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة].

٣ ـ المكر والخديعة:

● ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

٤ ـ المعصية والعدوان وموالاة الكفار:

● ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢].

● ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]،

● ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا

كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾ [المائدة].

٥ ـ البخل والشح:

- ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٤].
- ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦ ـ الجبن:

- ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عمران: ١١١].
- ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٖ﴾ [الحشر: ١٤].

٧ ـ قسوة القلوب:

- ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤].
- ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦].
- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ [المائدة].

٨ ـ العداوة والبغضاء:

- ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، في اليهود.
- ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤]، في النصارىٰ.

٩ ـ الذِّلَّة والمَسكنة:

● ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

● ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

١٠ ـ السعي في الفساد:

● ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤].

١١ ـ نقض العهود:

● ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

● ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

● ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

١٣ ـ الدعاوى العريضة الكاذبة:

● ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]

● ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

ثانيًا: حكم الإسلام في معاملة أهل الكتاب:

بناءً على الحكم العقدي الواضح في كفر أهل الكتاب وفِسْقهم وضلالهم، ورغبتهم عن ملة إبراهيم، واستنكافهم عن اتباع خاتم المرسلين ﷺ، جاءت أحكام الشريعة الإسلامية بمعاملتهم معاملةً تجمع بين التزام الحق ولزوم العدل؛ بين تمييز أهل الإيمان وإظهار شرفهم وعُلوِّهم؛ لشرف الحق الذي يحملونه، ليُظهِره الله على الدين كله، وبين مَنْع الظلم والاستطالة بغير حق على مَن يعيش في كنف المسلمين، ويستظل بولايتهم ملتزمًا شرائطهم العادلة

المنصفة.

وقد كان يعيش في أطراف الجزيرة العربية وبعض نواحيها قبائل من أهل الكتاب؛ كنصارى تَغلِب، ونصارى نجران، ويهود خيبر وفَدَك بعد إجلاء اليهود من المدينة إبان العهد النبوي، ولما فتح الخلفاء الراشدون الأمصار كان عامة أهل العراق والشام ومصر من أهل الكتاب، فما ضاقت بهم شريعة الله، ولم يَحْتَر المسلمون في معاملتهم، ولم يحتاجوا إلى ما عُرِف في التاريخ القديم والحديث بعمليات التطهير العرقي والديني، وفي ذات الوقت لم يتخلَّ أهل الإسلام عن خصائص دينهم، أو يتأثروا بجمهورهم الكثيف في بداية حركة الفتح الإسلامي، بل لزموا موازنةً دقيقة منصفةً عادلة مستمَدَّةً من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، لقَّحت عقول المجتهدين من أئمة الفقه وولاة المسلمين، حتى تكوَّن ما عُرِف بـ«أحكام أهل الذمة».

ونُثبت فيما يلي طائفتَين من الأحكام المتعلقة بمعاملة أهل الكتاب:

الطائفة الأولى: في الأحكام المقصودة لحفظ الدين، وتميُّز المسلمين.

والطائفة الثانية: في الأحكام المقصودة لحفظ الحق وقيام العدل والإحسان.

ثم نُتبعه ببيان الفارق الدقيق بين هذين المقصودين، وميزان العدل بين هاتين الكفتين الذي خفي على كثيرٍ من الناس، فوقع بعضهم في الإفراط، وبعضهم في التفريط.

أ ـ الأحكام المتعلِّقة بحفظ الدين وتميُّز المسلمين:

١ ـ كون الدين كله لله بإسلامهم أو إعطائهم الجزية أو قتالهم:

● ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة].

● ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ [الأنفال].

● ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة].

● عن بُرَيْدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومَن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغْزُوا باسم الله، في سبيل الله، قاتِلُوا مَن كفر بالله، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا ولا تُمثِّلوا، ولا تَقتُلوا وَلِيدًا، وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادْعُهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيَّتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخْبِرْهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أَبَوْا أن يتحوَّلوا منها فأخْبِرْهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يُجاهِدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَوْا فسَلْهم الجزيةَ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هم أَبَوْا فاستَعِنْ بالله وقاتِلْهم...»[(١)] الحديث.

● وعن معاذ بن جبل[(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فأمَرَني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعًا أو تَبيعة، ومن كل أربعين مُسِنَّةً، ومن كل حالم دينارًا أو عدله مَعَافِر[(٣)].

---

(١) رواه مسلم: (٣/ ١٣٥٧).

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الرحمن، من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهىٰ في العلم بالأحكام والقرآن، مات بالشام سنة ثمان عشرة، تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٥).

(٣) رواه الترمذي: (٣/ ١١٥)، والنسائي: (٣/ ٢٦)، وأبو داود: (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وقال عن المعافر: (ثياب تكون في اليمن)، وقال ابن حجر: (وصحَّحه ابن حبان والحاكم)، بلوغ المرام من أدلة الأحكام: ابن حجر، أحمد بن علي، العسقلاني، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية،

وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر، فصار قُوَّادُهم يُبرِمون العهود والاتفاقيات المُلزِمة لأهل الكتاب الباقين على دينهم بدفع الجَزية للمسلمين، مع إقرارهم على أموالهم وعقارهم ومعابدهم، واعتبارهم «أهل ذمة»، قال ابن القيم رحمه الله: (فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالًا وصغارًا.. واختلف الناس في تفسير «الصَّغار» الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية، فقال عكرمة[1]: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخِذ جالسًا. وقالت طائفة: أن يأتي بها بنفسه ماشيًا لا راكبًا، ويُطال وقوفه عند إتيانه بها، ويُجَرُّ إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجريده ويُمتَهَن.

وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نُقِل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام المِلَّة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزامهم ذلك هو الصغار)[2].

هذا هو المقصود الأعظم، والهدف الأساسي من فرض الجزية كما نطقت بذلك النصوص، فهي مظهر جلي لكون الدين كله لله، واستسلام العباد لأمْره، وكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد تقترن بهذا الهدف مقاصد أخرى من مقتضى عقد الذمة، وهي الحماية والمَنَعة المكفولة من قِبَل الدولة الإسلامية لأهل ذمَّتها، ومن أجل ذلك ردَّ أبو عبيدة[3] عامر بن الجراح رضي الله عنه ما أخذه من الجزية على أهل الشام لما بلغه

بيروت (٢٧٥).

(١) عكرمة: مولىٰ ابن عباس، وثَّقه جماعة، واعتمده البخاري، أما مسلم فلم يخرج له إلا قليلًا مقرونًا بغيره، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، توفي سنة ١٠٥هـ. ميزان الاعتدال (٤/ ١٣).

(٢) «أحكام أهل الذمة» ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م، (١/ ٢٢ ـ ٢٤)، (١/ ٢٢ ـ ٢٤).

(٣) عامر بن عبد الله بن الجراح، القرشي، الفهري، أبو عبيدة أحد العشرة، أسلم قديمًا، وشهد بدرًا، مات

اجتماع جحافل الروم لحرب المسلمين، فخشي ألَّا يَفِي بما وعدهم من الحماية: (فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالَح أهلها يأمرهم أن يَرُدُّوا عليهم ما جُبِي منهم من الجزية والخراج)[١]، قال الماوردي[٢] رحمه الله: (يجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب مَن دخل في الذمة من أهل الكتاب لِيُقَرُّوا بها في دار الإسلام، ويلتزم لهم ببَذْلها حقان:

أحدهما: الكف عنهم، والثاني: الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين)[٣].

ويجنح كثير من الكُتَّاب المسلمين المعاصرين إلى «الاعتذار» عن الإسلام! لفرضه الجزية على أهل الكتاب بألوان متكلَّفة من التوجيهات والاستنباطات، وربما صح بعضها تبعًا لا استقلالًا، في حين يَغُضُّون الطرف عن الحكمة الأصيلة في هذا التشريع، وهي إذلال الكفار وإظهار صَغارهم[٤]، ولا ريب أن هذا المنحى إنما هو نتيجة للهزيمة النفسية والحضارية التي يعيشها المسلمون في هذا الزمان، ويقابل هذا الانكسار المعاصر تساؤلٌ يَرِد في قلوب المسلمين الأوَّلين: هل في إبقاء أهل الكتاب بين ظهرانَي المسلمين بالجزية ما ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين لله؟ ويجيب ابن القيم رحمه الله قائلًا: (ليس في

شهيدًا بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة، وله ثمانٍ وخمسون سنة. تقريب التهذيب (١/ ٣٨٨).

(١) كتاب الخراج: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ـ القاهرة، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ، (١٥٠).

(٢) الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الماوردي، أقضىٰ قضاة عصره، من العلماء الباحثين أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، وُلِد في البصرة وانتقل إلىٰ بغداد، وولي القضاء في بلدانٍ كثيرة، ثم جعل «أقضىٰ القضاة» في أيام القائم بأمر الله العباسي، توفي في بغداد، من كتبه: أدب الدنيا والدين، والنكت والعيون، والأحكام السلطانية، وغيرها. انظر: الأعلام (٤/ ٣٢٧).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، تخريج وتعليق: خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب، بيروت، (٢٥٤).

(٤) انظر: علىٰ سبيل المثال: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة السادسة (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، (٣٤ ـ ٣٦).

إبقائهم بالجزية ما يناقض هذا المعنى، كما أن إبقاء أهل الكتاب بالجزية بين ظهور المسلمين لا ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين كله لله؛ فإنَّ مِن كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصَغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله، والرق على رقابهم، فهذا من دين الله، ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عِزِّهم، وإقامة دينهم كما يحبون، بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة، والله أعلم)[١].

ويلتحق بهذا الأصل العظيم؛ كون الدين كله لله، وكون كلمة الله هي العليا، خضوع أهل الذمة لأحكام الشرع العام في الدماء والأموال والأعراض، وعدم مضايقة المسلمين بالاستعلان بشعائرهم الظاهرة، وما سوى ذلك من الأمور التعبُّدية والشخصية والاجتماعية فيما بينهم فهم أحرار، إلا أن يحتكِموا إلينا.

وقد ألحق ابن القيم رحمه الله ذكر الشروط العُمَرية وأحكامها ومُوجِباتها، وشرحها في آخر كتاب «أحكام أهل الذمة» وأشاد بها، وقوَّى من شأنها فقال: (وشهرة هذه الشروط تُغنِي عن إسنادها، فإن الأئمة تلقَّوْها بالقبول، وذكروها في كتبهم واحتجُّوا بها، ولم يَزَل ذِكْر الشروط العُمَرية على ألسنتهم، وفي كُتُبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها)[٢]، وسياق هذه الشروط يعطي المتفقه حدود المعالم الرئيسة لمعاملة أهل الكتاب، ودينونتهم لحكم الإسلام، وقد رواها عبد الله ابن الإمام أحمد[٣] بسنده أن أهل الجزيرة كتبوا إلى عبد الرحمن بن غَنْم[٤]: (إنّا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٨).

(٢) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٦٣ ـ ٦٦٤).

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الرحمن، وُلِد سنة ٢١٣هـ، من حفاظ الحديث المتقنين، وهو راوي المسند عن أبيه، وله زوائد المسند، وله أيضًا زوائد الزهد علىٰ كتاب الزهد لأبيه وله مسائل عن أبيه، ومن كتبه أيضًا «السنة» توفي سنة ٢٩٠هـ. الأعلام (٤/ ٦٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٤١)، الطبقات لأبي يعلىٰ (١/ ١٨٠)، التيمورية (٢٣٦٢)، الرسالة المستطرفة (١٦).

(٤) عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري، مختلف في صحبته وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين، مات سنة ثمان وسبعين. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٤).

مِلَّتِنا، على أنَّا شرطنا لك على أنفسنا ألا نُحدِث في مدينتنا كنيسة، ولا في ما حولها ديرًا ولا قلاية[١]، ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خُطَط المسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نُوسِّع أبوابها للمارّة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، وألّا نضرب بنواقيسنا إلا ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألّا نُخرج صليبًا ولا كتابًا في سوق المسلمين، وألّا نُخرج باعوثًا ـ قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولا شعانين[٢]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نُظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألّا نجاورهم بالخنازير ولا ببَيْع الخمور، ولا نُظهِر شركًا، ولا نُرغِّب في ديننا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نتخذ شيئًا من الرقيق الذي جرت عليه سِهام المسلمين، وألّا نمنع أحدًا من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زِيَّنا حيث كُنّا، وألّا نتشبَّه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فَرْق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلَّم بكلامهم، ولا نكتني بكُناهم، وأن نَجُزَّ مَقادِمَ رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير[٣] على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلَّد السيوف، وأن نُوقِّر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نَطَّلع عليهم في منازلهم، ولا نُعلِّم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدٌ منا مسلمًا في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نُضَيِّف كل مسلم عابرِ سبيل ثلاثة أيام، ونُطعِمه من أوسط ما نجد، ضَمِنّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيَّرْنا أو خالَفْنا عما شرطنا على أنفسنا، وقَبِلنا

---

(١) القِلَّاية: مسكن الأسقف «يونانية»، المنجد في اللغة (٦٥٢).

(٢) الشعانين: عيد الأحد الذي قُبَيْل الفصح «عبرانية» مأخوذ من: «هوشيعه نا» أي: خلصنا، المنجد في اللغة (٣٣٦).

(٣) الزنانير: جمع زُنَّار وزُنَّارة: ما يُشَد علىٰ الوسط «يونانية». المنجد في اللغة (٣٠٨).

الأمان عليه فلا ذِمّة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غَنْم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: (أن أَمْضِ لهم ما سألوا، وألْحِق فيهم حرفَيْن اشتَرِطْهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألَّا يشتروا من سبايانا، ومَن ضرب مسلمًا فقد خلع عهده)، فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأقرَّ مَن أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط[١].

ورغم ما قيل في شأن هذه الشروط من ناحية الثبوت، أو من الناحية الموضوعية فقد ظلت المرجع الأساسي لفقهاء الأمة[٢].

قال الماوردي: (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان، مستحق ومستحب:

أما المستحق فستة شروط:

أحدها: ألّا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

والثاني: ألّا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

والثالث: ألّا يذكروا دين الإسلام بذَمٍّ له ولا قدح فيه.

والرابع: ألّا يصيبوا مسلمةً بزنا لا باسم نكاح[٣].

والخامس: ألّا يفتنوا مسلمًا عن دينه، ولا يتعرَّضوا لماله ولا دينه.

---

(١) عن أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٥٧ ـ ٦٦١).

(٢) ذكر ابن حزم هذه الشروط في مراتب الإجماع: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (١١٥)، ورواها بسنده عن عبد الرحمن بن غنم، في المحلىٰ: (٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٢٠٢)، وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»، وقال بعدها: «رواه حرب بإسنادٍ جيد) ثم قال: (وهذه الشروط أشهر شيءٍ في كتب الفقه والعلم، وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم وسائر الأئمة) (١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) في العبارة خفاء، ولعلها: (ولا باسم نكاح) أو (ولو باسم نكاح).

والسادس: ألّا يُعينوا أهل الحرب، ولا يودوا أغنياءهم[١].

فهذه الستة حقوق ملتزَمة، فتلزمهم بغير شرط، وإنما تُشترط إشعارًا لهم وتأكيدًا لغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء:

أحدها: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار.

والثاني: ألّا يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا -إن لم ينقصوا- مساوين لهم.

والثالث: ألّا يُسمِعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عُزَيْر والمسيح.

والرابع: ألّا يُجاهِروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صُلبانهم وخنازيرهم.

والخامس: أن يُخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندبٍ عليهم ولا نياحة.

والسادس: أن يُمنعوا من ركوب الخيل عتاقًا وهجانًا، ولا يُمنعوا من ركوب البغال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزَمة، ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا لعهدهم، لكن يؤاخَذون بها إجبارًا ويؤدَّبون عليه زجرًا، ولا يؤدَّبون إن لم يشترط ذلك عليهم)[٢].

والناظر في هذه الشروط من خلال الأصول العامة للشريعة، والنصوص الواضحة بإلزام أهل الذمة الذِّلّةَ والصَّغار، وأن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، يدرك أنها ذات أصل عُمَري راشدي مستضيءٍ بنور الكتاب والسنة، أما ما غصَّ

---

(١) في العبارة خفاء، ولعلها: (ولا يؤووا عيونهم)، فقد جاء في ما يلزم الذِّمي عند أبي يعلىٰ: (ولا يؤوي للمشركين عينًا، أعني جاسوسًا). الأحكام السلطانية ١٥٨، فربما جرىٰ تصحيف من النساخ.

(٢) الأحكام السلطانية: (٢٥٨ ـ ٢٦٠)، وانظر: أيضًا: الأحكام السلطانية لأبي يعلىٰ الفراء: (١٥٨).

به بعض الكُتَّاب المُحدَثين واستثقَلُوه منها، أو اجتهدوا في توجيهها توجيهًا لا يتفق ومقاصد الشرع فإنما جاء نتيجةً لضغط الواقع المرير، والضعف البالغ الذي مُنِي به المسلمون في هذه الأزمنة، والله المستعان.

٢ ـ عدم موالاتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بِطانةً من دون المؤمنين:

● قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران].

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران].

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة].

● ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة].

● ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة].

● فنُهي المؤمنون عن موالاة الكفار عمومًا، وأهل الكتاب خصوصًا، ومعنى الموالاة في اللغة القرب والنصر والحلف، قال الجوهري[١] في مادة «ولي»: (الوَلْي: القرب والدنو، يقال: تباعَدَ بعد وَلْي.. والوَلِيُّ: ضد العدو، يقال منه: تَولَّاه.. والموالاة ضد المعاداة، والوَلاية والوِلاية: النُّصرة. يقال هم عليَّ وَلاية، أي: مجتمِعون في النصرة)[٢]. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة]، بعد أن ذكر أقوالًا في سبب نزولها: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه مَن اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزُّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان)[٣].

وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران] (يعني بذلك تعالىٰ ذكره: يا أيها الذين صدَقوا الله ورسوله وأقَرُّوا بما جاءهم به نبيِّهم من عند ربهم: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم، يقول: مِن دون أهل دينكم ومِلَّتِكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلًا لخليل الرجل فشبَّهه بما وَلِي بطنه من

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، لغوي، من الأئمة، ومن أشهر مؤلفاته: الصَّحاح، وله كتاب في العروض، ومقدمة في النحو، مات سنة ٣٩٣هـ. الأعلام (١/ ٣١٣)، معجم الأدباء (٢/ ٢٦٩)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٠٧)، لسان الميزان، (١/ ٤٠٠)، إنباه الرواة (١/ ١٩٤)، يتيمة الدهر (٤/ ٢٨٩).

(٢) الصحاح: (٦/ ٢٥٢٨).

(٣) جامع البيان: (٦/ ٢٧٦).

ثيابه؛ لحلوله منه في اطِّلاعه علىٰ أسراره وما يَطْوِيه عن أباعده، وكثير من أقاربه، محلَّ ما ولي جسده من ثيابه)[١]، ثم بيَّن أن المعنيِّين بذلك هم أهل الكتاب من يهود بني إسرائيل وليس المنافقين أو المشركين[٢].

وهكذا فَهِم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي شهد عهده فتوح الأمصار وانضواء أهل الكتاب تحت عقد الذمة، فكان شديد الحرص والحيطة على عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وزَجَر عماله ونُوَّابه على استعمالهم على مصالح المسلمين الخاصة، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي حاتم[٣] بسنده قال: (قيل لعمر بن الخطاب: إن هاهنا غلامًا من أهل الحيرة حافظًا كاتبًا، فلو اتخذته كاتبًا. قال: قد اتخذت إذًا بطانةً من دون المؤمنين)[٤]، وعقَّب ابن كثير رحمه الله قائلًا: (ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطِّلاع على دواخل أمورهم التي يُخشَى أن يُفْشُوها إلى الأعداء من أهل الحرب)[٥].

وقد أفاض ابن القيم رحمه الله في سرد مواقف بعض الخلفاء من أهل الذمة، حين رأوا منهم نفوذًا واستطالةً على المسلمين في دولة بني أمية وبني العباس، وانتهاءً بدولة بني أيوب[٦]، ونختار منها قطعةً نسخها رحمه الله من كتابٍ للخليفة العباسي المتوكل[٧] إلى عماله، يقول فيه بعد مقدمة زاخرة بالآيات

---

(١) جامع البيان: (٤/ ٦٠).

(٢) جامع البيان: (٤/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٣) عبد الرحمن بن محمد، أبي حاتم، ابن إدريس بن المنذر التيمي الحنظلي، الرازي، أبو محمد، وُلِد سنة ٢٤٠هـ. حافظ للحديث، من كبارهم، له تصانيف منها: الجرح والتعديل، والتفسير، والرد علىٰ الجهمية، وغيرها توفي سنة ٣٢٧هـ. الأعلام (٣/ ٣٢٤).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٠٠) وصحح المحقق إسناده.

(٥) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣٩٨).

(٦) انظر: أحكام أهل الذمة: (٢٠٨ ـ ٢٤٤).

(٧) جعفر (المتوكل علىٰ الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون (الرشيد)، أبو الفضل خليفة عباسي، وُلِد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة (٢٣٢هـ)، ولما استخلفه كتب إلىٰ أهل بغداد كتابًا بترك

القرآنية في تحريم موالاة أهل الكتاب وائتمانهم: (... وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسًا لا رأي لهم ولا رَوِيَّة يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعْسِفُونهم، ويبسطون أيديهم إلى ظُلمِهم وغِشِّهم، والعدوان عليهم، فأعظَمَ أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره، وتبرَّأَ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحَسْمه والنهي عنه، ورأى أن يكتب إلى عُمَّاله على الكُوَر والأمصار، وولاة الثغور والأجناد في تَرْك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم، والإشراك لهم في أماناتهم وما قلَّدهم أمير المؤمنين واستحفظهم إياه، وجعل في المؤمنين الثقة في الدين، والأمانة على إخوانهم المؤمنين، وحُسن الرعاية لما استرعاهم، والكفاية لما استُكْفُوا، والقيام بما حُمِّلوا، ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين بالله، المكذِّبين برُسله، الجاحدين لآياته الجاعلين معه إلهًا آخر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ورجاءُ أمير المؤمنين بما ألهمه الله من ذلك، وقذف في قلبه، جزيل الثواب، وكريم المآب، والله يعين أمير المؤمنين على نيَّته في تعزيز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فليُعلَم هذا مِن رأْي أمير المؤمنين، ولا يُستعان بأحد من المشركين، وإنزال أهل الذمة منازلهم التي أنزلهم الله تعالى بها، فاقرأ كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأَشِعْه فيهم، ولا يَعْلَمَنَّ أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحدٌ من عُمَّالك وأعوانك بأحدٍ من أهل الذمة في عمل، والسلام)[1].

ثم خلص ابن القيم رحمه الله إلى القول: (ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من تولِّيهم، وقد حكم تعالى بأن مَن تولَّاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية إعزاز، فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا، والولاية صلة، فلا

الجدل في القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه، توفي سنة (٢٤٧هـ). الأعلام (٢/ ١٢٧)، تاريخ بغداد (٧/ ١٦٥)، تاريخ الطبري (١١/ ٢٦ ـ ٦٢).

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

تجامع معاداة الكافر أبدًا)[١].

٣ ـ تحريم محبتهم وموادَّتهم ومؤاخاتهم:

قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، وأي محادَّة لله تعالىٰ أعظم من الشرك به، ووَصْفه بالنقائص والعيوب، تعالىٰ عما يقولون علوًّا عظيمًا! وأي مُحادَّة لرسوله ﷺ أعظم من تكذيبه وإنكار نبوته، ورَدِّ الحق الذي جاء به!

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر[٢]: (أَوْثَقُ عُرى الإيمان المُوالاة في الله، والمُعاداة في الله، والحب في الله، والبُغض في الله)[٣].

والنصوص في هذا المعنى كثيرة، ومِن عَجبٍ أن تنزلق ألسنة بعض رقاق الدين المتعالمين، فيُطلقون وصف «الأخوَّة» علىٰ أهل الكتاب، فيرفع أحدهم عقيرته في المنتديات العامة، وفوق المنابر العالية قائلًا: إخواننا النصارى!! كيف وقد قال الله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٢).

(٢) أبو ذر: جندب بن جنادة بن سفيان، من بني غفار، من كبار الصحابة، أسلم قديمًا قبل الهجرة وله فضائل ومناقب جمّة، توفي بالربذة سنة ٣٢هـ. الأعلام (٢/ ١٤٠)، طبقات ابن سعد (٤/ ١٦١)، الإصابة (٧/ ٦٠)، صفة الصفوة (١/ ٢٣٨)، حلية الأولياء (١/ ١٥٦)، الذريعة (١/ ٣١٦)، الكنىٰ والأسماء (١/ ٢٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٣/ ١٢٥)، والبغوي في شرح السنة: (٣/ ٤٢٩)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلىٰ درجة الحسن علىٰ الأقل) (٤/ ٣٠٧، ٢/ ٧٣٥).

[الحجرات: ١٠].

٤ ـ تحريم التشبُّه بهم:

● قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تشبَّه بقوم فهو منهم»[(١)]، وهذا التشبُّه المنهي عنه، المذموم شرعًا، يشمل مماثلة أهل الكتاب ومضاهاتهم، ومجاراتهم في عقائدهم وعباداتهم وسلوكهم وعاداتهم التي يختصُّون بها؛ لما يوجب ذلك التشبُّهُ ـ ولو كان ظاهريًّا ـ من الميل الباطني، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوالٍ وأفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضًا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة والركوب، وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا.

وقد بعث الله محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سُنَّته، وهي الشِّرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يُباين سبيل المغضوب عليهم، والضالِّين، فأمر بمخالفتهم في الهَدْي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة، لأمور:

منها: أن المشاركة في الهَدْي الظاهر تُورِث تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهين

(١) رواه أحمد في المسند: (١/ ٥٠)، وأبو داود (٤/ ٣١٤)، وجوَّد سنده ابن تيمية، وحسَّنه ابن حجر. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠)، والفتاوىٰ (٢٥/ ٣٣١) وفتح الباري (٦/ ٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير من حديث البشير النذير: السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبوني، دمشق، برقم (٦٠٢٥).

يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلًا يجد من نفسه نوع تخلُّق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهَدْي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن أسباب الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهُدَى والرضوان، وتحقُّق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين، وكلما كان القلب أتمَّ حياءً وأعرف بالإسلام ـ الذي هو الإسلام ـ لست أعني مجرد التوسم ظاهرًا أو باطنًا بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة، كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا وظاهرًا أتمَّ، وبُعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهَدْي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالِّين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهَدْي الظاهر إلا مباحًا محضًا لو تجرَّد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة مِن شُعَب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطَّن له)[1].

وقد أسَّس شيخ الإسلام رحمه الله كتابه العظيم «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» على هذا الأصل الكبير، وساق جملة كبيرة من النصوص الدالة على منع التشبه بالقوم ظاهرًا وباطنًا.

٤ ـ الحذر من كُتبهم ومروياتهم:

تقدَّم ذِكْر الآيات الدالة على تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وكتابتهم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١/ ٨٠ ـ ٨٢).

الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله.

● وعن ابن عباس رضي الله عنهم قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ وكتابُكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضًا لم يُشَبْ، قد حدَّثَكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتب الله وغيَّروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أوَلَا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟! فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم)[١].

● وعن جابر[٢] بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أتى النبي ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: (أمُتَهَوِّكونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتُكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم بشيءٍ فيخبروكم بحقٍ فتُكذِّبوا به، أو بباطل فتُصدِّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وَسِعه إلا أن يتبعني)[٣].

● وفي رواية: (فإنهم لن يَهدُوكم وقد ضلُّوا)[٤].

● وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ بنسخةٍ من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغيَّر، فقال أبو بكر: ثَكِلَتْك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسول الله ﷺ، رضينا

---

(١) صحيح البخاري: (٨/ ٢٠٨).

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ له ما يقرب من ١٥٤٠ حديثًا، توفي سنة ٧٨هـ. الأعلام (٢/ ١٠٤)، الإصابة (١/ ٢١٣)، تهذيب التهذيب (١/ ١٤٢).

(٣) رواه أحمد، المسند: (٣/ ٣٨٧)، وقد استقصىٰ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني طرقه وشواهده وخلص إلىٰ القول: (هو علىٰ أقل تقدير حديث حسن)، ووصف في فتوىٰ اللجنة الدائمة في المملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ بالثبوت.

(٤) رواه أحمد، المسند: (٣/ ٣٣٨).

بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا. فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمدٍ بيده، لو بَدَا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضلَلْتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لاتبعني)[١].

● وعن أبي نملة الأنصاري[٢] رضي الله عنه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجلٌ من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: الله أعلم. قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: (إذا حدَّثَكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: آمنَّا بالله وكُتُبه ورسله، فإن كان حقًّا لم تكذِّبوهم، وإن كان باطلًا لم تصدِّقوهم)[٣].

فيجب الحذر من كتبهم ومروياتهم وآثارهم، وهي ما أطلق عليه المسلمون «الإسرائيليات»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكَر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذِّبه، وتجوز حكايته؛ لما تقدَّم[٤]، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود لأمرٍ ديني)[٥].

٥ ـ تحريم بداءتهم بالسلام، وتقديمهم في المرور أو العبور، ونحو ذلك:

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبدؤوا اليهود ولا

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة: (١١٥).

(٢) أبو نملة الأنصاري، صحابي اختلف في اسمه فقيل: عمار، وقيل: عمر، وقيل: عمارة، وهو ابن معاذ بن زرارة من بني ظفر من الأوس، شهد أحدًا، وقيل: شهد بدرًا. انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٤٨٢).

(٣) رواه أحمد، المسند: (٤/ ١٣٦)، وأبو داود: (٤/ ٥٩).

(٤) يعني حديث: (وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) رواه البخاري: (٤/ ١٤٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٦ـ٣٦٧).

النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريقٍ فاضطرُّوهم إلى أضْيَقه)[١].

● وعن أبي بَصرة[٢] رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: (إنَّا غادُون إلى يهود، فلا تبدؤوهم بالسلام، فإذا سلَّمُوا عليكم فقولوا: وعليكم)[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذِكْرٌ له.. فحقيق بتحيةٍ هذا شأنُها أن تُصان عن بَذْلها لغير أهل الإسلام، وألا يُحيَّى بها أعداء القدوس السلام، ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار: «سلام على مَن اتبع الهدى»، ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلًا، فلهذا قال في أهل الكتاب: «لا تبدؤوهم بالسلام»)[٤].

(وأما الرَّدُّ عليهم فأمر أن يقتصر به على «عليكم»... هذا كله إذا تحقَّق أنه قال السام عليكم، أو شك فيما قال، فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: «سلام عليكم» لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام؟ أو يقتصر على قوله: «وعليك»؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦] فندب إلى الفضل وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما)[٥].

٦ ـ تحريم تهنئتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ١٧٠٧).

(٢) أبو بَصرة، حُمَيْل، وقيل: جُمَيْل بن بصرة بن وقاص، أبو بصرة الغفاري، صحابي سكن مصر ومات بها. تقريب التهذيب (١/ ٢٠٥).

(٣) مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٩٨)، وقال محققوه: (حسن). انظر: الجزء الثالث من المجلد السادس: (٤٧٥).

(٤) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧).

(٥) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧ ـ ١٩٩).

يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء:١٤٠]، ولا ريب أن أعيادهم الدينية حافلة بترداد عبارات الكفر والشرك، فلا يشاركهم فيها، ويُقِرُّهم عليها، ويهنئهم بها إلا منافق ما قَدَر الله حق قَدْرِه، قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو: تهنأ بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سَلِم قائله من الكفر فهو من المحرَّمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشدُّ مَقْتًا من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام ونحوه، وكثير ممن لا قَدْرَ للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنَّأ عبدًا بمعصية أو بدعة فقد تعرَّض لمَقْت الله وسخطه)[1].

٧ ـ تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:

● قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]، قال الماوردي رحمه الله: (ليس لجميع مَن خالَف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم، لا مقيمًا فيه ولا مارًّا به، وهذا مذهب الشافعي[2] رحمه الله وأكثر الفقهاء، وجوَّز أبو حنيفة[3] دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه)[1].

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) الإمام محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي المطلبي القرشي، أبو عبد الله، وُلِد سنة ١٥٠هـ وجمع بين الفقه والحديث والتقىٰ والورع، له «الرسالة» و«الأم» وغيرها، توفي سنة ٢٠٤هـ. الأعلام (٦/ ٢٦)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٢٩)، تهذيب التهذيب (٩/ ٢٥)، الوفيات (١/ ٤٤٧)، غاية النهاية (٢/ ٩٥)، تاريخ بغداد (٢/ ٥٦ ـ ٧٣).

(٣) النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة، إمام الحنفية المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة، وُلِد سنة ٨٠هـ. وتنسب إليه رسالة «الفقه الأكبر»، توفي سنة ١٥٠هـ. الأعلام (٨/ ٣٦)،

● عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلِقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المِدْراس، فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود، أسْلِموا تَسْلَموا. فقالوا: قد بلَّغْتَ يا أبا القاسم. فقال: ذلك أريد. ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلَّغْتَ يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أُجْلِيَكم، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليَبِعْه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله)[٢].

فهذا دليل خاصٌّ على منع استيطانهم المدينة، قال الماوردي: (وأجلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهل الذمة عن الحجاز، وضرب لمن قَدِم منهم ـ تاجرًا أو صانعًا ـ مُقام ثلاثة أيام، ويخرجون بعد انقضائها، فجرى به العمل، واستقر عليه الحكم، فمنع أهل الذمة من استيطان الحجاز، ولا يُمَكَّنون من دخوله، ولا يقيم الواحد منهم في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام، فإذا انقضت صُرِف عن موضعه، وجاز أن يقيم في غيره ثلاثة أيام، ثم يُصرَف إلى غيره، فإن أقام بموضع منه أكثر من ثلاثة أيام عُزِّر إن لم يكن معذورًا)[٣].

● وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدَعَ إلا مسلمًا)[٤].

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان آخر ما عَهِد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يُترَك بجزيرة العرب دينان»[٥].

تاريخ بغداد (١٣/ ٣٢٣)، وفيات الأعيان (٢/ ١٦٣)، النجوم الزاهرة (٢/ ١٢)، البداية والنهاية (١٠/ ١٠٧)، الجواهر المضية (١/ ٢٦).

(١) الأحكام السلطانية: (٢٩٠).

(٢) رواه البخاري: (٨/ ٧٥)، (٤/ ٦٥)، (٨/ ١٥٦)، ومسلم: (٣/ ١٣٨٧).

(٣) الأحكام السلطانية: (٢٩٢).

(٤) رواه مسلم: (٣/ ١٣٨٨).

(٥) مسند الإمام أحمد: (٦/ ٢٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٥/ ٣٢٥): (رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

● وعن أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: آخر ما تكلَّم به النبي ﷺ: (أخْرِجُوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١].

وإنما أمر النبي ﷺ بإخراجهم مع كونه قد عقد معهم صلحًا، فلأنهم لم يَفُوا بشروطه، فأما أهل نجران فلإسلام بعضهم ثم رِدَّته، ولأنه ﷺ صالَحَهم على ترك الربا فنقضوا عهده، وأما يهود خيبر فلأنه ﷺ جعل عقد الصلح معهم جائزًا من جهته، فقال: (نُقِرُّكم بها على ذلك ما شئنا)[٢]، وفي لفظ: (نُقِرُّكم ما أقَرَّكُم الله)[٣] [٤].

وهذه النصوص تدل على أهمية بقاء جزيرة العرب مَعقِلًا للإسلام، وحوزةً يفيء إليها أهله، ويَأْرِز إليها الدين، فلا غرو أن تكون بمنأى عن أعدائه لا يهتكون سترها ولا يستبيحون حِماها، وسبحان العليم الحكيم.

ب ـ الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق، وقيام العدل والإحسان:

ـ عدم الإكراه في الدين:

● قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

● ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس].

● ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف].

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: (أي: لا

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١/ ١٩٥).

(٢) رواه مسلم: (٣/ ١١٨٨).

(٣) رواه البخاري: (٣/ ١٧٧).

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة: (١٧٥ ـ ١٩١).

تُكرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بَيِّنٌ واضح جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل مَن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بيِّنة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرَهًا مقسورًا)[١].

وهكذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده يكتفون بالعرض والترغيب، ولا يُكرِهون أحدًا على التزام الإسلام، ويَكِلُونه لبارئه.

● فعن وسق الرومي قال: (كنت مملوكًا لعمر، فكان يقول لي: أسْلِم؛ فإنك إن أسلمت استعنتُ بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أمانتهم مَن ليس منهم، فأَبَيْتُ، فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، فلما حضرته الوفاة أعتَقَنِي، فقال: اذهب حيث شئت)[٢].

٢ ـ الإحسان إليهم والعدل في معاملتهم، وتحريم أذيَّتهم، وحِفْظ ذِمَّتِهم:

● قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة].

قال ابن جرير رحمه الله بعد سياق الأقوال في المعنيَيْن بقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف المِلَل والأديان أن تَبَرُّوهم وتَصِلُوهم وتُقْسِطوا إليهم، إن الله عزَّ وجل عَمَّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ جميعَ مَن

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٠).

(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٢/ ٤٤)، وانظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: (١/ ٢١١).

كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض)[١].

● وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة].

قال ابن جرير رحمه الله: (لا يحملنكم عداوة قوم على ألَّا تَعْدِلوا في حكمكم فيهم، وسِيرَتِكم بينهم، فتَجُورُوا عليهم من أجلِ ما بينكم وبينهم من العداوة)[٢].

● وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مَن قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا)[٣].

● وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء ـ بيت المقدس ـ:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر مِلَّتها، لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدَم، ولا ينتقَص منها ولا مِن حَيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود)[٤].

● قال موفق الدين بن قدامة[٥] رحمه الله في باب أحكام أهل الذمة: (وعلى

---

(١) جامع البيان: (٢٨/ ٦٦).

(٢) جامع البيان: (٦/ ١٤١).

(٣) رواه البخاري: (٤/ ٦٥)، (٨/ ٤٧).

(٤) تاريخ الطبري: (٢/ ٤٤٩).

(٥) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الجماعيلي المقدسي، ثم الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين، وُلِد عام (٥٤١هـ) إمام في الفقه عالم بالحديث من تصانيفه: «المغني» و«روضة الناظر» و«الكافي» و«المقنع» وغيرها، مات سنة (٦٢٠هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٦٧)، البداية والنهاية (١٣/ ٩٩)، شذرات الذهب (٥/ ٨٨)، ذيل الطبقات (٢/ ١٣٣).

الإمام حِفْظهم، والمنع من أذاهم، واستنقاذ مَن أُسِر منهم)، وشرحها شمس الدين بن قدامة[١] رحمه الله بقوله: (تلزمه حمايتهم من المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمة؛ لأنه التزم بالعهد حفظهم، ولهذا قال علي رضي الله عنه: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته للخليفة بعده: «وأوصيه بأهل ذمة المسلمين خيرًا، أن يوفِّي لهم بعهدهم، ويُحَاطُوا من ورائهم، ويجب فداء أسْراهم، سواء كانوا في معونتنا أو لم يكونوا»)[٢].

● وقال ابن حزم[٣] في مراتب الإجماع: (واتفقوا أن مَن أسَرَه أهل الحرب من كبار أهل الذمة وصغارهم ونسائهم أن ذِمَّتَهم لا تُنتَقَض بذلك ما لم يلحق مختارًا، وأنه إن ظفر المسلمون بالمأسورين المذكورين، من أنهم لا يسترقون)[٤].

● وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته إلى سرجوان ملك

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الجماعيلي الأصل، الصالحي، الحنبلي، شمس الدين أبو الفرج، وُلِد سنة (٥٩٧هـ)، فقيه أصولي، محدث خطيب، وُلِد بسفح قاسيون في دمشق، وتفقه علىٰ عمه موفق الدين، وولي القضاء مدة تزيد علىٰ اثنتي عشرة سنة علىٰ كره منه، ثم عزل نفسه في آخر عمره، وتوفي بدمشق سنة (٦٨٢هـ)، من تصانيفه: «شرح المقنع لعمه» و«تسهيل المطلب في تحصيل المذهب».

(٢) المقنع والشرح الكبير ومعهما الإنصاف: موفق الدين ابن قدامة، وشمس الدين ابن قدامة، وعلاء الدين المرداوي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر، مصر، الطبعة الأولىٰ (١٤١٥هـ ١٩٩٥م)، (١٠/ ٤٨٩).

(٣) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وُلِد سنة (٣٨٤هـ)، وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة، فزهد بها وانصرف إلىٰ العلم والتأليف، وكان يقال: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان» لسلاطة لسانه، توفي سنة (٤٥٦هـ)، من تصانيفه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» و«المحلىٰ» و«ملخص إبطال القياس» وغيرها، الأعلام (٤/ ٢٥٤)، نفح الطيب (١/ ٣٦٤)، آداب اللغة (٣/ ٩٦)، إرشاد الأريب (٥/ ٨٦ ـ ٩٧)، لسان الميزان (٤/ ١٩٨)، اللباب (١/ ٢٩٧).

(٤) مراتب الإجماع: (١٢٣).

قبرص:

(وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان[١] وقطلوشاه[٢]، وخاطبت بولاي[٣] فيهم، فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلَقون، فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذِمَّتِنا؛ فإنا نَفْتَكُّهم، ولا ندع أسيرًا لا من أهل المِلَّة، ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله)[٤].

● وجاء في وصية أبي يوسف[٥] إلى هارون الرشيد[٦] رحمهما الله: (وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيَّدك الله أن تتقدَّم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ، والتقدم لهم حتى لا يُظلَموا، ولا يُؤذَوْا، ولا يُكلَّفوا فوق طاقتهم،

---

(١) غازان ويقال: «قازان» محمود بن أرغون بن بغا، أحد ملوك التتار، استولىٰ علىٰ بلاد الشام واعتنق الإسلام سنة (٦٩٣هـ) وتوفي سنة (٧٠٣هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٤٠، ١٤/ ٦، ٢٩).

(٢) الأمير سيف الدين قطلو بك التشنكير الرومي، كان من أكابر الأمراء، وولي الحجوبية في وقت، وهو الذي عمر القناة بالقدس، توفي تسع وعشرين وسبعمئة. انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٤٥).

(٣) هكذا في مجموع الفتاوىٰ، والتصويب من الفتاوىٰ الكبرىٰ، والظاهر أن (بولاي) هذا أحد أمراء التتار.

(٤) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام: (٢٨/ ٦١٧ ـ ٦١٨).

(٥) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وُلِد سنة ١١٣هـ، يُعَدُّ أول من نشر مذهب أبي حنيفة، كان فقيهًا علامة، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، من كتبه «الخراج» و«الآثار» وهو مسند أبي حنيفة و«أدب القاضي» والجوامع وغيرها، توفي سنة ١٨٢هـ. الأعلام (٨/ ١٩٣)، مفتاح السعادة (٢/ ١٠٠ ـ ١٠٧)، النجوم الزاهرة (٢/ ١٠٧)، البداية والنهاية (١٠/ ١٨٠)، الجواهر المضية (٢/ ٢٢٠)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٢).

(٦) هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ) هارون «الرشيد» ابن محمد «المهدي» بن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، وُلِد بالري، وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني Irene وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار سنويًّا، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، كان عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحًا، شجاعًا، كريمًا، حازمًا، متواضعًا، يحج سنة ويغزو سنة، رحمه الله. انظر: الأعلام (٨/ ٦٢).

ولا يُؤخَذ من أموالهم إلا بحقٍّ وجب عليهم)[١].

٣ ـ حُسْن جوارهم:

● قال تعالىٰ: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء].

واختار ابن جرير رحمه الله في معنى «الجنب» (الغريب البعيد؛ مسلمًا كان أو مشركًا، يهوديًّا كان أو نصرانيًّا)[٢].

● وعن مجاهد رحمه الله أن عبد الله بن عمرو ذُبِحَت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه)[٣].

٤ ـ عيادة مريضهم:

● عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسْلِم. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم ﷺ، فأسْلَمَ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)[٤]، وقيَّدَه بعض أهل العلم بقصد دعوته إلى الإسلام[٥]، ولعل في مجرد الزيارة والعيادة من تأليف قلبه، وإظهار محاسن الإسلام، ما يستقل بذلك.

---

(١) الخراج: (١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) جامع البيان: (٥/ ٨٠).

(٣) رواه الترمذي: (٨/ ١٢٤ ـ ١٢٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) صحيح البخاري: (٢/ ٩٧).

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

٥ ـ القيام لجنائزهم:

● عن عبد الرحمن بن أبي ليلى[١] قال: كان سهل بن حُنيف[٢]، وقيس بن سعد[٣] قاعِدَيْن بالقادسية، فمَرُّوا عليهما بجنازة فقامَا، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي: من أهل الذمة، فقال: إن النبي ﷺ مرَّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسًا؟»[٤].

● وعن جابر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[٥]، وفي شهود جنائزهم وتعزيتهم تفصيل عند الفقهاء[٦].

٦ ـ دخول مساجد المسلمين ـ سوى المسجد الحرام ـ للحاجة:

● قال ابن إسحاق[٧]: (وفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة، فحدَّثَني محمد بن جعفر بن الزبير[٨]، قال: لما قَدِم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا

---

(١) عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ الأنصاري، المدني، ثم الكوفي، ثقة، مات بوقعة الجماجم سنة ستٍّ وثمانين. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٦).

(٢) سهل بن حُنيف بن واهب الأنصاري، الأوسي صحابي، من أهل بدر، استخلفه علي علىٰ البصرة، ومات في خلافته. تقريب التهذيب (١/ ٣٣٦).

(٣) قيس بن سعد بن عُبادة، الخزرجي، الأنصاري صحابي جليل، مات سنة ستين تقريبًا. تقريب التهذيب (٢/ ١٢٨).

(٤) صحيح البخاري: (٢/ ٨٧)، صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).

(٥) صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).

(٦) انظر؛ أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥).

(٧) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، من أقدم مؤرخي العرب، له «السيرة النبوية» التي هذبها ابن هشام و«كتاب الخلفاء» و«المبدأ» توفي سنة (١٥١هـ). الأعلام (٦/ ٢٨)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨)، إرشاد الأريب (٦/ ٣٩٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٣)، عيون الأثر (١/ ١٠)، ذيل المذيل (١٠٣).

(٨) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام، روىٰ عن عميه عبد الله وعروة، وعنه ابن إسحاق وابن جريج وغيرهم، ثقة من الطبقة السادسة مات سنة بضع عشرة مئة، وأخرج له الجماعة. تهذيب التهذيب (٩/ ٩٣)، تقريب التهذيب (ص٤٧١) رقم (٥٧٨٢).

يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: (دعوهم). فاستقبلوا المشرق، فصلَّوْا صلاتهم)[١].

قال ابن القيم: (في فقه هذه القصة، ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكَّنون من اعتياد ذلك)[٢].

٧ ـ الصدقة والوقف على فقرائهم والوصية لهم:

● قال ابن القيم رحمه الله: (لا ريب أن الصدقة جائزة على مساكين أهل الذمة، والوقف صدقة، فهاهنا وصفان: وصف يعتبر وهو المسكنة، ووصف مُلغًى في الصدقة والوقف وهو الكفر، فيجوز الدفع إليهم من الوقف بوصف المسكنة، لا بوصف الكفر)[٣].

● وروى أبو عبيد القاسم بن سلام[٤] رحمه الله بسنده عن سعيد بن المسيب[٥]: (أن رسول الله ﷺ تصدَّق صدقة على أهل بيت من اليهود فهي

---

(١) نقلًا عن زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت، الطبعة الأولىٰ (١٣٩٩هـ ١٩٧٩م)، (٣/ ٦٢٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧١)، وصحح ابن القيم القصة والصلاة في أحكام أهل الذمة: (١/ ١٨٧).

(٢) زاد المعاد: (٣/ ٦٣٨).

(٣) أحكام أهل الذمة: (١/ ٣٠٠).

(٤) القاسم بن سلام الهروي الأزدي، أبو عبيد، مولده سنة ١٥٧هـ من كبار العلماء بالحديث والفقه، له «الأموال» و«الأمثال» و«غريب الحديث» وغيرها، توفي سنة ٢٢٤هـ. الأعلام (٢/ ١٧٦)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥)، تهذيب التهذيب (٧/ ٣١٥)، وفيات الأعيان (١/ ٤١٨).

(٥) سعيد بن المسيب بن حزن، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وُلِد سنة ١٣هـ وجمع بين الفقه والحديث والزهد والورع، وكان أحفظ الناس لأقضية عمر حتىٰ سمي راوية عمر، توفي سنة ٩٤هـ. الأعلام (٣/ ١٠٢)، طبقات ابن سعد (٥/ ٨٨)، وفيات الأعيان (١/ ٢٠٦)، صفة الصفوة (٢/ ٤٤)، حلية الأولياء (٢/ ١٦١).

تجري عليهم)[١].

● وروى أبو يوسف بسنده قال: مَرَّ عمر بن الخطاب بباب قومٍ وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عَضُدَه من خلفه وقال: مِن أيِّ أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيءٍ من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضُرَباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)، والفقراء هم المسلمون، والمساكين من أهل الكتاب، فوضع عنه الجزية وعن ضُرَبائه)[٢].

وقال الإمام البخاري في صحيحه: (باب الوصية بالثلث، وقال الحسن: لا يجوز للذمي وصية إلا الثلث، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩][٣].

٨ ـ الحقوق المعيشية في السكنى والتنقل والتكسب:

● قال ابن حزم في «مراتب الإجماع»: (واتفقوا أن لأهل الذمة المشي في أرض الإسلام، والدخول حيث أحبوا من البلاد حاشا الحرم بمكة، فإنهم اختلفوا أيدخلونه أم لا، واتفقوا على أن لهم سكنى أي بلدٍ شاءوا من بلاد الإسلام على الشروط التي قدَّمْنا حاشا جزيرة العرب)[٤].

● وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (اشترى طعامًا من يهودي إلى أجَلٍ، ورهنه درعًا من حديد)[٥].

---

(١) الأموال: (٦٠٥).
(٢) الخراج: (١٣٦).
(٣) صحيح البخاري: (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧).
(٤) مراتب الإجماع: (١٢٢).
(٥) صحيح البخاري:(٣/ ٨).

● وعن عائشة أيضًا قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قِطريان غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثَقُلَا عليه، فقَدِم بَزٌّ من الشام لفلان اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبَيْن إلى الميسرة، فأرسل إليه، فقال: قد علمتُ ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي. فقال رسول الله ﷺ: كذب، قد علم أني مِن أتقاهم لله وأدَّاهم للأمانة)[١].

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ عامَل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرٍ أو زرع)[٢].

٩ ـ حِلُّ طعامهم ونسائهم:

● قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة].

فأما الطعام المذكور في الآية فـ(لم يختلف السلف أن المراد بذلك الذبائح)[٣].

وأما المُحصَنات هنا فـ(هن العفايف)[٤]، وتفاصيل هذين الحُكمَين في مظانِّها في كتب الفقه.

وفي تمييز أهل الكتاب عن سائر أصناف المشركين بهذين الأمرين من البر والإحسان وحسن المعاملة ما لا يخفى، وله آثارٌ حميدة في استمالة قلوبهم، وتقريبهم إلى دين الإسلام.

(١) رواه الترمذي: (٥/ ٢١٧)، وقال: حديث حسن غريب صحيح.
(٢) صحيح البخاري: (٣/ ٦٩)، صحيح مسلم: (٣/ ١١٨٦).
(٣) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٥).
(٤) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٤١٩).

١٠ ـ تشميت عاطسهم:

● عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت اليهود تَعاطَسُ عند النبي ﷺ رجاءَ أن يقول لها: يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله ويُصلِح بالكم)[١].

هذه الموازنة الدقيقة التي جاء بها الإسلام بين النهي عن موالاة الكافرين وموادَّتِهم، والحَثِّ على بِرِّهم والإحسان إليهم، وإيجاب العدل معهم، تُشكِل على كثير من الناس، فيُفضِي به الأمر إما إلى إعمال الطائفة الأولى من النصوص والغضِّ عن الطائفة المقابلة، فيقع في ظلم أهل الكتاب ـ سوى الحربيِّين ـ والعنف معهم وجفوتهم وأذيَّتهم، وإما إلى إعمال الطائفة الثانية من النصوص والإغراق في مداهنة أهل الكتاب وموادَّتهم حتى تتعطَّل دلالة النصوص الأولى، ويختلط عليهم أمْرُ الولاء والبراء، فينقض أوثق عرى الإيمان.

وقد تنبَّه الفقيه المالكي أبو العباس القرافي[٢] رحمه الله لهذا الاشتباه الخطير، فعقد فصلًا في كتابه القيم «الفروق»، ننقله بطوله لأهميته وبيانه، فقال:

(الفرق التاسع عشر والمئة بين قاعدة بِرِّ أهل الذمة، وبين قاعدة التودُّد لهم.

اعلم أن الله تعالىٰ منع من التودد لأهل الذمة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

---

(١) رواه أبو داود: (٥/ ٢٩٢)، والترمذي: (١٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) القَرافِي: (٠٠٠ ـ ٦٨٤هـ) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي، من علماء المالكية، وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، منها: أنوار البروق في أنواء الفروق، والذخيرة في فقه المالكية، والأجوبة الفاخرة في الرد علىٰ الأسئلة الفاجرة، وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٩٥).

[الممتحنة] فمنع الموالاة والتودُّد، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة]، وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]، وقال ﷺ: «استوصوا بأهل الذمة خيرًا»[(١)]، وقال في حديثٍ آخر: «استوصوا بالقبط خيرًا»[(٢)]، فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودُّد والموالاة منهي عنهما، والبابان مُلْبِسان فيحتاجان إلىٰ الفرق.

وسِرُّ الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غِيبة في عِرْض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيَّع ذمة الله تعالى، وذِمَّة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام، وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن مَن كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صَوْنًا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، وحكى في ذلك إجماع الأمة[(٣)]. فعقد يؤدِّي إلى إتلاف النفوس والأموال صونًا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم، وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة تعيَّن علينا أن نَبَرَّهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مَودَّات القلوب، ولا تعظيم شعائر الكفر، فمتى أدى إلى هذين امتنع وصار من قبل ما نهى عنه في الآية وغيرها، ويتَّضح ذلك بالمثل؛ فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، والقيام لهم حينئذٍ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجِبة لرفع

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجد هذا النقل في «مراتب الإجماع» ولعل ذلك بسبب اختلاف النسخ.

شأن المنادى بها، هذا كله حرام، وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلينا لهم واسِعَها ورَحبها والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خَسِيسها وحَزنها وضيقها، كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس، والولد مع الوالد، والحقير مع الشريف، فإن هذا ممنوع؛ لما فيه من تعظيم شعائر الكفر، وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله، ومن ذلك تمكينهم من الولايات، والتصرُّف في الأمور الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة، فذلك كله ممنوع وإن كان في غاية الرفق والأناة أيضًا؛ لأن الرفق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم، فهي درجة رفيعة أوصَلْنَاهم إليها، وعظَّمْناهم بسببها، ورفعنا قدرهم بإيثارها، وذلك كله منهيٌّ عنه، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادمًا ولا أجيرًا يُؤمَر عليه ويُنهَى، ولا يكون أحد منهم وكيلًا في المحاكمات على المسلمين عند ولاة الأمور، فإن ذلك أيضًا إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم، وأما ما أمر به من بِرِّهم من غير مودة باطنية؛ فالرفق بضعيفهم، وسد خلَّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذِّلَّة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفًا منا بهم، لا خوفًا وتعظيمًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعَلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، وحِفْظ غَيْبتهم إذا تعرَّض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يَحْسُن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه، فإن ذلك من مكارم الأخلاق، فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القَبِيل لا على وجه العزة والجلالة منا[1]، ولا على وجه التعظيم لهم، وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جُبِلُوا عليه من بُغْضِنا وتكذيب نبينا ﷺ،

(١) هكذا في الأصل، ولعل صوابها: (من هذا القبيل علىٰ وجه العزة والجلالة منا، لا علىٰ وجه التعظيم....).

وأنهم لو قَدَرُوا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل، ثم نُعامِلهم بعد ذلك بما تقدَّم ذِكْره امتثالًا لأمر ربنا عز وجل وأمْر نبينا ﷺ، لا محبة فيهم، ولا تعظيمًا لهم، ولا نُظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة؛ لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك، فنستحضرها حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرَّم علينا خاصة)[1].

هذا هو الفقه بعينه، الذي يُجري جميع النصوص مجراها، ولا يُضرب بعضها ببعض، أو يُعمل بعضها ويُلغي الآخر، إنه فهمٌ دقيق، وتمييز واعٍ بين الاعتقاد الباطن وما يستلزمه، والعدل الظاهر وما يقتضيه، فلله دَرُّه.

ومن المؤسف أن كثيرًا من الكُتَّاب المعاصرين يجتزئ ما يُعجِبه ويوافق هواه من كلام هذا الإمام، ويُهمل ذِكْر باقيه مما لا يتم المعنى إلا به، فيُبرز الجمل العظيمة المتضمِّنة بِرَّ أهل الذمة والإحسان إليهم، ويسوقها باسم تسامُح الإسلام، ويضرب صفحًا عن عباراته القوية الإيمانية في التبرؤ القلبي من موادتهم وموالاتهم.

وفي هذا عدوان على النصوص، وتَجَنٍّ على هذا الإمام، وغِشٌّ للأمة حيث حجب عنها كامل الحقيقة، وحرمها هذا الفرقان المبين، والله المستعان.

(١) الفروق: القرافي، شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي، دار المعرفة، بيروت، (١٤ ـ ١٦).

المبحث الرابع
«موقف أهل الكتاب من الإسلام»

لقد كان أولى الناس باتباع محمد ﷺ، أهل الكتاب، وذلك لأسباب:

أحدها: أنه البشارة المرتقبة التي زفَّها الأنبياء قبله إلى أقوامهم، فتعلَّقَت أفئدتهم بذلك النبي المنتظر، الذي خلعت عليه وعلى أتباعه أجَلَّ الأوصاف، وأكرم المعاني، على نحو ما سنذكر بعد قليل.

والثاني: أنه البيِّنة التي بها افتكاكهم من دوَّامة الخلاف المرير الذي مزَّقهم كلَّ مُمزَّق، حتى كفَّر بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا.

والثالث: أنه فتح لأهل الإيمان على أهل الشرك والأوثان.

ولكن هذا التوقُّع لم يقع إلا بصورة جزئية فردية، فقد تحدَّدَت مواقف أهل الكتاب من يهود ونصارى إبان العهد النبوي، وحين تنزَّل القرآن، وبدلًا من أن تنضوي زعامتَا الديانتين اليهودية والنصرانية في الديانة الإسلامية التي تمثِّل الامتداد الطبيعي لملة إبراهيم عليه السلام ناصَبَتاها العداء، وتفنَّنَتَا في رَدِّها، ومحاولة وأْدِها في مهدها، واستئصالها بعد بُدُوِّها. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

أولًا: موقف أهل الكتاب من الإسلام قبل البعثة النبوية:

دلَّ كتاب الله -القرآن العظيم- على أن أهل الكتاب قد بُشِّروا بنبي عظيم موصوف بصفات شريفة يُبْعَث في آخر الزمان، وقد أُمِرُوا باتباعه، كما أفاضت كتبهم الدينية في الحديث عنه.

١ ـ القرآن الكريم:

● قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف].

● ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران].

● ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح].

● ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة].

● روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: (﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلَا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تُحَدِّثوا العرب بهذا؛ فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، أي: تُقِرُّون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أُخِذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي ﷺ الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا، اجْحَدُوه ولا تُقِرُّوا لهم

به)[١].

● ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]. قال ابن جرير رحمه الله: (أخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لما جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في أيديهم من التوراة أن محمدًا ﷺ نبي الله، نَبذَ فريق، يعني بذلك أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا مُقِرِّين، حسَدًا منهم له، وبَغْيًا عليه)[٢].

● ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهذه الآيات القرآنية قاطعة بحصول البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وكَوْنِه موصوفًا فيهما بأكرم الصفات المقتضية لتعلُّق أهل هذين الكتابين بالإيمان بنبوته والتشوق لمبعثه، ولما كان عيسى بن مريم عليه السلام أولى الناس به، حيث لم يكن بينهما نبي؛ انتقلت البشارة من الوصف إلى التسمية الصريحة القاطعة لأدنى التباس.

في كتبهم الدينية:

تضمَّنَت كتب بني إسرائيل عبارات متعدِّدة دالَّة على مبعث نبي عظيم، مؤيَّد من عند الله، يُخضِع الله له الأمم والشعوب، ويُظهِره على مَن خالفه، وهذا موافق لما أخبر الله به في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن

(١) جامع البيان: (١/ ٣٧٠).
(٢) جامع البيان: (١/ ٤٤٣).

كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وقد روى ابن جرير رحمه الله بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: (لم يبعث الله عز وجل نبيًّا؛ آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد؛ لئن بُعِث وهو حي ليؤمِنَنَّ به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه)[(١)]، ولكن أهل الكتاب لا يُثبِتُون هذه البشارة في حق نبينا محمد ﷺ، بل يحملها اليهود على موعودٍ منتظَر في آخر الزمان يتبعونه، ويحملها النصارى على المسيح عيسى بن مريم، ورَجْعَته في آخر الزمان، ولا ريب أن هذه العبارات تعرضت لعوامل التحريف اللفظي والمعنوي من قِبَل الأحبار والرهبان؛ لصرف نظر أتباعهم عن رسالة نبينا محمد ﷺ، قال الفخر الرازي[(٢)] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة]: (اعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقين، وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه، ومنعه من الوصول إليها، فقوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إشارة إلى القسم الأول، وهو تشويش الدلائل عليه، وقوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ إشارة إلى القسم الثاني، وهو مَنْعُه من الوصول إلى الدلائل)[(٣)].

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٣٣٢).

(٢) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي، إمام في الفلسفة وعلم الكلام، ويقال له «ابن خطيب الري» وهو قرشي النسب أصله من طبرستان ومولده في الري وإليها نسبته، وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـ. ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب» وهو التفسير المشهور و«لوامع البينات في شرح أسماء الله والصفات» و«معالم أصول الدين» و«المحصول في علم الأصول» وغيرها، الأعلام (٦/ ٣١٣)، الوفيات (١/ ٤٧٤)، مفتاح السعادة (١/ ٤٤٥)، آداب اللغة (٣/ ٩٤)، لسان الميزان (٤/ ٤٢٦).

(٣) التفسير الكبير: الفخر الرازي، محمد بن عمر، دار الفكر، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)،

وسنذكر أدناه نماذج من هذه الجُمَل المتضمِّنة البشارة بنبينا محمد ﷺ.

● جاء في سفر التثنية: (فقال لي الرب:... سأقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمُره به) ١٨/ ١٧ ـ ١٨[١]. وقد بَيَّنَ الشيخ رحمت الله الهندي[٢] رحمه الله دلالة هذا النص على البشارة بنبينا محمد ﷺ من عشرة أوجه[٣]، مدارها على امتناع إرادة يوشع بن نون أو عيسى بن مريم عليهما السلام بذلك، وإثبات لفظ «إخوتهم»، يستعمل في التوراة في حق بني إسماعيل، وقال البروفسور المهتدي عبد الأحد داود[٤] رحمه الله معلِّقًا على النص السابق: (فإذا كانت هذه الكلمات لا تنطبق على «محمد» فإنها تبقى غير متحقِّقة ولا نافذة، فالمسيح نفسه لم يدَّعِ أبدًا أنه النبي المشار إليه، حتى إن حواريه كانوا على نفس الرأي، وأنهم يتطلعون إلى دعوة المسيح مرة ثانية لكي تتحقَّق النبوءة، وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوض بأن «الظهور الأول للمسيح» لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أُقيم لهم نبيًّا مثلك»، وكذلك فإن عودة المسيح مرةً ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات، وأن المسيح كما تؤمن به كنيسته سوف يظهر كقاضٍ، وليس كمقدِّم للتشريع؛ بينما الموعود هو الذي يجيء حاملًا «الشريعة النارية المُشِعَّة بيده اليمنى»[٥].

(٢/ ٥٤).

(١) العهد القديم: (٢٨٦).

(٢) سيرد التعريف به في آخر الباب الثالث.

(٣) إظهار الحق: (١١١٦ ـ ١١٢٨).

(٤) عبد الأحد داود: كان اسمه دافيد بنجامين، كلداني، وُلِد سنة ١٨٦٧م في «أرميا» من بلاد فارس، وعمل موظفًا في إرسالية الكنيسة الإنجليكانية إلىٰ النسطريين في بلدته بين عامي ١٨٨٦، ١٨٨٩م، ثم ابتعث إلىٰ روما لدراسة اللاهوت، ورسم كاهنًا عام ١٨٩٥م، وكان قسيسًا لطائفة الروم الكلدانيين، وفي عام ١٩٠٤م زار إستانبول عائدًا من بريطانيا، والتقىٰ بعدد من العلماء المسلمين، فاعتنق الإسلام. انظر: مقدمة كتابه (محمد في الكتاب المقدس)، وانظر: «مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية» د. محمد السحيم (٢٣٧ ـ ٢٦٠).

(٥) محمد في الكتاب المقدس: عبد الأحد داود، ترجمة: فهمي شما، مراجعة وتعليق: أحمد محمد

● جاء في سفر التثنية أيضًا: (أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وسطع من جبل فاران) ٣٣/ ٢[١].

قال الشيخ رحمت الله الهندي مبيِّنًا هذه الجمل: (فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانُه من جبل فاران إنزاله القرآن؛ لأن فاران جبل من جبال مكة. وفي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في وصف حال إسماعيل عليه السلام هكذا: «٢٠ ـ وكان الله معه، ونما وسكن في البرية، وصار شابًّا يرمِي بالسهام، وسكن برية فاران، وأخذت له أُمُّه امرأةً من أرض مصر»[٢].

● وجاء في سفر التكوين: (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه، وها أنذا أباركه وأُنَمِّيه وأُكَثِّره جدًّا جدًّا، ويلد اثني عشر رئيسًا، وأجعله أمة عظيمة) ١٧/ ٢٠[٣].

وهذا النص يناسب دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في القرآن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، ولا ريب أن هذه الدعوة إنما تحقَّقت ببعثة نبينا محمد ﷺ، وأن «الأمة» المسلمة المنشودة إنما هي أمَّته، أما ذِكْر الاثني عشر رئيسًا فلعله يوافق قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن سمرة[٤]

الصديق، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الثانية) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

(١) العهد القديم: (٤١١).

(٢) إظهار الحق: (٤/ ١٣٥)، والمعروف أن إسماعيل عليه السلام تزوج مرتين من قبيلة جرهم، التي جاورت البيت.

(٣) العهد القديم: (٩٢).

(٤) جابر بن سمرة بن جُنادة، السوائي، صحابي، ابن صحابي، نزل الكوفة ومات بها سنة سبعين. تقريب

رضي الله عنه قال: دخلت مع أبي علىٰ النبي ﷺ فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»، قال: ثم تكلم بكلام خَفِيَ عليَّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»[(١)]، وفي لفظ: (لا يزال الإسلام عزيزًا...)[(٢)]، وفي لفظٍ: (لا يزال الدين قائمًا حتىٰ تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)[(٣)]، وقريش هم صفوة ذرية إسماعيل عليه السلام، ورسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة كما في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٤)].

يقول البرفسور المهتدي عبد الأحد داود: (فإذا كان «محمد» -وكما هو معروف للجميع- قد جاء من نسل إسماعيل، وابنه قيدار «عدنان»، ثم ظهر بعد ذلك نبيًّا في قِفَار فاران، ثم دخل مكة مع عشرة آلاف قِدِّيس «مؤمن»، وجاء بالشريعة النارية إلىٰ شعبه، أوَلَيست هذه النبوءة السالفة الذِّكْر هي التي تحقَّقَتْ بالحرف الواحد؟؟)[(٥)].

● جاء في إنجيل «يوحنا» ما نصه: (إذا كنتم تحبوني حفظتم وصاياي، وأنا سأسأل الآب فيَهَب لكم مؤيِّدًا آخر يكون معكم للأبد) ١٤/ ١٥ ـ ١٦، ثم قال في فقرة لاحقة من نفس الإصحاح: (ولكن المؤيِّد الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي هو يُعلِّمكم جميع الأشياء، ويذكِّركم جميع ما قلته لكم)

التهذيب (١/ ١٢٢).

(١) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٢).

(٢) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٣).

(٣) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٤) وتمام هؤلاء الخلفاء القرشيين الاثني عشر عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي ولي علىٰ رأس القرن الأول، خير القرون، قرن رسول الله ﷺ وفيه جرت معظم الفتوح الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

(٤) رواه مسلم: (٤/ ١٧٨٢).

(٥) محمد في الكتاب المقدس: (٣٢).

١٤/ ٢٦[١]، وقد نقل الشيخ رحمت الله الهندي هذا النص عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م، وسنة ١٨٣١م، وسنة ١٨٤٤م في لندن على النحو التالي: (١٥ ـ إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم «فارقليط» آخر ليثبت معكم إلى الأبد (١٧) روح الحق الذي لن يطيق العالمُ أن يقبله؛ لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم (٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكِّركم كل ما قلته لكم (٣٠) والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنوا)[٢].

هذا النص المنسوب إلى المسيح عليه السلام يتفق في مضمونه مع البشارة القرآنية الواردة على لسانه عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، وقد كان عيسى عليه السلام يتكلم بالعبرانية، فلما كُتِبَت الأناجيل باليونانية عُبِّر عن المبشَّر به بلفظ «بيريكليتوس»، فلما عُرِّبَت الأناجيل كتبها البعض بلفظ «الفارقليط»، وترجمها البعض بمعنى «المعزي». يقول الداعية أحمد ديدات[٣]: («أحمد» أو «محمد» المُثنَى عليه أو الممدوح أو المحمود (The Praised One) هو تقريبًا ترجمة للكلمة اليونانية «بيركليتوس»

(١) العهد الجديد: (٣٣٧).

(٢) إظهار الحق: (٤/ ١١٨٥).

(٣) أحمد ديدات: أحمد حسين ديدات، وُلِد سنة ١٩١٨م، هندي الأصل، ويعيش في «جنوب أفريقيا»، تخرج من كلية «مولاي سلطان التقنية» واجتاز برنامجًا في الرسم الهندسي التقني، وفي رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانته، اشتغل بالدعوة إلىٰ الله منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، وشارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية والإقليمية والدولية، واعتنىٰ بالرد علىٰ النصارىٰ خاصة، ومناظرتهم في المحافل العامة، ففتح له في ذلك وأفحم خصومه بسعة اطلاعه علىٰ كتبهم الدينية، وبيان تناقضها وتحريفها، وقوة حجته، وطول نفسه، وسجل أكثر من اثنتي عشرة محاضرة ومناظرة تداولها الناس، وقد أنشأ لهذا الغرض معهدًا إسلاميًّا اسمه «السلام»، وألف بضعة كتب عن النصرانية، منها: ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟ هل الإنجيل كلمة الله؟ الصلب أو خرافة الصلب، وغيرها، منح براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤٠٦هـ. انظر: التعريف به في النشرة الصادرة عن هيئة الجائزة، وقد توفي، رحمه الله عام ٢٠٠٥ عن ٨٧ سنة.

(Periclytos) ؛ في إنجيل يوحنا الموجود حاليًّا (يوحنا ١٦: ١٤؛ ٢٦: ١٥، ٧: ١٦) تأتي كلمة «كومفرتر» (Comforter) في النسخة الإنجليزية (والتي تترجم في التراجم العربية بـ«المعزي») عوضًا عن الكلمة اليونانية «باراكليتوس» (paracletos) التي تعني «المحامي» أو «المؤيد» أو «الشفيع» (Advocate) «الذي يُدعَى لمساعدة أو معاونة (إنسان) آخر، الصديق، أو الولي، الودود الحنون». وهذه الترجمة مفضَّلة عن ترجمتها بـ«المعزي»، ويؤكد علماؤنا... أن كلمة «باراكليتوس» (paracletos) تفسير خاص محرَّف، أو قراءة محرَّفة لكلمة «بيريكليتوس» (periclytos) ومعناها: المستوجب للحمد، وأنه كان في القول الأصلي لعيسى نبوءة خاصة بنبينا الكريم «أحمد» بالاسم[1]، وحتى لو قرأناها «باراكليت» (بارقليط أو فارقليط) (paraclte) فإنها تشير إلى النبي الكريم «المبعوث» ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وهو ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة]... إنه من الواضح لكل الباحثين عن الحق بإخلاص أن محمدًا ﷺ هو «الباراكليت» الموعود (The promised paraclete)، أو المعزي (Comforter) المسمى أيضًا على سبيل التخيير بالمُساعد أو المُعِين (helper) والمحامي والمؤيِّد والشفيع (Advocate)، والناصح الأمين أو المشير (Counsellor)... إلخ المذكور في نبوءات عيسى عليه السلام في إنجيل يوحنا)[2].

● ويزيد الأمر وضوحًا حول شخصية «الفارقليط» أو «المعزي» ومهمته ودوره ما جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عليه السلام: (أما الآن فإني ذاهب إلى الذي أرسلني، وما من أحدٍ منكم يسألني: إلى أين تذهب؟ بل ملأ الحزن قلوبكم؛ لأني قلت لكم هذه الأشياء، غير أني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أذهب، فإن لم أذهب لا يأتكم المؤيّد، أما إذا ذهبت فأرسله إليكم، وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والدينونة، أما على الخطيئة فلأنهم لا

(١) انظر ما كتبه البرفسور عبد الأحد داود حول هذا التحريف في كتابه محمد في الكتاب المقدس: (٢١٩ ـ ٢٢٩)، وراجع ما تقدم من إثبات البشارة به في إنجيل برنابا في المبحث السابق في التمهيد.

(٢) مفهوم العلاقة بين الله والبشر في الأديان السماوية: (٣٠ ـ ٣٣).

يؤمنون بي، وأما على البِرِّ فلأني ذاهب إلى الآب فلن تروني، وأما على الدينونة فلأن سيد هذا العالم قد دين، لا يزال عندي أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكن لا تطيقون الآن حملها، فمتى جاء هو، أي روح الحق، أرْشَدَكم إلى الحق كله؛ لأنه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويُخبِركم بما سيحدث، سيمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم به) ١٦/ ٥ ـ ١٤[1].

وهذه البشارة بـ«المؤيد» أو «المعزي» كما في بعض الترجمات صدرت في الأيام الأخيرة من حياة المسيح عليه السلام قبل رفعه كما واضح في إنجيل يوحنا، ولعل فيها بيانًا لسبب تلقيب المبشَّر به بـ«المعزي»، أو على الأقل لترجمته بذلك، وهو أن رجاء قدومه وبعثته يُزِيل الكآبة التي ملأت قلوب الحواريين لفراق المسيح، فيكون في ذلك عزاء لهم، كما أن فيه دلائل قوية متعينة على إرادة النبي ﷺ بهذه البشارة، منها:

١ ـ أنه يقيم الحجة البالغة على العالم.

٢ ـ أنه يبيِّن مقتضى الإيمان الصحيح بالمسيح عليه السلام بين الغالي فيه والجافي عنه؛ بين النصارى الذين رفعوه فوق منزلته وألَّهُوه وادَّعَوْا بنوَّته لله تعالى، واليهود الذين كفروا به، وزعموا أنه ابن سفاح وآذَوْه أشد الإيذاء، وهَمُّوا بقتله، وأما هو ﷺ فقد مجَّده؛ لأنه يتلقى الوحي من الله الذي أرسل كلًّا منهما عليهما السلام وأدَّاه كما سمعه، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء]، وقال بعد سَرْد قصة ولادته: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا

(١) العهد الجديد: (٣٤٣ـ٣٤٤).

كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ [مريم].

٣ ـ أنه يجيء بالحق الكامل، والهداية التامة الشاملة المُوحَى بها من عند الله تعالى: (فمتى جاء هو -أي روح الحق- أرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث...)، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والمقصود من سياق هذه النصوص من التوراة والإنجيل التي بأيدي القوم، بيان موقفهم من الإسلام ونبيِّه ﷺ قبل البعثة، وأنهم يهودًا ونصارى كانوا يتطلعون إلى بعثته بفارغ الصبر، ويستفتحون بذلك على أعدائهم من الوثنيين، ويرون أنهم أولى الناس به، وأنه وارث دين إبراهيم عليه السلام.

وكانوا قُبَيْل البعثة يخبرون عن نبي أظَلَّهم زمانه، كما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويلة في رحلته للبحث عن الحق، وتنقُّله بين الأساقفة؛ كل واحدٍ يُوصِي به إذا حضرته الوفاة إلى مثله، فكان آخرهم صاحب عمورية، فقال له سلمان لما حُضِر: (يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى مَن توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظَلَّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجرًا إلى أرض بين حرَّتَيْن بينهما نخل، به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كَتِفَيْه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل...)[(٢)]، الحديث.

---

(١) سلمان الفارسي أبو عبد الله، ويقال له سلمان الخير، أصله من أصبهان، وقيل: من رامه هرمز، من أول مشاهده الخندق، مات سنة (٣٤هـ). تقريب التهذيب (١/ ٣١٥).

(٢) رواه أحمد بطوله: (٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، وأصله مجملًا في صحيح البخاري: (٤/ ٢٧٠) عن سلمان

ثانيًا: موقف أهل الكتاب من الإسلام بعد البعثة النبوية:

لقد كان حَرِيًّا بأهل الكتاب أن يقبلوا البشارة، ويؤمنوا جميعًا بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، موصوفًا بالأوصاف المنضبطة، مضروبًا له الأمثال المنطبقة، حتى يؤتيهم الله كِفْلَيْن من رحمته، ويجعل لهم نورًا يمشون به، ويغفر لهم، كما وعدهم، قال ﷺ: (ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتَين: رجل من أهل الكتاب آمَن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمَن به واتَّبَعه وصدقه، فله أجران...)[(١)]، الحديث، ولكن مواقفهم تبايَنَت؛ فمن سبقت له من الله الحسنى قَبِل البشرى وَقَرَّ بها عينًا، ومن حق عليه القول في أُمَم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي بعث به نبيه الخاتم.

ويمكن القول: إن موقف زعماء أهل الكتاب تحدَّد إبان العهد النبوي، حيث كان اليهود يقطنون المدينة وما حولها، كما أنه ﷺ قد كاتَبَ ملوك النصارى في مصر والحبشة وبلاد الشام، ووفد عليه نصارى نجران[(٢)]، ويتلخَّص في رفض دعوة الإسلام، وتكذيب رسوله، والإصرار على دين الآباء المحرَّف، حتى مع وهج السيف أو ذُلِّ الجزية.

أما الموقف «الشعبي» المتمثِّل في جمهور أهل الديانتين ـ سوى الزعماء الدينيين والمدنيين ـ فقد تفاوت تفاوتًا بيِّنًا، فقد كان النصارى أكثر قبولًا للإسلام ومودة للمؤمنين واتباعًا للحق، بينما كان اليهود ـ كعادتهم ـ أغلظ قلوبًا وطِباعًا، وأشد عداوة للذين آمنوا، وقد سجَّل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ

رضي الله عنه أنه تداوله بضعة عشر سيدًا.

(١) رواه البخاري (١/ ٣٣) ومسلم (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) انظر: الباب الثالث، الفصل الثاني.

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة].

وتأتي شهادة التاريخ موافِقةً لما قرَّره القرآن الكريم، حيث شهدت العقود الأولى التالية للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر انخراط أعدادٍ كبيرة من سكان البلاد الأصليين من النصارى في الدين الجديد، وقد تمَّت عملية «إسلام» لا «أسلمة»، بشهادة المؤرخين المنصفين من الأعداء قبل الأصدقاء، ودهشتهم في نفس الوقت، وفي الدراسة المتميزة التي أعدها فيليب فارج[(١)]، ويوسف كرباج[(٢)] بعنوان: «المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي» يطرح الباحثان سؤالًا لافِتًا: (كيف تسنَّى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميَّز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوز بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة، وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العثور في مصر وفي الهلال الخصيب على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التي مثَّلها التوسع الإسلامي، والمقاومة المسيحية؟)[(٣)]، ويقدِّم الباحثان إجابات متعددة، وتفسيرات متنوعة لهذا التساؤل نختلف معهما في أولويتها وأهميتها، لكنهما ـ وهذا هو المهم ـ يعترفان (أن الإكراه عليه ـ أي اعتناق الإسلام ـ كان غائبًا في أغلب الأحيان، وهو لم يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية...

(١) مدير مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (القاهرة)، وباحث في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن الشرق العربي.

(٢) باحث بالمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن المغرب الأقصىٰ، من مقدمة كتابيهما.

(٣) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي: فيليب فارج، ويوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٤م، (٣٧).

ومن ثم فإن جزءًا من السكان يتبنَّى الإسلام بسرعة، ويفوز بحكم تحوُّله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، وربما دون مكابدةِ قطيعةٍ حقيقية؛ لأن الدين الجديد يقدِّم نفسه بوصفه امتدادًا للمسيحية واليهودية)[1].

وأيًّا كانت الأسباب المفترَضة فإنَّا نعتقد أن السبب الحقيقي والأساس يرجع إلى أمرين:

أولهما: صحة دين الإسلام ونقاؤه ووضوحه وشموله، وموافقته للعقل والفطرة، وتصديقه لما بين يدَيْه من الكتاب.

ثانيهما: الأوصاف الحميدة التي ذكرها الله في كتابه عن مؤمني النصارى، وهي:

١ ـ العلم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾.

٢ ـ العبادة: ﴿وَرُهْبَانًا﴾.

٣ ـ التواضع: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٤ ـ قبول الحق ورِقَّة الطباع: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٥ ـ العقل والشجاعة: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

تلك هي المؤهلات الحقيقية التي تقود صاحبها للإيمان بالله ورسله في كل زمان ومكان، ومن كل جيل وقَبِيل، بصرف النظر عن الانتماءات العِرْقية

---

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٨)، والإسلام يمثل الحلقة الأخيرة من دين الله الحق لا اليهودية ولا النصرانية المحرفتين، بل امتداد لملة إبراهيم الذي ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا.

والدينية السابقة، لكنَّ المؤثرات التاريخية والاجتماعية وحظوظ النفس وأهواءها، وحب الدنيا والشيطان صوارف عن سبيل الله، وقد تَكثُر في قومٍ وتَقِلُّ نسبيًّا عند آخرين.

ومنذ العهد النبوي إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يُصِرُّ اليهود على يهوديتهم، والنصارى على نصرانيتهم، ويَرُدُّون دين الإسلام الذي نسخ الله به جميع الشرائع السابقة، ويزعمون أنهم هم الذين على الحق، المستحقُّون لدخول الجنة، ومَن سواهم كافر محروم منها، وفي بيان هذا الموقف العام المشترك يقول الله تعالى عنهم:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾ [البقرة].

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة].

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة].

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ

بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

هذا هو الموقف العام، ولكل من الفريقَين خصوصية زائدة توضِّحها نصوص خاصة، ووقائع كاشفة من السيرة النبوية.

أ ـ موقف اليهود من الإسلام:

١ ـ الجحود والاستكبار بعد العلم والبينة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جرير رحمه الله: (كان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّقٌ لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به، يستفتحون بمحمد ﷺ، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه، أي: من قبل أن يُبعَث -ثم روى بسنده عن عمر بن قتادة الأنصاري[١] عن أشياخ منهم ـ قالوا: فينا والله وفيهم، يعني في الأنصار، وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة... قالوا: كنا قد عَلَوْناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا مبعثه الآن قد أظلَّ زمانه، يقتلكم قتل عادٍ وإرَم، فلما بعث الله تعالى ذِكْرُه رسولَه من قريش واتبعناه كفروا به.

وروى بسنده عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور[٢] أخو بني

---

(١) عمر بن قتادة بن النعمان الظَّفَري، الأنصاري، المدني، مقبول. تقريب التهذيب (٢/ ٦٢).

(٢) بشر بن البراء بن معرور، رضي الله عنهما، هو وأبوه صحابيان، مات من أكلة خيبر، من الشاة

سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسْلِموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهلُ شرك، وتُخبِرونا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سَلَّام بن مِشْكَم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][1].

ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2] [البقرة].

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة][3].

عن ابن مسعود[4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إن الله ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة، فدخل الكنيسة، فإذا هو بيهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكتم؟ قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا. ثم جاء المريض يَحْبُو، حتى أخذ التوراة فقرأ، حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأمَّته. فقال: هذه صفتك وصفة أمتك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم مات، فقال

المسمومة التي أهدتها اليهودية للنبي ﷺ. انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٩).

(١) جامع البيان: (١/ ٤١٠ ـ ٤١١).

(٢) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

(٣) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

(٤) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن، من السابقين إلىٰ الإسلام المقربين إلىٰ رسول الله ﷺ، وكان خادمه وصاحب سره ورفيقه في حله وترحاله، توفي سنة (٣٢هـ). الأعلام (٤/ ١٣٧)، الإصابة (٤٩٥٥)، غاية النهاية (١/ ٤٥٨)، صفة الصفوة (١/ ١٥٤)، حلية الأولياء (١/ ١٢٤).

النبي ﷺ: لُوا أخاكم)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود»[٢]، وفي رواية عنه: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[٣].

وعن أنس بن مالك[٤] رضي الله عنه، أن عبد الله بن سَلَام[٥] بلغه مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فذكرهن، وأخبره بخبرهن... فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهْتٌ، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: أيُّ رجل عبد الله بن سَلَام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سَلَام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. قالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا، وتنقَّصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله)[٦].

وعن عوف بن مالك[٧] رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه، حتى دخلنا

---

(١) رواه أحمد، المسند: (١/ ٤١٦).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ٢٦٩)، مسلم (٤/ ٢١٥١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٤٦، ٣٦٢، ٤١٦).

(٤) أنس بن مالك بن النضر النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو حمزة، خادم رسول الله ﷺ، أسلم صغيرًا، وتوفي سنة ٩٣هـ. الأعلام (٢/ ٢٤)، صفوة الصفوة (١/ ٢٩٨).

(٥) عبد الله بن سلام الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني الخزرج، قيل: كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله، مشهور، له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ثلاثون وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٤٢٢).

(٦) رواه البخاري: (٤/ ٢٦٨)، وانظر: سيرة النبي ﷺ: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، (٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٧) عوف بن مالك الأشجعي، أبو حماد، صحابي مشهور، من مسلمة الفتح، وسكن دمشق ومات سنة ثلاثٍ وسبعين. تقريب التهذيب (٢/ ٩٠).

كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أنه لا إله إلا الله وأني محمدًا رسول الله يُحبِط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضبَ الذي غضب عليه، قال: فأسكتوا، ما أجابه منهم أحد، ثم ردَّ عليهم فلم يُجِبْهُ أحد، ثم ثلَّث فلم يُجِبْه أحد، فقال: أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذَّبْتم. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كِدْنا أن نخرج نادَى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال: فأقبل، فقال ذلك الرجل: أيُّ رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا مِن أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبتَ، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا. قال رسول الله ﷺ: كذبتم، لن يُقبَل قولكم، أما آنفًا فتُثْنُون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمَن كذَّبْتُموه، وقلتم فيه ما قلتم، فلن يُقبَل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة؛ رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سَلَام، وأنزل الله عزَّ وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾[1] [الأحقاف].

وعن صفية بنت حُيَيٍّ[2] رضي الله عنها قالت: (كنت أَحَبَّ وَلَدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم أَلْقَهُما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، غَدَا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن، قالت: فلم يَرْجِعَا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيَا كالَّيْن، كسلانَيْن، ساقِطَيْن، يمشيان الهُوَيْنَى، قالت:

---

(١) رواه أحمد، المسند (٦/ ٢٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٤٦، ٤٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦): رجاله رجال الصحيح.

(٢) صفية بنت حُيَي بن أخطب، الإسرائيلية، أم المؤمنين تزوجها النبي ﷺ بعد خيبر، وماتت سنة ستٍّ وثلاثين، وقيل: في ولاية معاوية، وهو الصحيح. تقريب التهذيب (٢/ ٦٠٣).

فهَشِشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب: أهوَ هوَ؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتُثْبِتُه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيتُ)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضَرَتْ عصابة من اليهود رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثْنا عن خِلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: سَلُوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتُكم شيئًا فعرفتموه لتُتابِعُنِّي على الإسلام. فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: سَلُوني عما شئتم، فقالوا: أخْبِرْنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهن؛ أخْبِرْنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّل التوراة؟ وأخْبِرْنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخْبِرْنا بهذا النبي الأمي في النوم، ومَن وليُّه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعُنِّي؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا فطال سقمه منه، فنَذَر نَذْرًا لئن عافاه الله من سقمه ليُحَرِّمَنَّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: أُشهِد الله عليكم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة، أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشَّبَه بإذن الله، فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشْهَد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنامُ عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن تحدِّثنا مَن وَلِيُّك من الملائكة، فعندها

(١) سيرة النبي ﷺ (١٠/ ١٤٠)، وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٢).

نتابعك أو نفارِقُك. قال: فإن وليِّي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وَلِيُّه. قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وَلِيُّك سواه من الملائكة تابعناك وصدَّقْناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عَدُوُّنا. فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]، فعندها باءوا بغضب على غضب)[١].

هذه نماذج من مواقف النبي ﷺ مع يهود، استفرغ النبي ﷺ جهده في دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، فلم يكن منهم إلا الإعراض والصدود والجحد والتكذيب، بعد العلم والبيِّنة، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

٢ ـ الصد عن سبيل الله وإثارة الشبهات:

● قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]. وقد روىٰ ابن جرير رحمه الله بسنده أن جماعة من أحبار اليهود قَدِموا علىٰ قريش فـ(قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدىٰ منه، وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[٢].

● وقال تعالىٰ: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]، روىٰ ابن جرير رحمه الله عن مجاهد، والبراء، وابن عباس أن السفهاء

(١) جامع البيان: (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢)، ورواه أحمد في مسنده (١/ ٢٧٣، ٢٧٨).
(٢) جامع البيان: (٥/ ١٣٥).

هم اليهود[١].

وإنما أرادوا التشكيك والإثارة والطعن في هذا الدين للصدِّ عنه والتنفير منه.

قال ابن كثير رحمه الله: (لما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب، والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزَيْغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾؟ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارةً يستقبلون كذا، وتارةً يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، أي: الحكم والتصرُّف والأمر كله لله)[٢].

● قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران]، قال ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبَغْيِهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون)[٣].

● وقال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

● وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران]، قال ابن كثير رحمه الله: (هذه مَكِيدة أرادوها ليُلْبِسوا علىٰ الضعفاء من الناس أمْرَ دينهم؛ وهو أنهم اشتوَرُوا بينهم أن يُظْهِرُوا الإيمان أول النهار، ويُصَلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدُّوا إلىٰ

(١) جامع البيان: (٢/ ١ ـ ٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١٩٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣٧٣).

دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدَّهم إلىٰ دينهم اطِّلاعُهم علىٰ نقيصة وعيب في دين المسلمين)[١].

٣ ـ محاولة قتل النبي ﷺ وأذِيَّته:

● نقل الحافظ ابن حجر[٢] في فتح الباري، وصحَّح إسناده، ما رواه ابن مردويه[٣] بسنده عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ في قصة إجلاء يهود بني النضير، وفيه: (فأجمع بنوُ النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويَلْقَاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمَنُوا بك اتَّبَعْناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخٍ لها من الأنصار –مُسلِم– تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أنْ يصل إليهم، فرجع، وصَبَّحَهُم بالكتائب... إلخ، ثم قال الحافظ: وكذا أخرجه عبد بن حُمَيْد[٤] في تفسيره عن عبد الرزاق[٥]، وفي ذلك رَدٌّ على ابن التين في زَعْمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد. قلت: فهذا أقوى مما ذكر ابن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٧٣)، وانظر: الآثار المروية في ذلك في جامع البيان (٣/ ٣١١ـ٣١٣).

(٢) ابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) أحمد بن علي بن محمد الكناني، العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة، أقبل علىٰ علم الحديث، ورحل إلىٰ الحجاز واليمن وغيرهما لسماع الشيوخ، حتىٰ أصبح حافظ الإسلام في عصره، ولي قضاء مصر مرات، تصانيفه كثيرة جليلة منها: (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، (لسان الميزان)، (الدرر الكامنة). انظر: الأعلام (١/ ١٧٨).

(٣) ابن مردويه (٣٢٣ ـ ٤١٠هـ) أحمد بن موسىٰ بن مردويه الأصبهاني، أبو بكر، ويقال له: ابن مردويه الكبير: حافظ مؤرخ مفسر، من أهل أصبهان، له كتاب «التاريخ» وكتاب في «تفسير القرآن» و«مسند» و«مستخرج» في الحديث، الأعلام (١/ ٢٦١).

(٤) عبد بن حميد بن نصر، الكسيِّ، أبو محمد ثقة حافظ، مات سنة مئة وتسع وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٥٢٩).

(٥) عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، أبو بكر، من أئمة الحديث وحفاظهم الأثبات، وُلِد سنة ١٢٦هـ. وله «المصنف» و«التفسير» و«الجامع الكبير» وغيرها، توفي سنة ٢١١هـ. الأعلام (٣/ ٣٥٣)، تهذيب التهذيب (٦/ ٣١٠)، وفيات الأعيان (١/ ٣٠٣)، ميزان الاعتدال (٢/ ١٢٦)، الرسالة المستطرفة (٣١).

إسحاق..)[١].

● قال ابن إسحاق: (.. وخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية العامرِيَّيْن اللَّذَيْن قتل عمرو بن أمية الضمري[٢]، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمَن رجلٌ يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرةً فيُرِيحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ فانصرف عنهم...)[٣].

● عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقتلها، قال: لا. فما زِلْتُ أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ[٤].

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِر النبي ﷺ حتى إنه ليُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يومٍ وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرتِ يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ، ثم قال: أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طبَّه؟ قال: لَبِيد بن الأعصم اليهودي من بني زُرَيْق، قال: فيما ذا؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطَة وجُفِّ طلعةِ ذكرٍ[٥]، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان. قال: فذهب النبي ﷺ في

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري: ابن حجر، شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، (٧/ ٢٥٥)، وانظر: المصنف لعبد الرزاق (٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠)، وسنن أبي داود (٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠١).

(٢) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله، أبو أمية الضَّمري، صحابي مشهور، أول مشاهده بئر معونة، مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (٢/ ٦٥).

(٣) عن سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/ ١٩٢)، وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٥٤).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٤١)، صحيح مسلم (٤/ ١٧١٢).

(٥) المُشط: الآلة التي يسرح بها الشعر، والمشاطة: ما يخرج من الشعر عند التسريح، وجف الطلع: الغشاء الذي يكون عليه.

أناسٍ من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: واللهِ لَكَأن ماءها نُقاعة الحِنَّاء، ولَكَأن نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفأَخْرَجْتَه؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أُثَوِّر على الناس منه شرًّا، وأمر بها فدُفِنَت)[١].

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قِطْرِيَّان غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثَقُلَا عليه، فقَدِم بَزٌّ من الشام لفلانٍ اليهودي، فقلت: لو بعثتَ إليه فاشتريت منه ثوبَيْن إلى الميسرة. فأرسل إليه، فقال: قد علمتُ ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي، أو بدراهمي. فقال رسول الله ﷺ: كذب، قد علم أني من أتقاهم لله، وأدَّاهم للأمانة)[٢].

● وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لكعب بن الأشرف؛ فإنه قد آذى الله ورسوله... الحديث)[٣]، وكان يهوديًّا شاعرًا، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرِّض عليه[٤].

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مَرَّ يهودي برسول الله ﷺ، فقال: السَّامُ عليك. فقال رسول الله ﷺ: وعليك. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون ما يقول؟ قال: السَّامُ عليك. قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سَلَّمَ عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم)[٥].

● وعن علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجلٌ حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها)[٦].

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٢) رواه الترمذي: (٥/ ٢١٧)، وقال: حديث عائشة حديث حسن غريب صحيح.
(٣) صحيح البخاري: (٥/ ٢٥).
(٤) انظر: فتح الباري: (٧/ ٢٥٩).
(٥) صحيح البخاري: (٨/ ٥١).
(٦) سنن أبي داود: (٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

٤ ـ موالاة الكافرين والمنافقين، ومعاداة المؤمنين:

● قال تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

● وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (شياطينهم من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وخلاف ما جاء به الرسول)[(١)].

● وجاء في خبر بني النضير، فيما رواه أبو داود وغيره عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، وفيه: (.. فكتبَتْ كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهودِ: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتُقاتِلُنَّ صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يَحُول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل- فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر... الحديث)[(٢)].

ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن موسى بن عقبة[(٣)] رحمه الله في المغازي قال: (كانت النضير قد دَسُّوا إلى قريش، وحَضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودَلُّوهم على العورة)[(٤)]، فكانت هذه خيانةً منهم لعهد رسول الله ﷺ، وسببًا، بالإضافة إلى ما تقدَّم من محاولة قَتْلِهم إياه، في إجلائهم عن المدينة، وبذلك يكونون هم البادؤون في حرب رسول الله ﷺ ونَقْض عهده، كما قال ابن

(١) جامع البيان: (١/ ١٣٠).

(٢) سنن أبي داود (٣/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).

(٣) موسىٰ بن عقبة بن أبي عياش، الأسدي، مولىٰ آل الزبير، ثقة فقيه إمام في المغازي، مات سنة مئة وإحدىٰ وأربعين، وقيل: بعد ذلك. تقريب التهذيب (٢/ ٣٨٦).

(٤) فتح الباري: (٧/ ٢٥٥).

عمر رضي الله عنهما: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ...)[١].

● نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن موسى بن عقبة رحمه الله في مغازيه قال: (خرج حُيَيُّ بن أخطب بعد قتل بني النضير إلى مكة يحرِّض قريشًا على حرب رسول الله ﷺ، وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق يسعى في غطفان ويَحُضُّهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف ثمر خيبر...)[٢].

فلما تحزب الأحزاب، وحاصَرُوا المدينة نقض بنو قريظة العهد، وانضموا إلىٰ الأحزاب، ولحق المسلمين شدةٌ عظيمة، وجهد وجوع، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]، قال موسىٰ بن عقبة رحمه الله: (وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حُيَيَّ بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن لئلا ينالهم ضَيْم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمدًا. قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلًا من أشرافهم، فنازَلَهم حُيَيٌّ علىٰ ذلك، فعند ذلك نقضوا العهد، ومزَّقوا الصحيفة التي كان فيها العقد...)[٣].

وستظل هذه العداوة بين المسلمين ويهود إلى قيام الساعة، كما تدل عليه الأحاديث النبوية الصحيحة:

● عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله)[٤].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر

(١) صحيح البخاري: (٥/ ٢٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧)، سنن أبي داود (٣/ ٤٠٧).
(٢) فتح الباري: (٧/ ٣٠١)، وانظر: سيرة النبي ﷺ (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٣) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ١٠٣)، وسيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢٣٥ ـ ٢٣٨).
(٤) صحيح البخاري: (٣/ ٢٣٢).

والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود)[١].

وواقع الحال من تسلُّط اليهود على أرض فلسطين دليل متجدِّد على عداوتهم الأزلية الأبدية للمسلمين، وعَلَم من أعلام النبوة، وبشارات الفرج.

ب ـ موقف النصارى من الإسلام:

لا يختلف الموقف العام للنصارى من الإسلام عن موقف اليهود، فكلا الطائفتين أصرَّت على عقائدها السابقة، وردَّت الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وحافظت على تنظيماتها الدينية، وقياداتها المرجعية المرسومة قبل مجيء الإسلام، ولا يُعهَد أن فِرقة من فِرَق النصارى المعروفة ـ على كثرتها ـ أعلنت اعتناقها للدين الجديد، وانخلاعها من الأوضاع السابقة، وإنما يتميَّز النصارى على اليهود على المستوى الفردي، حيث تحفظ وقائع السيرة النبوية مواقف مشرِّفة صادقة لعدد من الأفراد الذين كانوا على النصرانية، فاعتنقوا الإسلام، أو على الأقل أبْدَوْا مظاهر التبجيل والتعظيم لنبيه ﷺ وتأدَّبوا معه، ويقع هذا الموقف الفردي المتعاطف من أعلى القيادات السياسية والدينية للنصارى كما يقع من سائر الأفراد، بينما نفتقد هذا الملحظ بالنسبة لليهود، حتى قال ﷺ: «لو آمَن بي عشرة من اليهود ـ وفي رواية: من أحبار اليهود ـ لآمَن بي كل يهودي على وجه الأرض»[٢].

وسنسوق أدناه بعض الشواهد لاستجلاء هذا الموقف، وبيان أوجه الموافقة والمفارقة مع ما سبق.

● إن أول اتصال جرى بين الإسلام والنصارى كان في الساعات الأولى من البعثة[٣]، فقد جاء في قصة بَدْء الوحي، بعد أن عاد ﷺ من غار حراء ـ حيث جاءه

(١) صحيح البخاري: (٣/ ٢٣٢) واللفظ لمسلم (٤/ ٢٢٣٩).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٤/ ٢٦٩)، صحيح مسلم (٤/ ١٥١)، وقد تقدم.

(٣) يذكر بعض المؤرخين للسيرة النبوية قصة «بحيرا»، ويحاول بعض المغرضين من المستشرقين

الملَك ـ إلى زوجه خديجة رضي الله عنها يَرْجُف فؤاده، فطمأنَتْه، ثم (انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءًا قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمي، فقالت خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أوَمُخرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[1].

● وعن أم سلمة[2] رضي الله عنها أنها قالت: (لما ضاقت مكة، وأُوذِي أصحاب رسول الله ﷺ، وفُتِنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلَم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»، فخرجنا إليه أرسالًا، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخشَ فيه ظلمًا).

● وفي رواية عنها قالت: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار،

ومتعصبة النصارىٰ الاحتجاج بها علىٰ حصول صلة وتلمُذ بين نبي الإسلام ﷺ ورهبان النصارىٰ، وقد درس د. أكرم ضياء العمري هذه الحادثة وتتبع أسانيدها الضعيفة ونقدها. انظر: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ. (١/ ١٠٦ ـ ١١١).

(١) صحيح البخاري: (١/ ٣ ـ ٤).

(٢) أم سلمة: أم المؤمنين هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية، القرشية المخزومية رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلًا وخلقًا، توفيت بالمدينة سنة ٦٢هـ. الأعلام (٨/ ٩٧)، صفوة الصفوة (٢/ ٧٠)، الإصابة في تمييز الصحابة (كتاب النساء).

النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه)[١].

● وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الهجرة: (وبعثت قريش عمرو بن العاص[٢]، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلَا على النجاشي سجدَا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالَا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن مِلَّتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم، قال جعفر[٣]: أنا خطيبكم اليوم. فاتَّبَعوه، فسلَّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عزَّ وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولًا، ثم أمرنا ألَّا نسجد لأحدٍ إلا لله عزَّ وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال: فما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يَمَسَّها بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عودًا من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحبًا بكم، وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من المُلك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعلَيْه، وأمر بهدية الآخرين فرُدَّت إليهما...)[٤].

● وفي رواية أم سلمة، لما قرأ جعفر على النجاشي صدر سورة ﴿كٓهيعٓصٓ

(١) مسند أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، (٥/ ٢٩٠)، دلائل النبوة للبيهقي (٣٠٢)، دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٤٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٧): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية، مات سنة نيف وأربعين، وقيل: بعد الخمسين. تقريب التهذيب (٢/ ٧٢).

(٣) جعفر بن أبي طالب، الهاشمي، ذو الجناحين، الصحابي الجليل، ابن عم رسول الله ﷺ استشهد في غزوة مؤتة، سنة ثمان من الهجرة. تقريب التهذيب (١/ ١٣١).

(٤) مسند أحمد (١/ ٤٦١)، والبيهقي في دلائل النبوة ص (٢٩٨)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن) (٣/ ٦٩).

﴿ قالت: (فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلِقَا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا، ولا أكاد.. ـ ولما أراد عمرو بن العاص أن يكيدهم في اليوم التالي بسؤالهم عن عيسى بن مريم، فأجابوا الملك بالحق الذي جاء به القرآن ـ قالت: فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي -والسيوم: الآمنون- مَن سبَّكم غُرم، من سبَّكم غُرم، من سبَّكم غُرم، فما أحب أن لي دير ذهبٍ وأني آذيت رجلًا منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل...)[1].

● وفي رواية موسى بن عقبة أنه لما وافقهم على قولهم في عيسى بن مريم: (فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعَتِ الحبشة لتخلعنَّك. فقال: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبدًا...)[2].

● وعن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الهجرة إلى الحبشة قال: (فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر بها قلنا له: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل إليه فرُدَّنا، قال: نعم. فحمَلَنا وزوَّدنا، ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، وقل له: يستغفر لي. قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني، ثم قال: ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر. ووافق ذلك فتح خيبر، ثم جلس، فقال رسول النجاشي: هذا جعفر، فسَلْه ما صنع به صاحبنا. فقال: نعم، فعل بنا

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا، ومعنىٰ «ناخرت» وفي لفظ «تناخرت» أي: تكلموا بكلامٍ يشوبه الغضب والنفور، والبطارقة: جمع بطريق وهم رجال الكنيسة.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٩ ـ ٢٠).

كذا وكذا، وحمَلَنا، وزوَّدنا، وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وقال لي: قل له يستغفر لي. فقام رسول الله ﷺ فتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي، فقال المسلمون: آمين. ثم قال جعفر: فقلت للرسول: انطلِق فأخْبِرْ صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ)[١].

● وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: (مات اليوم رجل صالح، فقُوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)[٢].

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدْنُوه مني، وقرِّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذَبَني فكذِّبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يَغدِر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تُمكِنِّي كلمة أُدخِل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة: جعفر بن أبي طالب، وقال في إثرها: حسن غريب نقلًا عن السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٥ ـ ١٧).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ٢٤٦)، (٢/ ٨٨).

إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسَّى بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرِف أنه لم يكن لِيَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدِر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمَيْه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية[1] إلى عظيم بُصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل، عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسلَم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا

(١) هو دحية بن خليفة بن فرزة بن فضالة الكلبي، صحابي جليل، مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (١/ ٢٣٥).

أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت مُوقِنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.. وقال في آخره: فأذِنَ هرقل لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرُّشد، وأن يثبت ملككم، فتُبايِعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيِسَ من الإيمان، قال: رُدُّوهم عليَّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل)[1].

● وقد روى الإمام أحمد وغيره ما يدل على تكرار هذا الموقف من هرقل مع قومه في السنة التاسعة للهجرة حين غزا النبي ﷺ غزوة تبوك، لما بلغه أن الروم قد حشدوا للمسلمين، فلم يجد لهم أثرًا، ولم يَلْقَ حربًا، وبعث كتابًا إلى هرقل: (.. فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم بابًا، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال؛ يدعوني إلى أن أتَّبعه على دينه، أو على أن نعطيه ما لنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب، ليأخذن ما تحت قدميَّ، فهَلُمَّ نتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية، أو نكونَ عبيدًا لأعرابي جاء من الحجاز؟! فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم[2]، ولم يَكَدْ، وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم...

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٥ ـ ٧)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧).

(٢) رفأهم: أي ترفَّق بهم حتىٰ أسكتهم.

ـ ثم ذكر تمام القصة، وبعث هرقل للتنوخي ليتثبت له من ثلاث خصال، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: يا أخا تنوخ، إني كتبت بكتابٍ إلى كسرى فمزَّقه، والله ممزِّقُه، ومُمزِّقٌ مُلكَه، وكتبت إلى النجاشي[١] بصحيفة فخرقها، والله مُخْرِقُه ومُخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا، ما دام في العيش خير)[٢].

● عن حذيفة رضي الله عنه قال: (جاء العاقب والسيد صاحبَا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنَّا لا نفلح ولا عَقِبُنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ. فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة)[٣].

هكذا روى البخاري قصة وفد نصارى نجران مختصرًا، وقد أفاض أهل التواريخ في تفصيل وقائع القصة بما لا يرتقي إلى درجة الصحة، ويطول سرده[٤]، ونكتفي بقطعة رواها ابن إسحاق صاحب السير، قال:

قَدِم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبًا، منهم أربعة وعشرون رجلًا من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح، والسيد: ثِمالُهم وصاحب حلهم ومجتمعهم، واسمه: الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني كعب بن وائل أسقفهم، وحبرهم، وإمامهم، وصاحب مِدْرَاسهم، وكان أبو حارثة قد شَرُف

(١) في صحيح مسلم عن أنس: (وليس بالنجاشي الذي صلىٰ عليه النبي ﷺ) (٣/ ١٣٩٧).
(٢) مسند أحمد (٣/ ٤٤١ ـ ٤٤٢)، (٤/ ٧٤)، ومدار الرواية علىٰ سعيد بن أبي راشد وهو مقبول.
(٣) صحيح البخاري: (٥/ ١٢٠).
(٤) انظر: البداية والنهاية: (٥/ ٥٢ ـ ٥٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠)، زاد المعاد (٣/ ٦٢٩ ـ ٦٣٨)، فتح الباري (٨/ ٧٣ ـ ٧٤).

فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه وموَّلوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجِّهًا إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخٌ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال له كرز: تَعِس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تَعِسْتَ. فقال: ولمَ يا أخي؟ فقال: والله إنه النبي الأمي الذي كنا ننتظره. فقال له كُرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرَّفونا، وموَّلونا، وأكرمونا، وقد أبوا إلا خِلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك)[1].

هذه أربعة أمثلة تُظهر أربعة مواقف فردية للنصارى من الإسلام:

١ ـ ورقة بن نوفل: الحبر المؤمن الذي عرف الحق فاتبعه.

٢ ـ والنجاشي: الملك المؤمن، الذي عرف الحق فاتبعه، ولم يعبأ بتهديد بطارقته.

٣ ـ وهرقل: الملك العالم، الذي عرف الحق، لكنه ضَنَّ بمُلْكه، وانخذل أمام قومه.

٤ ـ وأبو حارثة ابن علقمة: أسقف نجران، الذي عرف الحق، لكنه آثر الحياة الدنيا وزينتها.

وخلف هذه الرموز يقف مئات بل ألوفٌ من النصارى يتخذون مواقف مشابهة، لا يتسع ديوان التاريخ لتقييدها جميعًا، لكن المحصلة العامة لحركة التاريخ تثبت ما أسلفنا من تهيؤ النصارى لقبول الحق أكثر من اليهود، كما تثبت

(١) نقلًا عن زاد المعاد (٣/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠).

الشواهد السابقة حرص المؤسسة الكنسية بتنظيماتها المختلفة على التمسك بنصرانيتها حفاظًا على السيادة والقيادة والمصالح الشخصية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]، ويحلو لبعض الكُتَّاب المحدِّثين والصحفيين المُدهِنين أن يتودَّدوا إلى النصارى باستدعاء الشواهد التاريخية على تعاطُف النصارى مع المسلمين، وتمييع قضية العداوة الأزلية بين الفريقين التي نطقت بها نصوص الوحيَيْن، والتلبيس على الناس بالخلط بين المواقف الفردية لآحاد النصارى الصادقين في طلب الحق، والموقف العدائي الدائم للكنيسة على اختلاف اتجاهاتها، وتعدُّد فِرَقها، إن مقتضى الأمانة التاريخية ـ فضلًا عن الثوابت العقدية ـ تقضي بإبراز المواقف العدائية العنيفة للنصارى ضد المسلمين منذ العهد النبوي وحتى يومنا هذا، ومحاولة فتنتهم عن دينهم، شواهد ذلك في العهد النبوي:

حشدهم مئتي ألف مقاتل من الروم ونصارى العرب في معركة «مؤتة» مقابل ثلاثة آلاف مجاهد من المسلمين[(١)].

قَتْلهم فروة بن عمرو الجذامي ـ عامل الروم على من يليهم من العرب ـ لمَّا أسلم، وصَلْبهم إياه[(٢)].

قتلهم «صفاطر» الأسقف لمَّا شهد شهادة الحق، وقد كان مقدَّمًا معظَّمًا عند الروم[(٣)]، بالإضافة إلى ما تقدَّم سَرْدُه من مواقف بطارقة هرقل والنجاشي

---

(١) انظر: ما أفرد في وصف المعركة مثل: غزوة مؤتة: لمحمد أحمد باشميل، وغزوة مؤتة لشوقي أبو خليل وغيرهما.

(٢) انظر: سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٤/ ٢٦١).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ٢٦٧).

ونصارى نجران، والله المستعان.

وأما التاريخ الإسلامي فحافلٌ بالعلاقات العدائية الدموية ـ كما سنلمح إليه في الفصل التالي ـ بين المسلمين والنصارى، وشواهد العصر الحديث حاضرة ماثلة في مواقع متعددة من العالم كالفلبين، وإندونيسيا، وأرتريا، والبلقان.

يبقى أن نقرِّر جازمين أن هذه العلاقة العدائية ستظل إلى يوم القيامة عداوةً أبدية، لإخبار الله ورسوله ﷺ بذلك، ثم بحكم اختلاف الاعتقاد من جهة، ولما يتميَّز به هؤلاء النصارى ممثَّلين بالروم من صفاتٍ وخصائص نوعية، من جهة أخرى، تبقي لهم أسباب القوة المادية، والشوكة الحربية، فلا يزال الناس يجدون منهم بأسًا، كما قال ﷺ[(١)]، وقد روى مسلم[(٢)] رحمه الله أن المستورد القرشي[(٣)] رضي الله عنه قال عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس)، فقال له عمرو: أبْصِرْ ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّةً بعد فَرّةً، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)[(٤)]، وفي لفظ عند مسلم أيضًا: (وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم)[(٥)].

وعنه رضي الله عنه قال: بينا أنا عند عمرو بن العاص فقلت له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتهم مع الساعة)، فقال له عمرو:

---

(١) تقدم في قصة التنوخي (٢٢٩).

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم، القشيري النيسابوري، ثقة، حافظ، إمام، مصنف، عالم بالفقه، مات سنة إحدىٰ وستين ومئتين، وله سبع وخمسون سنة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٥).

(٣) المستورد بن شداد بن عمرو القرشي، الفهري، حجازي، نزل الكوفة، له ولأبيه صحبة، مات سنة خمس وأربعين. تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٢).

(٤) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٢٢).

(٥) المرجع السابق.

ألم أزجرك عن مثل هذا[١].

وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن والملاحم التي تكون في آخر الزمان بين أهل الإسلام وعبدة الصلبان بما لا يدع مجالًا للشك في أبدية هذه العداوة، وأن ما يجري هذه الأيام منهم من مجاملات وموادَّات إنما هو قشرة رقيقة ظاهرة تخفي تحتها عداوة متأصلة، وكيدًا خفيًّا، وإحَنًا وأحقادًا لا يطفئ لهيبها إلا أن نتَّبع مِلَّتهم ـ عياذًا بالله ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومن أمثلة هذه الأحاديث الصحيحة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق[٢]، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ فإذا تصافُّوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقتَل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يُفتَنون أبدًا، فيفتحون قسطنطينية، فبينا هم يقتسمون الغنائم قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون - وذلك باطل - فإذا جاءوا الشام خرج، فبينا هم يُعِدُّون للقتال يسوون الصفوف

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٣٠)، ولعله زجره عن ذلك حتىٰ لا يَفُتَّ في أعضاد الناس في قتالهم، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢١٥): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) موضعان بالشام قرب حلب.

إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته)[١].

وعن يُسيرِ بن جابر[٢] قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجلٌ ليس له هِجِّيرى[٣] إلا: يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة. قال: فقعد -وكان متكئًا- فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسَم ميراث، ولا يُفرَح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحَّاها نحو الشام، فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلتُ: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة، فيشترط المسلمون شُرطَة[٤] للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتَتِلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرطة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبةً، فيقتتلون حتى يُمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدَّبْرَة[٥] عليهم فيقتلون مَقتلةً -إما قال: لا يُرى مثلها، وإما قال: لم يُرَ مثلها- حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فما يخلِّفهم حتى يخر ميتًا، فيتعادُّ بنو الأب كانوا مئة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفرَح، أو أي ميراثٍ يُقاسم، فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك؛

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٢١)، وفي الحديث دلالة علىٰ أن الروم سينتزعون القسطنطينية من أيدي المسلمين، ثم يفتتحها المسلمون ثانية.

(٢) يسير بن جابر، الكوفي، مختلف في نسبته، قيل: كندي، وقيل: غير ذلك، وله رؤية، مات سنة خمس وثمانين. تقريب التهذيب (٢/ ٣٧٤).

(٣) أي: شأنه ودأبه ترديد تلك الجملة.

(٤) طائفة من الجيش تتقدم إما للشهادة أو النصر.

(٥) الدَّبرة: الهزيمة.

فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون[١] ما في أيديهم، ويُقبِلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ)[٢].

وعن ذي مِخبَر[٣] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم، فتُنصرون وتَغنمون وتَسلمون، ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرجٍ ذي تلول، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليبُ، فيغضب رجلٌ من المسلمين، فيدقُّه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة)[٤]، وفي رواية: (وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف)[٥].

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: (اعْدُدْ ستًّا بين يدي الساعة، وذكر السادسة: ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا)[٦]، وفي رواية عنه عند أحمد: (قلت: وما الغاية؟ قال: الراية، تحت كل راية اثنا عشر ألفًا، فسطاط المسلمين يومئذٍ في أرضٍ يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها: دمشق)[٧].

---

(١) يتركون.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٣٤ ـ ٢٢٢٤).

(٣) ذي مِخْبر، الحبشي، صحابي، نزل الشام، وهو ابن أخي النجاشي. تقريب التهذيب (١/ ٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٣/ ٢١٠)، وسنن ابن ماجه: ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (٢/ ١٣٦٩)، والحاكم (٤/ ٤٢١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال في الزوائد: إسناده صحيح وأحمد (٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، (٥/ ٤٠٩).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٩١)، والحاكم (٤/ ٤٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) رواه البخاري: (٤/ ٦٨).

(٧) المسند: (٦/ ٢٥).

وفي رواية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (وهدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، ليجمعون لكم تسعة أشهر، كقَدْر حَمْل المرأة، ثم يكونون أولى بالغدر منكم...)[1].

تلك طبيعة العلاقة مع عُبَّاد الصليب في الماضي والحاضر والمستقبل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة].

(١) المسند: (٢/ ١٧٤).

المبحث الخامس
لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

تبيَّن من المبحثَين السابقَين أن العهد النبوي شهد اكتمال الأحكام العقدية والشرعية الإسلامية تجاه أهل الكتاب، بما لا يدع مجالًا لتحريفٍ أو ابتداع، كما شهد أيضًا تطبيق تلك الأحكام واقعًا مُعاشًا من خلال مساكنة اليهود المسلمين في المدينة، وفرض الجزية على نصارى نجران، وغيرهم، فلا ريب أن ذلك العهد الزاهر لا يمثل مرحلة تاريخية فحسب، بل مرجعية عقدية شرعية لكل المراحل التالية.

كما أن مواقف زعامات أهل الكتاب الدينية والسياسية إبان ذلك العهد رسمت الطريق لخَلَفِهم في الاستنكاف عن قبول الحق، ومعاداة أهله.

ونقصد في هذا المبحث الإلمام بمُجمَل العلاقات التاريخية بين المسلمين بعد العهد النبوي المتميز، وأهل الكتاب، سواء كانوا ذميين أو مستأمنين أو كانوا حربيين، ولا شك أن الإحاطة بتفاصيل ومفردات العلاقات التاريخية بين المسلمين وأهل الكتاب عمل موسوعي ضخم يتطلب توافُر عشرات الباحثين عليه، لسعة رقعته الزمانية والمكانية، وتنوُّع مادته، والمقصود هنا وضع خطوطٍ عامة بارزة لتكوين خلفية تاريخية يستصحبها القارئ وهو يدلف إلى دراسة قضية معاصرة، ونازلة جديدة هي «دعوة التقريب بين الأديان».

يمكن أن نقسم تاريخ العلاقات الإسلامية ـ الكتابية إلى خمس مراحل متميزة[1]، آخِذين بالاعتبار حين التقسيم العلاقات الإسلامية ـ النصرانية أساسًا؛ لكونها الجبهة الساخنة، ذات الشوكة والمواجهة، والكر والفر، والمد والجزر،

(١) سيكون تاريخ الحافظ ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية) مرجعًا أساسيًّا في هذا العرض التاريخي، لاستيعابه فترة طويلة من تاريخ العلاقات، ولمزاياه الفنية المنهجية، ودفعًا للتوسع والإطالة في مبحثٍ لا يهدف أصلًا الدراسة التاريخية المتخصصة، وإنما التقاط الشواهد التاريخية التي تتأتىٰ من مصدر واحدٍ وثيق كالبداية والنهاية.

على مدار التاريخ، بينما تختفي اليهودية في معظم فترات التاريخ عن الصدارة بسبب القلة العددية، والشتات القومي ليهود، والذلة والمسكنة التي ضربها الله عليهم دون التقليل من خطرهم وكيدهم الخفي.

المرحلة الأولى: من عام ١١هـ إلى عام ١١٤هـ:

تضم هذه المرحلة عصر الخلفاء الراشدين وصدر الإسلام، وعلى وجه التحديد من وفاة الرسول ﷺ إلى معركة «بلاط الشهداء»، في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك[١]، حيث بلغت الدولة الإسلامية الفتية أقصى اتساعها في غرب أوروبا، وشارفت جيوش عبد الرحمن الغافقي[٢] رحمه الله على اجتياح فرنسا، وتمثِّل هذه المرحلة «المرحلة الذهبية» للإسلام مع النصرانية، حيث تم طي بساط النصرانية عن الأقاليم المعمورة؛ في الشام والعراق ومصر والمغرب، بل وإسبانيا وجنوب فرنسا، ونشر أعلام الإسلام عبر سلسلة متتابعة من الفتوحات السريعة المذهلة، كان قُوَّادها ولُحْمة سَدَاها أصحاب محمد ﷺ وخيار التابعين، فقد استهل الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق مدة خلافته القصيرة -سنتين وثلاثة أشهر- بإنفاذ جيش أسامة بن

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ١٢٥هـ) من خلفاء الدولة الأموية، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ. نشط في عهده الجهاد في سبيل الله فقاتل المسلمون الترك، وقتلوا خاقانهم، واستولوا علىٰ بلاد ما وراء النهرين، وكثر المال، كان حسن السياسة، يقظًا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. انظر: الأعلام (٨/ ٨٦)، البداية والنهاية (٩/ ٣٥١ ـ ٣٥٤).

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي: أبو سعيد، أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان، أصله من غافق، من قبيلة عك في اليمن، رحل إلىٰ أفريقية ثم إلىٰ الأندلس، وولي قيادة الشاطئ الشرقي، وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢هـ، وولاه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ، وهو الذي بنىٰ قنطرة قرطبة المشهورة، واجتاز بالمسلمين جبال البرانس لغزو بلاد الغال «فرنسا» فاستولىٰ علىٰ أجزاء منها، ودحر جيوش شارل مارتل، فجمع له جيشًا كبيرًا، من الغاليين والجرمانيين، فدارت معركة هائلة في «بواتييه» عرفت باسم بلاط الشهداء، استشهد فيها رحمه الله. انظر: الأعلام (٣/ ٣١٢).

زيد[١] رضي الله عنهم ـ الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ قبل وفاته، والسير إلى تخوم البلقاء من الشام وقتال الروم[٢]، رغم ارتداد كثير من قبائل العرب عن الإسلام، ولما تم القضاء على المرتدين شرع الصديق رضي الله عنه في جمع المسلمين لغزو الشام، وتولية الأمراء، وعقد الألوية والرايات، وذلك في أول سنة ثلاثة عشر للهجرة[٣].

وبعد وفاة الصديق رضي الله عنه في جمادى الآخرة تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان كما وصف النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أُرِيتُ في المنام أني أنزع بِدلْوِ بكرة على قَلِيب، فجاء أبو بكر فنزع ذَنُوبًا[٤] أو ذَنُوبَيْن نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْبًا[٥]، فلم أرَ عبقريًّا[٦] يَفري فَرِيَّه[٧] حتى رَوِيَ الناس، وضربوا بعطن)[٨].

ففي زمن خلافته رضي الله عنه استكملت فتوح العراق والشام ومصر عبر سلسلة متلاحقة من المعارك الفاصلة والفتوحات العظام، مثل: معركة اليرموك ١٣هـ، فتح دمشق ١٣هـ، وقعة فحل ١٣هـ، معركة القادسية ١٤هـ، فتح حمص الأول،

(١) أسامة بن زيد بن حارثة: الأمير، أبو محمد، وأبو زيد، صحابي مشهور، حِب رسول الله ﷺ وابن حِبه، وُلِد بمكة، ونشأ علىٰ الإسلام، سكن وادي القرىٰ بعد وفاة النبي ﷺ ثم انتقل إلىٰ الشام في أيام معاوية رضي الله عنه، مات سنة أربع وخمسين من الهجرة، عن خمسٍ وسبعين سنة. انظر: تقريب التهذيب (١/ ٥٣)، الأعلام (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٦/ ٣٠٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٧/ ٢ ـ ٤).

(٤) الذنوب: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء، فتح الباري (٧/ ٣٢).

(٥) الغرب: الدلو العظيمة.

(٦) المراد به كل شيء بلغ النهاية.

(٧) أي يعمل عمله البالغ، فتح الباري (٧/ ٣٣).

(٨) صحيح البخاري (٤/ ١٩٨) والعطن: مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت، فتح الباري (٧/ ٣٣)، وقال ابن حجر: (.. لم يتعرض في ذكر عمر إلىٰ عدد ما نزعه من الدلاء، وإنما وصف نزعه بالعظمة إشارة إلىٰ كثرة ما وقع في خلافته من الفتوحات والله أعلم) الفتح (٧/ ٣٢).

وقنسرين وقيسارية وأجنادين وبيت المقدس وحمص الثانية جميعها في ١٥هـ، ثم فتح المدائن ومعركة جلولاء، وفتح تكريت والموصل من أرض العراق في ١٦هـ، والجزيرة في ١٧هـ، وفي سنة ٢٠هـ كان فتح مصر والإسكندرية عام ٢٥هـ.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جرى فتح أفريقية عام ٢٧هـ، وابتداء فتح الأندلس ٢٧هـ، وفتح قبرص ٢٨هـ، ومعركة ذات الصواري البحرية ٣١هـ، وغزوة ملاطية ٣٣هـ، ثم انكفأ المسلمون على أنفسهم بسبب ما جرى من الفتنة، وقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتوقفت الفتوح.

ولما استتبَّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عاوَدَ غزو بلاد الروم منذ سنة اثنتين وأربعين للهجرة، وبلغ المسلمون مدينة قسطنطينية عام ٤٣هـ، وعام ٤٩هـ، في غزواتٍ متتابعة لبلاد الروم، وفُتحت جزيرة «رودس» عام ٥٣هـ، و«كريت» عام ٥٥هـ، وفي عام ٦٢هـ سارت جيوش المسلمين غربًا في الشمال الإفريقي لقتال الروم والبربر، وفي عام ٧٨هـ بلغوا «طنجة» في أقصى المغرب، واكتمل فتح المغرب في عام ٩١هـ، وفي عام ٩٢هـ غزا المسلمون بلاد الأندلس وفتحوا أقاليمها في أقل من ثلاث سنين، وفي عام ٩٤ تم فتح «أنطاكية» و«سندرة» من أرض الروم، قال ابن كثير رحمه الله: (وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك[١]، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه، حتى عاد الجهاد شبيهًا بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه)[٢].

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس (٤٨ ـ ٩٦هـ)، من خلفاء الدولة الأموية، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ، فوَجَّه القُوَّاد لفتح البلاد، فامتدت الفتوح في عهده إلىٰ بلاد الهند والتركستان وأطراف الصين شرقًا، وأقاصي المغرب وبلاد الأندلس غربًا، وكان ولوعًا بالبناء والعمران وإصلاح الطرق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، وأجرىٰ الأرزاق علىٰ الناس، وجعل لكل أعمىٰ قائدًا، ولكل مقعد خادمًا، وجعل بيوتًا للغرباء، وأعاد بناء المسجد النبوي، والمسجد الأقصىٰ والجامع الأموي بدمشق، رحمه الله. انظر: الأعلام (٨/ ١٢١)، البداية والنهاية (٩/ ١٦١ ـ ١٦٦).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٩٥).

وقد حاول المسلمون مرارًا فتح القسطنطينية، وكان من أواخر هذه المحاولات الجادة في هذه المرحلة تجهيز سليمان بن عبد الملك[١] عام ٩٨هـ لأخيه مسلمة بجيش عظيم، ولكن لم يقع ذلك الفتح المرتقب، ولم يرجع مسلمة حتى بنى مسجدًا بالقسطنطينية شديد البناء محكمًا، رَحْب الفناء شاهقًا في السماء)[٢].

وفي عهد الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز[٣] رحمه الله اخترق المسلمون جبال البرانس الفاصلة بين شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال حاليًّا، الأندلس سابقًا)، ودخلوا جنوب فرنسا (بلاد الغال)، وفتحوا «سبتمانيا» ومدن حوض نهر «الرون» حتى بلغوا مدينة «سانس» الواقعة على بُعد ثلاثين كيلومترًا جنوب باريس، وظلوا يتوسَّعون في تلك المناطق ويناوشون الفرنجة، حتى تصافَّ جيشان ضخمان وجهًا لوجه في معركة فاصلة من معارك التاريخ، عرفها المسلمون باسم «بلاط الشهداء»، وسمَّاها خصومهم الفرنجة: «تور ـ بواتييه)، وذلك في أواخر شعبان سنة ١١٤هـ أسفرت ـ بعد ملاحم طاحنة ـ عن انهزام المسلمين إلى مواقع خلفية في جنوب فرنسا.

لقد كان هذا الحدث التاريخي مؤشرًا هامًّا في حركة المد الإسلامي يمثِّل الذروة العليا، والحد الأقصى الذي بلغته حركة الفتوح الإسلامية الظافرة، ومن

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ ـ ٩٩هـ) أبو أيوب، الخليفة الأموي، وُلِد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ، وكان عاقلًا فصيحًا طموحًا إلىٰ الفتح، وجهز جيشًا كبيرًا، وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانتا في أيدي الترك، رحمه الله، الأعلام (٣/ ١٣٠)، والبداية والنهاية (٩/ ١٧٧).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١٧٤).

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أبو حفص، الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل: خامس الخلفاء الراشدين، ولي الخلافة من سنة ٩٩هـ حتىٰ وفاته سنة ١٠١هـ، فمدة خلافته سنتان ونصف وأخباره في عدله وحسن سياسته شهيرة، وقد أُلِّفَت في مناقبه كتب جمة. الأعلام (٥/ ٥٠)، فوات الوفيات (٢/ ١٠٥)، تهذيب التهذيب (٧/ ٤٧٥)، حلية الأولياء (٥/ ٢٣٥)، صفوة الصفوة (٢/ ٦٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٤٦).

بعده أخذ المؤشر يتجه ناحية الانحدار، وتلك سُنَّة الله في خلقه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

يقول «جيبون»: (لو انتصر العرب في تور ـ بواتييه، لتُلِي القرآن وفُسِّر في أكسفورد وكمبردج)[١].

لقد تميَّزت هذه المرحلة «الذهبية» المدهشة بجملة من الخصائص الفريدة:

أولًا: الدافع العقدي النقي، والحماس الإيماني الجهادي لدى الفاتحين المسلمين الذين خرجوا من بوتقة جزيرتهم العربية الضيقة ليُخرِجوا الناس من الظلمات إلى النور غير مُبالِين بقلة عددهم، وضعف عتادهم، وقوة عدوِّهم وكثرة جموعه، مُستَعْلِين بالإيمان، مستخِفِّين بالطغيان، مُوقِنين بموعود ربهم الآجل والعاجل، مصدِّقين ببشارة نبيهم ﷺ، فضربوا أروع الأمثلة في التضحية والبسالة والحرص على الشهادة، والزهادة بما في أيدي الناس في مواقف وملاحم ومقامات مشهورة أذهلت أبناء البلاد المفتوحة، فوطَّأ الله لهم أكناف الأرض، وفتح لهم القلوب قبل الحصون، وتسمو درجة النقاء والطهر والنزاهة في الأفواج الأولى من الفاتحين الذين هم أصحاب محمد ﷺ وكبار التابعين، وفي عصرهم فُتِحَت الأقاليم الكبار، وصارت دار إسلام إلى آخر الزمان، وكلما مضى الدهر قُدُمًا نقص هذا المستوى الرفيع، وشابته الشوائب حتى بلغ الأمر منتهاه في هذه المرحلة التي تمثِّل قرنًا من الزمان بعد وفاة الرسول ﷺ تقريبًا، وعامة أهلها خير القرون.

لقد كان يحدو أولئك الفاتحين في هذه المرحلة حاديان؛ عامٌّ وخاص.

فأما العام: فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ

(١) نقلًا عن: بلاط الشهداء: شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ ١٩٨٠م)، لـ: شوقي أبو خليل (٣٦)، وأكسفورد وكمبردج جامعتان عريقتان في إنجلترا.

خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأما الخاص: فقوله ﷺ: (لتُفتحَنَّ القسطنطينية، فلنِعْمَ الأمير أميرها، ولنِعْمَ الجيش ذلك الجيش)[١]، ورواه الإمام أحمد من حديث بشر الخثعمي رضي الله عنه، قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك[٢] فسألني فحدَّثْتُه فغزا القسطنطينية.

وعن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة -يريد القسطنطينية- وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم مُلصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يُلقِي بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب[٣]: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا: هَلُمَّ نقيم في أموالنا ونُصلِحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أي نقيم في أموالنا، ونصلحها وندع الجهاد. قال أبو عمران: فلم يَزَل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفِن بالقسطنطينية)[٤].

ظل المسلمون يبعثون بالصوائف والشواتي في أرض الروم طوال القرن الأول طلبًا لهذا الشرف العظيم؛ فتح القسطنطينية، والفوز بالمَنْقَبة الرفيعة التي وصف بها النبي ﷺ جيش الفاتحين وأميرهم.

---

(١) المسند (٤/ ٣٣٥)، وسنده حسن وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٢١): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مسلمة بن عبد الملك بن مروان (٠٠ ـ ١٢٠هـ) أمير قائد، من أبطال عصره من بني أمية في دمشق له فتوحات مشهورة، سار في مئة وعشرين ألفًا لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، وبنىٰ مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦هـ، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ثم أرمينية، وغزا الترك والسند سنة ١٠٩هـ ومات بالشام، قال الذهبي: كان أولىٰ بالخلافة من سائر إخوته. انظر: الأعلام (٧/ ٢٢٤)، البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٣) خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، أبو أيوب من كبار الصحابة، شهد بدرًا، ونزل النبي ﷺ حين قدم المدينة عليه، مات غازيًا بالروم سنة خمسين، وقيل: بعدها، تقريب التهذيب (١/ ٢١٣).

(٤) سنن أبي داود (٣/ ٢٧) والترمذي برقم (٢٩٧٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

وكذلك الحال على الجانب الغربي، فقد كان هذا الهاجس يحدو جيوش المسلمين المجاهدة في الشمال الإفريقي وهم يهمون بفتح الأندلس، قال ابن كثير رحمه الله: (لما افتُتِحَت أفريقية بعث عثمان إلى عبد الله بن نافع بن عبد قيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريَّيْن من فورهما إلى الأندلس، فأتَياها من قِبَل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: إن القسطنطينية إنما تفتَتح من قِبَل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان، والسلام)[١]، وكان ذلك في سنة ٢٧هـ في خلافة عثمان رضي الله عنه.

لقد كان المسلمون يطمحون أن يُحِيلوا بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط حاليًّا ـ إلى بحر الإسلام، وأن يحيطوا بالقسطنطينية من جانبَيْها الآسيوي والأوروبي، وكان موسى بن نصير[٢] رحمه الله يقول: (لو انقاد الناس لي لقُدْتُهم حتى أفتح بهم مدينة رومية ـ وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج ـ ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى)[٣]، وبهذه الروح الوثَّابة، وبهذا التألق الإيماني، رسم الفاتحون خريطة العالم من جديد، وأزاحوا النصرانية عن أشرف مقدساتها، وأغلى مرابعها، وأرْسَوْا دعائم الدين الحق، ووطَّدُوا أركانه.

ولعل استعصاء هذه المدينة «القسطنطينية» ومنعتها أمام جيوش المسلمين ومحاولاتهم المتكرِّرة لفتحها، حتى اكتفوا ببناء جامع فيها على رأس القرن

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢)، وانظر: الكامل (٣/ ٤٧) وتاريخ الطبري (٤/ ٢٥٣).

(٢) موسىٰ بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي، بالولاء (١٩ ـ ٩٧هـ) أبو عبد الرحمن، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرىٰ بالحجاز نشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرس، وبنىٰ بها حصونًا، وغزا أفريقية، ووليها، وأقام بالقيروان، ووجه مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس عام ٩٢هـ. ففتحها ثم التحق به في العام التالي، وأكملا معًا فتح الجزيرة حتىٰ جبال البرانس، وكان يطمع باختراق أوروبا ليصل إلىٰ القسطنطينية من الجانب الآخر، ولكن الوليد بن عبد الملك خاف عاقبة الإيغال فأمره بالتوقف والعودة إلىٰ دمشق، فوصلها عام ٩٦هـ في مرض الوليد، ثم حج مع سليمان، وتوفي في وادي القرىٰ، وكان شجاعًا عاقلًا كريمًا، لم يهزم له جيش قط رحمه الله. انظر: الأعلام (٧/ ٣٣٠).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

الأول، ثم ما تلا ذلك من صد التوسع الإسلامي في فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء الفاصلة عام ١١٤هـ، كان إيذانًا بانتهاء مرحلة متميزة، فريدة، أثمرت ثمارًا يانعة باقية في تاريخ بني الإنسان.

ثانيًا: الإقبال العظيم على اعتناق الإسلام، والدخول في دين الله من أبناء البلاد المفتوحة رضًا وطواعية، ولقد شهدت العقود الأولى من الفتح الإسلامي انخراطًا في الدين الجديد من معتنِقِي الأديان الأخرى ـ خصوصًا النصارى ـ وتحوُّلًا لافتًا في المجتمعات المنضوية تحت راية الإسلام دون عنفٍ ولا إكراه، في ظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل، شهد بها الخصوم قبل الأولياء.

يقول برنارد لويس[1]: (لقد وصل محمد إلى السلطة والحكم أثناء حياته، وقد أسَّس بنفسه أول دولة إسلامية، وحكمها مع أصحابه، لقد انتهت مهمة الرسالة الروحية لمحمد بوفاته، ولكن رسالته الدينية والسياسية استمرت على يد خلفائه، وتحت حكم الخلفاء تقدَّم المسلمون من انتصار إلى انتصار، وبالتالي نشأ خلال قرن واحد كيان شاسع الأصقاع يمتدُّ من حدود الهند والصين إلى جبال البيرينيه وسواحل المحيط الأطلسي، وهو كيان يحكم ملايين الأتباع، وبأعدادٍ هائلة، ممن اعتنقوا الدين الجديد... إن تاريخ الدولة الإسلامية المبكر ـ الذي يحظى بالقداسة ـ يشكِّل جوهر ولب ذاكرة ووعي المسلمين في كل مكان، وهو يحكي قصة الفتوحات السريعة المتواصلة، والتي تَساقَط أمامها زعماء العقائد الفاسدة التي تضطهد شعوبها.

---

(١) برنارد لويس: وُلِد في لندن عام ١٩١٦م، حصل علىٰ اللسانس مع مرتبة الشرف الأولىٰ من جامعة لندن عام ١٩٣٦م، ودبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس عام ١٩٣٧م، والدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م، وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنىٰ في جامعة «برنستون»، وعضو دائم في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون ـ نيوجرسي ـ ١٩٧٤م، يشغل العديد من المناصب العلمية، وعضو فخري في عشرات الجمعيات، مؤلفاته تربو علىٰ العشرين، وله عشرات الأبحاث المنشورة في التاريخ والفرق. انظر: التعريف به في مقدمة كتابه (الإسلام الأصولي)، دار الجيل، بيروت، ط١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

لقد وصل الإسلام إلى الانتصار النهائي، سواء من حيث العقيدة أو السلاح، وأوصل كلمة الله إلى البشرية كلها، وفرض الشريعة الإلهية على العالم كله)[١].

(.. وهكذا فعندما وصل المسلمون في العصور الوسطى إلى صقلية وإسبانيا والبرتغال، شاهدنا بعد فترة قصيرة عمليات تحوُّل ودخول جماعات كثيرة من النصارى إلى الدين الجديد)[٢].

إن التفسير الحقيقي لظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من سكان البلاد المفتوحة -كتابيِّين أو وثنيِّين- ترجع إلى أمرَيْن أساسيَّيْن:

أولهما: صحة العقيدة الإسلامية ووضوحها ومتانتها، وموافقتها التامة للعقل والفطرة وأصول الشرائع السابقة، وبُعدها عن التعقيد والغموض والتكلف والبدعة الذي آلت إليه الأديان المحرَّفة، فوجد فيها القوم بُغيتهم، وسكينة قلوبهم، وحل إشكالاتهم العقدية والتشريعية، على حد قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

وثانيهما: الالتزام الشرعي، والتطبيق الدقيق لحَمَلة هذا الدين من الفاتحين المؤمنين الأولين، حتى ضربوا أروع الأمثلة في الصدق والوفاء بالعهود، وحفظ الذمة والعدل والنزاهة، مع صدق الإيمان وقوة الصلة بالله تعالى، والشهادة في سبيله على حد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج].

لقد رأى أبناء البلاد المفتوحة في أصحاب رسول الله ﷺ ملائكة يمشون على الأرض مطمئنين، فبهروا بصدقهم وإخلاصهم وعدلهم وخشيتهم لربهم

---

(١) الإسلام والغرب: برنارد لويس، دار الرشيد ـ دمشق ـ بيروت، مؤسسة الإيمان ـ بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، (٥).

(٢) الإسلام والغرب (٨).

وزهادتهم في الدنيا، فعلموا أنهم تضلَّعوا من معين النبوة، وأشرقت قلوبهم بنور الإيمان، فاختاروا الإسلام راغبين منقادين رجاءَ أن يُؤْتَوْا أجورهم مرتَيْن[1].

ولا ننفي أن تكون التشريعات الإسلامية في حق أهل الذمة من فرض الجزية وغيرها قد تدفع ببعضهم إلى اعتناق الإسلام، أو على الأقل تحملهم على التفكير بذلك، ولكننا نجزم أن «الجزية» في حد ذاتها، أو مجرد «الغلبة» و«السيطرة السياسية» غير كافية أبدًا في التخلِّي عن المعتقد، بدليل أن هؤلاء القوم قد خضعوا لبعض مخالفيهم في المعتقد، الذين سامُوهم سوء العذاب، ونكلوا بهم، فما زادهم ذلك إلا إصرارًا على دينهم، كما أن ذلك الذمي يرى مواطنه المسلم يدفع لبيت مال المسلمين زكاة ماله كما يدفع هو الجزية، إضافةً إلى ذلك فقد ظل أعداد من هذه الطوائف قرونًا متطاولة مُصِرِّين على دينهم الأول، يدفعون الجزية، فالباعث الحقيقي والسبب الرئيس في إقبالهم على الإسلام هو ما أشرنا إليه، ولو كره الحاسدون.

وقد تفيَّأ أهل الذمة ظلال العدل الإسلامي الوارفة، وعاشوا آمنين مطمئنين على أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم، بل ومقدساتهم طوال هذه المرحلة،

---

(١) يقول الباحثان فيليب فارج، ويوسف كرباج: (إن العراق الذي كان يركز الكتلة الديموغرافية للمنطقة، قد ترك لنا المؤشرات الأكثر ترتيبًا،..، ففي الشمال في ظل الخلفاء الأوائل تظل النسطورية حيوية..، وفي الجنوب، في المقابل، يمتد الإسلام بسرعة بالغة، والبرهان علىٰ ذلك هو انهيار إيرادات ضريبة الرأس، ففي عهد الخليفة عمر الأول تصل إلىٰ ما بين ١٠٠ مليون و١٢٠ مليونًا من الدراهم؛ بينما لا يجمع الأمويون منها غير ٤٠ مليونًا من الدراهم في عهد عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥م)، وهذه الأرقام توضح اتساع عمليات التحول إلىٰ اعتناق الإسلام، إن ثلثي إجمالي السكان يقرِّرون الانتماء إلىٰ الإسلام منذ النصف الأول للقرن، وإذا ما سلمنا بأن العراق (بمفهوم جغرافي واسع) كان يضم نحو عام ٧٠٠ زهاء ٩ ملايين من السكان، فبالإمكان توزيع هؤلاء إلىٰ ٦ ملايين من المسلمين حديثي الاعتناق للإسلام و٣ ملايين من المسيحيين)، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٢٤ ـ ٢٥)، وأما في مصر فيقول الباحثان: (إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلىٰ اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة؛ ٢٦٪ بين عامي ٦٤٤، ٦٦١ ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده بين عامي ٦٦١، ٦٨٠)، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

متمتِّعين بضمانات كفلها لهم التشريع الإسلامي ذاته[١].

فلم يلحظ التاريخ خلال هذه الفترة حوادث شغب أو ثورات أو انتفاضات، على ضد ما يجري إثر عمليات الاحتلال من الشعب المغلوب على الجيش المنتصر، بل إن التاريخ يحفظ وقائع يطول سَرْدُها تكشف عن الجانب الخلقي في التعامل، والوفاء بالعهود، وحفظ الحقوق، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

ونختار لذلك مثلَيْن: أحدهما في قصة بناء الجامع الأموي في دمشق، الذي كان كنيسة للنصارى، فلما فتح المسلمون دمشق (أخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة «مريُحنا»[٢]، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة -وكان على باب الجابية- الصلح، فاختلفوا، ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحًا ونصفه عنوة، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي، فجعله أبو عبيدة مسجدًا يصلي فيه المسلمون... وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد... فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنةً إلى مسجدهم، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم، ولا يضربوا بناقوسهم، إجلالًا للصحابة، ومهابةً وخوفًا.. ثم لم يَزَل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى من سنة أربع عشرة إلى سنة ستٍّ وثمانين في ذي القعدة منها)[٣].

ولما كثر المسلمون، وضاق بهم المسجد، وتأذَّوْا من مجاورة النصارى لرفع أصواتهم بقراءة الأناجيل، فاوَضَهم الوليد بن عبد الملك على الخروج وصالحهم وأرضاهم.

---

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.

(٢) لعلها نطق عربي لـ«مار يوحنا».

(٣) البداية والنهاية: (٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله هَمَّ أن يرد عليهم ما أخذ منهم الوليد، حتى حقَّق القضية، وخيَّرهم بين الرد وبين استرجاع كنائس خارج البلد لم تدخل في الصلح، فاختاروا استبقاء تلك الكنائس، ويطيبوا نفسًا للمسلمين بتلك البقعة من الجامع[١].

إن هذه الحادثة التي دامت فصولها قرابة تسعين سنة، لَتدلُّ على مدى التحرج الشرعي الذي يشعر به المسلمون تجاه حقوق أهل الذمة، تدينًا لله، وحفظًا لعهده وذمةِ رسوله ﷺ، لا خوفًا من هؤلاء النصارى ولا طمعًا فيهم، ولا يحفظ تاريخ الغزاة والفاتحين تسامُحًا وعدلًا وإنصافًا ووفاءً كما حفظ لأهل الإسلام، خصوصًا في هذا القرن الأول.

وأما المثال الثاني فعلى المستوى الفردي، فقد روى أبو بكر الآجري[٢] رحمه الله في أخبار أبي حفصٍ عمر بن عبد العزيز رحمه الله بسنده أنه (أمر مناديه أن ينادي: ألَا مَن كانت له مظلِمة فليرفعها. فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص، أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عزَّ وجل. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ فقال له: يا عباس، ما تقول؟ قال: أقطَعَنِيها يا أميرَ المؤمنين الوليدُ بن عبد الملك، وكتب لي بها سِجلًّا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يُتَّبَع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فارْدُدْ عليه يا عباس ضَيْعَته، فرَدَّ عليه)[٣].

---

(١) انظر: تفاصيل الموضوع في البداية والنهاية (٩/ ١٤٢ ـ ١٥٢).

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري الشافعي، فقيه محدث نسبته إلىٰ آجر (من قرىٰ بغداد) وُلِد فيها، وحدث ببغداد، ثم انتقل إلىٰ مكة وتوفي فيها، وله من التصانيف: «الشريعة»، و«أخلاق العلماء» و«النصيحة» وغيرها، مات سنة (٣٦٠هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٩٧)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٨)، صفوة الصفوة (٢/ ٢٦٥).

(٣) أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله وسيرته: الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، (٥٧ ـ

هذه هي الضمانة الوثيقة التي يجد فيها أهل الذمة مأمنهم: «كتاب الله»، حتى ولو كان خصمه ابن خليفة معه سجل من الخليفة، فكتاب الله أحقُّ أن يُتَّبَع من كتاب الوليد، فأين يجد الباحث إنصافًا ونصرة للمظلوم من أبناء الأمم المغلوبة مِن ظالمه من السادة المتغلِّبين في تاريخ البشرية؟

تلك لمحة مختصرة عن العلاقة التاريخية على الصعيدين الداخلي والخارجي بين المسلمين وأهل الكتاب في هذه المرحلة المتميزة تنبئ عما وراءها من مواقف وأحداث لا يتَّسع المقام لحصرها.

المرحلة الثانية: من عام ١١٥هـ إلى عام ٤٩٠هـ.

تشغل هذه المرحلة حيزًا زمنيًّا يمتد من منتصف العقد الثاني من القرن الثاني الهجري، حيث بلغت الفتوحات الإسلامية أقصى امتدادٍ لها، وآذَنَت بالانحسار التدريجي البطيء، وينتهي بالإرهاصات السابقة لأولى الحملات الصليبية على بلاد الشام في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، أي ما يقارب أربعمئة سنة تقريبًا.

والسمة المميزة لهذه المرحلة من ناحية العلاقات الإسلامية الكتابية على جانبَيْها الشرقي والغربي، أي في خط المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية شرقًا، والفرنجة غربًا؛ كونها مرحلة كرٍّ وفَرٍّ، ومناوشات متبادلة، وحماية ثغور، وعمليات صلح وتبادُل أسرى، دون أن تشهد إضافة أقاليم كبار لدار الإسلام كما كان الحال في المرحلة الأولى، وربما كانت الكفة راجحة للجانب الإسلامي في العقود الأولى من هذه المرحلة، لا سيما في خط التماسِّ مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم مالت الكفة لصالح الجانب النصراني في أواخر هذه المرحلة، لا سيما في بلاد الأندلس.

ويمكن أن نبيِّن هذا الإجمال بشيءٍ من التفصيل الموجز الذي تفرضه طبيعة

---

(٨٥).

البحث.

● إثر معركة «بلاط الشهداء» ١١٤هـ - ٧٣٢م زحف النصارى بقيادة «شارل مارتل» تجاه جنوب فرنسا، واستردَّ بعض المدن المفتوحة، وبعد ستٍّ وثلاثين سنة من الحروب والمناوشات ودَّع المسلمون فرنسا بعد إقامة دامت خمسين سنة تقريبًا (٧٢٠ ـ ٧٦٨م)، مخلِّفين وراءهم جبال البرانس حدًّا طبيعيًّا فاصلًا بين مملكة الفرنجة في فرنسا ومملكة المسلمين في الأندلس[١].

● وفي الجانب الآخر دخلت الدولة الأموية في معمعة من الفتن الداخلية، واضطراب الأمور، وفساد أمر الخلافة بعد وفاة هشام بن عبد الملك رحمه الله عام ١٢٥، قال ابن كثير: (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر الجهاد في سبيل الله)[٢]، وانشغل المسلمون بأنفسهم، وسقطت الخلافة الأموية، وقامت خلافة بني العباس على أشلاء المسلمين ودمائهم عام ١٣٢هـ، وظل أمر الجهاد راكدًا، مما أغرى الروم بالهجوم على «ملطية» عام ١٣٨هـ، فقابله المسلمون بالتوغل في بلاد الروم عام ١٣٩هـ، ومُفاداة الأسرى[٣]، ثم توقَّفَت الصوائف حتى عام ١٤٦هـ[٤].

● وحين استتبَّت الأمور لبني العباس في عهد المهدي[٥] (١٥٨ ـ ١٦٩هـ)، والرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ)، والمأمون[٦] (١٩٨ ـ ٢١٨هـ)، والمعتصم[١] (٢١٨ ـ

(١) تفاصيل ذلك في: نفح الطيب ج(١)، فجر الأندلس، جذوة المقتبس.

(٢) البداية والنهاية: (٨/ ٣٥٤).

(٣) البداية والنهاية: (٩/ ٧٣).

(٤) المرجع السابق.

(٥) المهدي العباسي (١٢٧ ـ ١٦٩هـ) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله، من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولي بعد وفاة أبيه سنة ١٥٨هـ، وأقام في الخلافة عشر سنين وشهرًا، كان محمود العهد والسيرة، محببًا إلىٰ الرعية، شديدًا علىٰ المبتدعة والزنادقة. انظر: الأعلام (٦/ ٢٢١).

(٦) عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي، أبو العباس، سابع خلفاء بني العباس، وأحد أعاظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين، وفتح علىٰ المسلمين باب شر بترجمة: كتب الفلسفة والمنطق،

٢٢٧هـ) ـ باستثناء فترات طارئة من الفتن الداخلية ـ نشطت حركة الجهاد نسبيًّا، وتتابَع الغزو وحماية الثغور، وفتح بعض المدن والحصون، وأخذ الجزية من ملوك القسطنطينية أحيانًا، ومن أبرز تلك الأحداث: غزو عام ١٥٩هـ، ١٦٢هـ، ١٦٤هـ، وغزو القسطنطينية عام ١٦٥هـ، وأخذ الجزية من أهلها في خلافة المهدي[٢]، ثم فتح «أنقرة» و«مطمورة» عام ١٨١هـ، وإذلال ملك الروم «نقفور» عام (١٨٧ ـ ١٩٠هـ) في خلافة الرشيد[٣]، وغزو بلاد الروم عام ٢١٥هـ، والرد على هجومهم على «طرسوس» عام ٢١٦هـ، وما تبع ذلك من مناوشات عام ٢١٧، في خلافة «المأمون»[٤]، ثم الرد على هجوم الروم على «ملطية»، وفتح عمورية عام ٢٢٣هـ في خلافة المعتصم[٥].

وبالجملة فقد كان جانب الدولة الإسلامية مرهوبًا في الصدر الأول من خلافة بني العباس.

ولما آل الأمر إلى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)، وازداد نفوذ الأمراء الأتراك، ضعف أمر الجهاد، واستطال الروم على المسلمين، بل وقعت سابقة خطيرة، فقد هجمت الفرنجة على مدينة «دمياط» المصرية، وقتلوا وحرقوا وسَبَوْا،

وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلًا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، وحض الناس على قراءتها، وقرب المعتزلة والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والشعراء وامتحن الناس بالقول بخلق القرآن في آخر حياته، توفي سنة ٢١٨هـ. الأعلام (٤/ ١٤٢)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٣)، الكامل في التاريخ (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٨)، تاريخ الطبري (١٠/ ٢٩٣)، فوات الوفيات (١/ ٢٣٩).

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي، خليفة من أعاظم خلفاء بني العباس، بويع سنة ٢١٨هـ بعد وفاة أخيه المأمون، وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية في خبر مشهور، اتسع ملكه جدًّا، وقرب إليه الأتراك، وكثروا في جنده فبنىٰ لهم سامرا لما ضاقت بهم بغداد، توفي سنة ٢٢٧هـ. الأعلام (٧/ ١٢٧)، الكامل (٦/ ١٤٨ ـ ١٧٩)، مروج الذهب (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ١٢٩، ١٣٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٠، ١٧٧، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٣).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٢٨٥).

ورجعوا في مراكبهم لم يَعرِض لهم أحد، وذلك عام ٢٣٨هـ[١]، كما أغار الروم على بلاد الجزيرة عام ٢٤٢هـ[٢]، وقصد ملك الروم بلاد الشام في عام ٢٤٨هـ في خلافة «المنتصر[٣]» (٢٤٧ ـ ٢٤٨)[٤]، وهُزم المسلمون في «ملطية» عام ٢٤٩هـ في خلافة «المستعين[٥]» (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ)[٦]، وكل ذلك لضعف جانب الخلافة، وتفويض الأمر إلى أمراء الأجناد الأتراك، واشتغال الخلفاء بالملاهي والقيان والخمور، وعدم النهوض بأعباء الجهاد وحماية الثغور، وقد أدَّت أحداث عام ٢٤٩هـ في ملطية إلى هياج العامة، وتبنِّي أهل اليسار من البغادِدَة تمويل المتطوِّعين للجهاد في الثغور[٧].

واستمر الحال في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أثناء خلافة «المعتمد»[٨] (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) في مناوشات مستمرة، كانت المبادرة غالبًا بأيدي الروم، بينما يستميت أهل الثغور من المسلمين في الدفاع، كما جرى في ملطية

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٣١٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٣٤٣).

(٣) المنتصر العباسي (٢٢٣ ـ ٢٤٨هـ) محمد «المنتصر بالله» بن جعفر «المتوكل علىٰ الله» بن المعتصم أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية، بويع بالخلافة بعد أن قتل أباه، سنة ٢٤٧هـ. وهو أول من عدا علىٰ أبيه من بني العباس، ولم تطل مدته، مدة خلافته ستة أشهر وأيام، قيل: مات مسمومًا. انظر: الأعلام (٦/ ٧٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٩٤ ـ ٣٥٤).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣٥٣).

(٥) المستعين بالله العباسي (٢١٩ ـ ٢٥٢هـ) أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، أمير المؤمنين، من خلفاء الدولة العباسية، بويع له بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨هـ، وجرت في مدته فتن داخلية. انظر: الأعلام (١/ ٢٠٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢ ـ ١١).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣).

(٧) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣).

(٨) المعتمد علىٰ الله (٢٢٩ ـ ٢٧٩هـ) أحمد بن المتوكل علىٰ الله جعفر بن المعتصم، أبو العباس، المعتمد علىٰ الله، خليفة عباسي، وُلِد بسامراء، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهتدي، وطالت أيام ملكه، وكانت مضطربة، بسبب نفوذ الموالي، حتىٰ قام ولي عهده أخوه الموفق بالله طلحة فضبط الأمور، كان سمحًا جيد الفهم شاعرًا، مات ببغداد. انظر: الأعلام (١/ ١٠٧).

عام ٢٥٩هـ[١]، وصقلية عام ٢٦٦هـ[٢]، وطرسوس عام ٢٧٠هـ[٣]، والرقة عام ٢٨٩هـ[٤].

● وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى كانت دويلات الرافضة تجثم على معظم الأقاليم الإسلامية، وتنشر الرعب والخراب والكفر والبدعة فيها، فالقرامطة (٢٧٨ ـ ٤٦٦) في الأحساء والبحرين يقطعون الطريق على الحجيج، ويقتلونهم في المسجد الحرام[٥]، ويُغِيرون على البصرة وجنوب العراق، والصليحيون في اليمن (٤٢٩ ـ ٥٦٩هـ)، والعبيديون (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ) في المغرب ومصر، ثم فلسطين والشام، والحمدانيون في الموصل وحلب وأعمالها (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ)، وبقيت الخلافة العباسية في العراق رسمًا باليًا، والخليفة جسدًا ملقى، يُسيِّره الأمراء الأعاجم من البويهيين الرافضة (٣٢٠ ـ ٤٤٠هـ) أو حريم القصر.

وبالجملة فقد عمَّ الرفض الأرض[٦]، فلا غرو أن يشهد القرن الرابع أحداثًا جسامًا، وجرأة بالغة من أهل الصليب، منتهِزين ضعف أهل السنة وغلبة أهل التشيُّع والرفض.

ومن أبرز أحداث ذلك القرن العصيب:

● هجوم «الدمستق» ملك الروم على «ملطية»، ومطالبته أهل السواحل

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣٩).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٤٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٨٤).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٨١، ١٢٢، ٢٧٢، ١٦٠).

(٦) قال ابن كثير: (... وقد امتلأت البلاد رفضًا وسبًّا للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين، وكل ملوك البلاد مصرًا وشامًا وعراقًا وخراسان، وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضًا، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، فكثر السبُّ والتكفير منهم للصحابة)، البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٣).

الإسلامية بالخراج عام ٣١٤هـ[١].

- هجومه على «رأس العين»، وإعماله القتل والسبي في أهلها عام ٣٣٢هـ[٢].

- هزيمة الروم لسيف الدولة الحمداني[٣]، وإيقاعهم بأهل طرسوس عام ٣٣٧هـ[٤].

- احتلال الروم «سروج» وقتل أهلها، وإحراق مساجدها عام ٣٤١هـ[٥].

- دخول الروم «آمد» و«ميافارقين»، وأخذ مدينة «سمساط» عام ٣٤٧هـ[٦].

- بل دخولهم «حلب» وإعمال السيف في أهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها، وتخريبها، وأخذ الأسارى والسبايا عام ٣٥١هـ[٧].

- إغارة الروم على «الرها» عام ٣٥٢هـ[٨]، ومناوشة المسلمين في جزيرتي إقريطش «كريت» عام ٣٥١هـ[٩]، و«صقلية» عام ٣٥٣هـ[١٠].

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ١٥٣).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٠٨).

(٣) سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ ـ ٣٥٦هـ) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي، أبو الحسن، سيف الدولة، الأمير، وُلِد في «ميافارقين» بديار بكر، ونشأ شجاعًا مهذبًا، عالي الهمة، وملك واسطًا وما جاورها، ومال إلىٰ الشام فامتلك دمشق، وعاد إلىٰ حلب فملكها سنة ٣٣٣هـ، وتوفي فيها، ودفن في ميافارقين، أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. انظر: الأعلام (٤/ ٣٠٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٢٠).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٢٥).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٣).

(٧) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٩).

(٨) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٤٣).

(٩) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٩).

(١٠) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٥٣).

● ثم هجومهم على «المصيصة» و«طرسوس» عام ٣٥٤هـ[١].

● تحريق «حمص» وسَبْي أهلها عام ٣٥٨هـ[٢]، ثم دخول «أنطاكية وقتل الشيوخ والعجائز، وسبي الأطفال والنساء عام ٣٥٩هـ، ثم «طرابلس».

قال ابن كثير: (ثم مالوا على السواحل فملكوا ثمانية عشر بلدًا، سوى القرى، وتنصَّر خلقٌ كثير على أيديهم، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وجاءوا إلى «حمص» فأحرقوا ونهبوا وسلبوا، ومكث ملك الروم شهرَيْن يأخذ ما أراد من البلاد، ويأسر مَن قَدَر عليه، وصارت له مهابة في قلوب الناس، ثم عاد إلى بلده ومعه السبي نحو من مئة ألف ما بين صبي وصبية)[٣].

كل هذه المآسي والنكسات، وقد طبَّق الرفض جميع ممالك الإسلام تقريبًا، وكان أخطرها استيلاء بني بويه على مقاليد الأمور في دار الخلافة في بغداد عام ٣٣٤هـ.

قال ابن كثير: (وكل هذا في ذمة ملوك الأرض، أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد، وأظهروا فيها الفساد، قبَّحهم الله)[٤]، وقال في ترجمة النقفور ملك الأرمن، الملقب بالدمستق، الهالك سنة ٣٥٦هـ ما نصه:

(كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلبًا، وأشدهم كفرًا، وأقواهم بأسًا، وأحَدِّهم شوكة، وأكثرهم قتلًا وقتالًا للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه – لعنه الله– على كثير من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسرًا، واستمرَّت في يده قهرًا، وأُضيفت إلى مملكة الروم قدرًا، وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم، وكثرة العصيان من الخاص والعام منهم، وفُشُوِّ البدع فيهم، وكثرة الرفض والتشيع منهم، وقهر أهل السنة بينهم،

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٥٥).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٦).
(٣) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٨).
(٤) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٧).

فلهذا أُدِيلَ عليهم أعداء الإسلام، فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع الخوف الشديد، ونكد العيش، والفرار من بلاد إلى بلاد، فلا يبيتون ليلةً إلا في خوف من قوارع الأعداء، وطوارق الشرور المترادفة، فالله المستعان)[١].

وفي هذا التقرير البليغ من هذا المؤرخ الموسوعي، والعالم الرباني، دروس من دروس الزمان، ودلائل الإيمان، يتعيَّن على أهل الإسلام أن يَعُوها، ويَقْدروها حق قَدْرها، ويعرفوا عدوَّهم الداخلي والخارجي، فهل من مستعتب؟

لم يكن لملوك الرفض هَمٌّ بإقامة الجهاد، ورَدِّ عُبَّاد الصليب، بل كانت عهودهم عهود شر وفتن، واضطراب وفساد، وإرهاق للمسلمين بالحروب الداخلية.

ثم بدت أعلام السنة تلوح من قِبَل المشرق بظهور الدولة الغزنوية عام ٣٦٦هـ، وعُلُوِّ نجم ملكها المظفر فاتح بلاد الهند محمود بن سبكتكين[٢] رحمه الله، بعد ملكٍ دام ثلاثًا وثلاثين سنة نصر فيه السنة، وقمع البدعة، ونشر الإسلام[٣].

● ثم جاء من بعده ملوك السلاجقة السنيون عام ٤٢٩هـ، وتم على أيديهم القضاء على بني بويه الذين جثموا على دار الخلافة العباسية في بغداد أكثر من مئة عام، (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ)، وفي ظل هذه الدولة السنية الفتية انتعش أمر

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٤٣).

(٢) محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٦١ ـ ٤٢١ هـ) السلطان، يمين الدولة، أبو القاسم، فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلىٰ نيسابور، وكانت عاصمته «غزنة» بين خراسان والهند، وفيها ولادته ووفاته، أرسل إليه القادر بالله العباسي خلعة السلطنة عام ٣٨٩هـ، غزا خراسان وقضىٰ علىٰ الدولة السامانية، وصمد لقتال ملك الترك وراء النهر، كان حازمًا صائب الرأي، يجالس العلماء ويناظرهم، وكان من أعيان الفقهاء، فصيحًا بليغًا، أصيب بمرض مدة سنتين حتىٰ مات رحمه الله. انظر: الأعلام (٧/ ١٧١)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٩ ـ ٣١).

(٣) انظر: ترجمته في البداية والنهاية: (١٢/ ٢٩ ـ ٣١).

الجهاد، فجدَّد السلاجقة ما اندرس من غزو الروم عام ٤٤٠هـ حتى (لم يبقَ بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يومًا)[١].

● ثم في عام ٤٤٦هـ[٢]، وفي النصف الثاني من القرن الخامس، وقعت ثلاثة أحداث كبار في تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية:

أولها: معركة «ملاذ كرت» أو «مانزكرت» عام ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م، بين جحافل الإمبراطورية البيزنطية بقيادة ملك الروم «أرمانوس» والسلاجقة السنيين بقيادة السلطان ألب أرسلان في معركة من معارك التاريخ الفاصلة، كان الظفر فيها حليف المسلمين[٣].

الثاني: سقوط مدينة «طليطلة» بيد «ألفونسو»، ملك قشتالة النصراني عام ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م، بعد حُكم دام ٣٧٢ سنة[٤].

الثالث: استيلاء الفرنج النورمانديين على جزيرة «صقلية» عام ٤٨٤هـ - ١٠٩٠م[٥].

إن لهذه الأحداث الكبار دلالات كبارًا أيضًا:

١ ـ لقد كانت معركة «ملاذ كرت» إيذانًا بانهيار الخطر البيزنطي، وفشل محاولات النصارى من قِبَل المشرق، ومن ثم التفكير الجاد بالبحث عن سبل أخرى.

(ولم تقم للروم مذ ذاك قائمة، وبعدها لم ينفك أباطرة بيزنطة يُوفِدون

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٥٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٦٥).
(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ١٠١)، والكامل في التاريخ (٨/ ٢٢٣).
(٤) انظر: الكامل في التاريخ(٨/ ٢٩٨).
(٥) انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٤٥).

البعثات إلى الغرب، يُرَوِّجُون الدعوة للحروب المقدسة)[١].

٢ ـ كان سقوط «طليطلة» ـ عاصمة القوط قديمًا ـ بيد النصارى إيذانًا بأفول شمس المسلمين في الأندلس، فقد كانت هذه المدينة واسطة عقد المدن الأندلسية، وسُرَّة الجزيرة، وقد عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله:

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ... فَمَا المُقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الغَلَطِ

الثَّوْبُ يَنْسَلُّ مِن أَطْرَافِهِ وأَرَىٰ ... ثَوْبَ الجَزِيرَةِ مَنْسُولًا مِن الوَسَطِ

ونَحْنُ بَيْنَ عَدُوٍّ لا يُفَارِقُنَا ... كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ[٢]

٣ ـ كان سقوط جزيرة «صقلية» بأيدي الفرنج إيذانًا بانتهاء سيادة المسلمين البحرية على بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط ـ بوصفها دُرَّةَ ذلك البحر، وكبرى جُزُرِه، والمسيطرة على طرق التجارة والأساطيل فيه، واطمأن النصارى على سلامة عاصمتهم الكبرى «روما» التي هدَّدها الفاتحون المسلمون وحاصَروها عام ٢٣١هـ - ٨٥٠م في عهد البابا «سرجيوس الثاني»[٣].

أما على الصعيد المدني، أي حال أهل الذمة في دار الإسلام، فقد كان من حيث الجملة استمرارًا لحالهم في المرحلة الأولى من ناحية الحقوق والواجبات، ومن الطبيعي أن يصاحب ضعف التمسك بالدين، أو تولِّي المبتدعة والباطنية مقاليد الحكم في بعض الولايات نوعُ ظلم واعتداء على حقوق أهل الذمة، وربما كان مبعثها أحيانًا تصرُّفات استفزازية تصدر من أهل الذمة تُهيِّج العامة أو بعض المتسلِّطين فيُوقِعون بهم، ومع ذلك تظل هذه

---

(١) الحروب الصليبية والمجابهة، شمس الدين الكيلاني، «مجلة الاجتهاد» (ملف العلاقات الإسلامية المسيحية) الأعداد (٢٨ ـ ٣٢) رئيس التحرير: الفضل شلق، رضوان السيد، دار الاجتهاد ـ بيروت (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) (٢٨/ ٥٣).

(٢) عن كتاب الزلاقة: شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، (١٩).

(٣) انظر: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٠١)، عن فتح صقلية: شوقي أبو خليل دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، (٨٧).

الحوادث والوقائع محدودة تُحفَظ ولا يُقاس عليها، بل إننا نجد شواهد من التسامح، وإن شئت قُل: من التساهل والتفريط في إسناد بعض الأمور الهامة لأهل الذمة، وتقريبهم من الخلفاء.

ونقتطف نبذًا من الأمثلة مما جمعه الشيخ محمد عبده[١] في رَدِّه على صاحب مجلة «الجامعة»: (.. ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء: جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور.. وممن حَظِي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجِّم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وله كتب في التاريخ جليلة، ونقل كتاب «أميردس» إلى السريانية بأفصح عبارة، وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب، وجبريل ولده، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني، ولَّاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طِبِيَّة وغيرها، وخدم الرشيد ومَن بعده، إلى المتوكل... وممن علا قَدْرُه في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون، أقامه كذلك أمينًا على ترجمة الكتب من كل علمٍ من علوم الطب والفلسفة[٢]، وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور، وسابور ابنه، وكانَا نصرانِيَّيْن، ووَلِي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور.

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيبًا عند المعتصم... وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو[٣] وغيره... وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام

(١) تأتي ترجمته والكلام عنه في الباب الأول.

(٢) ليته ما فعل، فإن ترجمة كتب الفلاسفة من اليونان وغيرهم قد فتحت علىٰ المسلمين باب علم الكلام المذموم، فانصرف المفتونون به عن الطريقة القرآنية النبوية في تقرير العقائد، وأرادوا الوصول إلىٰ ذلك بالقوانين الأرسطية التي تبلبل العقل وتورث الشك.

(٣) أرسطو طاليس بن نيقوماخوس، من أهل أسطاخرا، ويُعَدُّ من متأخري فلاسفة اليونان، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول عندهم، وُلِد سنة ٣٨٤ق.م وسُمي المعلم الأول؛ لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلىٰ الفعل، وكان قد تتلمذ علىٰ أفلاطون نيفًا وعشرين سنة، وكان أرسطو يلقي دروسه علىٰ تلاميذه وهم يمشون، فلذا لُقِّب أتباعه بـ «المشائين»، الملل والنحل:

خلافة الراضي[١] متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري، كان متفنِّنًا في جميع العلوم العقلية... ومن المقرَّبين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الإسلام، وهو نصراني، طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة، ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته... ومنهم أبو الفرج بن الطيب، فيلسوف عالم)[٢].

ويمكن القول: إن هذا اللون من المعاملة والتمكين يمثِّل أحد طرفي قصد الأمور، فلم يكن المسلمون في القرن الأول يمكِّنون أهل الذمة من المهام الكبار، أو يتخذونهم بطانة، وإنما ظهر ذلك في هذه المرحلة، كما أن الطرف الآخر -بمعنى الإساءة والتجاوز- ظهر أيضًا في هذه المرحلة بصفة محدودة، ولأسبابٍ محلية، ومن شواهد ذلك:

مشاركة نصارى حمص في التمرُّد على واليها في عهد المتوكل العباسي عام ٢٤١هـ، فكان من آثار ذلك أن أمر الخليفة (أن يخرج كل نصراني بها، ويهدم كنيستها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع، وأن يضيفها إليه)[٣].

وربما حصل مزيدٌ من التشديد في مسألة تمييز أهل الذمة عن المسلمين فوق ما كان معمولًا به في القرن الأول، ففي سنة ٢٣٥هـ (أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم، وثيابهم، وأن يتطَيْلَسُوا بالمصبوغ بالقلى، وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، (٢/ ١١٩).

(١) الراضي بالله (٢٩٧ ـ ٣٢٩هـ) محمد ابن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد، أبو العباس، الراضي بالله، ورث عن سلفيه، القاهر والمقتدر، خلافة ضعيفة، فحاول إصلاح الأمر حين ولي سنة ٣٢٢، فعجز، واستقل الولاة بما يلون من الأقاليم، وأكثرهم رافضة، ولم يبقَ اسم للخليفة في غير بغداد وأعمالها. انظر: الأعلام (٦/ ١٧).

(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (١٦ ـ ١٩).

(٣) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٢٣).

أيديهم، وأن يُلزَموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم، وأن يحملوا في رقابهم كُرات من خشب كثيرة، وأن لا يركبوا خيلًا، ولتكن ركبهم من خشب، إلى غير ذلك من الأمور المُذِلَّة لهم، المهينة لنفوسهم، وأن لا يُستعمَلوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حُكم على مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المُحدَثة، وبتضييق منازلهم المتَّسِعة، فيؤخذ منها العُشر، وأن يُعمل مما كان متسعًا من منازلهم مسجد، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق، وإلى كل بلدٍ ورستاق)[1].

وأيًّا كانت طبيعة معاملة أهل الذمة وتفاوتها في المجتمع الإسلامي، نظرًا لاختلاف السياسة الشرعية في ظرفٍ معين، فإنها لا تنحدر إلى حد الإكراه في الدين، والتهديد بالقتل كما يقع من النصارى أنفسهم لرعاياهم وأسْراهم من المسلمين في تلك العهود.

قال ابن كثير رحمه الله: (.. وقد كانت أم الملك «تدورة» ـ لعنها الله ـ عرضت النصرانية على مَن كان في يدها من الأسارى، وكانوا نحوًا من عشرين ألفًا، فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته، فقتلت اثني عشر ألفًا، وتنصَّر بعضهم...)[2].

وربما تعرَّض أهل الذمة للمضايقة والأذى بسبب فساد الدولة وانحراف الحاكم، كما جرى أثناء تسلُّط الحاكم بأمره العبيدي من تخريب كنيسة بيت المقدس، وإباحتها للعامة، وهدم كنائس أخرى في مصر عام ٣٩٨هـ، ثم نُودِي في النصارى: (من أحب الدخول في دين الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمنًا، ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شُرِط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العهدة العمرية، من تعليق الصلبان على صدورهم، وأن يكون الصليب من خشب زِنَتُه أربعة أرطال، وعلى اليهود تعليق

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٣١٣ـ ٣١٤).
(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٢٤).

رأس العجل زنته ستة أرطال، وفي الحمام يكون في عُنق الواحد منهم قربة زنة خمسة أرطال بأجراس، وأن لا يركبوا خيلًا، ثم بعد هذا كله أمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها، وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه، وقال: (نُنَزِّه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يُعرَف باطنه، قبَّحه الله)[١].

وربما وقع شيء من الفتن بين المسلمين وأهل الذمة بسبب استفزاز هؤلاء الأخيرين للمسلمين كما جرى في بغداد سنة ٤٠٣هـ حين (توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى، فخرجت النوائح والصلبان معها جهارًا، فأنكر ذلك بعض الهاشميين، فضربه بعض غلمان ذلك الرئيس النصراني بدبوس في رأسه فشجَّه، فثار المسلمون بهم، فانهزموا حتى لجأوا إلى كنيسة لهم هناك، فدخلت العامة إليها فنهبوا ما فيها، وما قرب منها من دور النصارى، وتتبَّعوا النصارى في البلد...)[٢].

ونخلص إلى القول أن هذه المرحلة لم تشهد عمليات فتح كبرى، على الجانب النصراني على الأقل، أخْذًا بالاعتبار بعض الفتوحات الإسلامية في المشرق، بل اتخذ الجهاد صفة حماية الثغور، وأخْذ الجزية في بادئ الأمر، ثم جرت عملية انحسار تدريجي بطيء استغرق قرونًا في أطراف الدولة الإسلامية بسبب ضعف الخلافة، وهيمنة الجنس الأعجمي من الأتراك على خلفاء بني العباس، وإنهاك الدولة بالحروب والفتن الداخلية التي أثارتها الدول الرافضية في أواخر القرن الثالث، والقرن الرابع.

وأما على الصعيد الداخلي، فرغم حوادث متفرقة تعرَّض لها أهل الذمة فقد سارت عملية فهم الإسلام واعتناقه من قِبَل السكان المحليين سيرًا حثيثًا[٣]،

---

(١) البداية والنهاية: (١١/ ٣٣٩).

(٢) البداية والنهاية: (١١/ ٣٤٨).

(٣) انظر: الجداول الإحصائية والرسوم البيانية لنسب السكان من مختلف الطوائف، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٤٤ ـ ٤٧).

بسبب كثرة العلماء والصالحين والوعاظ، وظهور آثار الإسلام الاجتماعية والنفسية على معتنقيه.

لقد سلك التاريخ العلمي والدعوي لأهل الإسلام مسلكًا مغايرًا للتاريخ السياسي للحكومات الإسلامية المتعاقبة، وافترقَا منذ انتهاء المرحلة الأولى بعد القرن الأول تقريبًا.

ويتَّضح هذا الافتراق بالمقارنة بين هذين التاريخين، وتراجم أعلام كل منهما، حتى كأنهما لا يشتركان في رقعة مكانية وزمانية واحدة.

المرحلة الثالثة من عام (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ):

تمثِّل هذه المرحلة فترة الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوروبا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى) في سبع حملاتٍ متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ)، بالإضافة إلى استمرار الزحف النصراني جنوبًا على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

والسمة المميزة لهذه المرحلة هي انتقال المجابهة النصرانية من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية إلى دول وسط وغرب أوروبا الكاثوليكية بقيادة بابوات روما، وبالتالي انتقال أرض المعركة من الحدود والثغور المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الوسطى إلى العمق الإسلامي في السواحل الشامية وبيت المقدس، بسبب عمليات الإنزال البحري التي تقذف بها هذه الحملات، أو الجموع الهوجاء التي تنطلق من الممالك الأوربية لتلتقي عند أسوار القسطنطينية، وتُفوَّج من هناك.

ويمكن أن يؤرَّخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا «أربان الثاني» في مدينة «كليرمون» في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين، وقد ألهب البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة، أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية،

تمحورت حول أربع ركائز:

الأولى: الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، استنادًا إلى نصوص من الإنجيل.

الثانية: أنه يدعو إلى هذه الحملة باسم الرب بوصفه نائبًا عنه في الأرض.

الثالثة: الحث على نبذ الخلافات بين المؤمنين بالمسيح وتوحيد الجهود.

الرابعة: منح غفران جزئي لكل مَن يشارك في هذه الحملة، سواءً مات في الطريق أو قُتِل[١].

واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعًا في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعارًا في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدها) أو (تلك إرادة الله)، ثم شرع البابا أوربان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة، كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال «بطرس الناسك»، هجروا أديرتهم وتفرَّغوا لتهييج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح ـ بزعمهم ـ، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا[٢].

وعلى مدى قرنَيْن من الزمان تمخَّضت أوروبا الصليبية عن سبع حملات شهيرة موجَّهة نحو بلاد المشرق الإسلامي، نوجزها بما يلي:

أولًا: الحملة الصليبية الأولى:

تكوَّنت من خمسة جيوش جرَّارة، قَدِمت من فرنسا وألمانيا وإيطاليا، والتقت في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية «القسطنطينية» في أواخر عام ١٠٩٦م، ثم عبَرت مضيق البسفور متَّجهة نحو دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى،

(١) باختصار من: ماهية الحروب الصليبية، د.قاسم عبده قاسم، (١٠٣ ـ ١٠٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، طبعة ١٩٩٣م، (١٠٨ ـ ١١١).

فسقطت عاصمتهم «نيقية» عام ١٠٩٧م، وفي الطريق إلى «أنطاكية» جنح قسم من الصليبيين نحو الرها، وكوَّنوا أول إمارة صليبية في قلب العالم الإسلامي، وفي أواخر عام ١٠٩٧م فرض الصليبيون حصارًا على أنطاكية التي صمدت صمودًا باهرًا أمام الحصار، لولا خيانة بعض الأرمن المستأمنين على أحد أبراجها، فسقطت في منتصف عام ١٠٩٨م ـ ٤٩١هـ، وقد حاول بعض الأمراء المسلمين إيقاف الزحف الصليبي بعد سقوط أنطاكية، ولكنه مُني بالهزيمة، وهكذا تكوَّنت الإمارة الصليبية الثانية عام ١٠٩٩م في أنطاكية، ثم واصل الصليبيون مسيرهم جنوبًا فاستولوا على «معرة النعمان»، وكان الهدف الأخير، والحلم المنشود لهذه الجموع الهادرة مدينة «القدس» التي كانت حديثة عهد بصراع بين السلاجقة والعبيديِّين، فاستفاد العبيديون من انشغال السلاجقة بحروبهم مع الصليبيين فاستولوا على القدس عام (٤٩٣هـ - ١٠٩٩م)، ولكن مُتعَتهم لم تطل، فقد حاصرها الصليبيون على مدى خمسة أسابيع في ذلك العام، قال ابن كثير رحمه الله: (لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس، شرَّفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتَبَّروا ما عَلَوْا تتبيرًا)[١].

وهكذا تكونت مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٠٠م[٢].

لقد كانت هذه الأحداث صدمة هائلة لجمهور المسلمين الذين لم يملكوا إلا البكاء وإزجاء القصائد العاطفية، فقد كان ضعف التمسك بالدين، وفُشُوُّ المعاصي والبدع يقف خلف التشرذم السياسي، والتنافس بين أمراء المدن الكبار: دمشق، وحلب، والموصل، وضعف الخلافة العباسية في بغداد يكبل هذه المشاعر، ويَحُول دون تحوُّلها لتكوين جبهة موحَّدة أمام هذا العدو

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ١٥٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٢٠ ـ ١٣٠).

الغاشم، والعنصر الغريب الذي زُرِع قسرًا في الأرض الإسلامية، أما «العبيديون» في مصر فكانوا أبعد ما يكون من تقديم المساعدة لأهل الإسلام في بلاد الشام، بل كانوا يرسلون السفارات إلى ملوك الصليبيين للتفاوض على اقتسام الأرض.

ومع كون الصليبيين قد وسَّعوا نفوذهم على السواحل الشامية[١]، حتى دان لهم شرق البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى جيب «الرها» وريف القدس، إلا إنهم لم يهنأوا بهذا الملك المغتصَب، فقد كانوا يتعرَّضون لبعض الهزائم المنكرة على أيدي المسلمين، فمن ذلك:

● ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة أربع وتسعين وأربعمئة: (.. وفيها أقبل ملك الفرنج في ثلاثمئة ألف مقاتل، فالتقى معه ستكين بن أنشمند طايلو، أتابك دمشق الذي يقال له أمين الدولة.. فهزم الإفرنج، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، بحيث لم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف، وأكثرهم جرحى ـ يعني الثلاثة آلاف ـ وذلك في ذي القعدة منها، ولحقهم إلى ملطية فملكها، وأسَرَ ملكها، ولله الحمد)[٢].

● وفي حوادث سنة سبع وتسعين وأربعمئة: (.. قصد الفرنج لعنهم الله الشام، فقاتَلهم المسلمون، فقتلوا من الفرنج اثني عشر ألفًا، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وقد أُسِر في هذه الوقعة «بردويل» صاحب الرها)[٣].

● وفي حوادث سنة سبع وخمسمئة = (١١١٣م): (.. كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج في أرض «طبرية»، كان فيها ملك دمشق الأتابك «طغتكين» ومعه صاحب سنجار، وصاحب ماردين، وصاحب الموصل، فهزموا الفرنج هزيمة واضحة، وغنموا منهم أموالًا جزيلة، وملكوا تلك

---

(١) في عام ٤٩٤هـ سقطت قيسارية وسروج وعكا، ٥٠٣هـ طرابلس، ٥٠٤ صيدا، ٥٠٥ صور.

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ١٥٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٣)، و«بردويل» هو: «بلدوين» كونت الرها.

النواحي كلها، ولله الحمد والمنة)[١].

● وفي حوادث سنة ثلاث عشرة وخمسمئة: (.. سارت الفرنج إلى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها، وقتلوا من أهلها خلقًا، فسار إليهم صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم ولحقهم إلى جبل قد تحصَّنوا به، فقتل منهم هنالك مقتلة عظيمة، ولله الحمد، ولم يُفْلِت منهم إلا اليسير، وأسَر من مقدَّميهم نيفًا وتسعين رجلًا، وقتل فيمن قتل «سيرجال» صاحب أنطاكية وحمل رأسه إلى بغداد)[٢].

● وفي حوادث سنة خمس عشرة وخمسمئة: (حاصر ملك بن بهرام وهو ابن أخي إيلغازي مدينة الرها، فأسَر ملكها جوسكين الإفرنجي وجماعة من رؤوس أصحابه، وسجنهم بقلعة خرتبرت)[٣].

● وفي حوادث سنة عشرين وخمسمئة: (اقتتل طغتكين صاحب دمشق وأعداؤه من الفرنج، فقَتل منهم خلقًا كثيرًا، وغنم منهم أموالًا جزيلة، ولله الحمد والمنة)[٤].

● وفي حوادث سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة: (حاصرت الفرنج مدينة «دمشق»، فخرج إليهم أهلها فقاتَلوهم قتالًا شديدًا... حتى نصرهم الله من عنده، فإن المسلمين هزموهم، وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يُفلِت منهم سوى أربعين نفسًا، ولله الحمد والمنة، وقُتل «بوهيموند» الفرنجي صاحب أنطاكية)[٥].

---

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).
(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ١٨٤).
(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ١٨٨).
(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ١٩٦).
(٥) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٠).

● وفي حوادث سنة أربع وعشرين وخمسمئة: (.. ملك عماد الدين زنكي[١] بلادًا كثيرة من الجزيرة، ومن بلاد الفرنج، وجرت معهم حروبٌ طويلة، نُصر عليهم في تلك المواقف كلها ولله الحمد، وقتل خلقًا من جيش الروم حين قَدِموا الشام)[٢].

● وفي حوادث سنة سبع وعشرين وخمسمئة: (.. اقتتلت الفرنج فيما بينهم قتالًا شديدًا، فمحق الله بسبب ذلك خلقًا كثيرًا، وغزاهم فيها عماد الدين زنكي، فقتل منهم ألف قتيل، وغنم أموالًا جزيلة، ويقال لها غزوة «أسوار»)[٣].

● وفي حوادث سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمئة: (فتح زنكي قلاعًا كثيرة، وقتل خلقًا من الفرنج، وفيها فتح شمس الملوك الشقيف وتيروت، ونهب بلاد الفرنج)[٤].

● وفي حوادث سنة تسع وثلاثين وخمسمئة (١١٤٤م): (أخذ عماد الدين زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة من أيدي الفرنج، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وسبى نساء كثيرة، وغنم أموالًا جزيلة، وأزال عن المسلمين كربًا شديدًا)[٥].

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم: (كانت تلك هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين، تردَّدَت أصداؤها في كل مكان؛ إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عامًا من استيلاء بلدوين

---

(١) عماد الدين زنكي بن آقسنقر، مؤدب الأميرين ألب أرسلان وفروخ شاه السلجوقيين، تولىٰ واسط سنة (٥١٦هـ)، وانتزع الرها من أيدي الصليبيين، واغتيل سنة (٥٤١هـ) في حروبه ضد الصليبيين. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٩٠، ٢١٩، ٢٢١).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٠).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٤).

(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).

(٥) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).

البويوني عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين)[١].

وهكذا مال ميزان القوى لصالح المسلمين الذين لم يزالوا يعانون من التفكُّك والفتن الداخلية، وإن كانت بوادر العافية قد بدأت تظهر بعلو نجم آل زنكي في أرض الموصل.

ثانيًا: الحملة الصليبية الثانية: (١١٤٥ ـ ١١٤٩م).

جاءت هذه الحملة رَدَّ فِعل بطيء لسقوط إمارة الرها، في عهد البابا «إيجينيوس الثالث» (١١٤٥ ـ ١١٥٣م)، وتكونت من جيوش ألمانيا بقيادة الإمبراطور «كونراد الثالث»، وفرنسا بقيادة ملكها «لويس التاسع»، ووصلت إلى المنطقة نهاية عام ١١٤٧م، وقد مُنِيَت بالفشل الذريع، وعاد الملكان الصليبيان يجرَّان أذيال الخيبة[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة: (حاصرت الفرنجُ -وهم في سبعين ألف مقاتل، ومعهم ملك الألمان في خَلْق لا يعلمهم إلا الله عزَّ وجل- دمشقَ، وعليها مجير الدين أرتق، وأتابك معين الدين، وهو مدبّر المملكة، وذلك يوم السبت سادس ربيع الأول، فخرج إليهم أهلها في مئة ألفٍ وثلاثين ألفًا، فاقتتلوا معهم قتالًا شديدًا، قُتِل من المسلمين في أول يومٍ نحو من مئتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يُحْصَوْن، واستمر الحرب مدةً، وأُخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله يدعون الله عزَّ وجل، والنساء والأطفال مكشفي الرؤوس يدعون ويتباكون، والرماد مفروش في البلد، فاستغاث أرتق بنور الدين محمود[٣] صاحب حلب، وبأخيه سيف

---

(١) ماهية الحروب الصليبية (١٣٨).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣) نور الدين محمود بن زنكي (عماد الدين)، أبو القاسم، الملقب بالملك العادل، ملك الشام والجزيرة ومصر، وهو أحد ملوك زمانه وأجلُّهم وأفضلهم، كان مداومًا للجهاد يباشر القتال بنفسه، وقارع الصليبيين وهزمهم في مواقع، وكان متواضعًا مهيبًا وقورًا مكرمًا للعلماء، توفي سنة ٥٦٩هـ. الأعلام

الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعًا في نحو من سبعين ألفًا بمن انضاف إليهم من الملوك وغيرهم، فلما سمعت الفرنج بقدوم الجيش تحوَّلوا عن البلد، فلحقهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا)[١].

وكان من آثار هذه الحملة على الجانب الإسلامي مزيد من التوحُّد بين الممالك الإسلامية، فقد صارت بلاد الشام جبهة واحدة تحت قيادة نور الدين محمود، في مواجهة الإمارات الصليبية على امتداد الساحل، وبقيت الجبهة الجنوبية –مصر– بأيدي العبيديين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

وقد تصدَّى نور الدين محمود زنكي لجهاد الصليبيين، وانتزاع الحصون والبلاد من أيديهم في بلاد الشام في وقائع مظفَّرة من أشهرها:

- غزوة سنة أربع وأربعين وخمسمئة التي قُتِل فيها ملك أنطاكية، ثم فُتح حصن فاميا قرب حماة[٢].

- فتح حصن إعزاز سنة خمس وأربعين وخمسمئة، وأسْر جوسلين الإفرنجي وابنه[٣]، وأخذ كل ما كان تحت يده من البلاد في السنة التي تلتها.

- وقعة سنة سبع وأربعين وخمسمئة، وكانت (وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج، فكسرهم وقتل منهم خلقًا، ولله الحمد)[٤].

- وقعة حارم سنة تسع وخمسين وخمسمئة، (فكسرهم كسرة فظيعة، وأسَر البرنس «بيموند» صاحب أنطاكية، والقومص صاحب طرابلس، والدوك

(٧/ ١٧٠)، الروضتين (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩) وما قبلها، الكامل في التاريخ (١١/ ١٥١)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥٣)، وفيات الأعيان (٢/ ٨٧)، مرآة الزمان (٨/ ٣٠٥).

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٤).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٥ـ٢٢٦).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٨).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٩).

صاحب الروم، وابن جوسلين، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل: عشرين ألفًا)[١].

- فتح «بانياس» في سنة تسع وخمسين أيضًا، وقيل: ستين[٢].
- فتح حصن «المنيطرة» في الشام، سنة إحدى وستين وخمسمئة[٣].

ولكنَّ انتصار الصليبيين في عسقلان، وانتزاعهم إياها من أيدي العبيديين سنة ٥٤٨هـ أثار مخاوف نور الدين محمود من طمعهم في الاستيلاء على مصر، في وقتٍ كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وحصل ما توقَّعه نور الدين ـ فعلًا ـ فقد (أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة إلى الديار المصرية، وساعدهم المصريون، فتصرَّفوا في بعض البلاد)[٤]، وذلك سنة ثنتين وستين وخمسمئة، فبعث نور الدين أحد أمرائه وهو أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين[٥] يوسف بن أيوب، فهزمَا الفرنج وعادَا بعد ذلك إلى الشام[٦]، ولكن الأمر استفحل في سنة أربع وستين وخمسمئة، فقد (.. طغت الفرنج بالديار المصرية... وتحكَّموا في أموالها ومساكنها، أفواجًا أفواجًا، ولم يَبْقَ شيء من أن يستحوذوا عليها، ويُخرِجوا منها أهلها من المسلمين، وقد سكنها أكثر

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٤٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥١).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٢)، و(المصريون) يطلق في تلك الحقبة علىٰ ملوك مصر من العبيديين.

(٥) يوسف بن أيوب بن شادي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، له المناقب الجمة، والسيرة العظيمة، فمن مناقبه قضاؤه علىٰ العبيديين بمصر، والإصلاح الداخلي في البلاد حيث جمع بين ملك مصر والشام والجزيرة والموصل، فعمل علىٰ جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ومن ثم جابه الصليبيين ونازلهم حتىٰ كانت موقعة «حطين» الشهيرة بقيادته، وكانت وفاته سنة ٥٨٩هـ. وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته منها كتاب «تاريخ الروضتين» لأبي شامة، وغيرها. الأعلام (٨/ ٢٢٠)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٦)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٩، ٥/ ٢٥٠ ـ ٣٣٠)، الكامل في التاريخ (١٢/ ٣٧)، طبقات السبكي (٤/ ٣٢٥)، مرآة الزمان (٨/ ٤٢٥).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٢).

شجعانهم، فلما سمع الفرنج بذلك جاءوا إليها من كل فجٍّ وناحية، صُحبةَ ملك عسقلان في جحافل هائلة... فعند ذلك أرسل صاحبها «العاضد» يستغيث نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه، يقول: أدْرِكْني، واستنقِذْ نسائي من أيدي الفرنج..)[١].

فحينئذٍ بعث نور الدين ـ مرة أخرى ـ أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فانسحب الصليبيون، وتم فتح مصر في تلك السنة، ولم يلبث أسد الدين أن توفي بعد شهرين، وولي صلاح الدين وزارة العاضد، وكان نائبًا لنور الدين في مصر، وبعد فك الحصار عن «دمياط» سنة خمس وستين[٢] اتجه صلاح الدين إلى إصلاح ما أفسده العبيديون الرافضة، ففي سنة ست وستين وخمسمئة: (عزل صلاح الدين قضاة مصر؛ لأنهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الشافعي[٣]، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية.. وعمَّر صلاح الدين أسوار البلد، وكذلك أسوار إسكندرية، وأحسن إلى الرعايا إحسانًا كثيرًا، وركب فأغار على بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة، وضرب قلعة كانت لهم على أيلة، وقتل خلقًا كثيرًا من مقاتلتهم... وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر)[٤].

وفي أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمئة هلك العاضد، آخر ملوك

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٠).

(٣) صدر الدين عبد الملك بن عيسىٰ بن درباس المارداني: قاضي الديار المصرية، الكردي الشافعي، وُلِد بأعمال الموصل عام ٥١٦ تقريبًا، ورحل في طلب الفقه، وكان مشهورًا بالصلاح والفقه، توفي سنة ٦٠٥هـ، وكان من أبناء التسعين، السير (٢١/ ٤٧٤)، التكملة لوفيات النقلة (٢/ الترجمة: ١٠٦٢)، تاريخ الإسلام ١٨/ ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧، العبر (٥/ ١٣)، البداية والنهاية (١٣/ ٥٢)، حسن المحاضرة (١/ ١٩٠).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٣).

الدولة العبيدية، وأُقيمت الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية بعد انقطاعٍ دام أكثر من مئتي سنة (٣٥٩ ـ ٥٦٧هـ)، واجتثَّت تلك الشجرة الخبيثة من أرض الإسلام، وعادت مصر إلى حظيرة السنة، وعاصمة الخلافة[١]، ولله الحمد والمنة.

وإنما مُني المسلمون بأوطانهم، وغزاهم عدوُّهم في عقر دارهم بسبب هؤلاء الباطنية الذين أرادوا إطفاء نور الإيمان، ونشر البدعة والشرك والعصيان، ومكَّنوا لأعداء المسلمين من الصليبيين والتتار وسائر مِلَل الكفار، وملَّكُوهم الحصون والثغور، كهؤلاء العبيديين اللئام، وقد بيَّن المؤرِّخ الفاضل عماد الدين بن كثير هذه اللازمة، فقال: (وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالًا، وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظْلَمهم، وأنجس الملوك سيرةً، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء والعُبَّاد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية، وتغلَّب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية، وجميع ما والَى ذلك إلى بلاد إياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خَلْقًا وأُمَمًا لا يحصيهم إلا الله، وسَبَوْا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يُحَدُّ ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها، وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يُحَدُّ ولا يوصف، وكادوا أن يتغلَّبوا على دمشق، ولكن الله سلَّم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عزَّ وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته)[٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٤).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٧).

وقد توفي الملك المجاهد نور الدين محمود زنكي رحمه الله سنة تسع وستين وخمسمئة بعد حياة حافلةٍ بالجهاد في سبيل الله، وتسلَّم الراية بعده الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وبعد أربعة عشر عامًا قضاها في لَمِّ الشمل وجمع الكلمة، والقضاء على الفتن الداخلية، والإثخان في الصليبيين، وإصلاح أمور الرعية[١]، تهيأ في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة للملحمة الكبرى مع الفرنج التي كانت مقدِّمة ضرورية لفتح القدس، فكانت معركة حطين الفاصلة في شهر ربيع الآخر، حشد فيها الجانبان قواتهما، وشهدها ملوكهما، ودارت رحى الحرب يومي الجمعة والسبت لخمسٍ بقين من ربيع الآخر، (ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحملوا، وكان النصر من الله عزَّ وجل، فمنحهم الله أكتافهم، فقُتل منهم ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم، وأُسِر ثلاثون ألفًا من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة مَن أُسِر جميع ملوكهم، سوى قومس طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطانُ صليبَهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صُلِب عليه المصلوب، وقد غلَّفُوه بالذهب واللالئ والجواهر النفيسة، ولم يُسمَع بمثل هذا اليوم في عزِّ الإسلام وأهله، ودَمْغ الباطل وأهله)[٢].

ثم قتل صلاح الدين رحمه الله «أرياط» صاحب الكرك بيده؛ لكونه تعرَّض لسَبِّ النبي ﷺ.

وفي الخامس عشر من شهر رجب من السنة نفسها ٥٨٣هـ سارت جحافل المسلمين إلى بيت المقدس ففتحوه يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، بعد أن بقي بيد عبَدة الصُّلبان اثنتين وتسعين سنة (٤٩٢ ـ ٥٨٣هـ)[٣] (١٠٩٩ ـ ١١٨٧م)، ثم اتجه صلاح الدين رحمه الله لفتح الحصون الممتنعة

---

(١) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية من (٢٨٥) إلىٰ (٣٢٠) ج(١٢).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٣٢١).

(٣) انظر: تفاصيل ذلك الفتح العظيم في البداية والنهاية (١٢/ ٣٢٣ـ٣٢٧).

واستنقاذ مدن الساحل الشمالية، حتى كاد يفتح أنطاكية، والحمد لله رب العالمين.

ثالثًا: الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٦هـ - ١١٩٠م):

كان وَقْع أنباء انتصارات صلاح الدين مؤلمًا في أوروبا، حتى إن البابا أوربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) مات من هول الصدمة حين بلغته الأنباء[١]، قال ابن الأثير: (ثم إن الرهبان والقسوس، وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخْذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعًا، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويَحُثُّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوَّروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا، وحشدوا حتى النساء)[٢].

وقد تكوَّنت الحملة الصليبية الثالثة من كبار ملوك أوروبا، وهم:

- الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م) الذي هلك غرقًا في أحد أنهار آسيا الصغرى، وتمزَّق جيشه، وملك إنجلترا ريتشارد الأول (١١٨٩ ـ ١١٩٩م)، وملك فرنسا فيليب أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣م).

وقد وصل الفرنسيون عكا في ربيع الأول سنة سبع وثمانين، ثم وافاهم الإنجليز في جمادى الأولى من السنة نفسها، وحاصروها حصارًا شديدًا،

---

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٤٨).

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) (١٠/ ٦٩)، وهذا شاهد علىٰ امتهان "الرسوم المسيئة" للنبي صلى الله عليه وسلم سنة خبيثة عتيقة لدى النصارى، تجددت في العصر الحديث.

واستبسل أهلها وحاميتها في الدفاع عنها، ومن ورائهم الملك صلاح الدين يمدهم بالمؤن والأقوات عن طريق البحر، حتى سقطت بأيدي الفرنج في السابع من جمادى الآخرة، وقتل الفرنج ثلاثة آلاف أسير من أهلها صبرًا، رحمهم الله.

ولم تتمكَّن هذه الحملة التي علَّقت عليها الآمال تحقيق أهدافها من استعادة بيت المقدس ومدن الساحل، رغم ما بذلوه من محاولات، وتكبَّدوه من خسائر وهزائم متكررة، وانحصرت مكاسبهم في الاستيلاء على عكا، التي دافع عنها صلاح الدين الأيوبي سبعة وثلاثين شهرًا، وحاولوا أخْذ عسقلان فصدهم المسلمون حتى يئسوا وطلبوا الصلح والأمان، وجرت الهدنة بين المسلمين والنصارى في السابع من شعبان من سنة ثمان وثمانين وخمسمئة على وضع الحرب ثلاثين سنة ونصف، وعاد ملوك أوروبا يَجُرُّون أذيال الخيبة، وعاد صلاح الدين إلى بيت المقدس يُصلِح شؤونها، ثم إلى دمشق، حيث توفي رحمه الله جاهدًا مجاهدًا في السابع والعشرين من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمئة[1].

رابعًا: الحملة الصليبية الرابعة: (٦٠٠هـ - ١٢٠٤م):

كان هدف هذه الحملة «مصر»، وذلك في عهد البابا «إنوسنت الثالث» (١١٩٨ ـ ١٢١٦م)، ولكن مسار الحملة انحرف عن القاهرة إلى القسطنطينية، تحقيقًا لأحلام بابوية روما القديمة في القضاء على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، فدمَّروا المدينة الحصينة ونهبوها، وقتلوا إخوة الدين، وكفى الله المؤمنين القتال سوى فِرَق قليلة من هذه الحملة اتَّحدَت مع المستوطنين في بلاد الشام من الصليبيين، قال ابن كثير: (ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام، وقد تقوَّوْا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا، وأغاروا على كثيرٍ من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي فقتلوا وسَبَوْا، فنهض إليهم العادل[2]، وكان

(١) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية (١٢/ ٣٣٤ ـ ٣٥١).

(٢) الملك العادل (٥٤٠ ـ ٦١٥ هـ): محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر، سيف الإسلام، الملقب بالملك

بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازَلَهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم شيئًا من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون[١].

خامسًا: الحملة الصليبية الخامسة: (٦١٥ ـ ٦١٨هـ) (١٢١٨ ـ ١٢٢١م):

استهدفت هذه الحملة مصر أيضًا، وانطلقت من عكا على الساحل الشامي قوات الصليبيين، ونزلت على «دمياط»، وذلك سنة خمس عشرة وستمئة، وفي تلك الأثناء توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو صلاح الدين، فسقطت دمياط وما وراءها، ثم سار الصليبيون متجهين نحو القاهرة، ونازلهم المسلمون في مواقع كثيرة، حتى إن الملك الكامل[٢] (عرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل، ويتركوا «دمياط»، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا، فقدَّر الله تعالى أنها ضاقت عليهم الأقوات، فقَدِم عليهم مراكب فيها ميرة لهم، فأخذها الأسطول البحري، وأُرسِلت المياه على أراضي «دمياط» من كل ناحية، فلم يُمكِنهم بعد ذلك أن يتصرَّفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فحينئذٍ أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة)[٣]، وكان ذلك سنة ثمان عشرة وستمئة، يقول د. قاسم عبده قاسم: (كانت الحملة ضد دمياط

العادل، أخو السلطان صلاح الدين ونائبه علىٰ مصر، من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، تنقل بين الولايات، ثم ضمها جميعًا، وقسمها بين أولاده، كان حازمًا مجربًا داهية حسن السيرة، توفي وهو يجهز العساكر لقتال الإفرنج بعالقين، وقضىٰ علىٰ بقايا الإسماعيلية بمصر سنة ٦٠٤هـ. قال المقريزي: «ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم». انظر: الأعلام (٦/ ٤٧).

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ٣٧).

(٢) الملك الكامل (٥٧٦ ـ ٦٣٥هـ): محمد بن محمد العادل بن أيوب، أبو المعالي، ناصر الدين، من سلاطين الدولة الأيوبية، ولي مصر سنة ٦١٥، ووسع نطاق ملكه، فشمل الشام والحجاز واليمن والجزيرة، جاهد الصليبيين بدمياط، كان حازمًا عفيفًا عن الدماء مهيبًا، يباشر أمور الملك بنفسه، توفي بدمشق، ودفن بقلعتها. انظر: الأعلام (٧/ ٢٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ٩٥).

آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط، ولحسابها منفردة)[١].

سادسًا: الحملة الصليبية السادسة: (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م):

قائد هذه الحملة هو الإمبراطور الألماني المحنك فردريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٥٠م)، الذي استغل تفرُّق حكام الدولة الأيوبية، وروح الضعف والمسالمة التي أبداها الملك الكامل أثناء حصار دمياط، فحقَّق عن طريق السياسة مكاسب لم تحقِّقها الحملات الصليبية العسكرية الضخمة، فقد قدِم فلسطين بستمئة فارس فقط، وأسطول هزيل[٢]، ومع ذلك رجع وقد تسلَّم بيت المقدس! ويَصِف ابن كثير هذه الملابسة العجيبة في أحداث سنة ست وعشرين وستمئة فيقول: (استهلَّت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزابًا وفِرَقًا، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمدَ صاحب مصر، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف، فقَوِيَت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم[٣]، واختلاف مَن بَعْدَه من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده! وتبقى بأيديهم بقية البلاد، فتسلَّموا القدس الشريف، وكان المعظَّم قد هدم أسواره، فعظم ذلك المسلمين جدًّا، وحصل وهن شديد، وإرجافٌ عظيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[٤].

وظل بيت المقدس بيد الصليبيين عشر سنين (٦٢٦، ٦٣٦هـ)، (١٢٢٩ ـ

---

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٥٨).

(٢) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٠).

(٣) الملك المعظم: توران شاه بن أيوب بن شادي، شمس الدولة، فخر الدين، أخو صلاح الدين الأيوبي، تولىٰ اليمن ثم دمشق، ثم انتقل إلىٰ مصر سنة ٥٧١هـ حتىٰ مات فيها سنة ٥٧٦هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٩٠).

(٤) البداية والنهاية: (١٣/ ١٢٤).

١٢٣٩م) تمثِّل الهدنة السابقة، وما أن انقضت سنوات الهدنة حتى هجم الصليبيون على جنوب فلسطين، فقاتَلَهم الأيوبيون في غزة سنة ست وثلاثين وستمئة، وهزموهم شر هزيمة، ثم استنقذوا بيت المقدس في السنة نفسها، ولله الحمد، وظلت بأيدي المسلمين حتى استولى عليها الإنجليز، ثم اليهود الصهاينة في العصور الأخيرة[١].

سابعًا: الحملة الصليبية السابعة: (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة موجَّهة أيضًا إلى مصر، لكن دون المرور بعكا، معقل الصليبيين في السواحل الشامية، بل انطلقت من ميناء مرسيليا الفرنسي بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزل قُبالة «دمياط»، وذلك في آخر حياة الملك الصالح[٢] أيوب، (فهرب مَن كان فيها من الجند والعامة، واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خَلْقًا كثيرًا من المسلمين)[٣]، ثم توفي الملك الصالح في تلك الأثناء، واستدعي ابنه الملك المعظَّم توران شاه، وفي مطلع السنة التالية سنة ثمانٍ وأربعين وستمئة (في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظَّم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفًا، وقيل: مئة ألف، وغنموا شيئًا كثيرًا، ولله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أُسِروا، وكان فيمن أُسِر ملك الفرنسيين وأخوه)[٤]، وقد أفرج عنه فيما بعد لقاءَ فِدية كبيرة والانسحاب عن دمياط، وقد كانت هذه الحملة آخر حملة صليبية على مصر[٥]، بل كانت

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٢).

(٢) الملك الصالح (٦٠٣ ـ ٦٤٧هـ): أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، أبو الفتوح، نجم الدين، من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، وُلِد ونشأ بالقاهرة، وولي بعد خلع أخيه العادل الثاني سنة ٦٣٧هـ، كان شجاعًا مهيبًا عفيفًا صموتًا، عمَّر بمصر ما لم يعمِّره أحد من ملوك بني أيوب، أغار الإفرنج في أواخر أيامه على دمياط سنة ٦٤٧هـ، فتوفي بالسل أثناء جهادهم بالمنصورة، ودفن بالقاهرة. انظر: الأعلام (٢/ ٣٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧٧).

(٤) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧٨).

(٥) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٥).

آخر حملة صليبية ذات بال على المشرق الإسلامي.

وبعد أن آل الأمر إلى دولة المماليك الفتية التي قضت على الهجوم التتري الكاسح في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، اتجه القائد المظفر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري[١] (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ) إلى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام بحزم وعزم وصرامة، فتهاوت معاقل النصارى واحدة تلو الأخرى في موسم حصاد رابح: قيسارية وأرسوف (٦٦٣هـ - ١٢٦٨م)، قلعة صفد، معقل الفرسان الداوية (٦٦٤هـ - ١٢٦٦م) يافا، وحصن شقيف أرنون (٦٦٦هـ - ١٢٦٨م).

وفي نفس العام حصل الفتح الكبير لأنطاكية بعد أن ظلَّت أسيرة بيد الصليبيين أكثر من مئة وخمسين عامًا.

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون[٢] تابَع فتوح سلفه بيبرس، فقد سقط حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م، ثم اللاذقية في سنة ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م، ثم طرابلس وبيروت وجبلة سنة (٦٨٨هـ - ١٢٩١م)، في عهد السلطان الأشرف خليل[٣] ابن السلطان المنصور قلاوون، مُؤذِنًا بنهاية الوجود الصليبي

---

(١) الظاهر بيبرس (٦٢٥ ـ ٦٧٦هـ): بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر، وُلِد بأرض القبجاق، وأسر فبيع حتىٰ آل إلىٰ الملك الصالح، نجم الدين أيوب فقربه ثم أعتقه، صار «أتابك» العساكر المصرية زمن الملك قطز وقاتل معه التتار في «عين جالوت»، تولىٰ سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨، وقاتل الصليبيين، وفتح بلاد النوبة، وكان شجاعًا جبارًا، توفي في دمشق. انظر: الأعلام (٢/ ٧٩).

(٢) المنصور قلاوون (٦٢٠ ـ ٦٨٩هـ): قلاوون الألفي العلائي الصالحي، النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور، أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، قبجاقي الأصل، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، خدم الظاهر بيبرس، وابنه العادل ثم خلعه، وتولىٰ السلطنة، وكانت له حروب مع التتار والنوبة، ظفر فيها وغنم، مات بالقاهرة. انظر: الأعلام (٥/ ٢٠٣).

(٣) الأشرف ابن قلاوون (٦٦٦ ـ ٦٩٣هـ): خليل بن قلاوون الصالحي، الملك الأشرف، صلاح الدين، ابن السلطان الملك المنصور، من ملوك مصر، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩، واستفتح الملك بالجهاد،

على أرض الإسلام بعد مئتي عامٍ تمامًا من حملتهم الأولى[١].

لقد مرت بالمسلمين فترة عصيبة طوال هذين القرنين (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ) من جرَّاء هذا الغزو الصليبي، وكانت حربًا عَقَدية صِرْفة في مظاهرها وأعلامها وأهدافها المُعلَنة[٢] وخطابها للجمهور، ودافع المسلمون دفاعًا مجيدًا عن ديارهم ومقدساتهم، وبذلوا المُهَج والأرواح والأموال، ولم يَدَعُوا عدوَّهم يهنأ بعيش، أو يقر له قرار، ولا ريب أن الصليبيين خسروا خسائر فادحة، وباءت محاولاتهم المتكررة بالفشل والخيبة، وتكسَّر نصالهم على صدور أهل الإسلام المنيعة، وتعلَّموا درسًا راسخًا من دروس التاريخ، والحقيقة أنه ما كان يمكن أن يكون لهم موطئ قدم لولا عوامل داخلية مهَّدت لهم الطريق، أهمها:

أولًا: تسلُّط دول الرافضة على رقاب المسلمين، وإشاعتهم الكفر والفسوق والعصيان والبدع، وتواطؤهم مع أعداء الإسلام، والنشاط الباطني المدمِّر، الذي اعتمد أسلوب الاغتيالات الانتحارية على أيدي «فداوية» الإسماعيلية الرافضة في هذين القرنين، ومحاولة إجهاض أي بادرة قوة وزعامة صالحة من ملوك أهل السنة[٣].

ثانيًا: التشرذُم السياسي، والفتن الداخلية داخل معسكر أهل السنة، وضعف الخلافة العباسية في معظم الأحوال.

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه رحى حرب صليبية في المشرق الإسلامي،

فقصد البلاد الشامية، وقاتل الإفرنج، واسترد منهم عكا وصورًا وصيدا وبيروت وجميع الساحل، وكان شجاعًا مهيبًا عالي الهمة جوادًا، قُتل غيلة بمصر. انظر: الأعلام (٢/ ٣٢١).

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية: (١٦٦ ـ ١٧٠) والبداية والنهاية (١٣/ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٠).

(٢) انظر في مناقشة دوافع الحملات الصليبية وأهدافها: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، د. عبد الله الربيعي (٢٢ـ٣٨).

(٣) انظر شواهد لهذه المحاولات والاغتيالات المتكررة في المواضع التالية من البداية والنهاية (١٢/ ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٩٨).

كانت تجري أحداث مشابهة في الساحة الأندلسية؛ إذ لم تشترك «إسبانيا النصرانية» في الحملات الصليبية المتجهة إلى بيت المقدس؛ لأنها كانت تخوض حربًا صليبية حامية الوطيس في عُقر دارها، هدفها طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية، وإعادتها إلى المنظومة الأوروبية، والكنيسة الكاثوليكية.

فبعد سقوط «طليطلة» الخطير مستهلَّ ثمانٍ وسبعين وأربعمئة (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م)، لم يُوقِف تقدُّم الأسبان الجارف لالتهام دويلات ملوك الطوائف إلا جوازُ أمير المرابطين يوسف بن تاشفين[(١)] (٤٦٣ ـ ٥٠٠هـ) إلى البر الأندلسي، والتحام المسلمين والنصارى في سهل «الزلاقة» في معركة فاصلة من معارك التاريخ الكبرى، كان النصر فيها حليف المسلمين، في الثاني عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمئة (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م)[(٢)]، وكان من ثمرات هذه المعركة إلى جانب وقف الزحف النصراني إنهاء عهد ملوك الطوائف، وتوحيد الأندلس المسلمة تحت راية المرابطين، ثم من بعدهم الموحِّدين، وتوَّج المرابطون انتصاراتهم ضد النصارى بفتح حصن «أقليش» على رأس القرن السادس الهجري سنة خمسمئة وواحد (٥٠١هـ - ١١٠٨م)، واستمرَّت المعارك العنيفة بين المسلمين والنصارى، فسقطت «سرقسطة» سنة اثنتي عشرة وخمسمئة، ثم «قلعة أيوب» بعدها بسنة، وسقطت دولة المرابطين سنة إحدى وأربعين وخمسمئة تحت مطارق الموحدين في البر المغربي، والنصارى في الأندلس.

وانبعثت روح الجهاد الإسلامي في بلاد المغرب مع دولة «الموحدين»

---

(١) يوسف بن تاشفين (٤١٠ ـ ٥٠٠هـ): يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب أمير المسلمين، وملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصىٰ، وباني مدينة مراكش، كتب إليه المعتمد بن عباد، صاحب أشبيلية يستنجده علىٰ قتال الفرنج، فجاز إلىٰ الأندلس بمجموعة، وكسر النصارىٰ في وقعة الزلاقة الفاصلة سنة ٤٧٩، وبايعه ملوك الطوائف، وملك الجزيرة كلها وبلاد المغرب، وكان حازمًا ضابطًا. انظر: الأعلام (٨/ ٢٢٢).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٠٧).

الفتية، في الوقت الذي انبعثت فيه هذه الروح على يد «آل زنكي» ثم «آل أيوب» في بلاد المشرق الإسلامي، فقد قام عبد المؤمن بن علي الموحدي بشن غاراتٍ برية وبحرية على ثغر «المهدية» على الساحل التونسي، واستعادها من الفرنج النورمانديين حكام صقلية بعد أن بقيت رهينة بأيديهم اثنتي عشرة سنة، وذلك سنة خمس وخمسين وخمسمئة (٥٥٥هـ - ١١٦٠م).

وجاءت الوفود الأندلسية تستنصر إمام الموحدين عبد المؤمن بن علي القيسي[١] في الدين، فجاز البحر في سنة ست وخمسين وخمسمئة (٥٥٦هـ - ١١٦١م)، وضم ممالك الأندلس ومدنها تحت راية الموحدين، وأثخن في النصارى، حتى توفي سنة ثمان وخمسين، وقد حشد حملة عسكرية ضخمة كانت مؤهلة للقضاء على ممالك النصارى الخمس شمال الجزيرة، وخلفه في جهاد النصارى ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٢]، الذي قضى أربعة عشر عامًا في الفتوح ومناوشة الأعداء، حتى قضى نحبه في معركة «شنترين» سنة ثمانين وخمسمئة (٥٨٠هـ - ١١٨٤م)[٣].

وبعد خطاب تحدٍّ واستفزاز بعث به ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى سلطان الموحدين أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور[٤]، كتب على ظهره مجيبًا:

---

(١) عبد المؤمن بن علي (٤٨٧ ـ ٥٥٨هـ): عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلىٰ بن مروان، أبو محمد الكومي، أمير المؤمنين مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقية وتونس، التقىٰ بابن تومرت فتصادقَا، وانتهىٰ الأمر بأن ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصىٰ، ولُقِّب بالمهدي، وجعل لعبد المؤمن قيادة جيوشه، ثم خلفه سنة ٥٢٤هـ، وقاتل المرابطين، فاستأصلهم، ودخل الأندلس واستولىٰ علىٰ مدائنها، ودفن إلىٰ جوار ابن تومرت. انظر: الأعلام (٤/ ١٧٠).

(٢) يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ ـ ٥٨٠هـ): يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، أبو يعقوب، أمير المؤمنين، ثالث ملوك دولة الموحدين بالمغرب والأندلس، كان حازمًا شجاعًا حسن السيرة، له ميل إلىٰ الفلسفة، جاهد الفرنجة، فأصيب في «شنترين» فمات متأثرًا بجراحه. انظر: الأعلام (٨/ ٢٤١).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٩/ ٤٨٠).

(٤) المنصور الموحدي (٥٥٤ ـ ٥٩٥ هـ): يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي،

«ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون» الجواب ما ترى، لا ما تسمع، التقى جحفلان عظيمان كأمثال الجبال، حشد فيها كلُّ طرف وُسْعَه، يوم التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمئة (٥٩١هـ - ١١٩٥م) في معركة فاصلة، عُرفت باسم «الأرك» انتصر فيها الموحدون، تُذكِّر بمعركة «الزلاقة» التي انتصر فيها المرابطون قبل أكثر من مئة عام (٤٧٩هـ)، وسار الموحدون الظافرون يخترقون الأراضي القشتالية حتى بدت لهم مشارف «طليطلة» معقل النصارى، فحاصَروها، ولكنها امتنعت، فأعقب ذلك هدنة، وهكذا أوقفت موقعة الأرك زحف النصارى البطيء عشرين سنة لاحقة.

وابتدأ الوهن في جانب الموحدين إثر موقعة «العقاب» التي مُني فيها أبو عبد الله محمد الناصر[1] -سلطان الموحدين ـ بهزيمة فادحة، وذلك سنة تسع وستمئة (٦٠٩هـ - ١٢١٢م)، أعقبها انتكاسات خطيرة في النصف الأول من القرن السابع الهجري، فقد سقطت «ماردة» و«بطليوس» سنة ثمان وعشرين، «وأبدة» سنة إحدى وثلاثين، و«قرطبة» سنة ثلاثٍ وثلاثين، ثم «بلنسية» و«شاطبة» و«دانية» سنة ستٍ وثلاثين، ثم «مرسية» سنة إحدى وأربعين، وأخيرًا «إشبيلية» سنة ستٍ وأربعين وستمئة.

وهكذا تهاوت حواضر الأندلس الشهيرة، الواحدة تلو الأخرى، في ملحمة

أبو يوسف المنصور بفضل الله من ملوك الموحدين في المغرب، وأعظمهم آثارًا، وجَّه عنايته إلىٰ الإصلاح والفتوح، استرد أربع مدن من الإفرنج بالأندلس كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل أربعين عامًا، فخافه الفونس، صاحب طليطلة، فطلب منه الصلح خمس سنين، ليجمع لحربه ولكنه كسرهم سنة ٥٩١هـ، كان دينًا، نهىٰ الفقهاء عن الإفتاء إلا بالكتاب والسنة، بنىٰ كثيرًا من المساجد والمدارس، والمستشفيات أجرىٰ عليها الأرزاق. انظر: الأعلام (٨/ ٢٠٣).

(١) محمد الناصر: محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتي، الكومي، الموحدي، الناصر لدين الله، من خلفاء دولة الموحدين في المغرب والأندلس، في أيامه كانت وقعة «العقاب» مع نصارىٰ الأندلس سنة ٦٠٩، كسر فيها الموحدون، عاد بعدها إلىٰ مراكش، وتوفي بها سنة ٦١٠هـ. انظر: الأعلام (٧/ ١٤٥).

مأساوية، وبدت الأندلس المسلمة في النصف الثاني من القرن السابع تسير نحو مصيرها المحتوم، وخاتمتها البائسة، لولا نفحة ربانية أجراها الله تعالى على أيدي «المرينيين» أنعشت الوجود الإسلامي في جنوب الجزيرة المتمثل في مملكة بني الأحمر في «غرناطة»، الذين لم تُفِدْهم مُصانَعَتُهم للنصارى في تجنُّب استنزافهم إياهم، واستنقاصهم أراضيهم من أطرافها، فاستنجد بنو الأحمر بإخوة الدين، فهبَّ أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني[1] لنجدتهم، وتمكَّن من دَحْر النصارى سنة أربعٍ وسبعين وستمئة (٦٧٤هـ - ١٢٧٥م)، وقتل قائدهم «دونونة» الذي عاث في أرض المسلمين قتلًا ونهبًا وفسادًا، ثم سار فحاصَرَ «أشبيلية» و«شريش» سنة خمسٍ وسبعين، وتوغَّل في أراضي النصارى سنة سبعٍ وسبعين، كما قام الأسطول المريني بالانتصار على الأسطول القشتالي في معركةٍ بحرية سنة ثمان وسبعين وستمئة، أسفرت عن تحرير «الجزيرة الخضراء» التي أراد النصارى بالاستيلاء عليها قطع الطريق على المدد الآتي من المغرب الإسلامي، واضطر «شانجة» ملك قشتالة إلى طلب الصلح من المسلمين، وهكذا اكتشف النصارى أن من الخير لهم الرضى بوجودٍ إسلامي محدود في جنوب الأندلس، دون المخاطرة بعمل عسكري أحمق يثير حمية المسلمين في العدوة المقابلة، فيتعرَّضون لحملة إسلامية لا يستطيعون التنبؤ بآثارها، وقد أجَّلت هذه التحسُّبات والمخاوف دولة بني الأحمر قرنين من الزمان، إلى أن سقطت آخر الحواضر الإسلامية من بلاد الأندلس -مدينة غرناطة- في الثامن من ربيع الأول سنة سبعٍ وتسعين وثمانمئة (٨٩٧هـ -

(١) المنصور المَريني (٦٠٧ ـ ٦٨٥هـ): يعقوب بن عبد الحق المريني الزناتي، أبو يوسف، السلطان المنصور بالله، آلت إليه إمارة بني مرين سنة ٦٥٦هـ، قضىٰ علىٰ دولة الموحدين سنة ٦٧٤، وصفَا له المغرب كله، ثم جاز إلىٰ الأندلس، فأثخن في النصارىٰ واسترد منهم ما أخذوه من مدائن الأندلس، وكان عهده عامرًا بالفتوح والعمران والإصلاح الاجتماعي والإحسان إلىٰ المرضىٰ والعمي والفقراء، وبناء المدارس لطلبة العلم، واستمر غازيًا مجاهدًا، بانيًا مصلحًا إلىٰ أن توفي في الجزيرة الخضراء بالأندلس. انظر: الأعلام ٨/ ١٩٩.

١٤٩٢م)، ولله الأمر من قبل ومن بعد[١].

لقد كانت حرب الاستعادة الإسبانية ـ Spanish Reconquest ـ كما يسميها المؤرخون النصارى ـ حربًا صليبية صِرْفة، تقف خلفها حركة الإصلاح الكلوني، التي ولدت في «دير كلوني» في مطلع القرن العاشر الميلادي (٩١٠م)، وأشعلت فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين الغزاة، الذين استولَوْا على الممالك النصرانية، فقد أكَّد البابا غريغوري السابع بأن إسبانيا جزءٌ من أرض القديس بطرس، وأن الجزيرة الأيبيرية جزء لا يتجزَّأ من الجسد المسيحي، كما حرَّم البابا «باسكال الثاني» (١٠٩٩م ـ ١١١٨م) وكان راهبًا كلونيًّا على الفرسان الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في الشرق[٢]، وذلك لأولوية المشاركة في الحرب الصليبية في الغرب على أرض الأندلس.

أما على الصعيد الداخلي في «دار الإسلام»، فقد بقي أهل الذمة يواصلون عيشهم في أحضان المجتمع الإسلامي وفق القواعد المقرَّرة في الكتاب والسنة والإجماع، والمستقرة منذ القرون الأولى، ولا يعكر هذا الصفو سوى حوادث متفرقة مَردُّها إلى عمليات استفزاز محلية تثور في أوساط العوام، دون أن تتبنَّاها أو حتى تُقِرَّها السلطة المركزية[٣]، ولا تكاد تمثِّل هذه الحوادث نسبةً تُذكَر إذا قورنت بحوادث الشغب التي تجري بين السنة والروافض في بغداد وغيرها، أو حتى حوادث التعصب المذهبي الفقهي بين الجهلة من أتباع المذاهب الفقهية.

لقد كان المسلمون خلال هذَين القرنَين يفرِّقون بين «أهل الذمة» و«الفرنج» الحربيِّين، بل إن النصارى الشرقيين أنفسهم عانوا الأمرَّيْن من هؤلاء الغزاة التابعين للكنيسة الكاثوليكية بوصفهم إياهم هراطقة، عليهم أن يعودوا إلى

---

(١) انظر: مقالة «حرب الاستعادة الإسبانية.. هل هي حرب كلونية مقدسة ضد الإسلام؟ لـ: فيسنت كانتارينو، مجلة الاجتهاد (٢٩/ ٥٩ ـ ٨١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: علىٰ سبيل المثال حادثة لليهود في بغداد، في البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٨).

حمى النصرانية الصحيحة، بالرغم من أن البابا أوربان الثاني سوَّق دعايته للحملات الصليبية بحجة حماية النصارى المضطهدين على أيدي المسلمين بزعمه.

يقول الباحثان فيليب فارج ويوسف كرباج: (كان الفرنجة قد جاءوا لتقديم العون إلى المسيحيين الشرقيين، وبدلًا من تحقيق هذا المشروع الأولي سوف تنتهي حملتهم بتدهور ملحوظ لوضع الجماعة المسيحية الشرقية.

وعندما يبدأ المسلمون في استعادة الأرض المقدسة، فإنهم لن يتهموا الجماعة المسيحية المحلية بالتواطؤ «مع العدو»، والواقع أن إعادات الفتح الإسلامي المتعاقبة قد لقيت حيادها، وأحيانًا تعاونها، وكان الاحتلال الإفرنجي قد أدخل نوعًا من التواطؤ فيما بين السكان المحليين المنتمين إلى مختلف المِلَل، ويصل الأمر بالمسيحيين العرب إلى حد اعتبار انتصارات نور الدين في الشمال، وانتصارات صلاح الدين في الجنوب خطوةً أولى نحو تحرُّرهم من النير الديني الإفرنجي، بل ويبدو أنهم سوف يذهبون في القدس إلى حد التفاهم مع صلاح الدين بهدف تسهيل الاستيلاء على المدينة، والواقع أن مسيحيِّي القدس والمدن الساحلية سوف يكون بوسعهم البقاء حيث هم وصون ممتلكاتهم، بشرط دفع ضريبة رأس، هذه الأخيرة تنزلق من جديد من خزانة إلى أخرى، ولكن في اتجاه مضاد: فهي تنتقل الآن من خزينة المملكة اللاتينية إلى خزينة المملكة الإسلامية)[1].

وبدلًا من أن يتحالف أهل الذمة من النصارى مع إخوة الدين من الفرنجة، نجد وقائع محدودة يتحالف فيها هؤلاء مع المغول الوثنيين ضد المسلمين مما كلفهم بعد ذلك عملية تصفية حساب مريرة يستحقونها.

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثمان وخمسين وستمئة حين دخول

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٨٥).

التتار دمشق بقيادة أمير منهم من قِبَل هولاكو[١] يقال له: «إبل سيان»: (وكان لعنه الله معظِّمًا لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم فعظَّمهم جدًّا، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتُحَفًا، وقَدِموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته[٢]، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذُمُّون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر، لا يَمُرُّون على باب مسجدٍ إلا رَشُّوا عنده خمرًا، وقماقم ملآنة خمرًا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كلَّ من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم... فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق، فمدح دين النصارى، وذم دين الإسلام وأهله، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون)[٣].

لم يكن ثَمَّ مُبرِّرٌ لتلك المظاهرة الغادرة، سيما وأجواء الشام لا تزال معطَّرة بسيرة صلاح الدين الأيوبي وتسامحه مع خصومه، فلِمَ هذا الحلف المغولي ـ النصراني الأحمق؟ ولم يَمْضِ سوى سبعة أشهر حتى انهزم المغول في عين جالوت، في العشر الأخير من رمضان من تلك السنة هزيمة منكرة، (فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب، فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها، وألقوا النار فيما حولها، فاحترقت دور كثيرة للنصارى «كذا» ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمَّت طائفة بنهب اليهود،

---

(١) هولاكو (١٢١٧ ـ ١٢٦٥م): حفيد جنكيزخان المغولي، باطش جبار، أغار علىٰ الممالك الإسلامية الشرقية، وأعمل في أهلها السيف، حتىٰ بلغ بغداد فحاصرها سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، وتواطأ معه ابن العلقمي الرافضي وزير المستعصم، فدخلها واستباحها، وقتل الخليفة والقضاة والعلماء، ثم احتل الشام، وعاد إلىٰ إيران. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٤٨).

(٢) وهكذا صنع لعنه الله حين دخول بغداد، حيث استباح دماء المسلمين غدرًا، وأمن اليهود والنصارىٰ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٢) واتخذ لنفسه زوجة نصرانية، ويقال: إنه اعتنق النصرانية سرًّا.

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ٢١٩).

فقيل: إنه لم يكن منهم الطغيان كما كان من عبدة الصلبان)[١].

لم يقم المسلمون المنتصرون على الفرنج خلال هذين القرنين بعمليات تطهير ديني، وتهجير واسعة النطاق كما فعل الإسبان بالمسلمين، بل غاية ما في الأمر وقوع عمليات تأديب وثأر وانتصار.

ويشاء الله تعالى أن «ينقلب السحر على الساحر»، وينعكس الأمر على أولئك النصارى الذين طمعوا في التعاون مع الغزاة الجدد لإطفاء نور الإسلام، فيقع ما لم يكن لهم بحسبان؛ ففي سنة أربع وتسعين وستمئة (مَلَكَ التتار «قازان» بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان، فأسلم وأظهر الإسلام على يدي الأمير «توزون» رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وخرَّب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية)[٢].

وهكذا يعز الله دينه، ويُعلِي كلمته بأقوام قدموا من أقصى المشرق ليجتثُّوه من أرضه، ويطمسوا معالمه، فأبى الله إلا أن يُتِمَّ نورَه، فيخضع أولئك البرابرة الجفاة لقوة الإسلام الذاتية، وتأثيره العجيب بعد أن عجزت السيوف والرماح عن إخضاعهم، ويعوِّض الله المسلمين عما فقدوه في الحروب الصليبية، وفي الأندلس بأعدادٍ هائلة من المسلمين الجدد الذين أعادوا ترتيب «النِّسَب» السكانية، فتحوَّل «أهل الذمة» إلى أقلية مطلقة[٣].

المرحلة الرابعة: (٦٩٠هـ - ١٢١٣هـ):

لم تكد تُطوى صفحة الصليبيين في بلاد الشام وهم يستقلُّون مراكبهم هاربين من عكا سنة تسعين وستمئة (٦٩٠هـ - ١٢٩١م)، حتى فُتِحت صفحة جديدة

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ٢٢١).

(٢) البداية والنهاية: (١/ ٣٤٠).

(٣) انظر: فصل «سبعة قرون من الأسلمة» في: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي التركي (٢٣ ـ ٣٧).

من صفحات المواجهة الإسلامية النصرانية، لكن ميدان المعركة انتقل هذه المرة إلى الطرف الآخر، وعلى وجه التحديد على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لممالك السلاجقة المسلمين.

لقد شهد النصف الأخير من القرن السابع الهجري نشأة إمارة صغيرة لقوم من الترك النازحين إلى هضبة الأناضول فرارًا من بطش المغول، وإثرً مشاركتهم في بعض المعارك المحلية منحهم سلطان «قونية» ثغرًا على حدود سلطنته مع الإمبراطورية البيزنطية، انطلق منه هؤلاء المجاهدون يُثخِنون في الأرض، ويوسعون نفوذهم، حتى تأسَّست لهم دولة مستقلة على يد أميرهم عثمان بن أرطغرل، صارت فيما بعد أطول دولة في التاريخ عمرًا، عُرِفت باسم الدولة العثمانية[1].

اتجه آل عثمان إلى قتال الروم، ووطئت أقدامهم أراضيَ لم يطأها فاتح مسلمٌ من قبل، فقد تمكَّن السلطان عثمان (٦٩٩ ـ ٧٢٦هـ) من توسعة الإمارة التي ورثها عن أبيه أرطغرل أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وتمكَّن من النفاذ إلى بحر «مرمرة» سنة سبع وسبعمئة، وفي آخر أيامه تم فتح مدينة بيزنطية عظيمة؛ بروسة، فنقل إليها خليفته وابنه السلطان «أورخان» كرسي مملكته ليكون قريبًا من ساحات الفتوحات الجديدة في أوروبا الشرقية، فافتتح مدينة «نيقوميدية» و«أزينق» من بلاد اليونان، وفتح مدينة «غليبولي» التي تُعَدُّ مفتاح «القسطنطينية» سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمئة، وفي عهد ابنه السلطان الشهيد «مراد الأول» (٧٦١ ـ ٧٩٢هـ) تم فتح «أدرنة» في العام التالي لحكمه، ونقل

(١) انظر: في نشأة الدولة العثمانية وتاريخها: الفتوحات الإسلامية: دحلان، أحمد زيني، مطبعة السعادة ـ مصر، أحمد زيني دحلان، (٢/ ٨٩ ـ ٩٠)، صحوة الرجل المريض؛ د. موفق بني المرجة، دار البيارق ـ بيروت، الطبعة الثامنة (١٤١٧هـ ١٩٩٦م)، العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٩هـ ١٩٨٩م)، د. محمد حرب (١٣، ١٥)، تاريخ المشرق العربي، د.عمر بن عبد العزيز عمر (٣٥ ـ ٣٨)، الشعوب الإسلامية: د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة عام ١٩٧٣م، (٢٣ ـ ٢١٠).

إليها عاصمة مملكته، وأخضع معظم الأراضي البيزنطية بحيث صارت «القسطنطينية» محاصَرة تمامًا بالأراضي العثمانية، التي بلغت حدود مملكة الصرب وبلغاريا وألبانيا، وقد تحالف ملوك البوسنة وصربيا والمجر ضد العثمانيين ـ إثر سقوط أدرنة ـ بمباركة وتأييد من البابا «أربانوس»، وهاجموا المدينة المفتوحة، فهزمهم السلطان عندها هزيمة منكرة سنة خمسٍ وستين وسبعمئة (٧٦٥هـ - ١٣٦٣م).

وتتواصل الفتوح العثمانية حتى تسقط بلغاريا في أيدي المسلمين، ويأسِرون أميرها، وأمام هذا السيل الجارف من الانتصارات يتحالف أمراء أوروبا الشرقية ضد السلطان مراد الأول، فتدور معركة حامية الوطيس، من معارك الإسلام الفاصلة سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة (٧٩٢هـ - ١٣٨٩م) عُرِفت باسم «قوصووة» ينتصر فيها العثمانيون، ويُؤسَر ملك الصرب، ويُقتَل، ولكن السلطان مراد يقضي نحبه بطعنة غادرة من جندي صربي وهو يتفقد ساحة المعركة، ولكنه خلف أراضيَ شاسعة تبلغ خمسة أضعاف ما ورثه عن أبيه أورخان في مدى ثلاثين سنة تقريبًا قضاها رحمه الله في الفتوح والجهاد.

وفي عهد ابنه السلطان «بايزيد الأول» الملقَّب بـ «الصاعقة» استمرت الجيوش العثمانية النظامية المعروفة بـ «الإنكشارية» تنتقص أوروبا من أطرافها، بطموحات عالية، وهمة مضاءة، ففتح رومانيا وألبانيا وجزيرة رودس، وحاصر «القسطنطينية» سبعة أشهر كاملة، فقام ملك المجر «سيجسموند» بالاستنجاد بالبابا لتكوين حملة صليبية أوروبية حملت شعار: سحق الأتراك أولًا، ثم احتلال «القدس».

وتجمَّعت جيوش مجرية وألمانية وفرنسية وإنجليزية وإيطالية وإسبانية بلغ تعدادها مئة ألف مقاتل، وعبرت نهر الدانوب لتصطدم بجيوش بايزيد الصاعقة على مقرُبة من مدينة نيكوبولي «نيقوبوليس»، فتُصعَق بهزيمة نكراء سنة تسع وتسعين وسبعمئة (٧٩٩هـ - ١٣٩٦م) كانت هزيمة لأوروبا كلها، وللنصارى عامة على يد آل عثمان.

لقد كان بايزيد الصاعقة يطمح إلى اجتياح أوروبا كلها، وكان الأوروبيون يدركون ذلك، فحينئذٍ يتجدَّد الحلف النصراني ـ المغولي الذي سبق أن أبرمه النصارى مع «هولاكو»، لكن في هذا الزمان مع طاغية مغولي آخر هو «تيمورلنك»[١]، فـ (في سنة اثنتين وثمانمئة اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم[٢] بايزيد، وساروا إلى تيمور مستغيثين به، يشكون إليه من السلطان بايزيد، ويرغِّبونه في المسير إلى الروم، يستنجدون به عليه في رد ممالكهم، فأجاب تيمور سؤالهم، وسار بجيوش كثيرة...)[٣]، وكان نهاية هذا السلطان المجاهد أن وقع أسيرًا في يد تيمور، وتوفي في عاصمته تبريز.

قام السلطان «محمد الأول» (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ) بلَمِّ شعث الدولة بعد تمزيقها، وإخماد الفتن والانشقاقات حتى استقرت الأمور، وخلفه ابنه السلطان «مراد الثاني» (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ)، وجرت بينه وبين ملوك أوروبا وبابواتها حروبٌ وملاحم عظيمة تراوحت بين نصرٍ وهزيمة، ولكنها أسفرت في نهاية المطاف عن إخضاع الصرب والبوسنة وبلاد المورة، وضرب الجزية على الأقاليم المجاورة.

ولما آل الأمر إلى «محمد الثاني» (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) الملقَّب بالفاتح استهلَّ ولايته بالتهيؤ لفتح القسطنطينية، فتم ذلك فعلًا سنة سبع وخمسين وثمانمئة (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، وكان حدَثًا هامًّا اهتزَّ له العالم الإسلامي فرحًا وسرورًا، وهزَّ أوروبا وسائر النصارى في العالم حزنًا وثبورًا، وسقطت الدولة البيزنطية العريقة، واعتبر ذلك التاريخ مبدءًا للتاريخ الحديث، لجلالة المناسبة وعميق

---

(١) تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م): ملك المغول، وحفيد جنكيزخان، وُلِد في كش بالقرب من سمرقند، اعتلىٰ العرش بدهائه وبطشه، فتح خوارزم وكشغر وفارس وسورية ومصر، خرب بغداد سنة ١٣٨٦م، واحتلَّ موسكو، وانتصر علىٰ العثمانيين في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م. انظر: المنجد في الأعلام (٢٠٠).

(٢) يلدرم تعني «الصاعقة» بالتركية.

(٣) الفتوحات الإسلامية (٢/ ١٠١).

آثارها، وتحوَّلت مدينة قسطنطين «القسطنطينية» إلى مدينة الإسلام «إسلامبول»، وصارت كنيستها العظمى «أياصوفيا» جامعًا للمسلمين[١].

وقد تابَع السلطان محمد فتوحاته حتى أخضع بلاد المورة والصرب والبوسنة والأرناؤوط وألبانيا إلى سنة إحدى وسبعين وثمانمئة (٨٧١هـ - ١٤٦٧م)، ثم ولَّى وجهه نحو بلاد القرم فأخضعها سنة تسع وسبعين وثمانمئة (٨٧٩هـ - ١٤٧٥م)، أما أهم دولتَيْن في أوروبا ذلك العهد، وهما جمهوريتا البندقية وجنوة فقد اضطرتَا للصلح مع السلطان محمد الفاتح، والتنازل عن كثيرٍ من المواقع.

لقد كان النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يمثِّل قمة تألُّق الدولة العثمانية وقوتها ونفوذها، بحيث لا تُسامِيها دولة من دول العالم آنذاك، وكان فاتح القسطنطينية يطمح إلى فتح «روما» معقل البابوية، لولا أنْ عاجَلَه الأجل سنة ست وثمانين وثمانمئة (٨٨٦هـ - ١٤٨١م)، بعد حُكم دام أكثر من ثلاثين سنة، أبلاها في الحروب والفتوح، وتسطير الأمجاد الخالدة، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي نهاية القرن التاسع سجَّل التاريخ ثلاثة أحداث كبارًا:

١ ـ سنة ستٍ وثمانين وثمانمئة (٨٨٦هـ - ١٤٨١م) وصل الرحالة البرتغالي «فاسكو دي جاما» إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

٢ ـ سنة سبعٍ وتسعين وثمانمئة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) وصل الرحالة الإسباني كريستوفر كلومبس إلى إحدى جزر الهند الغربية ـ كما كان يظن ـ وتم اكتشاف قارة أمريكا.

٣ ـ في نفس العام كان سقوط «غرناطة» آخر ممالك المسلمين في الأندلس

(١) انظر: في تفاصيل هذا الفتح العظيم وسيرة محمد الفاتح: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، محمد الفاتح: عبد السلام فهمي.

على يد النصارى الإسبان، وجرى طرد المسلمين من إسبانيا إلى الشمال الأفريقي.

لقد كان للحدثَيْن الأوَّلَيْن آثار إستراتيجية واقتصادية بالغة الأثر في تغيير ميزان القوى لصالح الغرب النصراني، كما كان للحدث الثالث أثر نفسي في رد الاعتبار، والثأر الديني لنصارى أوروبا لقاء الهزائم المتكررة التي مُنُوا بها في الجانب الشرقي من قارتهم، لا سيما سقوط القسطنطينية.

وتجدَّدت الأمجاد الإسلامية في عهد أشهر سلاطين «آل عثمان»، وهو السلطان «سليمان القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ)، الذي هزَّ أركان أوروبا بفتوحاته العظام، وجهاده الدؤوب في كل صوب، ومن أشهر مآثره:

- فتح «بلغراد» سنة سبع وعشرين وتسعمئة (٩٢٧هـ - ١٥٢١م).

- هزيمة الجيش المجري وحلفائه الألمان والنمساويين في معركة «موكر»، وقَتْل ملك المجر، القائد الأعلى للقوات النصرانية «لويس الثاني»، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمئة (٩٣٢هـ - ١٥٢٦م)، والاستيلاء على العاصمة المجرية «بشت»، التي تُعرف الآن باسم «بودابست»، وخضوع مملكة المجر للحماية العثمانية.

- حصار «فيينا» عاصمة النمسا سنة خمسٍ وثلاثين وتسعمئة (٩٣٥هـ - ١٥٢٩م)، وفرار الأرشيدوق النمسوي «فرديناند» منها، والإغارة على الأراضي الألمانية.

- تجريد حملة عثمانية بقيادة السلطان عُرِفت باسم الحملة العثمانية على ألمانيا لتأديب أسرة «هابسبرج» العريقة، اخترقت البلقان والمجر والنمسا إلى ألمانيا، فاضطر «فرديناند» ملك النمسا إلى التوقيع على معاهدة صلح مُذِلَّة، ودفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوق ذهبًا للخزينة العثمانية.

- استعادة مدينة «بودين» المجرية سنة ثمان وأربعين وتسعمئة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م)، وتحويل أضخم كنائسها إلى جامعٍ للمسلمين، وتعيين ملكٍ للمجر

من قِبَل السلطان.

● القضاء على حملة صليبية بإشراف البابا بول الثالث، ومشاركة ملكي النمسا والمجر سنة إحدى وخمسين وتسعمئة (٩٥١هـ - ١٥٤٣م)، وإلزامهما بدفع الجزية، ولما نقض النصارى المعاهدة قام أمراء سليمان القانوني بتأديب النمساويين، وإلزامهم بالاعتراف بالحماية العثمانية لمملكة المجر، ودفع الجزية سنة تسع وستين وتسعمئة (٩٧٩هـ - ١٥٦٢م).

كانت هذه الانتصارات المجيدة في ميادين القتال البرية، يقابلها على ثَبَج البحار انتصارات مماثلة جعلت من البحر الأبيض المتوسط شبه بحيرة عثمانية تروح فيها أساطيلهم وتغدو، كما جحافلهم البرية، فمن أشهر الوقائع البحرية في عهد السلطان سليمان القانوني:

● فتح جزيرة «رودس» سنة ثمان وعشرين وتسعمئة (٩٢٨هـ - ١٥٢٢م)، وانتزاعها من فرسان القديس يوحنا، وكانت قلعتها أقوى قلعة بحرية في العالم آنذاك، وقد استعصت على الأسطول العثماني سنة خمسٍ وثمانين وثمانمئة زمن السلطان محمد الفاتح.

● كسر الأسطول الصليبي المتحالف في موقعة «بَرَوَزة» سنة خمسٍ وأربعين وتسعمئة (٩٤٥هـ - ١٥٣٨م)، الذي دعا لتكوينه البابا «بول الثالث»، وقاده أشهر القادة البحريين في العالم حينذاك «أندريا دوريا»، وضم ثلاثمئة قطعة بحرية، فهزمهم القائد العثماني «خير الدين بربا روس»، الذي لم يكن تحت يده سوى مئة وعشرين قطعة.

● هزيمة أسطول «شرلكان» ملك الألمان سنة ثمان وأربعين وتسعمئة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م)، وصدُّه عن مهاجمة الجزائر.

● تحرير «طرابلس الغرب» من احتلال فرسان مالطة النصارى، ومحاصرتهم سنة تسع وخمسين وتسعمئة (٩٥٩هـ - ١٥٥٢م) على يد قبطان البحر العثماني «طورغود رئيس».

كما قامت القوات البحرية العثمانية بأربع حملات بحرية تأديبية للبرتغاليين المعتدين على مسلمي الهند، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، منذ عام أربعٍ وأربعين وتسعمئة (٩٤٤هـ - ١٥٣٨م) إلى أربع وستين وتسعمئة (٩٦٤هـ - ١٥٥٧م).

وتوفي السلطان سليمان القانوني، بعد حُكم دام ثمانٍ وأربعين سنة، عام أربعٍ وسبعين وتسعمئة (٩٧٤هـ - ١٥٦٦م)، يقول الدكتور محمد حرب: (كان عهد القانوني قمة العهود العثمانية سواءً في الحركة الجهادية، وفي الناحية المعمارية والعلمية والأدبية والعسكرية، كان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوروبية تأثيرًا عظيمًا، وبمعنى أوضح كان هو القوة العظمى دوليًّا في زمنه، نعمت الدولة الإسلامية العثمانية في عهده بالرخاء والطمأنينة)[1].

شهد آخر القرن العاشر بعد وفاة سليمان القانوني فتح العثمانيين لجزيرة «قبرص»، وانتزاعها من أهل «البندقية» سنة تسع وسبعين وتسعمئة (٩٧٩هـ - ١٥٧١م)، ثم أعقبه اتحاد نصراني مكوَّن من إسبانيا والبندقية والبابوية أخذوا المسلمين على حين غرة، وهزموهم في معركة «لينتر البحرية» في نفس السنة.

أما القرن الحادي عشر الهجري فقد كان قرنًا جهاديًّا حافَظَ العثمانيون فيه بشكلٍ عام على تفوُّقهم العسكري، وأخضعوا الشعوب الأوروبية المتمردة تحتَ ولايتهم، كما أضافوا عددًا من الفتوحات والانتصارات الهامة، باستثناء فترة اضطرابٍ قصيرة في مستهل ولاية السلطان «محمد الرابع».

ومن أبرز أحداث ذلك القرن على صعيد العلاقات الإسلامية النصرانية:

١ ـ فتوح في المجر في مطلع القرن، زمن السلطان «محمد الثالث» (١٠٠٣ هـ - ١٠١٢هـ)، ثم نصر عظيم على التحالف الأوروبي في سهل «كرزت» سنة أربعٍ بعد الألف (١٠٠٤هـ - ١٥٩٦م).

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة (٨٩).

٢ ـ تأديب المتمردين من أهل بولونيا وهم من القوزاق، والقضاء على المتحالفين معهم من الروس والفرنسيين والنمساويين سنة ثلاثين بعد الألف (١٠٣٠هـ - ١٦٢١م) إثر معارك طاحنة بقيادة السلطان «عثمان» (١٠٢٧هـ - ١٠٣١هـ) وفرض عليهم الجزية.

٣ ـ فتح جزيرة «كريت» وانتزاعها من البنادقة سنة ثمانين بعد الألف (١٠٨٠هـ - ١٦٦٩م).

٤ ـ غزو بولندا سنة ثلاث وثمانين بعد الألف (١٠٨٣هـ - ١٦٧٢م).

٥ ـ حصار مدينة «فيينا» سنة إحدى وتسعين (١٠٩١هـ - ١٦٨٠م)، ثم حصارها مرة ثانية سنة أربعٍ وتسعين (١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م)، وتم فك الحصار على أيدي قوات مشتركة من النمسا وألمانيا وبولونيا وسائر الأمم الأوروبية، وأوقعت بالمسلمين خسائر فادحة.

ويبدو أن هذه الحادثة رفعت معنويات النصارى المنحطة، وأيقظت فيهم روح الأمل في التحرُّر من الهيمنة العثمانية، ويصف أحمد زيني دحلان[1] تلك التغييرات بعد حادثة «فيينا» بقوله: (.. وبعد تلك الوقائع الشديدة، والحروب المهولة، أخذ البابا يحرِّض أهل أوروبا على طرد المسلمين من قرة بلادهم، فاجتمعت العساكر من كل الجهات، وصمَّموا على إخراج المسلمين من أوروبا، فتكفَّلت النمسا، وتكفَّلت مقدونيا ببلاد بولونيا، والبندقية، وغيرهم من ساكني شطوط البحر الأبيض في دلمانيا ـ هكذا ـ بكثير من البلاد، وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف، فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج

(١) أحمد بن زيني دحلان (١٢٣٢ ـ ١٣٠٤هـ) فقيه، مكي، مؤرخ، وُلِد بمكة، وتولىٰ فيها الإفتاء والتدريس، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة، فطبع فيها بعض كتبه، ومات في المدينة، من تصانيفه «الفتوحات الإسلامية»، وكان من أعداء دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقد شوَّه سمعتها، وافترىٰ عليها برسالة ظالمة جائرة نشرها بين الحجيج عنوانها: «رسالة في الرد علىٰ الوهابية». انظر: الأعلام (١/ ١٢٩).

من جملة أماكن، والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة)[١].

وفعلًا مُني العثمانيون في نهاية القرن الحادي عشر بخسائر فادحة بلغت إلى حد حصار النمساويين لبلغراد، وبعد معارك متعددة في عهد السلطان «مصطفى الثاني» (١١٠٦هـ - ١٦١٥م) تراوحت بين النصر والهزيمة، وقعت معاهدة «كارلونز» سنة عشر ومئة بعد الألف (١١١٠هـ - ١٦٩٩م).

لقد تم في هذه المرحلة نشر الإسلام في مواطن كثيرة من آسيا وأوروبا لم تبلغها دعوة الإسلام من قبل، واعتنقت شعوب وأعراق بأكملها هذا الدين في فترة وجيزة، فقد اعتنق الألبان الإسلام، وظلُّوا يشكِّلون غالبية سكان ألبانيا رغم عمليات التهجير والاضطهاد النصراني والشيوعي التي تمت فيما بعد، كما دخل «البوغوميليون»[٢] في دين الإسلام أفواجًا في بلاد البوشناق وبلغاريا وغيرهما. كما انتشر الإسلام في رومانيا واليونان وقبرص، وكذلك الحال في الجانب الآسيوي من القرم والشراكسة «الداغستان» وغيرهم، وامتزجت هذه القوميات في هذا الكيان الإسلامي الكبير، وانتقلت أعداد كبيرة من الألبان والأرناؤوط والشركس والقرم إلى المشرق الإسلامي في مصر والشام والعراق لدواعٍ أمنية ووظيفية واقتصادية متنوعة، كما استقر عشرات الآلاف من الأتراك المسلمين في البلاد المفتوحة شرق أوروبا، وشادوا معالم الإسلام التي لا تزال شواهدها باقية حتى يومنا هذا في دول البلقان، وصار المسلمون رغم كل ما تعرَّضوا له من صنوف القهر والفتنة ـ ولا يزالون ـ جزءًا لا يتجزَّأ من بنية الشعوب الأوروبية الشرقية، ولولا الوضع القَلِق والفتن والقلاقل المتتابعة لاعتنقت تلك الشعوب الإسلام بالكلية.

---

(١) الفتوحات الإسلامية: (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) انظر: البوغوميليون والمسيحيون والبوسنة، لطفي المعوش، مجلة الاجتهاد (٢٩/ ١٠٧ ـ ١١٦)، وانظر: أيضًا: الدعوة إلىٰ الإسلام، السير توماس أرنولد، ومحمد الفاتح، د. سالم الرشيدي (١٩٨ ـ ١٩٩).

أما القرن الثاني عشر الهجري فقد كان قرن المجابهة مع الروس الذين نهضت دولتهم على يد قيصرهم «بطرس الأكبر»، الذي اعتدى على الأراضي العثمانية في «أزاق»، فأعلنت إستانبول الحرب على روسيا سنة ثلاث وعشرين بعد المئة والألف (١١٢٣هـ - ١٧١١م)، وانتصرت على القوات الروسية عند نهر «بروث»، حتى حاق الخطر بالقيصر، فلجأت زوجته «كاترينا» إلى إبرام معاهدة «بروث» المُذِلَّة لهم، ثم استغلت روسيا انشغال العثمانيين بمحاربة العجم فتحالفت مع النمسا، وأشهرت الحرب ضد العثمانيين، لكنهما مُنِيَتا بالهزيمة سنة ثمانٍ وأربعين (١١٤٨هـ - ١٧٣٥م).

وهكذا انقضى النصف الأول من القرن الثاني عشر وكفة المسلمين راجحة ضد الروس، بالإضافة إلى استرجاع بلاد المورة من جمهورية البندقية سنة سبعٍ وعشرين (١١٢٧هـ - ١٧١٥م).

أما النصف الثاني منه فكانت الكفة تميل فيه لصالح الروس، فقد هُزم العثمانيون في موقعة «شكزم» سنة اثنتين وخمسين (١١٥٢هـ - ١٧١٥م). واتبعها توقيع معاهدة بين الطرفين في بلغراد، وسرعان ما نقضت «كاترينا الثانية» ملكة روسيا المعاهدة، واعتدت على بلاد «القرم»، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا سنة اثنتين وثمانين (١١٨٢هـ - ١٧٦٨م)، ولكنها هُزِمَت في معركة «جزيرة خيوش» البحرية سنة أربعٍ وثمانين (١١٨٤هـ - ١٧٧٠م)، ثم عقدت معاهدة «كجوق كينارجه» سنة ١١٨٨هـ، ثم معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨هـ إثر ضم روسيا بلاد القرم إليها سنة (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م)، واستمر التفوق الروسي في مطلع القرن الثالث عشر على حساب الممالك العثمانية في صربيا والمجر حتى أبرمت معاهدة «باسي» بتوسط دولة إنجلترا ودولة بروسيا.

لقد شاخ هذا المحارب القديم، وأثخنته الجراحات الداخلية والخارجية، وتكالبت عليه الأعداء ينهشونه من كل جانب، وهو يحاول أن يستمسك ويستقيم، ولكنه يترنَّح ويهتز أمام أُمَم فتية ناشطة يؤلِّف بينها الحقد الصليبي وثارات التاريخ، كما يطعن في خاصرته الباطنيون من أحفاد هولاكو

وتيمورلنك، مُرتَدِين عباءة التشيع في أجزاء كثيرة من بدنه المترهِّل، وكانت قاصمة الظهر حقًّا لهذا الكيان الإسلامي المتقادم أن رفض دعوة التوحيد والتجديد التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر على يد الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب[(١)]، والتي كانت مرشَّحة حقًا لبث روح الصفاء والنقاء العقدي في جسم الدولة العثمانية، الذي أنهكته الطرق الصوفية البدعية، والمظاهر الشركية، لكن علماء السوء، وبطانة الشر ما زالت تفتل في الذروة والغارب حتى حملت «الباب العالي» على إيصاد أبوابه في وجه دعوة الحق، وتجريد الحملات المتتابعة للقضاء على الدعوة السلفية في نجد والحجاز، ولا عجب أن نرى الاقتران التام بين هذا الموقف العدائي وأفول نجم الدولة العثمانية.

لقد أخطأت الدولة العثمانية حين تعاملت مع دعوة الشيخ المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتعاملها مع «إسماعيل الصفوي[(٢)]»، أو «فخر الدين

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي، التميمي، النجدي، الإمام المجدد المصلح، وُلِد سنة ١١١٥هـ في بلدة «العيينة»، حفظ القرآن دون العاشرة، وتتلمذ في صباه علىٰ والده، قاضي العيينة ثم حريملاء، ثم رحل في طلب العلم إلىٰ الحرمين والشام والبصرة، وكان شغوفًا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، عظيم التأثر بمنهجهما السلفي في الاعتقاد والعمل، فعاد إلىٰ نجد يدعو إلىٰ إخلاص التوحيد، ونبذ الشرك، ومحاربة البدع الاعتقادية والعملية، فلقي معارضة وتخذيلًا، حتىٰ ناصره أمير الدرعية الإمام محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ وجاهد في سبيل نشر دعوته هو وأبناؤه من بعده، حتىٰ دانت لهم معظم الجزيرة العربية، وبلغوا أطراف الشام والعراق، وعُرف أتباعه بأهل التوحيد، ونبزهم خصومهم بالوهابية، إيهامًا بأنهم قد استحدثوا مذهبًا جديدًا، وسرىٰ هذا المصطلح إلىٰ كتب الغربيين وغيرهم، وكان لدعوته الإصلاحية رحمه الله تأثير في نشوء اليقظة الدينية في كثير من مناطق العالم الإسلامي، توفي رحمه الله في الدرعية سنة ١٢٠٦هـ، من آثاره: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وأصول الإيمان، ورسائل متعددة. انظر: تاريخ ابن غنام، والكتب المؤلفة باسمه للندوي وابن حجر آل أبي طامي وغيرهم، وانظر: الأعلام (٦/ ٢٥٧).

(٢) إسماعيل الصفوي (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤م): وُلِد في أردبيل، وتوفي فيها، مؤسس الدولة الصفوية في إيران، استولىٰ علىٰ أذربيجان وفارس، تلقب بالشاه سنة ١٥٠٣م، وسع ممتلكاته إلىٰ هراة شرقًا، وبغداد جنوبًا، وفرض سيادته علىٰ كربلاء والنجف، ونشر مذهب الرافضة، اصطدم بالعثمانيين، فكسروه في معركة جالدران ١٥١٤م. انظر: المنجد في الأعلام (٤٤).

المعني[1]»، أو غيرهما من أصحاب الضلالات العقدية أو المطامح الدنيوية. كان اللائق بدولة جهادية تقف على ثغور المسلمين أن تُعنى بالبناء الداخلي والإصلاح العقدي، وتنقية المجتمعات الإسلامية مما شابها من البدعة والشرك والفسوق، وكانت جميع هذه العناصر والمؤهلات مجتمعة في دعوة التوحيد السلفية، مضافًا إليها روح الجهاد، وحب الاستشهاد، ولكن هذا الأمل لم يقع، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وهكذا أطل القرن الثالث عشر الهجري على الساحة الإسلامية وهي تشهد تراجعًا وانحسارًا في خطوط المواجهة مع النصارى الأوروبيين والروس، الذين أخذوا يَخْطُون خطواتٍ واسعة في ميادين التقدم المادي والصناعي، ويرمقون الممالك الإسلامية التابعة للدولة العثمانية بنظراتٍ طامعة حاقدة.

المرحلة الخامسة: (١٢١٣هـ - ١٣٦٨هـ):

تمثِّل هذه المرحلة فترةً تمتد من قيام الحملة الفرنسية على مصر عام ثلاثة عشر بعد المئتين وألف (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م)، وتنتهي بالإعلان عن قيام دولة يهود (إسرائيل) فوق أرض فلسطين عام (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م).

والسمة العامة لهذه المرحلة هي التقهقر السياسي والعسكري والعلمي للأمة الإسلامية، مقابل النمو الأوروبي المطرد في كافة المجالات المادية، مما أفضى إلى انهيار الخلافة العثمانية، وطَءْ بساطها من أوروبا الشرقية، ثم احتلال البلدان الإسلامية العريقة من قِبَل الاستعمار الأوروبي بشكل لم يسبق له مثيل

---

(١) فخر الدين المعْني (٩٨٠ ـ ١٠٤٤-١٥٧٢ ـ ١٦٣٥م) فخر الدين (الثاني) ابن قرقماس ابن فخر الدين الأول، من آل معن، من أكبر أمراء هذه الأسرة من دروز الشوف بلبنان، ولي سنة ١٠١١ هـ، عظُم أمره واستولىٰ علىٰ صيدا وصفد وبيروت، وناوأ حكومة الآستانة، فجرَّدت حملة للقضاء عليه، ففرَّ إلىٰ إيطاليا، ثم عُفي عنه وأُعيد إلىٰ إمارته، ولُقِّب بسلطان البر، فطمع في التوسع مجددًا، فقُبض عليه سنة ١٠٤٣هـ، فسُجن في الآستانة مدة، ثم عفىٰ عنه السلطان واستبقاه، ثم كثرت الوشايات فيه فقتله وولديه.

حتى في الحروب الصليبية.

والمتغيِّر الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوروبية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمَّقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنَّب استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستَّر تحت لافتات سياسية مثل «الانتداب» و«الوصاية» و«الحماية»... إلخ.

ومن أبرز الحوادث التاريخية التي ترسم معالم هذه المرحلة ما يلي:

١ ـ الحملة الفرنسية على مصر: بعد عشر سنوات تقريبًا من قيام الثورة الفرنسية جرَّد «نابليون بونابرت»[(١)] حملة بحرية للاستيلاء على مصر، أسوة بأسلافه الصليبيين الذين كان آخرهم «لويس التاسع»، فرَسَت العبَّارة الفرنسية أمام شواطئ الإسكندرية في المحرم من سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م)، وبثَّ نابليون مرسومًا في المصريين تضمَّن العبارات الخادعة التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونوبارته يُعَرِّف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد، الصناجق[(٢)] الذين يتسلَّطون في البلاد المصرية يتعاملون في الذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تُجَّارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخَّرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة، يُفسِدون في الإقليم الحسن الأحسن

(١) نابليون (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م): وُلِد في أجاكسيو، من عائلة بونابرت، إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ ـ ١٨١٥)، اشتهر في حملة علىٰ إيطاليا مرتين، قاد حملة علىٰ مصر سنة (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩)، وجلب إليها مطبعة من الفاتيكان، تحالفت أوروبا ضده، فهُزم في معركة «واترلو» سنة ١٨١٥، فنُفِي إلىٰ جزيرة سانت هيلانة، حيث توفي. انظر: المنجد في الأعلام (٧٠٣).

(٢) الصناجق: كلمة تركية تعني هنا الحكام علىٰ جزء من الولايات العثمانية.

الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدِّقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قَدِمت إليكم إلا لأخلِّص حقَّكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية[١] وأعيان البلد، قولوا لأمَّتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مُخلِصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في «رومية الكبرى»، وخرَّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يَحُثُّ النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها «الكوالرية» الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقتٍ من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه...)[٢].

بهذه المزايدات الرخيصة، والتلون الساخر أراد هذا الداهية أن يُطمئِن جموع المسلمين إلى سلامة أهدافه ونُبْلها، وادِّعاء الإسلام، وتعظيم النبي والقرآن والسلطان أمام السذَّج الجهلة من العامة، وأرباب الطرق الصوفية وأتباعهم الذين كانوا جمهور الناس في تلك الحقبة المنحطة وللأسف، بلغة سوقية، قصد بها مخاطبة الغوغاء، وتكشف أحداث هذه الواقعة عن مدى التضعضع العقدي والاجتماعي والنفسي الذي آلت إليه المجتمعات الإسلامية، فضلًا عن الفوضى السياسية، وانفراط عقد الأمن والتدبير في مواجهة هذا الخطر الداهم[٣].

---

(١) الجربجية: مصطلح تركي يعني زعماء العساكر الإنكشارية.

(٢) انظر: النص الكامل في تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، دار الجيل ـ بيروت، (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤).

(٣) انظر: في وصف الواقع السياسي والاجتماعي والديني ما كتبه المؤرخ النابه، والناقد البصير عبد الرحمن الجبرتي في تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٧٩ ـ ٥٠٠).

مكث الفرنسيون في مصر حتى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومئتين وألف (١٢١٦هـ - ١٨٠١م)، ولولا وجود منافس آخر في الساحة من طينتهم، وهم الإنكليز، لبقوا أكثر من ذلك، فقد كان الإنكليز يحسدون الفرنسيين على هذه «الغنيمة الباردة»، فتظاهروا بمساندة الدولة العثمانية لطرد الفرنسيين، وإزاحتهم عن ميدان الصراع واقتسام الغنائم.

وقد كان لهذه الحملة آثار ثقافية واجتماعية على المجتمع المصري[(١)]، كما كشفت عن تواطؤ الأقباط مع أهل مِلَّتِهم، وسَوْمهم ـ لمَّا تمكَّنوا ـ المسلمين العذاب[(٢)].

٢ ـ الحملة الإنكليزية على مصر: جرَّد الإنكليز حملةً عسكرية على مصر في غرة محرم سنة اثنتين وعشرين ومئتين وألف (١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م)، فاستولوا على الإسكندرية، ثم تصدى لهم «محمد علي باشا»[(٣)] (١١٨٣هـ - ١٢٦٥هـ) فهزمهم، وعقد معهم صلحًا، فغادروا البلاد في شهر رجب من تلك السنة[(٤)].

٣ ـ ثورة اليونان: أدَّى الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية، وهزائمها المتوالية أمام الجيوش الروسية في البلقان إلى طمع اليونانيين في الاستقلال، فشبَّت نار الثورة في بلاد المورة سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف (١٢٣٧هـ - ١٨٢٦م)، فعقدت الدول الأوروبية الكبرى مؤتمرًا في لندن ذلك العام بدعوى

(١) انظر: في المصدر السابق علىٰ سبيل المثال (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧، ٤٨٦).

(٢) انظر: في المصدر السابق علىٰ سبيل المثال (٢/ ٢٥٠، ٣٤٧، ٤٣٧، ٤٩١).

(٣) محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ-١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م): محمد علي بن إبراهيم أغا بن علي، ألباني الأصل مستعرب، وُلِد في «قولة» التابعة الآن لليونان، واحترف تجارة الدخان، فأثرىٰ، ولي مصر سنة ١٢٢٠هـ فقضىٰ علىٰ المماليك سنة ١٢٢٦هـ غدرًا، أوعزت إليه الحكومة العثمانية أن يجرد حملة للقضاء علىٰ الدولة السعودية الأولىٰ، وشارك في حرب «المورة»، واستولىٰ علىٰ سورية، ثم قايَض الدولة العثمانية علىٰ ردِّها لقاء أن يكون حكم مصر وراثيًّا في أسرته، أرسل البعثات التعليمية إلىٰ أوروبا، وبنىٰ المدارس والمعامل في مصر، اعتزل الأمور لابنه إبراهيم سنة ١٢٦٤هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٤) انظر: تاريخ عجائب الآثار (٣/ ١٧٦ ـ ٢١٤).

الاحتجاج على الممارسات غير الإنسانية لإبراهيم باشا[1]، ودمَّروا السفن العثمانية والمصرية، واحتلَّت فرنسا بلاد المورة سنة أربع وأربعين (١٢٤٤هـ - ١٨٢٨م)، ثم أرغمت روسيا والدول الأوروبية العثمانيين على القبول باستقلال اليونان في معاهدة «أدرنة» سنة خمسٍ وأربعين ومئتين وألف (١٢٤٥هـ - ١٨٢٩م).

٤ ـ احتلال فرنسا للجزائر: وذلك سنة ست وأربعين ومئتين وألف (١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م)، بدعوى أن أهلها كانوا يعتدون على مراكبهم البحرية! وظلَّت الجزائر رهينة الأسر مدة مئة وخمسة وثلاثين عامًا، حتى انسحابهم منها سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة وألف، تحت وطأة الجهاد الإسلامي المستميت (١٣٨١هـ - ١٩٦٢م).

٥ ـ احتلال الإنكليز لعدن، والسيطرة على مضيق باب المندب: سنة أربع وستين ومئتين وألف (١٢٦٤هـ - ١٨٣٩م)، وقد بقيت تحت نير الاحتلال حتى سنة سبع وثمانين وثلاثمئة وألف (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

٦ ـ سقوط رومانيا واستقلالها عن الدولة العثمانية: سنة ثلاث وسبعين ومئتين وألف (١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م)، بعد حكم دام أكثر من أربعة قرون ونصف.

٧ ـ حرب القرم: بين الحكومة العثمانية وحلفائها الإنكليز والفرنسيين من جهة، وروسيا من الجهة الأخرى سنة تسع وستين ومئتين وألف (١٢٦٩هـ -

---

(١) إبراهيم «باشا» بن محمد علي «باشا» (١٢٠٤ ـ ١٢٦٤هـ) قائد بعيد المطامح، من ولاة مصر، قَدِم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة ١٢٢٠هـ، فتعلَّم بها، وأرسله أبوه، أو متبنِّيه محمد علي سنة ١٢٣١هـ بحملةٍ إلىٰ الحجاز ونجد، ثم إلىٰ بلاد المورة ـ اليونان ـ ١٢٩٣هـ، ثم إلىٰ سورية سنة ١٢٤٧هـ، فانقادت له بلاد الشام، ودخل في معارك طاحنة مع الدولة العثمانية، ظفر في معظمها حتىٰ قارب الآستانة، وفي عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٤هـ اتفق مع الإنجليز علىٰ إخراجه من سورية، فعاد إلىٰ مصر سنة ١٢٥٦هـ في مدة ولاية محمد علي الذي تنازل له، وجاء الفرمان من الآستانة بتوليته، ثم مات قبل وفاة محمد علي. انظر: الأعلام (١/ ٧٠).

١٨٥٣م) بسبب تحرشات الروس بالعثمانيين وإهانتهم إياهم، واستمرت حتى توقيع معاهدة باريس سنة ثلاث وسبعين (١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م)، وقد أنهكت هذه الحرب الدولة العثمانية، وفقدت أجزاء من أراضيها، وزادت من نفوذ الإنكليز والفرنسيين في سياسات الحكومة العثمانية تجاه الأقليات النصرانية، وغيرها.

٨ ـ سقوط الهرسك: سنة ثلاث وتسعين ومئتين (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م) بمساندة الروس والدول المجاورة في أول ولاية السلطان عبد الحميد الثاني، وقد امتدت الحرب وتقهقر العثمانيون إلى قرب أدرنة، وأعقب ذلك معاهدة تقضي بتملُّك الروس لتلك البلاد، ويبقى للعثمانيين أدرنة ـ عاصمتهم القديمة ـ وما يليها إلى إستانبول، مع تحميلهم دفع غرامة الحرب، وتلتها معاهدة برلين ١٨٧٨م التي كانت أشد إذلالًا.

٩ ـ احتلال الفرنسيين تونس: سنة سبع وتسعين ومئتين وألف (١٢٩٧هـ - ١٨٨١م) بدعوى تأديب بعض قبائل العرب المعتدين! وظلَّت تونس بأيديهم ثمان وسبعين سنة حتى نالت استقلالها سنة خمس وسبعين وثلاثمئة وألف (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

١٠ ـ احتلال الإنكليز لمصر: سنة ثمانٍ وتسعين ومئتين وألف (١٢٩٨هـ - ١٨٨٢م) للقضاء على ثورة «عرابي باشا»[(١)]، والتحكم في ولاتها من أحفاد محمد علي باشا، ثم احتلال السودان تبعًا لمصر، وقد ظل الإنكليز في مصر

(١) عرابي باشا (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ - ١٨٤١ ـ ١٩١١م) أحمد عرابي بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم، زعيم مصري، وُلِد في قرية رزنة من قرىٰ الزقازيق بمصر، وجاور في الأزهر سنتين، ثم انتظم جنديًّا في الجيش سنة ١٢٧١هـ، وبلغ رتبة «أميرالاي»، تزعَّم هو وبعض الضباط حركة تتضمن مطالب وطنية أيام الخديوي توفيق، فاعتُقِل ثم أُفرج عنه، وجُعل وكيلًا لنظارة الجهادية، وأُنعم عليه بلقب لواء «باشا»، وبعد استيلاء الإنجليز علىٰ مصر سنة (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م) نفَوْه إلىٰ جزيرة سيلان سنة ١٣٠٠هـ، فمكث فيها ١٩ عامًا، ثم عاد إلىٰ مصر أيام الخديوي عباس، وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام (١/ ١٦٨).

حتى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)، وفي السودان إلى ما بعد ذلك بسنتين.

١١ ـ انعقاد المؤتمر الصهيوني في مدينة «بال» بسويسرا سنة ١٨٩٧م الذي ضم زعامات اليهود في العالم لرسم الخطط للسيطرة على العالم، وإنشاء وطنٍ قومي لليهود على أرض فلسطين.

١٢ ـ سقوط بلغاريا: سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة وألف (١٣٢٨هـ - ١٩٠٨م) بعد حكم دام أكثر من خمسة قرون.

١٣ ـ قيام ثورة جمعية الاتحاد والترقي العلمانية التركية وخلع السلطان عبد الحميد الثاني[(١)]: سنة تسع وعشرين وثلاثمئة وألف (١٣٢٩هـ - ١٩٠٩م) الذي كان آخر خليفة عثماني فعلي، وذلك لوأد فكرة الجامعة الإسلامية التي صار يدعو إليها لمواجهة التسلط الأوروبي.

١٤ ـ سقوط ألبانيا وانتزاعها من الدولة العثمانية: سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٢هـ - ١٩١٢م) بعد حكم إسلامي دام قرابة أربعة قرون ونصف.

١٥ ـ احتلال فرنسا لمراكش وتقاسُمها مع إسبانيا الأراضي المغربية سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة وألف (١٣٢١هـ - ١٩٠١م)، حتى نالت الاستقلال سنة خمس وسبعين وثلاثمئة وألف (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م). وبقيت مدينتا «سبتة» و«مليلة» تحت الحكم الإسباني إلى الآن.

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م): عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد العثماني، آخر سلاطين آل عثمان الفعليين، ورث مملكة مترامية الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب، حاول أن يُحيي فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الأطماع الأوروبية المتنامية لتقاسم إرث الرجل المريض كما كانوا يصفون الخلافة العثمانية، ولكنه فشل بسبب مؤامرات جمعية الاتحاد والترقي التي عزلته عن منصبه سنة ١٩٠٩م، ونصَّبَت سلاطين صوريين بعده، وقد شُوِّهَت سيرته من قِبَل الغربيين والنصارىٰ العرب. انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، صحوة الرجل المريض.

١٦ ـ احتلال إيطاليا ليبيا: سنة أربعٍ وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٤هـ - ١٩١٤م)، وظلت أسيرة في أيديهم قرابةً نصف قرن حتى سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة وألف (١٣٧١هـ - ١٩٥١م).

١٧ ـ إبرام اتفاقية (سايكس ـ بيكو): سنة ست وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٦هـ - ١٩١٦م) بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام المنطقة العربية المتبقية من تركة الرجل المريض ـ أي الدولة العثمانية ـ وهي العراق وسوريا الكبرى والخليج العربي وفلسطين والأردن، باسم «الحماية» لحكومات مصطنَعة، تنشأ بعد مسرحية الثورة العربية الكبرى، التي يعلنها الشريف حسين بن علي[1] في الحجاز ضد العثمانيين في تلك السنة، وتدعم من قِبَل طرفي الاتفاقية، وقد كشف البلاشفة بنود هذه الاتفاقية في العام التالي.

١٨ ـ صدور وعد «بلفور» رئيس وزراء بريطانيا: سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٧هـ - ١٩١٧م) بتعهد من الحكومة البريطانية لليهود بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي فوق أرض فلسطين، وفي نفس العام دخل القائد الإنكليزي «اللنبي» مدينة القدس هاتفًا: الآن انتهت الحروب الصليبية، كما دخلوا بغداد، وفي السنة التالية دخل الفرنسيون بيروت.

١٩ ـ اندلاع الثورات العربية في فلسطين وسوريا ضد الانتداب الأجنبي: سنة أربعين وثلاثمئة وألف (١٣٤٠هـ - ١٩٢٠م)، وقمعها من قِبَل القوات الغازية المتفوقة عسكريًّا، كما في موقعة «ميسلون» قرب دمشق في نفس العام، وتتبُّع

---

(١) الشريف حسين (١٢٧٠ ـ ١٣٥٠هـ - ١٨٥٤ ـ ١٩٣١م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي بن بركات، الحسني الهاشمي، وُلِد في الآستانة، وانتقل مع والده إلىٰ مكة، فتعلم فيها، ونبغ في شؤون الإمارة، فطلب عمه عون الرفيق من الحكومة العثمانية إبعاده، فنفي إلىٰ الآستانة عام ١٣٠٩هـ حتىٰ مات عمه فعاد أميرًا لمكة سنة ١٣٢٦هـ، وفي عام (١٣٣٤هـ- ١٩١٦م) أعلن بمساندة من الإنجليز الثورة العربية علىٰ الأتراك، وحين منع أهل نجد من الحج قصده الملك عبد العزيز بن سعود، وتخلىٰ عنه الإنجليز، فخرج من جدة إلىٰ العقبة ثم قبرص عام ١٩٢٥م، ثم رجع إلىٰ عمَّان، فمات بها، ودفن في القدس. انظر: الأعلام (٢/ ٢٤٩).

الإنجليز لفصائل المجاهدين التابعين لعز الدين القسام[١] رحمه الله وغيره في فلسطين، ثم توقيع معاهدات استعمارية مع الحكومات المحلية في كل من سوريا وفلسطين ولبنان والعراق ومصر سنة ست وثلاثين وثلاثمئة وألف (١٣٣٦هـ - ١٩٥٦م).

٢٠ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية: سنة أربع وأربعين وثلاثمئة وألف (١٣٤٤هـ - ١٩٢٤م) بعد حكم دام أكثر من ستة قرون، بعد انتخاب مصطفى كمال أتاتورك[٢] رئيسًا للجمهورية التركية العلمانية الحديثة، وكان ليهود «الدونمة» الدور الأكبر في اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة، ومن خلفهم المؤتمر الصهيوني العالمي، بإثارة الفتن، وتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني، وتأسيس الجمعيات المناوئة في داخل تركيا وخارجها[٣].

أما وضع «أهل الذمة» فقد تحوَّل إلى مشكلة ضخمة في هذه المرحلة، فقد كان يعيش بين ظهرانَيِ المسلمين في الولايات العثمانية أكثر من عشر طوائف

---

(١) عز الدين القسام (١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ): محمد عز الدين بن عبد القادر القسام، مجاهد من أسرة كريمة في جبَلة من أعمال اللاذقية، تعلم في الأزهر بمصر، واشتغل في بلده بالتعليم والوعظ إلىٰ أن احتل الفرنسيون ساحل سورية في ختام الحرب العالمية الأولىٰ سنة ١٩١٨م، فثار في جماعة من تلاميذه ومريديه، وطارده الفرنسيون، ثم انتقل إلىٰ دمشق، فحيفا في فلسطين، وتولىٰ فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته، وخاض معارك جهادية ضد الإنجليز لما استفحل خطر اليهود، وظهرت بطولته، حتىٰ قضىٰ مجاهدًا، ودفن في قرية «الشيخ» قرب حيفا رحمه الله. انظر: الأعلام (٦/ ٢٦٧).

(٢) مصطفىٰ كمال (١٨٨١ ـ ١٩٣٨ م): قائد تركي، وُلِد في سلانيك، ينتمي إلىٰ يهود الدونمة من جهة أمه، شارك في ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني، التي دعت إلىٰ إحلال الدستور محل الشريعة الإسلامية، ثم خلعت السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩، وألغت السلطنة عام ١٩٢٢م، ثم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م، بعد تأسيس الجمهورية التركية، وكان أول رئيس لها عام ١٩٢٣م، قام بمحاولة القضاء علىٰ مظاهر الإسلام في تركيا، واستبدل الأبجدية العربية باللاتينية، وعمل علىٰ علمنة البلاد وتغريبها. انظر: الرجل الصنم، وصحوة الرجل المريض.

(٣) انظر: في الأحداث المسرودة في الفقرات من ٣ إلىٰ ٢٠، العثمانيون في التاريخ والحضارة (١٠٧ ـ ١٢٧)، صحوة الرجل المريض (٢٢٨ ـ ٢٥٨).

نصرانية أساسية[١]، ونصف هذا العدد من اليهود[٢]، وكانت معاملتهم تجري وفق القواعد الشرعية المتَّبَعة من سائر الدول الإسلامية المتعاقبة.

ولكن الأطماع الأوروبية أرادت أن تتخذ من هذه الطوائف موطئ قدم للنفاذ إلى العمق الإسلامي لدولة الخلافة، وأن تتذرَّع بالدفاع عن حقوقها كلما أرادت أن تسوغ تدخلًا في الشؤون الداخلية لها.

يرجع أول تنظيم مقنَّن لشؤون أهل الذمة إلى عهد السلطان «محمد الفاتح» إثر سقوط القسطنطينية (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، وهو ما عُرف بنظام الملة (الذي قسَّم «الرعايا» إلى مِلَل حسب أديانهم، وأعطى لرجال الدين المسيحيين على طوائفهم ما هو موكولٌ إلى رجال الدين المسلمين على طوائفهم، وخاصة الأمور الدينية والتعليمية والأحوال الشخصية وغيرها، ثم اكتشف أن طقوس العبادة النصرانية تختلف من طائفة لأخرى، فزاد عدد المِلَل حسب الطوائف أيضًا، وليس حسب الأديان فقط)[٣].

وقد تمتَّعت الطوائف المسيحية واليهودية، منذ سقوط القسطنطينية بالاعتراف بها اعترافًا رسميًّا، فقد أقرَّت السلطنة العثمانية للبطاركة الأرثوذكس والأرمن ولحاخام العاصمة الأعظم بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحية فحسب، بل رؤساؤها السياسيون أيضًا، أما الطوائف الأخرى، كالأقباط في مصر، والموارنة والنساطرة والسريان والأرثوذكس في لبنان وسوريا والعراق فكانت على اتصال أقل بالحكام؛ لإقامتها بعيدًا عن العاصمة، ومع ذلك فقد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطان بهم من وقتٍ إلى آخر، وكان السلطان

---

(١) هي: الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك، السريان الأرثوذكس، النساطرة، الموارنة، الأقباط الأرثوذكس، الأقباط الكاثوليك، الكلدان الكاثوليك، اللاتين الكاثوليك، والبروتستانت، وانظر: في هذا: المسيحية في العالم العربي، للحسن بن طلال، والعرب والنصارى لحسين العودات.

(٢) وهي: الربانيون، السامريون، السبتيون، الدونمة، وشهود يهوه.

(٣) العرب النصارى، حسين العودات، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (١٥٦).

يقوم بتنصيب البطاركة والحاخاميين رسميًّا)[١].

كما يرجع أول تنظيم للامتيازات الأجنبية لدى الدولة العثمانية إلى عهد السلطان سليمان القانوني، الذي تربطه علاقة مميزة بفرانسوا الأول ملك فرنسا، فقد وقَّع مع فرنسا معاهدة سنة (٩٤١هـ - ١٥٣٥م) يمنحها بعض الامتيازات التجارية طالما أن الحاكمين على قيد الحياة، وظل الفرنسيون يجدِّدون تلك المعاهدة حتى أقرَّت رسميًّا سنة (١١٥٣ ـ ١٧٤٠م)، كما منح السلطان سليمان القانوني فرانسوا الأول لقب «حامي الكاثوليكية» في البلاد الإسلامية[٢]، كما نصت المعاهدة الموقعة في ١١٥٣هـ - ١٧٤٠م على إعفاء الفرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية من الخراج، (وإذا حدث خلاف بين فرنساويين فللسفراء والقناصل أن يفحصوا ويحكموا حسب شرائعهم وعوائدهم بدون أن يمانعهم بذلك أحد)[٣]، وتضمَّنَت المعاهدة نص المرسوم السلطاني التالي: (إن الأمم النصرانية المعاديتنا ـ كذا ـ، والمسالمة إمبراطور فرنسا، التي ترغب في زيارة القدس الشريف، تقدر على الذهاب والإياب بكل حرية وأمان، وإن وُجِد فيما بعد السماح للأمم المذكورة بالاتجار في ممالكنا المحروسة، فذهابهم وإيابهم حالتئذٍ يكون تحت الراية الفرنساوية)[٤]، كما عزَّزَت المعاهدة الوضعية الخاصة للرهبان الفرنسيين المقيمين في الأراضي المقدسة)[٥].

ومع الضغوط المتتالية على الحكومة العثمانية الآخذة في الضعف والاضمحلال منحت مثل هذه الامتيازات لبقية الدول الكبرى؛ بريطانية ثم روسيا والنمسا وغيرها، واختصت كل دولة بحماية طائفة معينة، ففرنسا حامية الكاثوليك، وروسيا حامية الأرثوذكس، وبريطانيا حامية البروتستانت، وهكذا.

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني (٤٦).

(٢) انظر: صحوة الرجل المريض، موفق بني المرجة (١٧٦).

(٣) انظر: نص المعاهدة في المصدر السابق (٤٠١ ـ ٤٠٣) البنود (٢٦، ٣٢، ٣٣).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

وحين استولى إبراهيم باشا على بلاد الشام أثناء الصراع المصري العثماني سنة (١٢٤٨هـ - ١٨٣٢م) سَنَّ أنظمة جديدة عُرِفت بالقانون (البيورلدي) تقضي بإلغاء الضرائب عن جميع الطوائف، ومعاقبة من يطالبهم بأدنى إتاوة مهما كان مسماها، كما سمح للنصارى بترميم معابدهم، وبناء معابد جديدة، وألغى نظام «الغيار» الخاص بملابس أهل الذمة، ومكَّنهم من لبس ما يشاءون، وركوب الجياد، وولَّاهم المناصب في المجالس المحلية، بل وجلَد مَن أنكر عليهم هذه المساواة مع المسلمين)[١].

ومجاراةً لهذه التنظيمات الجريئة سارَعَ خصمه السلطان عبد المجيد الأول العثماني إلى إرضاء الأوروبيين، فأصدر مرسومه الشهير بـ (خط شريف كولخانه) الذي ألغى رسميًّا (نظام المِلَل) العثماني، وذلك سنة (١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م)، فقرَّر المساواة بين المسلمين وغيرهم، وإلغاء نظام الذمة، ومشاركة غير المسلمين في الخدمة العسكرية على حدٍّ سواء مع المسلمين، وتفرَّع عنه «فرمانات» تنفيذية لضمان الحرية الدينية، وإزالة مظاهر التحقير والصغار، وتخصيص مُرتَّبات مالية للرهبان، وفسح بناء المعابد، وغير ذلك)[٢].

وقد استغلت الدول الكبرى امتيازات الحماية استغلالًا بشعًا، طال ضرره تلك الطوائف، وحوَّلها من مِلَل مشمولة برعاية الدولة المسلمة وعهدها وذمتها إلى «أقليات» تعيش وسط أغلبيَّة مسلمة ترى فيها وكرًا للتآمر وإيواء الأجنبي، بل جعل منها أقليات متنافرة مختلفة الولاءات رغم اتحاد الدين، وكان من آثار ذلك اندلاع الفتن الطائفية في لبنان والشام بين الدروز والموارنة سنة (١٢٥٧هـ - ١٨٤١م)، وانتهاؤه بتقسيم لبنان إلى قائمقاميتين[٣]: درزية ومارونية، بعد ذلك بسنة، ثم عودة النزاع الطائفي على أوسع نطاق في بلاد الشام سنة

---

(١) انظر: العرب النصارى (١٦٨ ـ ١٧٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٠ ـ ١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٨٤ ـ ١٨٥).

(٣) تعبير سياسي تنظيمي كان سائدًا في الولايات التابعة لتركيا العثمانية، (قائم مقام).

(١٢٧٦هـ - ١٨٧٠م)، كانت بريطانيا تسلِّح فيه الدروز، وفرنسا تسلح المارونيين، وبلغ عدد الضحايا من الجانبين أكثر من عشرة آلاف قتيل.

ومن صور الاستغلال البشع أن روسيا استغلت الخلاف الواقع بين طائفتي الروم الأرثوذكس الواقعين تحت حمايتها، واللاتين الكاثوليك في بيت المقدس للتحرش بالدولة العثمانية، وإشعال فتيل حرب القرم سنة (١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م)[١]، واستمرَّت هذه الحرب الفاجرة ثلاث سنين، ثم جلست الأطراف الكبرى المتحاربة على مائدة المفاوضات في باريس سنة (١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م)، (واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوروبية أن تصدر «خطًّا» جديدًا يضع برنامجًا واضحًا للإصلاح أكثر اتساعًا ودقة من «خط كلخانه»، وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايوني (١٨٥٦م)[٢].

قضى هذا القانون الجديد «الخط الهمايوني» على البقية الباقية من تميُّز المسلمين، وتمييز غيرهم في المجتمع العثماني، ومكَّن لأهل الذمة أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى، ونص على معاقبة كل من يستعمل عبارة مهينة ضد الأقليات، وأطلق لهم الحرية في شغل الوظائف العامة المدنية والعسكرية، وبيع وشراء الأملاك العقارية... إلخ)[٣]، كما شهدت هذه المرحلة الخامسة من سلسلة العلاقات الإسلامية النصرانية نشاطًا ملحوظًا في الإرساليات التنصيرية من أوروبا وأمريكا، وافتتاح الجامعات والكليات الدينية والمدنية المختلفة في بلاد المسلمين، وقد تلقَّفَت بالدرجة الأولى أبناء الطوائف النصرانية، وثقَّفتهم بالعلوم العصرية مما مكَّنهم لاحقًا من البروز والتصدر في المناصب السياسية والفكرية في بلاد المسلمين بعقولٍ أوروبية، وكان لهؤلاء أسوأ الأثر في سلخ

---

(١) انظر: الفتوحات الإسلامية: (٢/ ٢٦٩).

(٢) الشعوب الإسلامية: (١٩٣).

(٣) انظر: العرب النصارى: (١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٩٣).

المجتمع الإسلامي عن خصوصيته[١].

هكذا بدَا العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، (التاسع عشر الميلادي إلى منتصف القرن العشرين)، بدت صورته كئيبة قاتمة؛ هزائم متلاحقة، فوضى سياسية، جهل وبِدَع وانحرافات عقدية ومسلكية، تخلُّف في جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية، أزمة ثقة بين شعوبه، وتحالُف مع الأعداء أحيانًا، في مقابل قفزات سريعة لدى الأمم النصرانية في مجال الإعداد المادي، والقوة الصناعية والعسكرية والاقتصادية، وتنسيق دائب على اقتسام التركة، وإذلال الورثة، أدَّى هذا وذاك إلى قطع شجرة الخلافة الإسلامية الجامعة من أصلها بفرع من فروعها، وبأيدي أبنائها، أو هكذا يبدو ظاهرًا على الأقل، ثم قسم متاع الأيتام وعيونهم زائغة.

لقد كانت الحركات الإسلامية الجهادية التي ظهرت في أجزاء من العالم الإسلامي إبان فترة الاستعمار الحديث كانتفاضات الطير الذبيح، سرعان ما أخمدت أنفاسه.

جاء النصارى هذه المرة دون صلبان، يتقدَّمهم المستشرقون وليس القسس، ويفاوضون بقناصلهم ومندوبيهم السامين لا ببطرس الناسك، إنهم هذه المرة لا يهدمون الجوامع ـ غالبًا ـ ويحوِّلونها إلى كنائس وكاتدرائيات، ولكنهم يُظهرون تعظيم الدين والمشايخ، ويدغدغون مشاعر العامة والدهماء، لقد فقهت أوروبا النصرانية درس الحروب الصليبية، وتحاشت أن تنجب الاستفزازات الدينية أمثال «نور الدين زنكي»، و«صلاح الدين الأيوبي»، و«الظاهر بيبرس البندقداري».

جاء النصارى هذه المرة باسم السياسة لا باسم الدين، فحقَّقوا ما لم يحقِّقه أسلافهم المتعصبون، لقد أوهنوا عُرَى الدين في المجتمعات الإسلامية، وغزوا

(١) انظر: في تاريخ وأثر هذه الإرساليات: صحوة الرجل المريض (١٦٥ ـ ١٧٣)، المسيحية في العالم العربي (١١٧ ـ ١٢٧)، الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين.

الأفكار قبل الديار، ولوَّثوا الأدمغة، وهزوا الثوابت والعقائد، ونشروا الرذيلة باسم الحرية، ونفخوا في صورة أهل الذمة باسم حماية الأقليات، وأحَلُّوا الفكرة «العلمانية» محل الفكرة الدينية، واستنطقوا بذلك رجالًا من بني جلدتنا يتكلَّمون بألسنتنا.

فيا لها من داهية على المسلمين عظيمة، ونازلة لم يشهد تاريخ الإسلام لها نظيرًا، فالرزايا والبلايا التي وقعت في تاريخ هذه الأمة تكون على الأبدان والأموال والبلدان، ولكن هذه الداهية الأخيرة تستأصل العقول والأفكار، وتُورِث الرِّدَّة والإلحاد، وقد كان؛ فكم التهمت نار المبادئ الضالَّة التي ولدت وترعرعت في حضن هؤلاء المستعمرين من أبناء هذه الأمة، وسخَّرتهم في تدميرها، ولولا أن الله تعالى تكفَّل بحفظ الذِّكْر، وتجديد الدين، وبقاء الطائفة المنصورة، وإلا لكان الإسلام نَسْيًا منسيًّا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف].

وبعد هذه القراءة التاريخية لأبرز الأحداث التي رسمت حدود العلاقات الإسلامية الكتابية في مراحلها المختلفة على مدى أربعة عشر قرنًا هجريًّا، وفي مدٍّ وجزر على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، والدول المُطِلَّة عليه، حيث جرت معظم هذه الوقائع، ندرك مقدار الكم الهائل من الصور والذكريات التي تختزنها كلٌّ من الذاكرتين الإسلامية والنصرانية، وتستدعيها كلما تجدَّد لونٌ من ألوان المجابهة والتَّماس.

لقد كانت علاقة ساخنة لا تبرُد، هادرةً لا تهدأ، متصلة لا تنقطع، أشبه ما تكون بمعركة حامية الوطيس، لا يكف طرفاها عن الكر والفر، إلا أن يفنى صاحبه، أو يحتويه.

إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كيف طُوِي بساطها، وقلص ظلُّها عن مقدساتها، ومَهْد مسيحها، وأرض التوراة والإنجيل، وانتزعت من يدها مواطن أشرف كنائسها في بيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، وصارت الأرض التي تَدِرُّ عسلًا ولبنًا دار إسلام، فما كان لهم أن يدخلوها إلا

خائفين.

لقد رُوِّعَت النصرانية حين اخترقت جحافل الإسلام شمال إفريقيا، وعبرت مضيق جبل طارق، واستوعبت شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، ثم تسلقت جبال البرانس لتمكث في جنوب فرنسا سبعين سنة.

إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كابوس العثمانيين الذين دوَّخوا أوروبا، وأقَضُّوا مضاجع البابوية عدة قرون، وأخضعوا عواصم البلقان تحت سنابك خيولهم، وهدموا أسوار القسطنطينية، وبلغراد، وبودابست بمدافعهم العملاقة، وحاصَرُوا «فيينا» ثلاث مراتٍ، وطموحهم لا يقف إلا عند روما معقل النصرانية، ولهذا يَصُبُّون لعناتهم على الأتراك ليل نهار في أدبياتهم فضلًا عن صلواتهم.

وبالمقابل فإن الذاكرة الإسلامية لا يعزب عنها تلك الفظائع التي أنزلها الصليبيون بوحشية وهمجية في بيت المقدس، وسواحل الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ولا ينسى المسلمون حرب الاستعادة الإسبانية التي جازتهم على ما ساقوه إلى الأندلس من علمٍ وحضارة جزاء «سِنمَّار»، وطردتهم شر طِرْدة، ثم أتبعتها بمأساة «الموريسيكيين»[1] التي تُعَدُّ من أعظم مآسي التاريخ.

وكيف يغيب عن بال المسلمين صور الإذلال والقمع التي أحلَّها الغزاة النصارى بديار الإسلام على يد نابليون في مصر، وفظائع الروس بالعثمانيين في بلاد البلقان والقرم والداغستان وأواسط آسيا، وأخيرًا تقاسم الدول الأوروبية لتركة «الرجل المريض» كما يقسم المتاع، فيمتصون خيراتها، ويُذِيقُون أهلها الذل والهوان.

---

(١) الاسم الذي كان ينبز به النصارىٰ الأسبان بقايا المسلمين في الأندلس ومعناه عندهم: العرب الأصاغر.

إنه إرث تاريخي لا يتجاهله إلا مغفَّل مغرور، بلغت به السذاجة مبلغًا عظيمًا، فصار ألعوبةً بيد أعدائه المستبصرين، وهو إرث يتفق اتفاقًا تامًّا، جملةً وتفصيلًا مع الثوابت العقدية لدى المسلمين في نظرتهم نحو أهل الكتاب، ومفرداتُه شواهد واضحة كالشمس في رابعة النهار على تلك الثوابت[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وبعد:

فأين نحن الآن؟ وما طبيعة المرحلة الراهنة؟ هل هي امتداد للمرحلة الخامسة، أم هي مرحلة جديدة لها خصائصها المميزة؟

لقد ورثت البلدان الإسلامية التابعة للحكومة العثمانية عنها «الخط الهمايوني»، بالإضافة إلى جملة القوانين الوضعية التي ابتدأ إصدارها في عهد السلطان «سليم الثالث» عام (١٢٢٢هـ - ١٨٠٦م) على الطريقة الفرنسية، وظلَّت تتتابع حتى آخر أيام الدولة العثمانية[2]، ثم جاء الاستعمار الأوروبي ليؤكد الفكرة العلمانية وينحِّي الفكرة الدينية لتنظيم الحياة والعلاقات، عبر مستشرقيه وتلامذتهم المستغربين وغزوه الفكري.

وحينما حمل الاستعمار عصاه ورحل إلى بلاده، واستقلَّت الدول الإسلامية، وجدت نفسها في عالم متغيِّر ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ عالمٍ يرفع شعارات السلام الدولي، والمواثيق الدولية التي تعلن المساواة بين شعوب العالم في الحقوق والواجبات، وتدعو إلى نبذ التمييز على أساس الدين والعرق واللون، وكوَّن لتمثيل هذه المبادئ وتطبيقها منظمةً عالمية عُرِفت باسم «هيئة الأمم المتحدة»، تأسَّسَت عام ١٩٤٥م، وتفرَّعت عنها الهيئات والمنظمات واللجان العالمية التي تنتظم العالم بخيط واحد، وفق معايير متساوية، على

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.
(٢) انظر: الشعوب الإسلامية: (١٧٥ ـ ١٩٥).

الأقل من الناحية النظرية[١].

فلا ريب أن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة جديدة مستقلة لها خصائصها المميزة، وإن كانت لم تكتمل صورتها بعد، لا تحتاج فيها إلى إنشاء مبادئ، فذلك أمرٌ محسوم مقرَّر منذ ظهور هذا الدين الخاتم، ومبادئه ثابتة لا تقبل النقاش، وإنما تحتاج إلى فقه علمي تؤسّس عليه «السياسية الشرعية» التي تلائم وضعها الحالي في حلبة الصراع الدولي، دون المساس بالثوابت العقدية.

ومن المعالم البارزة التي ترسم خصائص هذه المرحلة الراهنة ما يلي:

● أولًا: نمو فكرة «العالمية» أو «العولمة» GLOBALIZATION، والدعوة إلى إلغاء الفروق العقدية والعرقية والإقليمية بين شعوب العالم، والسعي نحو قيام «الحكومة العالمية»، وبذور هذه الفكرة وضعتها الماسونية العالمية، وخلفها تقف المخططات اليهودية[٢].

● ثانيًا: قيام دولة إسرائيل فوق أرض فلسطين المسلمة، بدعم وتأييد مطلق من القوى النصرانية في العالم، في مسرح الأحداث التي جرت عليها الحروب الصليبية، وفق خلفية توراتية مشتركة بين اليهود والنصارى.

● ثالثًا: تنامي الأصولية الإنجيلية، وتأثيرها الظاهر والخفي في السياسات الدولية[٣].

● رابعًا: تنامي الصهيونية المسيحية في أوروبا وأمريكا ضد الإسلام[٤].

---

(١) انظر: في تفاصيل ذلك: أصول القانون الدولي العام د. محمد سامي عبد الحميد، المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية، د. محمد حسن الأبياري.

(٢) انظر: في الماسونية: الماسونية في العراء، د. محمد بن علي الزغبي، الماسونية ذلك العالم المجهول، صابر طعيمة، الماسونية تحت المجهر: د. إبراهيم فؤاد عباس، دار الرشاد ـ جدة ـ السعودية، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م)، القوىٰ الخفية لليهودية العالمية، داود عبد الغفور سنقرط.

(٣) انظر: الأصولية الإنجيلية، صالح الهذلول.

(٤) انظر: الصهيونية المسيحية، محمد السماك، النبوءة والسياسة، غريس هالسل.

● خامسًا: تنامي الصحوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي، والأقليات المسلمة في العالم.

● سادسًا: ظهور الدعوة لتقارب الأديان من الجانب النصراني، وتفعيلها بصفة لم يسبق لها مثيل.

وهي معالم تبدو معقَّدة ومتشابكة ومتعارضة، فمن دعوة إلى الانخراط في الأُمَمِيَّة العالمية وشعارات الإنسانية، إلى حركاتٍ ظاهرةٍ وخفية تُجذِّر التعصب الديني، إلى دعواتٍ للحوار والتفاهم وفهم الآخر، والالتقاء حول نقاط الاتفاق.

كل ذلك يُشعِرنا أننا أمام وضعٍ جديد، ومرحلة متغيِّرة عما سبقها في تاريخ العلاقات الإسلامية ـ الكتابية، وكل مَعْلَم من هذه المعالم جدير بالدراسة والفحص والتقويم لكي يتخذ المسلمون الموقف الشرعي والإجرائي المكافئ له.

ومن هذه المعالم الجديدة الطارئة في تاريخ العلاقات الإسلامية الكتابية الدعوة إلى تقارب الأديان، وهو موضوع دراستنا هذه التي نسأل الله تعالى أن تُسهِم في جلاء الغَبَش، وبيان الحق في هذه النازلة.

الباب الأول:

حقيقة التقريب بين الأديان وأصوله وبواعثه

ويتضمَّن:

- الفصل الأول: حقيقة التقريب بين الأديان.
- الفصل الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان.
- الفصل الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث.
- الفصل الرابع: بواعث الدعوة إلى التقريب بين الأديان.

الفصل الأول
حقيقة التقريب بين الأديان

تطلق: «دعوة التقريب بين الأديان» على مجمل المحاولات الفكرية والعملية الساعية لإيجاد لونٍ من ألوان التلاقي والاتصال بين دين الإسلام وغيره من الأديان المُحرَّفة، والمِلَل الوثنية.

ومع أن هذه الدعوة بشقَّيْها الفكري والعملي ذات جذور تاريخية، إلا إنها لم تظهر ظهورًا جليًّا، ولم تنتشر انتشارًا عالميًّا إلا في العصر الحاضر، وعلى وجه الخصوص في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري حتى أيامنا هذه، النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، حيث اكتسبت معانيَ جديدة، وأهدافًا متعددة، ووسائل متنوعة لم تكن متاحة من قبل، وصارت ـ بالفعل ـ إحدى المعالم المميزة لهذه الحقبة من التاريخ التي تسودها شعارات الإنسانية والمساواة والحرية، دون تمييز مبنيٍّ على أساس ديني أو عرقي، وإنْ بالشعارات فقط، وذلك على مدى نصف قرن، منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م.

وأخيرًا، وفي أعقاب سقوط الكتلة الشيوعية، وتفكيك الاتحاد السوفيتي، وانحلال حلف وارسو، وُلِد مصطلحٌ جديد هو: «العولمة»، أي: توحيد العالم[1]، وذلك ما يعني المضي حثيثًا في إزالة الفوارق، وتمييع الحدود،

(١) يقول سمير أمين: (معنىٰ ذلك: ولادة مفاهيم ومضامين وأفكار وأنساق جديدة علىٰ حساب انتهاء وانتفاء ظواهر وحالات ومضامين ومصطلحات ومفاهيم عدة، مثل: (شرق ـ غرب، شمال ـ جنوب) (العالم الثالث)، الشيوعية، (البلدان الاشتراكية)، (الحياد الإيجابي)، (عدم الانحياز)، (التأميم)..، إلخ، وسيمضي زمن ليس بطويل تعيش فيه مفاهيم القرن العشرين في حالة اغتراب حقيقي، أو سيُقضىٰ عليها نهائيًّا، لتصبح تاريخًا أيديولوجيًّا عفىٰ عليه الزمن؛ إذ ستنبثق مفاهيم ومصطلحات ومضامين جديدة، تتخذ لها صورًا وأشكالًا مختلفة كونها ستعبر عن واقع سياسي أو أيديولوجي مختلف)، العولمة الجديدة، والمجال الحيوي للشرق الأوسط، مفاهيم عصرٍ قادم، سيار الجميل،

والقضاء على الخصوصيات للمجتمعات المتنوعة دينيًّا، وثقافيًّا، وذلك يتطلب المزيد من التقريب بين الأديان في المرحلة المقبلة.

يقول الكاتب الإسلامي الفاضل د. محمد محمد حسين[١] رحمه الله: (العالمية في الاصطلاح الحديث مذهبٌ يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المتباينة، ويزعم أصحاب الدعوة والقائمون عليها أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهبٍ واحد، تزول معه خلافاتهم الدينية والعنصرية، لإحلال السلام في العالم محل الخلاف)[٢]، وهي بهذا التعريف أوسع مدلولًا، وأشمل أثرًا من «تقريب الأديان» أو «وحدة الأديان»، بل تصبح وحدة الأديان إحدى مفردات «العالمية»، ويوضح ذلك قوله: (وللعالمية تطبيقات واسعة في كل نواحي الحياة وأنشطتها المختلفة، من سياسية ودينية واقتصادية وأدبية ولغوية، وكلها تحاول أن تصل إلى النظام الواحد، الذي يجمع الناس في كل ميدان من هذه الميادين المختلفة على مذهبٍ واحد، أو بعبارة أخرى تحاول أن تكتشف الأصول الإنسانية المشتركة ـ حسب زعمهم ـ وراء مظاهر التعدد المتباينة في هذه الأنشطة البشرية لتصبح الأرض وطنًا واحدًا يدين بدينٍ واحد، ويتكلم لغةً واحدةً، يتذوق الفنون والآداب بذوقٍ واحدٍ مشترك)[٣].

والواقع أن دعوة التقريب بين الأديان التي هبَّت رياحها بقوة من الغرب النصراني قبل أكثر من ثلاثة عقود، إثر المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ

مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٩٩٧م).

(١) محمد محمد حسين (نحو ١٣٣٠هـ ١٤٠٣هـ) كاتب إسلامي ملتزم، وناقد أدبي، ذو غيرة إيمانية، وُلِد بسوهاج بصعيد مصر، وولي التدريس بجامعة الإسكندرية، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تميزت كتاباته بالأصالة والمنهجية، وكشف عوار الدعوات العصرانية، من مؤلفاته: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، حصوننا مهددة من داخلها، الثقافة الغربية، أزمة العصر، الروحية الحديثة، وغيرها. انظر: ذيل الأعلام (١٩٩).

(٢) الإسلام والحضارة الغربية (١٧١).

(٣) المرجع السابق (١٨٠).

١٩٦٥م)، لا تحمل مدلولًا اصطلاحيًّا محددًا، فضلًا أن تكون ذات حقيقة شرعية، فلفظ «التقريب» أو «التقارب» Rapprochement يدل على مسألة نسبية هي «القرب»، تتفاوت في حقيقتها وتطبيقاتها لدى مختلف الأطراف، بل وفي نظرة كل طرفٍ على حدة، في فترة زمنية معينة، كما سيتضح لاحقًا، فقد تقتصر على حدٍّ أدنى من المجاملات الشكلية، وقد تُوغِل في الاقتراب إلى درجة الاندماج والوحدة وسقوط الفوارق، وبين هذا وذاك مراتب عديدة.

ومن بين أكثر من ثلاثمئة مؤتمر من مؤتمرات التقريب بين الأديان، والعديد من المناسبات والاحتفالات المشتركة، جرت في العصر الحديث، وتم حصرها وتوصيفها في الباب الثاني، بالإضافة إلى الكتابات الصادرة من دعاة التقريب ومنظِّريه، يمكن أن نميز ثلاثة اتجاهات:

أولًا: التقريب بين الأديان:

ويمثِّل معظم المحاولات العالمية والإقليمية والمحلية لإيجاد تواصُل، وبناء علاقات بين مختلف الأديان والمِلَل، ويقوم على الخصائص الفكرية التالية:

١ ـ اعتقاد «إيمان» الطرف الآخر، وإن لم يبلغ الإيمان التام الذي يعتقده هو.

٢ ـ نبذ «التلفيقية» أو «التوفيقية»، بجمع عناصر من مختلف الأديان، أو محاولة حمل بعضها على بعض للوصول إلى وضعٍ موحَّد.

٣ ـ الاعتراف بالآخر، واحترام عقائده وشعائره، ورفع الأحكام المسبقة.

أما من الناحية المنهجية فيعتمد الأساليب التالية:

١ ـ الدعوة إلى التعرف على الآخر كما يريد أن يُعرف.

٢ ـ تجنُّب البحث في المسائل العقدية الشائكة.

٣ ـ نسيان الماضي التاريخي، والاعتذار عن أخطائه، ومحاولة التخلص من آثاره.

٤ ـ إبراز أوجه التشابه والاتفاق، وإقصاء أوجه الاختلاف والافتراق.

٥ ـ التعاون على تحقيق القيم المشتركة.

٦ ـ تبادل التهاني والزيارات والمجاملات في المناسبات الدينية المختلفة.

وقد تبلور هذا التوجه في العصر الحديث في مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وتجاوب معه ذوو الاتجاه العصراني من المسلمين وغيرهم، ومن ثم فقد حملت عناوين المؤتمرات المعقودة للتقريب بين الأديان في العقود الأربعة الأخيرة شعارات تعبر عن هذه الطبيعة العلائقية الجديدة، نرتِّبها حسب كثرة ورودها في مسرد المؤتمرات:

(الحوار = ٣٢ مرة)، (السلام = ١٨ مرة)، (التعايش = ١٦ مرة)، (التعاون = ١٤ مرة)، (التفاهم = ٧ مرات)، (الانسجام = ٥ مرات)، (التعددية = ٥ مرات)، (الاشتراك ـ ومشتقاته = ٤ مرات)، (التسامح = ٣ مرات)، (الانفتاح)، (التباحث)، (التعارف)، (الصداقة) = مرتين لكلٍّ منها.

وهي معانٍ تصب في التيار العام للتقارب بدرجاتٍ متفاوتة، وجميعها تُذكَر مضافة إلى «الدين» أو «الإيمان»، أو إلى دينَيْن معًا ـ غالبًا: الإسلام والنصرانية ـ أو إلى ثلاثة: الإسلام، والنصرانية، واليهودية، أو إلى الأديان الخمسة الكبرى ـ على حد تعبيرهم ـ مضيفين البوذية والهندوسية.

وهذا المستوى من العلاقة هو السائد في العقود الأخيرة في المؤتمرات والندوات المعنية، وينخرط في فعالياته العديد من المفكرين ورجال الدين من سائر المِلَل، وبعض المنسوبين إلى العلم والدعوة من المسلمين.

ومن شواهد هذا الاتجاه ما جاء في البيان المجمعي: «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥م، وفيه: (والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا مما هو في هذه الديانات حق ومقدس، وتُولِي تقديرها باحترام صادق هذه الطرقَ المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم، ألتي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به

هي وتعلّمه، تحمل -غير مرة- قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس... ولئن كان قد وقع في غضون الزمن كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرِّضهم جميعًا على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعزِّزُوا كلهم معًا، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)[١].

● يقول محمد مهدي شمس الدين[٢] واصفًا مشروعه للحوار الإسلامي المسيحي، بعد أن استبعد جميع أشكال الحوار التاريخية!: (يقوم بصورة أساسية على أن يبحث قادة الفكر والروح في كلا الدينين عن المساحات المشتركة بينهما في قضايا الإنسان والمجتمع والحضارة، فإذا اكتشفت هذه المساحات المشتركة يتوجَّه الدينان معًا نحو العالم في عملية فتح روحي للحضارة الحديثة، وإنسانها ـ ثم يُجمِل «المساحات المشتركة» في ثمان نقاطٍ: ـ الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان ببعثة الأنبياء ـ إجمالًا ـ الإيمان بالبعد الروحي للإنسان، الإيمان بحاجة الإنسان للعبادة، الإيمان بكرامة الإنسان، الإيمان بالأخلاق، الإيمان بالأسرة، مع التأكيد البالغ على الابتعاد عن

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني، دساتير، قرارات، بيانات (٦٢٨ ـ ٦٢٩)، وسيأتي مزيد تفصيل لموقف الكنيسة الكاثوليكية من دعوة التقريب.

(٢) محمد مهدي شمس الدين: وُلِد في النجف سنة (١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م) توفي سنة (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، وتتلمذ علىٰ كبار علماء الشيعة في زمانه مثل: محسن الحكيم، وأبو القاسم الخوئي، شارك في النشاطات السياسية والعلمية والاجتماعية للحركة الشيعية في العراق، هاجر إلىٰ لبنان عام (١٩٦٩م) وانضم إلىٰ موسىٰ الصدر مؤسس المجلس الشيعي الأعلىٰ في لبنان، ثم خلفه في رئاسة المجلس بعد اختفائه عام ١٩٧٨م، أسَّس العديد من المعاهد الدينية والمؤسسات الاجتماعية للطائفة الشيعية في لبنان، من مؤلفاته: «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، «دراسات في نهج البلاغة»، «ثورة الحسين»، «أنصار الحسين»، «عقائد الشيعة»، ويبلغ المطبوع منها أكثر من عشرين مؤلفًا. انظر: الشيخ محمد مهدي شمس الدين بين وهج الإسلام وجليد المذاهب، فرج موسىٰ (٢٩ ـ ٦٢).

دائرة «حوار اللاهوت وعلم الكلام»، أي «الحوار العقدي»[١].

● ويقول د. يوسف القرضاوي: (نحن معًا نؤمن بالله، ولو إيمانًا إجماليًّا، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروي، نؤمن بعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوقٌ مكرَّم، نؤمن.. نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين، فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفَق عليها يمكن أن تُقرِّب بين المختلفين بعضهم بعضًا، من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب، المهم أيضًا أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح.. فيعاملونا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم)[٢].

ولسنا في هذا المقام بصدد مناقشة مفردات هذه المقولات الصادرة عن الإسلاميين، حيث أُفرد لذلك مبحث مستقل، وإنما لرسم معالم هذا الاتجاه تمييزًا له عن غيره.

ثانيًا: وحدة الأديان:

وهو الاعتقاد بصحة جميع المعتقدات الدينية، وصواب جميع العبادات، وأنها طرق إلى غاية واحدة، وهذا الاتجاه بطبيعة الحال يستصحب الخصائص الفكرية والمنهجية العامة للاتجاه السابق، ويزيد عليها بالدعوة إلى التخفُّف من السمات العقدية والتشريعية الخاصة بكل ديانة، بحسبانها ظواهر وتقاليد تاريخية محلية لشعبٍ معين، في حقبة تاريخية معينة، والانضواء تحت مفاهيم عامة، وجُمَل فضفاضة.

ويمثِّل هذا الاتجاه في التاريخ زنادقة الصوفية من أرباب وحدة الوجود،

---

(١) انظر: المرجع السابق (١٨ ـ ١٩).

(٢) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي: حسن علي دَبَا، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا ـ مصر، الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، (١٦).

كابن عربي الطائي[١] القائل:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي

إذا لم يكـن ديني إلى دينه داني

فقد صار قلبي قابلًا كلَّ صـــورة

فمــرعـى لغزلان ودَيْر لرهبان

وبيت لأوثان وكعبـــة طائــف

وألـواح توراة ومصحف قرآن

أَدِينُ بدِينِ الحب أنَّى تـوجَّـهَتْ

ركائبـه فـالحب ديــني وإيماني[٢]

والفِرَق الباطنية مثل: إخوان الصفا وخلان الوفا[٣].

كما يمثِّله في العصر الحاضر متصوفة العصر السائرون على خطى ابن عربي وأمثاله، حيث يقول أحدهم: (جوهر أديان السماء كلها، وما جاءت به من شرائع إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد وبوذا، وغيرهم من الأنبياء والحكماء ما هو إلا نقل الإنسان وتطويره من السيئ إلى الحسن، ثم إلى الأحسن، ومن الجهل إلى العلم، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الظلم إلى العدالة والتراحم

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر، الحاتمي الطائي الأندلسي، الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية، وُلِد في مرسية في الأندلس سنة ٥٦٠هـ، طاف في البلاد الإسلامية واستقر في دمشق، وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ، قال عنه الذهبي: «قدوة القائلين بوحدة الوجود»، له نحو أربعمئة كتاب ورسالة، من أشهرها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، كفَّره بسبب مقالاته وشطحاته كثير من العلماء. انظر: الأعلام (٦/ ٢٨١)، وتنبيه الغبي للبقاعي، وجزء في عقيدته وحياته للفاسي.

(٢) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق (٣٩).

(٣) انظر: فصل: (الأصول التاريخية لدعوة التقريب) من هذا الباب (٣٩١).

والمحبة)[١]، أما الاختلاف بين الإسلام وسائر الأديان فـ (مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، التي إذا اجتمعت في باقة متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور)[٢].

كما نحا هذا المنحى بعض شعراء المهجر من النصارى العرب.

يقول جبران خليل جبران[٣]: (تقول فكرتكم: الموسوية، البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام، أما فكرتي فتقول: ليس هناك سوى دين واحد، مجرد، مطلق، تعددت مظاهره، وظل مجردًا مطلقًا، وتشعَّبت سبله، ولكن مثلما تتفرَّع الأصابع من الكف الواحد)[٤].

وفي هذا السياق التأم عددٌ من عشاق التصوف في مؤتمرات متتابعة في عِقدَيِ السبعينيات والثمانينيات، تحت مسميات «الإيمان» و«الروحانيات» ونحوها، كان من أبرزها «فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية GRIC » المنطلقة من دير «سنينكا» في فرنسا[٥]، بالإضافة إلى المؤتمرات المنعقدة في تخليد ذكرى بعض «أولياء الصوفية»، و«قديسي النصرانية» في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين الميلادي.

ومن أبرز منظِّري هذا الاتجاه «وحدة الأديان» في العقود الثلاثة الأخيرة،

---

(١) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق، إعداد: د.محمود حسن الحمصي، دار الرشيد، دمشق ـ بيروت، مؤسسة الإيمان ـ بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، (٢/ ٧٢٨، ١٠٥٩).

(٢) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق، (٢/ ٦٧١).

(٣) جبران بن خليل بن ميخائيل، الماروني، اللبناني، وُلِد في قرية «بشرِّي» سنة ١٣٠٠هـ- ١٨٨٣م، تعلَّم في بيروت، ورحل إلىٰ باريس ثم الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٩٥م، وتوفي فيها سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م)، يُعَدُّ نابغة الكُتَّاب المعاصرين في المهجر الأمريكي، من آثاره: دمعة وابتسامة، عرائس المروج، الأرواح المتمردة. انظر: الأعلام (٢/ ١١٠).

(٤) قصة الأدب المهجري، محمد خفاجي (١٦٦).

(٥) سيأتي التعريف بها في الفصل الثاني من الباب الثاني (١٢٤٧).

المفكر الفرنسي «روجيه جارودي»، ولكن من منطلقٍ «إنساني» بالدرجة الأولى، قبل وبعد إعلان إسلامه عام ١٩٨٢م، ثم باستدلالٍ «صوفي» بدرجة ثانية، بعد ذلك، وهو يطرح نوعَين من الوحدة:

● أحدهما: وحدة صغرى، وهي «الإبراهيمية»، ويهدف من ورائها إلى توحيد الأديان التي تعلن انتماءها إلى أبي الأنبياء «إبراهيم» عليه السلام، أي: الإسلام والنصرانية واليهودية، فيقول في الملتقى الإبراهيمي الذي دعا إليه في قرطبة عام ١٩٨٧م: (إن رسالة القرآن عالمية، وتحويل هذه الرسالة إلى التقاليد الخاصة بحقبة من الزمن أو بشعب ما يعتبر دفاعًا عن فلكلور، وليس عن عقيدة... استرجاع رسالة إبراهيم التي هي موحِّدة، وذلك للإجابة والرد على التحديات في عصرنا هذا بعيدًا عن تناقضاتنا)[١]، وقال في كتابه «الإسلام» الصادر عام ١٩٩٦م: (إنهم كثيرون أولئك الذين يتطلَّعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم إلى توحيد قواهم، ليبنُوا معًا القرن الحادي والعشرين بوجهٍ إنساني، أي بوجهٍ إلهي، باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوُّع العبادات والطقوس)[٢].

● الثاني: وحدة كبرى: تشمل جميع الأديان والمِلَل الوثنية، بل والملحدين! بجامع أن تلكم الوثنيات آثار نبواتٍ سابقة، وأن الملحدين يؤمنون بـ «الإنسان» وأن للحياة «معنى»، فيقول: (إن الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي النبي ﷺ كانت إقامة ما نسميه اليوم: «وحدة فيدرالية» للطوائف الدينية... أي على الإيمان بمعناه الأرحب والأوسع، وحتى مع الملحدين ممكن أن يكون لديهم إيمان بالإنسان، وبإمكانهم إقامة طائفة دينية بالمعنى الذي قلناه فيما سبق؛ لتعميق هذه الاحترام الأساسي للإنسان)[٣].

---

(١) النص المترجم للمحاضرة لدىٰ الباحث.

(٢) الإسلام: روجيه جارودي، ترجمة: وجيه أسعد، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولىٰ عام ١٩٩٦م، (٤٢).

(٣) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م، «مجلة الموقف» شهرية ـ ثقافية ـ عربية، تصدر عن: المركز

ويقول: (إن مهمتنا هي أن نجمع جميع الناس ذوي الإيمان ـ أيًّا كان إيمانهم ـ ضد العالم الحالي، عالم اللامعنى، وأن نخلق نويات لمقاومة اللامعنى، شاجبين ومقاتلين كل ما هو مناقض لوحدة العالم السمفونية)[١]، ويقول: (وليكن كلٌّ منا ما يكون مسلمًا أو مسيحيًّا، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه... وسنلتقي جنبًا إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، قيود الفردية والقومية التي تَفُتُّ العالم)[٢]، وهذا غيضٌ من فيض من مقولاته.

● ثالثًا: توحيد الأديان: ويُقصد به المحاولات الساعية، قديمًا وحديثًا، إلى دمج جملةٍ من الأديان والمِلَل في دينٍ واحد مستمَدٍّ منها جميعًا، بحيث ينخلع أتباع تلك الأديان منها، وينخرطون في الدين الملفَّق الجديد.

وفرق ما بينه والاتجاه السابق أن المناداة بـ«وحدة الأديان» تعني تصويب أوضاعٍ قائمة ضمن أُطُرها الخاصة التي تميِّزها، بشرط عدم نفي أو استبعاد الآخرين، وربط تلك الوحدات المفردة بإطار عام يسوغ توجهاتها جميعًا، في حين أن «توحيد الأديان» تفعيلٌ يقتضي إنهاء وحل تلك الأوضاع السابقة، ونسخها بوضعٍ جديد، وإن كانت عناصره مأخوذةً من حطام السابق.

ويميِّز الباحثون في تاريخ المِلَل بين لونَين من ألوان الدمج والتوحيد؛ فيقول د. محمد هلال: (يطلق باحثو الأديان اسم «الالتقاطية» «الألكتزم» على عملية

الوطني للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ـ بيروت، عدد (٧٥) أبريل ١٩٩١م، رمضان ١٤١١هـ. عن كتاب: روجيه جارودي، من الإلحاد إلىٰ الإيمان: لقاءات ومحاضرات، إعداد: رامي كلَّاوي، دار قتيبة، بيروت ـ دمشق، الطبعة الثانية عام (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، (١٨١ ـ ١٨٢)، ومعنىٰ (فيدرالية) (Federalism): اتحاد بين وحدات سياسية تتنازل عن سيادتها الفردية لسلطة مركزية، ولكنها تحتفظ بسلطات حكومية محدودة. انظر: المورد (٣٤١).

(١) نحو حرب دينية، جدل العصر: روجيه جارودي، تقديم: ليوناردو بوف، ترجمة: صيَّاح الجهيِّم، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م، (٧٣).وكلمة (سيمفونية) (Symphonic) تعني: متناغم، متآلف الأصوات. انظر: المورد ٩٣٩.

(٢) جولتي وحيدًا في القرن (٤٣٧)، وقد أفرد لجارودي مبحث مستقل في الباب الثاني (٧٢٧ـ ٨١٥).

دمج عناصر مختلفة دون محاولة إيجاد تنسيق منهجي... بينما يسمون عملية الدمج هذه، مع محاولة إيجاد تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة المختلفة، بالتلفيقية «السنكرتزم»[١]، وهذا يتضح جليًّا في نشأة وتكون الأديان الوثنية الشركية التي تتلاقح فيما بينها، وتستعير من بعضها بعضًا أسماء المعبودات والطقوس والمعتقدات الدينية[٢]، بل قد دبَّ ذلك إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجرى في جسم الديانتين إدماج بعض الفلسفات الوثنية والعقائد الشركية، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: ٣٠][٣].

ونستطيع أن نميز هذين اللونين في المحاولات الحديثة لتوحيد الأديان:

١ ـ الالتقاطية: تظهر بشكل جلي بالديانة «المونية» Moonism التي اخترعها في أواخر الخمسينيات الميلادية من القرن العشرين الكوري الشمالي: «صن مون»، واستمد مكوناتها العقدية من النصرانية أساسًا، وخليطٍ عجيب من اليهودية والإسلام والبوذية، بل والنظريات العلمية الحديثة، وادعى النبوة، وسعى بثروته الهائلة إلى توحيد الأديان تحت رسالته، كما جاء في القانون الأساسي للحركة المونية، المنقح عام ١٩٨٤م: (إن الهدف الرئيسي هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إلهٍ واحدٍ، بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية و الوطنية والقومية والاجتماعية)[٤].

ويتبع «مون» قرابة ثلاثة ملايين نسمة في العالم، يعتقدون صحة تعاليمه[٥].

ومن شواهد الالتقاطية في محاولة توحيد الأديان تاريخيًّا البهائية[١].

(١) مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام: د.محمد هلال، دار البشير ـ عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، (٦٨).

(٢) انظر: في كتاب: «الله» لعباس محمود العقاد.

(٣) راجع مبحث «أهل الكتاب» في التمهيد.

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٤٩٢).

(٥) انظر: مبحث «المونية» في الفصل الأول من الباب الثاني.

٢ ـ التلفيقية: تأسيسًا على أن السمة التي تميِّز التلفيقية عن الالتقاطية هي وجود تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة، يمكن أن نحسب محاولات الأب الإسباني إيميليو غالليندو آغيلار ومجموعته التي تطلق على نفسها «كريسلام» (Crislam)، لونًا من ألوان التلفيقية البطيئة، التي تسعى إلى الوصول إلى صيغة عقدية موحَّدة، تتجاوز حدود «الإبراهيمية» التي جاء بها جارودي وغيره لتشمل سائر الوثنيات، ولكن ليس تحت شعار غير ديني كما صنع جارودي أيضًا باسم «الإنسانية» أو «المعنى»، وإنما النفاذ إلى «البؤر الدينية» لكل دين أو نِحْلة، التي ستكون واحدة، في حسبان غالليندو، وهي ألوهية المسيح، تعالى الله عما يقولون علوًّا عظيمًا، كما يشير إليه النص التالي: (إن خطورة كل حوار بين الأديان... هو أن لا يتحوَّل إلى حوار ديني داخلي، وعلى الدوام يجري الحوار انطلاقًا من الأديان باعتبارها شيئًا نسبيًّا، فحوار ديني يرمي أن يكون مناسبًا يتخطَّى الحدود الضيقة للإسلام والمسيحية... ويستلزم هذا بالضرورة أن ينتقل كل دينٍ من مظهره المؤسساتي إلى طابعه السري الأكثر عمقًا، للاتصال بهذا الجذر العالمي، مع هذه البؤرة الديناميكية... إنه بقدر قليل من وضوح الرؤية يمكن أن نفهم أن هذا هو الطريق الوحيد البشري الذي يوجِّد أمامنا كي نقترب أكثر فأكثر بمرور الوقت من «المطلق»)[٢]، ثم يؤكد لاحقًا: (إن كل حوار ديني لا ينطلق من تجربة الإله إنما يكون كلمة مشركة)[٣]، وفي نهاية المطاف يفصح عن العلاقة المتطابقة بين «تجربة الإله» و«المطلق» فيقول: (إن أولئك الذين دخلوا في تجربة ابن عربي نحو عيسى يعرفون بنورٍ واضح كالنيران أن المطلق الوحيد هو الرب)[٤].

وهذا الاتجاه يستدعي بوعي وإدراك -خلافًا لسائر الاتجاهات السابقة-

---

(١) انظر: الكلام عن البهائية في فصل «الأصول التاريخية لدعوة التقريب».

(٢) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الأول بالمراسلة (العقيدة للأمام) تنظيم كريسلام (١٢ ـ ١٣).

(٣) العقيدة للأمام (١٧٥).

(٤) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الثالث بالمراسلة (من أنا في قولكم أنتم) تنظيم كريسلام (١٣).

المشكلات العقدية الجذرية، ويناقشها؛ ليقينه التام أنه لا يمكن تخطِّيها في سعيه نحو توحيد الأديان، ثم يقوم بتنسيقها ضمن منظومته العقدية الخاصة في علاقة الله بالإنسان)[1].

تلك خطوطٌ عامة للاتجاهات الرامية إلى التقريب بين الأديان، وفي الفصول التالية تفصيل لحقيقة التقريب لدى مختلف الفرقاء، ودرس للمحاولات الفردية والجماعية المبذولة في هذا السبيل.

ولا يعزب عن البال أن هذه المستويات الثلاثة: «التقريب»، و«الوحدة»، و«التوحيد» لا يفصلها حدودٌ حاسمة في مجال التطبيق العملي الميداني، حيث تتمازج تياراتها، وتصبُّ مفرداتها الفكرية بنِسَبٍ متفاوتة في مجرى «سبيل المجرمين» الذي يشطح بعيدًا عن «سبيل المؤمنين»، ويرغب عن «ملة إبراهيم».

وقد آثرت في عنوان هذا البحث تغليب لفظ «التقريب»؛ لأنه الأعم من حيث الدلالة، والأقدم من حيث الاستعمال، كما أنه الاتجاه السائد من حيث التطبيق.

الحوار بين الأديان:

شاع في العقود الأخيرة استعمال مصطلح «الحوار» DIALOGUE على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، وطال ذلك دعوة التقريب بين الأديان، فطغى هذا التعبير على ما عداه، وصارت تُعرف بـ (حوار الأديان) أو (الحوار بين الأديان) Inter Faith أو Interreligiouse Dialogue، وصار محبَّذًا لدى المشتغلين في هذا الحقل، مقدَّمًا على غيره من الاصطلاحات، مما يستدعي إلقاء الضوء على دلالته:

فـ«الحوار» من حيث اللغة، مادته «حور» و(الحوْر: الرجوع عن الشيء إلى شيء... والمُحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب... والمُحاورة: مراجعة

(١) انظر: الكلام عن محاولات غالينو في الفصل الأول من الباب الثاني (٩٣٩).

المنطق، والكلام في المخاطبة)[١]، وعلى هذا جاء استعماله في القرآن، قال الراغب في «مفردات القرآن»: (والمُحاورة، والحوَار: المُرادَّة في الكلام، ومنه التحاور، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾[المجادلة:١])[٢].

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق، وإبداء وجهة نظر. يقول د. عبد العزيز التويجري[٣]: (مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر من المفاهيم الجديدة، حديثة العهد بالتداول؛ ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحداثته أن جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلو من الإشارة إلى لفظ «الحوار»... فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي... وعلى هذا الأساس فإن الحوار مفهوم سياسي إيدلوجي ثقافي حضاري، وليس مفهومًا قانونيًّا)[٤].

ولعل من أسباب شيوع هذا الشعار في دعوة التقريب بين الأديان كونه لا يفصح ـ بحد ذاته ـ عن هدفٍ مبيَّت، أو يوحي بتوجهٍ معين، يمكن أن يُعَدَّ ملزمًا أو مُحرِجًا للمنادين به من الطرفين، فالحوار لافتة تخفي وراءها أشكالًا متنوعة من المضامين، ووعاءٌ يمكن أن يحوي مواد متباينة، فقد يكون حوارًا يقصد به التقريب وفق الأسس الفكرية والمنهجية التي سبق بيانها، وربما كان غطاءً لوحدة الأديان كما في «الحوار الإبراهيمي»، وقد يتذرَّع به دعاة توحيد الأديان للتسلُّل إلى مقاصدهم الخفية كما تصنع المونية، ومجموعة كريسلام.

(١) لسان العرب: ابن منظور، جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن مكرم الأنصاري، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) مفردات القرآن (١٣٥)، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٧].

(٣) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

(٤) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، (٧).

وفي نفس الوقت يُستعمل مصطلح الحوار خارج نطاق دعوة التقريب بين الأديان، فيما يُعرف بقضايا «التعايش»، وحينئذٍ فالأمر لا يتعلق بالدين من حيث هو دين، عقيدة وشريعة، ولكن بالعلاقة المعيشية البحتة بين معتنقي الأديان. وهو بهذا الاعتبار يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوبٍ أو طوائف، وربما تكون أقليات دينية، ويُعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجَّرين واللاجئين، ونحو ذلك، ومن أمثلة هذا اللون من الحوار: (الحوار العربي الأوروبي)، و(حوار الشمال والجنوب).

وهذا الحوار بحد ذاته ـ بصرف النظر عما يصاحبه من تأطيرات قد تلتحق بالأنواع السابقة ـ تفرضه طبيعة الحياة البشرية، وحاجاتها الفطرية المختلفة، ومن ثم فلا غبار على الدخول في مفاوضاتٍ أو مداولات من هذا القبيل، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية لمصلحة الأمة الإسلامية، وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد النبوة، كما جرى في المعاهدات النبوية مع يهود المدينة وغيرهم، وزخر الفقه الإسلامي المؤسَّس على الكتاب والسنة بتراثٍ ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

وعليه فلا بد من التبيُّن والاستفصال لدعوات الحوار المُجمَلة، ومعرفة أهدافها ومادتها قبل الخوض في غمارها، وألا يُجَرَّ المسلمون إلى مواقف لم يحسبوا لها حسابًا، ولم يرسموا لها خطة، والجانب المقابل يدرك هذا جيدًا. يقول الكاتب الروسي المعاصر إليكسي جورافسكي في كتابه: (الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم): (في كتابنا هذا حيث تناقش إشكالية الحوار الإسلامي ـ المسيحي لا بد قبل كل شيء من تحديد وضبط مفهوم الحوار ذاته، ففي المعنى العريض للكلمة يمكن فهم الحوار الإسلامي المسيحي كتاريخ للعلاقات المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين على مدى أربعة عشر قرنًا... ولكن في الوقت الحالي يتشكَّل مفهوم آخر للحوار ـ كمحطة تاريخية واعية، كوضع شديد الأهمية والحساسية، يتطلَّب دراسة مفاهيمية ـ نظرية متكاملة، ومعالجة مؤسساتية، عملية مثمرة وفاعلة، إن تاريخ الحوار المذكور لا يمتد لأكثر من بضعة عقودٍ من الزمن،

وتقويم هذه الظاهرة الجديدة من زاويةٍ واحدة أمرٌ غير ممكن، وبُغية تقدير مضمونه الفكري فإنه لا بد أولًا من تحديد سياسي واجتماعي ـ ثقافي للبلد أو للإقليم الذي يجري فيه الحوار، حيث إن الاتجاهات الخاصة بالحوار يمكن أن تكون ذات أهدافٍ متشعِّبة، ووفق مستويات مختلفةٍ أيضًا تصعب الإحاطة بكل أطرافها وتفرعاتها وميادينها المعقَّدة ومتعدِّدة الجوانب، التي تنضوي تحت عنوان «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»، ولكن من الضروري في الوقت ذاته إيجاد مرتكزات منهجية سليمة، من شأنها أن تمنحنا زاوية ملائمة، تسمح برؤية الجوانب المتنوعة في وحدة مشكلية واضحة المعالم إلى حدٍّ معقول)[1].

ونحن بدورنا إذ نستشرف البحث في موضوعٍ يُعَدُّ «نازلة» جديدة بالمسلمين ـ بصورته المعاصرة ـ ويحتل رقعة جغرافية تسع العالم بأكمله، كما يستشف من مسرد المؤتمرات المعقودة، ومواقعها، ويتناول موضوعاتٍ على درجةٍ فائقة من الخطورة والحساسية والآثار المتعدية، لا بد لنا من منهجية صارمة في استقراء معالم هذه الظاهرة المعاصرة ومراميها المعلنة والخفية، وتتبُّع أصولها التاريخية ومفهومها المعاصر لدى مختلف الفُرَقاء.

(١) الإسلام والمسيحية، من التنافس والتصادم إلىٰ آفاق الحوار والتفاهم: أليكسي جوارفسكي، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، مراجعة: أ.د: محمود حمدي زقزوق، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت طبعة (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، (٢١ ـ ٢٢).

الفصل الثاني
الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان

مرَّت دعوة التقريب بين الأديان بمراحل متعددة قبل أن تصل إلى الصيغة السائدة النشطة في النصف الثاني من القرن العشرين، ذلك أن المسافة بعيدة جدًّا بين الرفض المطلق والقبول النسبي، أو النبذ الكلي والاعتراف الجزئي، وتحتاج إلى سلسلة طويلة من الممهدات الفكرية لإحداث تغييرات جذرية لدى المِلَل التي لا تحتكم إلى معايير ثابتة، وعقائد راسخة في مبادئها وتقويمها للآخرين، وهذا ما حدث بالفعل من جانب أهل الكتاب، والنصارى خاصة، ومن بعض الشذاذ المنتسِبين إلى الإسلام على مدار التاريخ.

وقد بدأت محاولات تقريب الإسلام إلى المِلَل والأديان الأخرى منذ وقتٍ مبكر في العهد النبوي المكي، من قِبَل المشركين كما حكى الله عنهم: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم]، وحين عرضوا على نبينا محمدٍ ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله آياتٍ حاسمة حازمة تقطع طمع كل طامع مراوغ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[1] [الكافرون].

---

(١) روىٰ الطبري، وابن أبي حاتم ـ رحمهم الله ـ عن ابن عباس رضي الله عنه: أن قريشًا وعَدُوا رسول الله ﷺ أن يُعطوه مالًا، فيكون أغنىٰ رجل بمكة، ويُزوِّجُوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا: هذا لك عندنا يا محمد، وكُفَّ عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلةً واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة، اللات والعزىٰ، ونعبد إلهك سنة، قال: حتىٰ أنظر ما يأتي من عند ربي، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *﴾ [الكافرون]، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ *وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وتكررت المحاولة في العهد النبوي من قِبَل أهل الكتاب لزحزحة المسلمين عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك، أو الدخول في اليهودية أو النصرانية، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]، ومن ذلك ادِّعاؤهم الإبراهيمية، ومحاجَّتهم المسلمين في ذلك، فأدحض الله حجتهم، وأكذبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [الزمر: ٦٤-٦٧]، جامع البيان (٣٠/ ٣٣١)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله في الحديث: «حتىٰ أنظر ما يأتيني من ربي» قد يقول هذا مَن يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن، ليجعل حجته أن الذي أنزل عليه طاعته قد منع من ذلك، فيؤخر الجواب حتىٰ يستأمره، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه..، فليس في مثل هذا الجواب تردُّد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك)، مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٤٤)، وفي رواية الطبري وابن أبي حاتم أبو خلف، عبد الله بن عيسىٰ، قال الحافظ ابن حجر: «ضعيف» التقريب (١/ ٤٣٩)، وقد روىٰ الطبري عن سعيد بن مينا أن رهطًا من قريش قالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونُشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحَظِّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *﴾ [الكافرون]، حتىٰ انقضت السورة، جامع البيان: (٣٠/ ٣٣١)، ونسبها القرطبي إلىٰ ابن عباس (٢٠/ ٢٢٥)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (٥٠٥)، ولباب النقول للسيوطي (٢٣٧) من رواية عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن سَرَّك أن تتبعنا عامًا ونرجع إلىٰ دينك عامًا، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *﴾ [الكافرون: ١] إلىٰ آخر السورة.

فإذا تجاوزنا هذه المرحلة من العهد النبوي الذي تم فيها إرساء قواعد الإيمان، وتقرير أحكام أهل الكتاب من الناحيتين العقدية والشرعية، والتحذير التام من الانسياق لإغراءاتهم المختلفة: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩]، نجد أن تاريخ اليهودية والنصرانية والإسلام يضم بعض الشواهد التاريخية المتناثرة، أو بعض الممهدات الفكرية المتسلسلة لفكرة التقريب.

وهدف هذا الفصل تتبُّع تلك الشواهد، ورد الفروع الراهنة إلى الأصول الماضية في مسارب الزمن، وثنايا التاريخ.

كما أن التاريخ البشري العام، خارج حدود اليهودية والنصرانية والإسلام، يحتفظ بمحاولات للتقريب بين الأديان، لعل من أشهرها محاولة الملك المغولي الإمبراطور أكبر[1]، في الهند، الذي كان يجمع زعماء الأديان المختلفة من مسلمين ونصارى وهندوس، ويعقد بينهم المناظرات إبان فترة حكمه في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، «وقد شيَّد لهذا الغرض بناية فخمة في عاصمة مملكته «فاتحبور سِكري»، أطلق عليها اسم «خان العبادات»، وسعى لتحقيق المساواة بين الأديان، فألغى الجزية والامتيازات الأخرى، وحاول تأسيس دينٍ جديد ملفَّقٍ من سائر الأديان سماه «دين إلهي».

وقد أثار نهمه بالمناظرات التنافس بين أتباع الأديان المختلفة، حتى إن نصارى الهند بعثوا سفاراتٍ إلى روما وفرنسا وإسبانيا للاستعانة بهم في مناظرة المسلمين أمام الإمبراطور، فأمَدُّوهم باليسوعيين والفرنسيسكان، طمعًا في تنصير المغول، ولكن المناظرات التي كان يديرها الإمبراطور نفسه أسفرت عن

(١) الإمبراطور أكبر: (١٥٤٢ ـ ١٦٠٥م)، سليل تيمورلنك، ابن همايون من زوجته الفارسية حميدة، ثبَّت إمبراطورية المغول المتداعية حين استلم الحكم ١٥٥٦، يعتبر أعظم الملوك المسلمين، وأباطرة المغول في الهند، ترك إمبراطورية قوية منظَّمة، امتدت من كابل غربًا إلىٰ بنغال شرقًا، ومن أسفل الهملايا شمالًا إلىٰ نهر نرمدة جنوبًا، استعاد من الفرس مستعمرات أجداده في أواسط آسيا، المنجد في الأعلام (٥٨).

اعتناقه للإسلام، وتَسمِّيه بمحمد، وتلقُّبه بجلال الدين، وتكَنِّيه بأبي الفتح[١].

ولا بد من تحديد مدلولٍ واضح لما هو «تاريخي» وما هو «معاصر»، وقد اعتمدت عُرف المؤرخين باعتبار التاريخ المعاصر هو القرن الراهن، أي المئة سنة الأخيرة[٢].

وسوف تتم دراسة الأصول التاريخية من خلال ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: عند اليهود.
- المبحث الثاني: عند النصارى.
- المبحث الثالث: عند المسلمين.

(١) انظر: المنجد في اللغة والأعلام: لويس معلوف اليسوعي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الحادية والعشرون ١٩٧٣م، (٥٨)، ومجلة الأمة عدد ٥٤ عام ١٩٨٥م (٤٣) وانظر صورًا لخان العبادات وجلسات المناظرات في Recognize the Spiritual Bonds which Unite Us، p:4 7 8 8، وانظر: تمجيد روجيه جارودي له في الباب الثاني، المحاولات الفردية.

(٢) ليس ثم تقسيم حاسم، متفق عليه، للعصور التاريخية، والتقسيم الغربي التقريبي يدل علىٰ ما يلي: العصور الوسطىٰ التي تلت العصور القديمة: تبتدئ من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ وتنتهي باكتشاف كولومبوس لأمريكا عام ١٤٩٢م، وأما عصر النهضة فيطلق علىٰ فترة الانتقال من العصور الوسطىٰ إلىٰ العصور الحديثة (القرون ١٤ ـ ١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية (١٤٥٣م)، وتمثل القرون (١٧، ١٨، ١٩) العصر الحديث. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: إشراف: محمد شفيق عطا غربال، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ عام ١٩٦٥م، (١٢١٦ ـ ١٢١٧).

المبحث الأول

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند اليهود

لم يُبْدِ اليهود ميلًا إلى التقارب مع الديانات الأخرى، سواءً في المجتمعات النصرانية التي سِيمُوا فيها سوء العذاب، أو في المجتمعات الإسلامية التي نعموا فيها بالأمن والاستقرار ورغد العيش، بل وتبوَّءوا فيها المناصب العليا، فيما عُرِف في اصطلاح اليهود أنفسهم بـ «العصر الذهبي لليهود»، في إسبانيا المسلمة، «الأندلس»[(١)].

ويرجع ذلك إلى عقيدة صارمة راسخة، هي عمدة الديانة اليهودية المتوارثة، وهي: «عقيدة شعب الله المختار» الذي حَظِي بالاصطفاء، وأقيم العهد الرباني معه دون غيره، وما أنشأ ذلك من عقائد تلمودية[(٢)] باعثها الحقد والتشفِّي من الأمم الغالبة، بوصفها «أغيارًا» أو «جوييم» ـ أي أُمَمِيِّين ـ لا تستحق مُصافَّة اليهود، فضلًا عن مقاربتهم.

لذا عاش اليهود ردحًا من الزمن في عزلة اجتماعية وفكرية وسياسية عن المجتمعات التي يقطنونها كأقليات، وضرب الحاخامات حول أتباع الديانة اليهودية سياجًا من التحذيرات والإرهاب الروحي، وأحيانًا البدني لمن تسوِّل له نفسه خرق التعاليم الدينية، ولم يطوِّر اليهود من موقعهم الديني ـ خلافًا للنصارى ـ أي مشروع للتقارب مع الآخرين، رغم شدة الضغوط والاضطهاد التي يلقونها غالبًا، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]، بل

(١) انظر: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، إسرائيل شاحاك (٩١).

(٢) انظر: حقيقة التقريب عند اليهود في هذا الباب.

وحين واتَتْهم الفرصة أسفروا عن خبايا نفوسهم، وصرَّحوا بأفضلية دينهم على سائر الأديان، كما جرى ذلك حين هجم المغول على الممالك الإسلامية، وقضوا على الخلافة العباسية، وفتكوا بالمسلمين في بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٨٥م، في حين أمَّنوا اليهود والنصارى[١]، وفتح الوزير الرافضي الخبيث ابن العلقمي[٢]، والخواجه نصير الدين ـ بل نصير الشرك ـ الطوسي[٣] الباب على مصراعَيْه للزنادقة والفلاسفة، وبنى لهم «دار الحكمة»[٤]، ففي تلك الأحوال المضطربة التي ينعق فيها بوم الكفر والزندقة، ويغيب فيها سيف السلطان، وكلمة الحق، ألَّف اليهودي سعيد بن منصور بن كمونة[٥] كتابه «تنقيح الأبحاث في البحث عن المِلَل الثلاث»، (لقد وضع ابن كمونة بحثه في الوقت الذي كان فيه الإسلام ـ تمامًا كالمسيحية واليهودية ـ ديانة تتقبَّلها السلطة المغولية ـ البوذية، هذه المساواة في نظر السلطة بين الأديان الثلاثة هي ما أتاح لابن كمونة القيام بهذه المقارنة التاريخية...

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٣/ ٢٠٢).

(٢) محمد بن أحمد بن علي (٥٩٣ ـ ٦٥٦هـ) أبو طالب، مؤيد الدين! الأسدي، البغدادي، المعروف بابن العلقمي، وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء في ممالأة هولاكو علىٰ غزو بغداد، كان رافضيًّا، وقد أهين علىٰ أيدي التتار بعد دخولهم بغداد، ومات غمًّا في قلة وذلَّة، ودُفِن في مشهد موسىٰ بن جعفر «الكاظمية» ببغداد. انظر: الأعلام (٥/ ٣٢١).

(٣) محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ) أبو جعفر، فيلسوف، كان رأسًا في العلوم العقلية، علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير عليه، ابتنىٰ بمراغة قبة ومرصدًا عظيمًا، وقرَّر منجمين لرصد الكواكب، وجعل لهم أوقافًا تقوم بمعاشهم، وكان هولاكو يمده بالأموال، صنَّف كتبًا عديدة في الفلسفة وعلم الهيئة والرياضيات، وهلك ببغداد. انظر: الأعلام (٧/ ٣٠).

(٤) المرجع السابق (١٣/ ٢١٥).

(٥) سعيد بن منصور بن سعد، هبة الله، ابن كمونة: الإسرائيلي، عز الدولة، أديب، منطقي كيميائي فيلسوف اليهود، من أهل بغداد، توفي بالحلة سنة (٦٨٣هـ)، من مؤلفاته: «شرح تلويحات السهروردي في الحكمة»، «اللمعة الجوينية»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «الحكمة الجديدة في المنطق»، «شرح التلويحات في المنطق والحكمة». انظر: الأعلام (٣/ ١٠٢)، كشف الظنون (٩٥، ٤٨٢، ٤٩٥، ٦٨٥)، معجم المؤلفين (٢/ ٢١٤).

إنه حوار الديانات الثلاث كما كان يُقدَّر لمثل هذا الحوار أن يقوم في بغداد في القرن الثالث عشر)[١].

والحقيقة أنه كان حوارًا من طرفٍ واحد، بل إنه يفتقر إلى المساواة خلافًا لما يزعمه الكُتَّاب الغربيون المُغرَمون بالنقد التاريخي للأديان، وقد أجحف ابن كمونة الإسلامَ حقَّه، وطعن في صدق القرآن، مما حمل العامة على محاولة قتله[٢].

وحين أبدى الرِّبِّي إبراهيم بن موسى بن ميمون، الذي ورث عن والده الشهير لقب «رأس الجالوت» في مصر الأيوبية سنة ١٢٣٧م، نوعًا من الميل والتقارب مع الشريعة الإسلامية، قوبل مقابلةً عنيفةً من أبناء الجالية اليهودية، ورُمِي بالابتداع؛ لأنه دعا إلى (تقليد المحيط المسلم، مثلًا في الصلاة.... يقترح إزالة المساند من الكنيس، وتوزيع سجاجيد الصلاة على الأرض، كما هو الحال في المساجد، واقترح أيضًا الركوع كما هو الحال في صلاة المسلمين... ويمتدح الصمت المحترم في المساجد الذي كان على نقيض الضوضاء غير المبجَّلة، والصخب الذي تميَّزت به المعابد اليهودية في ذلك الزمن...)[٣].

وقد آل به الأمر أن اشتكاه اليهود إلى الملك العادل، بدعوى أنه (يحاول إرغامهم على تبنِّي بدعة محرَّمة في دينهم... لذلك أجبر إبراهيم أن يعتذر للحاكم المسلم، وأن يعلن توبته، وأنه لن يسيء استخدام سلطته باعتباره «رأس الجالوت» للطائفة اليهودية، وذلك عن طريق إدخال بدعٍ عليها)[٤].

إن اليهود -لبواعث عنصرية بحتة- لم يُخضِعوا ديانتهم لتجربة التقارب بين

(١) الحقيقة بنت زمانها، مقارنة الأديان عند ابن كمونة، فريدريش نيفونر، مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (١٧٢ ـ ١٧٨).

(٣) الفكر الإسلامي والفكر اليهودي: بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل، هافا لازاروس ـ يافه، مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩).

(٤) المرجع السابق.

الأديان، وحرصوا أشد الحرص على التميُّز عن الأُمَمِيِّين، ولكنهم استعاضوا عن تعريض دياناتهم للمساومة بإنشاء الجمعيات الهدامة التي تدعو إلى «العالمية»، وتطلق الشعارات الإنسانية الفضفاضة، كالحرية والإخاء والمساواة؛ ليتم تذويب وصَهْر جميع الأديان، والثقافات العالمية في صهريجه الضخم، وتبقى «اليهودية» نقية، متماسكة أمام تيار «العالمية»، فيتسنى لها بعد القضاء على الخصوم تحقيق السيادة على العالم.

الماسونية:

ومن أقدم تلك الجمعيات وأشهرها، وأكثرها نفوذًا: «الماسونية»، وهي منظمة سرية يهودية، عالمية، يُرجِع بعض الكتاب تاريخ إنشائها إلى حِقَبٍ بعيدة في التاريخ، ترفع شعارات إنسانية، وتُخفي ملامح يهودية في طقوسها ورموزها واصطلاحاتها، وتهدف في آخر المطاف إلى سيطرة اليهود على العالم[(١)].

وليس من هدف البحث الاستطراد في حقيقة هذه الجمعية الغامضة وما أحيطت به من مبالغات وتهويلات ـ ربما كان وراءها الماسون أنفسهم ـ بل الذي يعنينا هو موقفها من قضية التقريب بين الأديان، بوصفها جناحًا قويًّا من أجنحة اليهودية، في موازاة الصهيونية، فالماسونية لاستغلال غير اليهود في مصالح اليهود، والصهيونية للحفاظ على هوية اليهود خاصة.

يقول رئيس محفل الشرق الأعظم الماسوني، محمد رشاد فياض، في كتابه النور الأعظم: (الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والمحمدية[(٢)]

(١) انظر: عن الماسونية: السر المصون في شيعة الفرِمسون، لويس شيخو، أسرار الماسونية: الجنرال رفعت أتلخان، الماسونية: داود سنقرط، بروتوكولات حكماء صهيون: ترجمة: وتقديم: د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، الماسونية: محمود ثابت الشاذلي، الماسونية ذلك العالم المجهول، صابر طعيمة، الماسونية في العراء، د. محمد الزغبي.

(٢) المحمدية: تعبير يراد به المسلمون، وقد نقل الشيخ بكر أبو زيد عن محمد علي مؤلف: الفكر الخوالد قوله: (أما التسمية بمحمدي ومحمدية فلم تكن في يوم من الأيام سائدة ولا مستساغة لدىٰ أتباع هذا الدين، وعقب قائلًا: (إذًا: فالتوقي من هذا الإطلاق مناسب)، معجم المناهي اللفظية

يجتمعون ـ هكذا ـ في ميم واحدة هو ميم الماسونية؛ لأن الماسونية عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، إنها تجمع وتوحِّد المتفرقات والمتشتِّتات، وإن باءَي البوذية والبرهمية يجتمعان في باء البناء؛ بناء هيكل المجتمع الإنساني الصالح المنزَّه من العمالة العنصرية والعملاء، إن ما أورثه الآباء الصالحون للأبناء هو مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، ونحن نزيد عليها المحبة والعدالة والعطاء... الماسونية على حقيقتها ليست عمالة لأية ديانةٍ أو عنصريةٍ معينة، إنها عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، وبالمبادئ الإنسانية مزينة، عقيدة الأحرار، هي عقيدة لجميع أبناء البشرية دون تمييزٍ أو تفريق، وإنها لن تمنح الفضل والأولوية لفريقٍ دون فريق)[1].

وهذه عباراتٌ مشبعة بالرموز الباطنية التي تذكر بمقالات البهائية والصوفية من جهة، ومسكونة بروح التهمة من جهة أخرى، لا سيما وهي تصدر عن ماسوني عربي يحاول تحسين وجه الماسونية اليهودية الكالح، وإلا فإن عداء الماسونية للأديان جميعًا أمرٌ لا يَخفى، قد طفحت به تصريحاتهم، كما جاء في البرتوكول الرابع عشر لحكماء صهيون: (عندما نغدو سادة لن نترك دينًا قائمًا غير ديننا القائل بالإله الواحد الذي يرتبط به مصيرنا؛ لأننا نحن شعب الله المختار، وبنا ارتبط مصير العالم، ولذا يجب أن نقضي على كل الأديان، فإذا نشأ عن ذلك وجود ملحدين عصريين فإنهم سيكونون عناصر انتقالية، وهذا لا يضر مخططنا؛ لأنهم سيكونون مثالًا للأجيال التي ستعتَنِق تعاليم دين موسى، الذي بفضل قوته وعقلانيته يجب أن ينتهي بنا إلى التسلط على العالم كله)[2].

(٤٩٧).

(١) النور الأعظم (١١٢ ـ ١١٥)، عن الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين (١٨١).

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون (٨٦)، ترجمة: د. إحسان حقي، وانظر: الماسونية تحت المجهر (٥٦ ـ ٥٧).

المبحث الثاني
الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند النصارى

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها، فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة ومهد المسيح عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تيهِ الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تيهِ الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد، وفي مدةٍ تقل عن مئة عام تمكَّن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط، وفي مدةٍ تزيد على المئة عام قليلًا بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا، (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفع، مخلِّفًا في الحقيقة صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)[(١)]، كما عبَّر أحد الكُتَّاب الغربيين.

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام كانت تتمثَّل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، كما وعد الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف]، فـ(في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي، وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحوَّلت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام)[(٢)]، كما يعترف كاتب آخر.

وربما ظنَّت الدولة البيزنطية لأول وهلة أنها أمام زوبعة عارضة نشأت بسبب

(١) انظر: الشخصية العربية في الجدال المسيحي مع الإسلام، دانيل ساهاس، مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١١١).

(٢) الإسلام والمسيحية، أليكسي جورافسكي، (١٧٨).

انفجار سكاني، وضيق معيشي حاقَ بأعراب الجزيرة، سرعان ما تخبو جذوته ويخمد لهيبه؛ لافتقار القوم لأُسُس التنظيم والتخطيط الذي يحفظ مكاسبهم.

وربما ظنَّت الكنيسة الأرثوذكسية، وغيرها من الكنائس المحلية الأخرى أنها أمام همج رعاع لا يرتقون في تفكيرهم إلى آفاق الثقافة الهلنستية[1]، فلا تملك تقاليدهم البدوية الصمود أمام الفلسفة النصرانية العريقة.

ولكن هذه الظنون من المؤسستين الرسمية والكنسية تهاوت، كما تهاوت جحافلهم أمام إيمان الفاتحين المسلمين، ومتانة ووضوح عقائدهم.

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنَعة أن تُذعِن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تذعن للأمر الواقع، ومن ثم فقد اتَّسَمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرَّفة اتخذت نفس الطابع، ولم يكن هناك مجالٌ لما عُرف أخيرًا باسم «التقريب» أو «الحوار» من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ويصف المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي هذه العلاقة التاريخية في جانبيها السياسي والعقدي بالعبارات التالية: (إن المجابهة العسكرية ـ السياسية بين هاتين الديانتين ـ أو قُل بين هاتين الحضارتين ـ منذ بَدْء ظهورهما المتجاور، ووصولًا إلى القرن العشرين، كانت هي الطابع المسيطر على علاقاتهما الأخرى ـ بما في ذلك العلاقات الدينية ـ الأيديولوجية، وبوُدِّنا التأكيد في هذا السياق أن ترسيخ الإسلام وتوطيد أركانه العقائدية في سوريا ومصر وشمال أفريقيا سحبَا من المسيحية النصف الغني بثرواته من المجال الجغرافي الحضاري لشاطئ البحر المتوسط.

---

(١) الهلنستية أو الهيلينية Hellenism: الثقافة الناشئة من امتزاج الفلسفة اليونانية بثقافات حوض البحر المتوسط، وهي الثقافة السائدة إذ ذاك. انظر: الموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحَفني، دار ابن زيدون ـ بيروت، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، الطبعة الأولىٰ، (٥٠٢).

إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب ـ المسلمين من إسبانيا، وسقوط القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرُّد الشعوب الإغريقية والسلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة أُلبِسَت رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد «الكفرة»[(١)]، ولهذا فإن مقولات مثل: «الحروب المقدسة» أو «الجهاد» ترسخت في وعي ومدارك، وفي لاوعي أتباع الديانتين كأوامر إلهية لا رادَّ لها، بل أصبحت فريضة على المؤمنين من كلتا العقيدتين أن يلتزموا بأدائها، والاستشهاد في سبيلها، وصولًا إلى إلغاء الطرف «الكافر»، أو «إخضاعه» وإلزامه بشروطٍ مُذِلَّة في كثيرٍ من الحالات والمواقف)[(٢)].

أساليب النصارى في مواجهة الإسلام:

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، بدءًا من القرن السابع إلى القرن العشرين، حتى تبلغ مرحلة «الحوار»، وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، يمكن تحديدها بما يلي:

أولًا: أسلوب التشويه والتضليل:

وقد وُلِد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام، ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي

---

(١) وهذا هو الواقع ظاهرًا وباطنًا لدىٰ المسلمين في فتوحاتهم، انطلاقًا من قول الله تعالىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وغيرهما، أما بواعث النصارىٰ فالرجل أدرىٰ بقومه.

(٢) الإسلام والمسيحية (٣٦ـ٣٧).

عُرف باسم «يوحنا الدمشقي»[١]، المتوفى سنة ٧٥٠م، وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية، وقد ألَّف عدة مؤلفاتٍ ضمَّنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن، فالإسلام عنده ليس دين إبراهيم عليه السلام، بل هو مُؤذِن بالمسيح الدجال، والرسول ﷺ واحد من أتباع بدعة آريوس، لا يعرف من العهدين القديم والجديد إلا ما ضحلت قيمته، والقرآن نتاج لأحلام اليقظة، كما ينتقد إجراءات الزواج والطلاق في الشريعة[٢].

إن هذا القسيس المضلِّل الذي يصفه النصارى بـ «القديس»، يبوء بإثم إشاعة هذه الافتراءات التي صدت كثيرًا من النصارى في الشرق والغرب عن الوقوف على حقيقة الإسلام[٣]، يقول إليكسي جورافسكي: (إذا كنا نتفق على واقعة أن التصوُّرات الأوروبية عن الإسلام تشكَّلَت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكوَّنَت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية، وتُعَدُّ المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م، من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصوُّرات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة، ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيَّف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين،

---

(١) وُلِد في دمشق عام ٦٧٥ تقريبًا، من آباء ومعلمي الكنيسة، ويوصف بـ«القديس»، قاوم ما يسميه النصارىٰ بدعة تحطيم الصور «الأيقونات»، وألَّف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر. انظر: المنجد في الأعلام (٧٥٣).

(٢) انظر: مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) دانييل ساهاس مجلة الاجتهاد: (٢٨/ ١٠٩ ـ ١٣٦).

(٣) يقول دانييل ساهاس: (يبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الإتيمولوجي ـ أي الاشتقاقي ـ لأغراض الجدل العنيف، وتحفيز الذاكرة) الاجتهاد (٢٨/ ١٢٦) وذلك حين نبز المسلمين بلقب «السرازنيين Saracens »، أي الذين أبعدتهم سارة باحتقار.

ومنهم إلى الأوروبيين)[١].

وإذا كان يوحنا الدمشقي، وهو عربي النسب واللسان، يلجأ إلى كتابة مفترياته وتشويهاته المتعمَّدة عن الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه العزيز باللغة اليونانية، وهو يعيش بين ظهرانَيِ المسلمين، وفي خدمة البلاط الأموي خشية رَدِّ الفعل العلمي والاجتماعي والسلطوي، فللقارئ أن يتخيَّل ما يمارسه القُسُس الحاقدون الذين يعيشون خلف الحدود في أرجاء أوروبا البيزنطية، ثم الرومانية، حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقَّفون من إنتاج نظرائهم الذين يتميزون غيظًا وحسدًا في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه ما تبلغه أوهامهم المريضة، وخيالاتهم الفاسدة من أساطير وحكايات مُسِفَّة، وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا، طوال القرون الوسطى، فقد رُوِّجت العديد من الخرافات والتهم السخيفة عن الإسلام، وعن شخص نبينا محمد ﷺ نعفُّ عن ذكرها إكرامًا له وتوقيرًا، مما حَدَا بباحث روسي معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلًا: (وللحقيقة، يجب القول أن تلك الأساطير المختلَقة تمثِّل سخرية مأساوية؛ لأن النبي «محمد» الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادةَ الأوثان، والذي حطَّم جميع أصنام الكعبة، يتحوَّل في تصوُّر المسيحيين إلى «صنم يؤلِّهه أتباعه» الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقارًا لقب «عبيد سارة» أو «أبناء الجارية»)[٢]، وقد ظل هذا الأسلوب هو الأسلوب السائد والأسهل في الأوساط الشعبية للتنفير من الإسلام والصد عن سبيله، حتى اعتنقت أوروبا المذاهب العقلية، وانعتقت من سلطان الكنيسة الكهنوتي، فانحسر نوعًا ما، وإن كنا لا نزال نطَّلع على خائنةٍ منهم، تحملها وسائل الإعلام المختلفة، تُنبئ عن حقدٍ دفين[٣].

---

(١) الإسلام والمسيحية (٧٠ ـ ٧٣).

(٢) الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر: أيضًا ما جاء في (٦٧، ٧٤ ـ ٧٦).

(٣) دأبت وسائل الإعلام الغربي النصراني ـ ومن خلفها اليهود ـ علىٰ تشويه صورة الإسلام والمسلمين بتصويرهم بصورة الأحمق الجاهل المتخلف، وأخيرًا الإرهابي، وبَثِّ ما يسيء إلىٰ المسلمين

ثانيًا: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

ورائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجَّل) ـ كما يصفه النصارى ـ عاش في الفترة ١٠٩٤م ـ ١١٥٦م، وشغل منصب رئيس كهنة دير كلوني، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م، والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية، (وقد انطلق من مُسلَّمة حتمية الصراع ولكن ليس بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجة، وفي نظرته للمسلمين كهراطقة، واعتقد بطرس المبجَّل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكَّن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يُظهِروا لهم بشكل مقنع أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم)[1].

ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل ـ عندهم ـ كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عُرف بـ «الإصلاح الكلوني»، وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الإسبانية Reconquista، ولكن الفترة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة الشرق الإسلامي، مما أدى إلى إعطاء الحروب الإسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية، ولعل هذا ما حَدَا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية.

يقول أستاذ لاهوت الأديان «لودفيغ هاغمان»: (يعتبر رئيس كهنة دير كلوني بطرس المعروف بالمبجَّل «١٠٩٤ ـ ١١٥٦» أول مَن مهَّد الطريق للمجادلة العقلية مع الإسلام، وقد اكتسب بذلك شهرة عريضة، فأثناء زيارته التفتيشية والرعوية للأديرة الخاضعة لرهبنته في إسبانيا عام ١١٤٢، خطرت له فكرة القيام بمجادلة عقلية، فالمعلومات الناقصة وغير الواضحة التي كوَّنها معاصروه

ويحتقرهم من الدعايات التجارية التي تسخر بعقائد الإسلام وشرائعه، وكان آخرها الرسوم اليدوية الساخرة المسيئة لنبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، في بعض الصحف الأوروبية باسم حرية التعبير!

(١) الإسلام والمسيحية (٨١).

لأنفسهم جعلته يصل إلى القناعة بضرورة سد هذا العجز عبر برنامج مُلِح وصفه كما يلي:

١ ـ ردم حدة العجز الحاصل في المعلومات.

٢ ـ استنكار العمليات العسكرية.

٣ ـ إعطاء الأفضلية لتبرير الإيمان والمعتقد المسيحيين.

٤ ـ أخيرًا الإقدام على وضع ترجمة لاتينية للقرآن الكريم)[١].

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجَّه بنفسه خطابًا مفتوحًا إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يُدعى محمدًا)[٢].

كما صنَّف كتابًا أسماه «دحض العقيدة الإسلامية» ضُمَّ لاحقًا إلى ترجمات أتباعه، وعُرفت المجموعة باسم «المجموعة الطليطلية» أو «فيلق كلوني» (وهي المجموعة التي صارت بالنسبة للأوروبيين المصدر الرئيسي للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمئة عام تقريبًا)[٣].

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، إلا إنه يمثِّل تحولًا في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهاترات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرُّف على الخصم عن كثب؛ لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه، وقد نسج على منوال بطرس المبجل -فيما بعد- المستشرقون في القرون اللاحقة، كما لاحظ ذلك المستشرق جورافسكي، فقال: (يلاحظ أي

---

(١) المسيحية والإسلام من التصادم إلىٰ التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٥ ـ ٢٦).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ ـ ٨٣).

(٣) الإسلام والمسيحية (٨٤).

باحثٍ موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين لم يتخلَّصوا من المواقف المسبقة الموجَّهة ضد الإسلام، سواءً أكان عداؤها صريحًا مباشرًا وعنيفًا، أم كان يتَّسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية)[١].

ثالثًا: أسلوب التبشير «الدعوة إلى التنصر»:

ويمثِّل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس الأسِّيزي «١١٨٢ ـ ١٢٢٦م»، ويَعُدُّه النصارى من أكبر قديسيهم، وإليه تُنسَب طائفة الرهبان الفرنسيسكان، وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح عليه السلام: (اذهبوا في العالم أجمع، وأعْلِنُوا البشارة إلى الخلق أجمعين) (إنجيل مرقس ١٥:١٦)[٢]، وقد قام فرنسيس الأسِّيزي بنفسه بهذه المهمة، فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجَّهة نحو مصر عام ١٢١٩م، والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية[٣].

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث النشأة للفرنسيسكان، طائفة الرهبان الدومينيكان التي أسَّسها الراهب الإسباني دومنيك «١١٧٠ ـ ١٢٢١م»، وإليها يُنسَب «توما الأكويني»[٤] المتوفى سنة ١٢٧٤م، أكبر لاهوتي دومينيكاني.

ويقوم الفرنسيسكان والدومينيكان بذَرْع العالم، وبَعْث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث عشر

---

(١) الإسلام والمسيحية (١٠٥).

(٢) العهد الجديد (١٧٨).

(٣) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧ ـ ٨٩).

(٤) توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) وُلِد في إيطاليا، وعلّم في جامعة باريس، معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية «سكولاستيك»، اطلع علىٰ آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها، من مؤلفاته العديدة: الخلاصة اللاهوتية، والخلاصة ضد الأمم. انظر: المنجد في الأعلام (١٩٦).

الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسَّسوا معهدًا في القاهرة باسم «معهد الدراسات الدومينيكاني»، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية «الإخاء الديني» عام ١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية[١].

رابعًا: أسلوب التقارب والحوار:

لعل أقدم تراثٍ نصراني يشير إلى نزعة التقارب والحوار الديني المُفضي إلى تصويب جميع صور العبادات والأديان هو ما جرى به قلم الراهب «رامون لول»[٢]، الذي عاش حقبة الحروب الصليبية في المشرق، والصراع الإسلامي ـ النصراني في الأندلس، وكانت مدينة «ميورقة» الأندلسية -مسقط رأسه- تضم مسلمين ونصارى ويهودًا، وقد ألَّف كتابًا باللغة العربية عنوانه: «الملحد ـ أو الظريف ـ والحكماء الثلاثة» (يبيِّن فيه كيف أن «الحكماء الثلاثة»؛ اليهودي والمسيحي والمسلم، أنقذوا «الظريف» «الكافر» من يأسه؛ إذ حملوا إليه الرسالة نفسها: ليس الإنسان وحيدًا، وللعالم معنى)[٣]، ويحكي هذا الراهب - المتأثر بفلسفة ابن عربي ـ كيف اكتشف هؤلاء الثلاثة وحدة إيمانهم العميقة، وخطيئة انقسامهم.

وقد كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثار بعيدة المدى على جميع المستويات، فقد اهتزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة: د. سعود المولىٰ، دار المنهل اللبناني، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، (١٤٠)، وسيأتي التعريف بالجمعية ومناشطها في الباب الثاني (٩٤٢).

(٢) راهب فرنسيسكاني، وُلِد في ميورقة عام ١٢٣٢م، زاول التنصير في أفريقية، وعارض فلسفة ابن رشد، وشجَّع تعليم اللغات الشرقية، له مؤلفات بالعربية، توفي عام ١٣١٥هـ. انظر: المنجد في الأعلام (٦١٧).

(٣) انظر: الإسلام (١٣٦ ـ ١٣٨)، الإسلام في الغرب (٢٣٩ ـ ٢٤٠) لروجيه جارودي.

لسقوط مدينة قسطنطين الكبير، وحطَّم ذلك البقية الباقية من كبريائها، وكان من آثار ذلك أن (برزت أطروحات ومواقف جديدة كل الجدة في هذا السياق، مثَّلها نيكولاي كوزاني (١٤٠١ ـ ١٤٦٤م)، ويوحنا سيغوفي (حوالي ١٤٠٠ ـ ١٤٥٨م)، حيث انطلق الاثنان من رؤية مؤدَّاها أن الحرب لا تحل الخلاف بين الديانتين، وكلاهما اعتقد أن المحاولات الرامية إلى تحويل المسلمين إلى المسيحية بلا معنى ولا طائل منها، ولم تؤدِّ إلى نتائج إيجابية، ولهذا طالبَا بضرورة الكشف عن الفوارق والاختلافات الواقعية، والبحث الجاد عن الأمور المشتركة بينهما، وتماشيًا مع هذا المنحى درس نيكولاي كوزاني ويوحنا سيغوفي فكرة وضع أساسٍ راسخ للحوار بين ممثلي هاتين العقيدتين)[١]، وقد ألَّف نيكولاي كوزاني كتابه «سلام الإيمان» في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثم ألَّف عام ١٤٦٢م (شرحًا نقديًّا للقرآن الكريم «في غربلة القرآن» هادفًا إلى أن يباشر حوارًا ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)[٢]، وكذلك صُنع صديقه سيغوفي، وهذه المحاولات في تاريخ دعوة التقريب لدى النصارى دفع إليها هول الصدمة الناتجة عن سقوط القسطنطينية، وقد تلاها سابقة لافتة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث وجَّه البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ ـ ١٤٦٤م كتابًا إلى السلطان العثماني محمد الفاتح يتضمَّن بحثًا في مسائل عقدية[٣]، ودعوة إلى النصرانية، ولكنه كما وصف لودفيغ هاغمان: (تشتم منه رائحة اليأس)[٤].

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني «البروتستانتية» على يد مارتن لوثر[٥]

(١) الإسلام والمسيحية، (٩١).

(٢) الإسلام، روجيه جارودي، (١٣٨ ـ ١٣٩).

(٣) الإسلام والمسيحية، (٩٢).

(٤) المسيحية والإسلام من التصادم إلىٰ التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٨).

(٥) راهب أوغسطيني، لاهوتي ومفكر وكاتب، بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني «البروتستانتية»، وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات، وسلطة البابا، والتبتل، وإكرام القديسين، والمطهر والقداس، وفي ١٥١٧م نقل التوراة إلىٰ الألمانية، فكانت الترجمة حدثًا دينيًّا أدبيًّا. انظر: المنجد في الأعلام (٦١٥).

(١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) بدت وكأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر «خرافات الأوروبيين وجهالاتهم» حيال الإسلام، ولكنه سرعان ما قلب ظهر المجن، وصب جام غضبه وسبابه المقذع على الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا عام ١٥٢٩م[(١)].

و(في عام ١٧٠٥ أصدر هادريان ريلاند «١٦٧٦ ـ ١٧١٨م» كتابه «الديانة المحمدية» الذي يعتبر أول عرضٍ موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه، وفي هذا العصر قدم غولتهولد أفرايم لسنغ (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) عمله الأدبي «ناتان الحكيم»، الذي وضعه بصيغة رمزية جوابًا عن السؤال التالي: أيٌّ من الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية والإسلام تعتبر الدين الحق؟)[(٢)]، ليصل إلى أن كلًّا من الديانات الثلاث تعكس وحي الله.

ولكن هذه النبرات التي تحاول أن تتَّسم بالموضوعية في مطلع القرن الثامن عشر ظلت خافتة ضعيفة وسط ضجيج التعصب والعماية لأصوات أكثر شهرةً وقبولًا من أمثال الكاتب الفرنسي الشهير «فولتير»[(٣)] (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م)، الذي ألَّف مسرحية بعنوان «التعصب، أو النبي محمد»، ونَبَزَ فيها شخصَ نبيِّنا محمد ﷺ بأبشع الصفات، في عصر يوصف في التاريخ الأوروبي بعصر الأنوار، (وبشكل عام يمكن التأكيد أنه بدءًا من القرن الخامس عشر وإلى نهاية القرن التاسع عشر نمت المعارف الواقعية عن الإسلام بصورة بطيئة لأقصى الحدود،

---

(١) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلىٰ التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(٢) المسيحية والإسلام من التصادم إلىٰ التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٣١).

(٣) فولتير (فرنسوا ماري أراوي) وُلِد في باريس، مؤلف فرنسي من نوابغ زمانه، أقام في بروسيا وسويسرا، تزعم حركة الفلسفة المادية، وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية، ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع، كتب في الشعر والتاريخ والمسرح والمراسلة والفلسفة، من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية «كنديد»، «زئير»، «محمد»، «شارل ١٢». انظر: المنجد في الأعلام (٥٣٣).

وضمن وسط محدود جدًّا من الدوائر العلمية الأوروبية)[١].

ويرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأوَّلية، الممهِّدة فلسفيًّا ولاهوتيًّا للحوار الإسلامي ـ المسيحي، الذي نوقش رسميًّا للمرة الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني) تمت على يد شخصيتين بارزتين:

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف «١٨٥٣ ـ ١٩٠٠»، الذي تدرَّج في فهمه للإسلام وسر ظهوره التاريخي، وشخصية نبيه محمد ﷺ، وكانت ذروة أبحاثه في هذا المضمار في كتابه «محمد.. سيرته وتعاليمه الدينية»، الذي ألَّفه قبل وفاته بأربع سنوات ١٨٩٦م، وفيه يرتقي إلى إثبات نبوة محمد ﷺ حيث يقول: (في مكة وُلِد هذا الإنسان «النبي محمد»، الذي نفذت من خلاله وعود الرب التي قطعها حول إسماعيل جد العرب، وجَدِّ نبيهم هذا... ـ ويقول: ـ لقد كان محمد يملك بالتأكيد عبقرية دينية خاصة... وكل تصرفاته كانت مرهونة ـ دون شك ـ بأسانيد دينية واضحة، إن دعوة محمد وأحاديثه عن الله وصفاته وقدراته، وعن الوحي الإلهي، وعن الأوامر والنواهي، وعن مصير الأشرار والأخيار، رغم أنها لم تكن كاملة، ولكن هذه المبادئ لم تكن كاذبة مطلقًا)[٢].

ولا ريب أن هذا الفيلسوف يرصد الإسلام من وجهة نظر النصرانية حين يفتقد في الإسلام بعض عناصر اللاهوت النصراني، فيَصِفه بعدم الكمال، ودين الإسلام الذي أكمل الله به الدين وأتم به النعمة في غنًى عن شهادته وأمثاله، ولكن المقام مقام تبيين التدرُّج التاريخي في مقاربة النصارى لدين الإسلام وفهمه.

ولا ريب أن هذه الكلمات إذا قُورِنَت بقائمة السباب المقذع الذي كان يصدر من كبار مفكري أوروبا ولاهوتييها خلال القرون الوسطى والحديثة،

(١) الإسلام والمسيحية (١٠٣).

(٢) عن الإسلام والمسيحية: (١١٦ ـ ١١٧).

تبدو تحوُّلًا مهمًّا وتقدُّمًا في طريق الحقيقة، وإن كان بقي على القوم مراحل، ولأجل هذا الطرح الجريء لفلاديمير سولوفيوف في نهاية القرن التاسع عشر، عدَّه جورافسكي (أبًا مؤسِّسًا لحوار بين الديانات الكتابية ـ التوحيدية الثلاثة)[١] على حد تعبيره.

ولعل هذا الفيلسوف اللاهوتي الأرثوذكسي، قد مهَّد الطريق للشخصية الثانية، الكاثوليكية، التي هيَّأت للتقارب والحوار في النصف الأول من القرن العشرين، وهو: المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون[٢] ١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م، الذي اشتغل بالدراسات العربية في دمشق والقاهرة، واستهواه التصوف، فكانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج[٣]، شهيد الإسلام الزاهد)، وكتب عن ابن سبعين[٤] الصوفي الأندلسي، واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث، (وفي رأي الدارسين فإن مؤلَّفاته، وإسهاماته العلمية، ومنطلقاته الروحية، ونشاطاته السياسية مهَّدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)[٥].

---

(١) الإسلام والمسيحية: (١١١).

(٢) لويس ماسينيون: مستشرق فرنسي، عضو في المجامع العلمية في بلدانٍ عديدة شرقية وغربية، اهتم بنشر مؤلفات الحلاج، ترك آثارًا جمة في مختلف الشؤون الإسلامية، ولا سيما الصوفية منها. انظر: المنجد في الأعلام (٦٢٨)، الحلاج: الحسين بن منصور، أبو مغيث.

(٣) الحلاج: الحسين بن منصور، أبو مغيث، فيلسوف من كبار الملحدين، كان يعتقد بالحلول ووحدة الوجود، قبض عليه المقتدر العباسي، وقتل شر قتلة سنة (٣٠٩هـ)، له كتب في تقرير كفره وزندقته تربو علىٰ الأربعين، اعتنىٰ المستشرقون بسيرته وتعاليمه. انظر: الأعلام (٢/ ٢٦٠).

(٤) ابن سبعين (٦١٣ ـ ٦٦٩هـ) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي، قطب الدين، أبو محمد، من الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود، من كتبه: الحروف الوضعية في الصور الفلكية، أسرار الحكمة المشرقية، النصيحة، قال ابن دقيق العيد رحمه الله: جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلىٰ قريب الظهر، وهو يسرد كلامًا تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته، وقال الذهبي: اشتهر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: «لا نبي بعدي»، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، الأعلام (٣/ ٢٨٠).

(٥) الإسلام والمسيحية، (١٢٠ ـ ١٢١).

يقول الأب موريس بورمانس[١]: (.. بفعل «مسيحيين نبويين» مثل: ميجيل أسين إي بلاسيوس، ولويس ماسينيون وغيرهما، تجدَّدَت نظرة الكنيسة إلى الإسلام، وصارت ترى فيه -علميًّا ولاهوتيًّا- دينَ توحيد يرتبط بالدعوة الإبراهيمية... فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إعلان المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م عن علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، الذي أصبح للكاثوليك «شرعة الحوار الإسلامي المسيحي»)[٢].

لقد سلك ماسينيون في سبيل التقريب بين الإسلام والنصرانية مسلكَين:

أحدهما: مسلك علمي يتجلى بجملة من الآراء والأفكار التي كوَّنها عن الإسلام متأثرًا باهتماماته الشخصية بالتصوف، وعلى الخصوص بالحلاج[٣]. (إن تصوُّر ماسينيون للدين الإسلامي يستند بالدرجة الأولى ومن حيث الجوهر إلى النقطتين المركزيتين التاليتين:

١ ـ انتماء الإسلام للملة الإبراهيمية أو للشجرة الإبراهيمية.

٢ ـ النهج الذي سلكه الحلاج في تفسيره وممارسته للإشكالية اللاهوتية للإسلام)[٤].

---

(١) وُلِد في «ليل» ـ فرنسا ـ عام ١٩٢٥م، رُسِّم كاهنًا في رهبانية الآباء البيض عام ١٩٤٩م، دكتوراه في الآداب من السربون عام ١٩٧١م، أستاذ اللغة والقانون الإسلامي والروحانية عند المسلمين في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما (١٩٦٤ ـ ١٩٨٤م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الكهنوت بروما «أوربانيانا»، مدير المجلة الدولية الإسلامية المسيحية Islamo Christiana، من مؤلفاته: «توجيهات في سبيل الحوار ط١٩٨١م»، الحوار الإسلامي المسيحي في العشر سنوات الأخيرة ط١٩٧٨م.

(٢) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: الأب: موريس = بورمانس، أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، ترجمة: المطران يوحنا منصور، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٦م، (٢٧ ـ ٢٨).

(٣) سيأتي الكلام عنه قريبًا.

(٤) الإسلام والمسيحية (١٢٧).

وهذه الثانية تكشف سر حماس ماسينيون للتقارب مع الإسلام، ذلك أن الفرق الهائل بين الإسلام والنصرانية يتركَّز في مفهوم «التوحيد»، حيث ينعى الإسلام على النصرانية عقيدة الحلول والتجسُّد في شخص المسيح، ويكفِّر القائلين بها؛ لمنافاتها للتوحيد الخالص لله رب العالمين، وحيث إن الخلاف في هذه القضية خلاف أساسي مبدئي، فقد وجد ماسينيون في شخصية الحسين بن منصور الحلاج، الصوفي الزنديق، مَنفَذًا يتسلَّل به إلى المسلمين، بتمجيد زائغٍ ينتسب إلى الإسلام ويقول بعقيدة الحلول، أي حلول الإله في شخصه، حتى حمله ذلك على أقوالٍ وأفعالٍ كفرية، قال ابن الجوزي[(١)] رحمه الله: (اتفق علماء العصر على إباحة دم الحلاج)[(٢)]، فكأن ماسينيون يريد أن يجتذب المسلمين لعقيدة تأليه عيسى عليه السلام بضرب المثل بشخص الحلاج الذي صُلِب كما صُلِب المسيح بزعمه، فصار شهيد الإسلام.

ويقرِّر إدوارد سعيد في كتابه الحافل «الاستشراق» هذا المعنى الخفي، فيقول: (كان الإسلام في عرف لويس ماسينيون الذي قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيرًا، رفضًا منتظمًا للتجسد المسيحي، وكان بطل الإسلام الأعظم، لا محمد، ولا ابن رشد، بل الحلاج، القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السُّنيون لجرأته على شخصنة الإسلام)[(٣)]، ويقول أيضًا: (كان النموذج المثالي لماسينيون هو الحلاج، الذي سعى لتحرير نفسه خارج الجماعة السنية بالبحث عن -وأخيرًا بنوال- الصلب عينه الذي يرفضه الإسلام

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث، وُلِد سنة (٥٠٨هـ)، كان كثير التصانيف له نحو ثلاثمئة مصنف، منها: «زاد المسير في علم التفسير»، «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، «تلبيس إبليس»، و«مناقب الإمام أحمد»، «الموضوعات»، وغيرها، توفي سنة ٥٩٧هـ. مرآة الزمان (٨/ ٤٨١)، الكامل (١٠/ ٢٢٨)، الأعلام (٣/ ١٦)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٨)، مفتاح السعادة (١/ ٢٠٧).

(٢) تلبيس إبليس، (١٧٢).

(٣) الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء: إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ـ لبنان، الطبعة العربية الرابعة ١٩٩٥م، (١٢٧).

رفضًا قاطعًا، وكان محمد -كما يرى ماسينيون- قد رفض عمدًا الفرصة التي أتيحت له لعبور الهوة التي كانت تفصله عن الله[١]، ولذلك فإن إنجاز الحلاج تمثَّل في أنه حقَّق وحدة أسرارية بالله، وضد الطبيعة النظرية للإسلام)[٢].

وبالتالي فقد كان ماسينيون يهدف في دعوته الصريحة إلى التقارب بين الديانتين، ليس إلى الوصول إلى جوامع مشتركة فحسب، بل أساسًا إلى استزلال المسلمين إلى القول بعقيدة الحلول وتأنيسها، وتصوير خصومها متزمِّتين منغلِقين ضد «فردٍ متنور» من المسلمين أنفسهم، وليس من خارجهم، وهو الحلاج، دون أن يمَسَّ جوهر النصرانية الشركي القائم على ألوهية المسيح وبنوَّته بأدنى تغيير، ويستدل بواقعة الحلاج الذي أظهر هذه الفكرة واستُشهِد وصُلِب في سبيلها بعد مرور ثلاثمئة سنة تقريبًا على ظهور الإسلام على أن: (الإسلام مفتوح لفعل الخير، ويحمل في جوهره إمكان «التحوُّل من الداخل»، أو «التجدُّد والانبعاث الذاتيين»، والمفهوم هذا يضعه ماسينيون معارضًا «نقيضًا» لمفهوم «التحول إلى دين آخر»، وذلك عَبْر الأولياء المسلمين الذي يأتي الحلاج على رأسهم، ويشغل مكانة الصدارة بينهم)[٣].

وإلى جانب هذه القضية الأساسية التي اتخذها ماسينيون ركيزة أساسية في مشروعه وتفنَّن في عرضها، يحشد شواهد دينية مشتركة ومواقف تاريخية سلمية لدعم فكرته في التقارب، ويعتقد (أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة بين الديانتين من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين المسيحية والإسلام)[٤].

المسلك الثاني الذي سلكه لويس ماسينيون، وتميَّز به عن كثير ممن سبقوه

(١) قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *﴾ [سورة الإخلاص].

(٢) الاستشراق (٢٧١).

(٣) الإسلام والمسيحية، (١٢٥).

(٤) الإسلام والمسيحية، (١٢٧).

أو عاصَرُوه مسلك عملي، لا يكتفي بتحبير الصفحات، وطرح الأفكار من بُعد، بل صاحَبَه تغلغُلٌ في أعماق المجتمع الإسلامي، واهتمام بقضاياه السياسية الساخنة ومناصرتها، وتكوين جمعيات الصداقة المختلفة مع المسلمين:

- فقد تعلَّم اللغات الأساسية التي يتحدث بها المسلمون، وهي العربية والتركية والفارسية، وأتقن العربية حتى صار عضوًا في مجمعَيْها في دمشق والقاهرة، وحاضَرَ بالعربية.

- توجَّه للدراسة في الأزهر، وعُيِّن أستاذًا في جامعة القاهرة في الفترة ١٩١٢ ـ ١٩١٣م.

- صار مديرًا لمجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٩م.

- أسَّس الجمعية الفرنسية الإسلامية عام ١٩٤٧، وجمعية فرنسا ـ المغرب عام ١٩٥٣م، وأدان الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب: تونس والجزائر، وسُجِن بسبب ذلك، ووقف مع الفلسطينيين[١].

هذا من جانب المسلمين، أما نشاطه العملي في سبيل تحقيق فكرته مع أبناء مِلَّته فيتمثَّل في دعوتهم إلى الاعتراف بـ «المصداقية النسبية» للقرآن، والاعتراف الجزئي «المشروط» بنبوة محمد، وأنه يجب على الكنيسة أن تعترف بالإسلام ومكانته الاعتبارية المستقلة كديانة توحيدية[٢]، (وضمن هذا الفهم تقدَّم ماسينيون بمبادراتٍ كثيرة لتغيير موقف الكنيسة الكاثوليكية ـ الرومانية «الفاتيكان» تجاه الإسلام، ولهذا يرى بعض دارسي مؤلفات ماسينيون والمهتمين بتحليل مواقفه العملية، وأنشطته الاجتماعية والسياسية، أن مراسلاته واتصالاته الواسعة مع الهيئات الكاثوليكية العليا، بما في ذلك صداقته الشخصية مع جيوفاني باتيستا مونتيني ـ الذي أصبح البابا بولس السادس ـ

(١) انظر: الأعلام (٥/ ٢٤٧).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية: (١٢٥، ١٢٨).

مهَّدت التربة ـ إلى حدٍّ معين ـ للمناقشات التي دارت في المجمع الفاتيكاني الثاني «١٩٦٣ ـ ١٩٦٥» حول العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والمسلمين)[1].

لقد كانت محاولات ماسينيون ذروة المحاولات التاريخية التي تمخضت عنها النصرانية طوال ثلاثة عشر قرنًا في مقاربة الإسلام.

(١) الإسلام والمسيحية: (١٢٨).

المبحث الثالث

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند المسلمين

ثَمَّ فارقٌ كبير في تناول هذه القضية بالبحث بين المسلمين وغيرهم، ذلك أن بنية الإسلام المتماسكة عقيدة وشريعة، التي تكفَّل الله بحفظها بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] تَحُول دون قبول بدعة في الدين، سيما ما يتصل بالأصول الاعتقادية الكبرى؛ من كون دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وذلك يقطع طمع كل صاحب هوى وبدعة أن ينسب إلى الإسلام ما ليس منه.

أما النصارى فقد اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا، وأكثَرُوا التنقل وفق أهوائهم دون ضابط رادع، أو معيار ثابت، فما عقدوا عليه الخناصر، وعَضُّوا عليه بالنواجذ في مجمع، سرعان ما ينقضونه ويتبرءون منه في آخر، وما كان صاحبه ملعونًا محرومًا في حقبة من التاريخ، تتغيَّر الأحوال والقيم فيصبح بريئًا مظلومًا، والأمثلة على ذلك كثيرة، فاليهود الذين كانوا ألَدَّ أعداء المسيح وأتباعه لقرون متطاولة أصبحوا في نظر الكنيسة ضحايا الظلم والتعسف، برآء من دم المسيح الذي صلبوه بزعمهم[(١)]، والعلماء التجريبيون في علوم الطبيعة والفلك وغيرهما الذين خالَفوا علم الهيئة الكنسي واستحقوا الحجب والحرق أحياء باتوا محل التقدير لإسهاماتهم في حقل المعارف الإنسانية[(٢)]، بل «الماسون» الذين توالَى بابوات روما منذ عام ١٧٣٨م على التنديد بهم وبجمعياتهم السرية، وتحريم الانتماء إليها، توقَّف ذلك عام ١٩٦٥م حين أصدر البابا بولس السادس أمرًا

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

(٢) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٢٤٦ ـ ٢٤٩).

بإلغاء تجريم الماسونية[١].

أما اليهود فإن سر انكماشهم وانكفائهم على أنفسهم مَرَدُّه لأسباب عنصرية، وشعور بالكبر والتفوق على سائر البشرية، وليس إلى معيارية دينية يلتزمون بها ويتحرَّجون من هَتْكها، فإن القوم أجرأ الناس على حدود الله وتعدِّيها بأدنى الحيل.

أما المسلمون المعتصمون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فعندهم من العلم والإيمان ما يعصمهم من اتخاذ دينهم غرضًا للأهواء، ومركبًا للمطامع الشخصية أو الجماعية، فلم يقع، ولن يقع ـ بحفظ الله ـ في تاريخ السواد الأعظم، أهل السنة والجماعة، أدنى ملابسة تشير إلى مقاربة أهل الكتاب في دينهم ومعتقدهم، والبحث عن صيغة مشتركة، وعقيدة ملفَّقة يمالئون بها أهل الكتاب، وحاشاهم.

ولكن وقع في غضون التاريخ من بعض المنتسبين إلى الإسلام، الناشئين في أكناف المسلمين، ممن استهوتهم الشياطين، بعض الزنادقة والملحدين قديمًا، والمنهزمين المشبوهين حديثًا، من صار إلى شعبة من هذه الدعوة الخبيثة، ومن ثم فالحديث عن الأصول التاريخية عند المسلمين حديث عن شواهد التصقت بجسم الأمة الإسلامية، وليست منها، كما يلتصق الدنس بالبدن، أما الحديث عن ذلك عند الآخرين فحديث عن تحوُّلاتٍ حقيقية، وتغيُّرات جذرية تجري في صلب عقائدهم، وتنطق بها مجامعهم ومراجعهم المعتمدة، وشتان بين الحالين.

ويمكن أن نحدِّد الأصول التاريخية لظهور دعوة التقريب عند المسلمين بالمحطات التالية:

- غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود.

---

(١) انظر: الماسونية تحت المجهر، د. إبراهيم فؤاد عباس، (٥٨).

- الفِرَق الباطنية.
- طلائع العصرانيين.

أولًا: غلاة الصوفية، القائلون بوحدة الوجود:

وهم الذين استزلَّهم الشيطان، فأوحى إليهم أن لا موجود في الكون إلا الله، وأن سائر الأعيان والأشياء والأفعال ما هي إلا مظاهر وجوده، وتجليات أفعاله، ومن ثم فكُلُّ ما في الكون هو ذات الحق سبحانه، وكل حركة وسكون، وخيرٍ وشر، وطاعة ومعصية، وإيمان وكفر، تنغمر في بحر وحدة الوجود حتى تعود شيئًا واحدًا، وتسقط الحواجز والحدود والرسوم بين الذات والغير، وهذا غاية التوحيد عندهم، في عبارات مبهرجة عليها من زخرف القول، وبريق المعنى ما يستهوي كل قلبٍ مفتون[(١)].

قال شيخ الإسلام: (وهؤلاء المتفلسفة ومتصوِّفُوهم كابن سبعين وأتباعه، يجوِّزون أن يكون الرجل يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مشركًا يعبد الأوثان، فليس الإسلام عنده واجبًا، ولا التهود والتنصر والشرك محرَّمًا، ولكن قد يرجِّحون شريعة الإسلام على غيرها، وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك، يقول له: على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟ فإذا قال له المريد: اليهود والنصارى! أمَا هم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمون خير منهم، وهذا من جنس جهال التتر أول ما أسلموا، فإن الإسلام عندهم خير من غيره، وإن كان غيره جائزًا، لا يوالون عليه ويعادون عليه)[(٢)].

وقد أجمع الدارسون على أن مِن نتائج القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان.

---

(١) انظر: ما جمعه محمود عبد الرؤوف القاسم في: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (١٠٥ ـ ٢٦٢).

(٢) كتاب الرد علىٰ المنطقيين: ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، إدارة ترجمان السنة، لاهور ـ باكستان، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، (٢٨٢).

يقول برهان الدين البقاعي[١] رحمه الله: (وعلى هذا الأصل المخبث الخبيث ـ وهو الاتحاد بين جميع الكائنات، وأنه لا غير، ولا غيرية في شيء من الوجود ـ فرع صحة كل دين؛ لأن الفاعل عنده إنما هو الله)[٢]، وذلك في رَدِّه على ابن الفارض[٣]، ويقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل: (آمنت الصوفية بأن الله سبحانه هو عين خَلْقه، هذه الأسطورة ـ أسطورة وحدة الوجود ـ استلزمت عند الصوفية الإيمان بوحدة الأديان، سواء منها ما نسجته عناكب الأوهام، وافترته أساطير الخيال، وفارت به الشهوات، أو ما أوحاه الله إلى رسله، ولهذا آمَن الصوفية سلَفُهم وخَلَفُهم، بأن الإيمان والتوحيد عين الكفر والشرك، وبأن الإسلام -على هداه وقُدْسه- عين الدين المجوسي في ضلاله ورِجْسه)[٤].

---

(١) برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبّاط بن علي البقاعي، أبو الحسن، برهان الدين، وُلِد سنة (٨٠٩هـ)، مفسر، محدث، مؤرخ، تتلمذ علىٰ أساطين عصره كابن حجر العسقلاني، وابن ناصر الدين، توفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ، وصنف تصانيف عديدة، منها: «المناسبات القرآنية» و«عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و«تنبيه الغبي إلىٰ تكفير ابن عربي» وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٥٦).

(٢) تنبيه الغبي إلىٰ تكفير ابن عربي: برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، طبعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) (٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٣) ابن الفارض: عمر بن مرشد، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين، ابن الفارض، وُلِد سنة ٥٧٦هـ، تصوف حتىٰ صار من كبارهم، ونظم الشعر حتىٰ صار أشعر المتصوفين، في شعره كُفر صراح من القول بوحدة الوجود، وقد جمع شعره سبطه علي في ديوان باسمه وشرحه كثيرون، مات سنة (٦٣٢هـ)، كفَّره نحو أربعين عالمًا. انظر: الأعلام (٥/ ٥٥) وتحذير العباد من أهل العناد للبقاعي.

(٤) هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٨٤م، (٩٣)، وانظر: في هذا المعنىٰ الرسالتين العلميتين: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها علىٰ الأمة الإسلامية، إدريس محمود إدريس (٢٧٧)، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي عرض وتحليل علىٰ ضوء الكتاب والسنة محمد أحمد لوح (٥٦٠)، وابن عربي دراسة وتحليل، سميح عاطف الزين (١٠٠ ـ ١٠٤)، وأصول التصوف، د. عبد الله حسن زروق (٧٩)، ونظرات في معتقدات ابن عربي، د. كمال محمد عيسىٰ (٥٥).

بل قد أدرك هذا المعنى كبار المستشرقين من أمثال: ر.ا. نيكلسون[١]، حيث يقول: (ومن لوازم مذهبهم في وحدة الوجود أيضًا قولهم بصحة جميع العقائد الدينية أيًّا كانت)[٢]، وجولدتسيهر[٣] يؤكد أنه (مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود الفاصلة بين العقائد والأديان، وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها)[٤].

ونسوق أدناه أمثلة صريحة لهذه الزندقة التي تفوَّه بها بعض كبار المتصوفة:

● قال ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلىٰ دينه داني
فقد صار قلبي قابلًا كلَّ صورة فمرعىٰ لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىٰ توجَّهَت ركائبه فالحب ديني وإيماني[٥]

(١) ر.ا، نيكلسون: رينولد ألين نيكلسون Reynold Allen Nicholson مستشرق إنجليزي، وُلِد سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م)، أولع من صباه بالمشرقيات وتعلم في جامعتي أبردين وكمبردج، وتخرج منها سنة ١٨٩٣م وتعلم العربية والفارسية، وتخصص في التصوف الإسلامي، وأصدر: «مختارات من ديواني شمسي تبريزي» و«تذكرة الأولياء» للعطار، وألف في التصوف: «الصوفية في الإسلام» و«دراسات في التصوف الإسلامي» وغيرها، وتوفي سنة (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م). انظر: الأعلام (٣/ ٣٩)، ومقدمة الصوفية في الإسلام.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه (٨٨).

(٣) إجناس جولدتسيهر Ignas Goldziher، مستشرق مجري يهودي، وُلِد سنة (١٢٢٦هـ - ١٨٥٠م)، رحل إلىٰ البلاد العربية، وصنف في الإسلام والأدب العربي باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وترجم إلىٰ العربية كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام»، وفيه شبهات ومطاعن، وأخرج جزءًا كبيرًا من كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي، توفي في بودابست سنة (١٣٤٠هـ - ١٩٢١م). انظر: الأعلام (١/ ٨٤).

(٤) العقيدة والشريعة، (١٧٠).

(٥) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق «ديوان ابن عربي»، د. محمد الشقيري، عين للدراسات

وقال أيضًا:

عَقَدَ الخلائقُ في الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[١]

ويقول معلِّلًا مذهبه الكفري هذا: (فإياك أن تتقيَّد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى[٢] لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد... فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه)[٣].

● ويقول عصريُّه ونظيره في الزندقة ابن الفارض:

تَنَزَّهْتُ في آثارِ صُنعِي مُنَزَّهًا عن الشِّركِ بالأغْيارِ جَمْعِي وأُلْفَتِي
فبِي مجلسُ الأذْكارِ سَمْعُ مُطالِعٍ ولي حانَةُ الخَمَّارِ عينُ طَلِيعةِ
وما عَقَدَ الزُّنَّارَ حكمًا سوىٰ يَدِي وإن حُلَّ بالإقْرارِ بي فَهْيَ حَلَّتِ
وإنْ نَار بالتَّنزِيلِ مِحرَابُ مَسجِدٍ فما بَارَ بالإنْجِيلِ هَيْكَلُ بيعةِ
وأسْفَارُ تَوْرَاةِ الكَلِيمِ لقَوْمِهِ يناجِي بها الأحْبَارُ في كُلِّ لَيْلةِ
وإنْ خَرَّ للأحْجَارِ في البُدِّ[٤] عاكِفٌ فلا وَجْهَ للإنْكارِ بالعَصبِيَّةِ
فقَدْ عَبَدَ الدِّينارَ مَعنًىٰ منزَّهٌ عن العَارِ بالإشْرَاكِ بالوَثَنِيَّةِ

والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ (١٩٩٥م)، (٢٤٥).

(١) فصوص الحكم، لابن عربي (٣٤٥).

(٢) «الهيولىٰ» (لفظ يوناني بمعنىٰ: الأصل والمادة، وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين: الجسمية والنوعية)، التعريفات: الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، (٣٢١).

(٣) فصوص الحكم، (١٩١).

(٤) البُدَّ: بيت الأصنام.

وما زَاغَتِ الْأَبْصَارُ مِن كُلِّ مِلَّةٍ وما رَاغَتِ الأَفْكَارُ في كُلِّ نِحْلَةِ
وما احْتَارُ مَن لِلشَّمْسِ عَنْ غرةٍ صبا وإِشْرَاقُها مِن نُورِ إِسْفَارِ غُرَّتِي
وإِنْ عَبدَ النارَ المَجُوسُ ومَا انطفت كما جَاءَ في الأَخْبارِ في أَلْفِ حَجَّةِ
فمَا قَصَدُوا غَيْري وإِنْ كانَ قَصْدُهمْ سِوَايَ وإِنْ لم يُظْهِرُوا عَقْدَ نِيَّتِي
رأَوْا ضَوْءَ نَارِي مَرَّةً فتوَهَّمُو هُ نارًا، فَضَلُّوا في الهُدَىٰ بالْأَشِعَّةِ[1]

وقد نقل البقاعي رحمه الله عن بعض شرَّاح هذه الأبيات ـ ولم يُسَمِّ ـ قولهم: (إنه مهَّد في هذه الأبيات أعذار كل فرقة، وإن كل صاحب مِلَّةٍ ونِحْلة ـ وإن بطل سعيه ـ على نصيبٍ من الهدى، فعباد النار غير مؤاخذين من جميع الوجوه، بل من وجهٍ دون وجه، ولا لوم على أحد، بل لكل واحد وجه، ومحمل خير يُحمَل عليه، فكلٌّ يعمل على شاكلته، وكذا عابد الأصنام، قالوا: لا تنكر عليه، فإن أنكرت لم يكن إنكارك إلا تعصبًا؛ لأنك لا تنكر على المقبل على الدنيا، مع أنه أقوى شركًا من عابد الصنم! وقالوا: كما أن القرآن نور المساجد، فكذلك الإنجيل نور المعابد، وقالوا نحو هذا في التوراة، وفي عابد الشمس: إنه بإثبات عين الألوهية لم يكن ناقصًا، فقام له عذرٌ من وجه من الوجوه، وذلك كافٍ للكريم)[2]، ثم عقَّب قائلًا: (ولا يقول بشيءٍ من هذا مسلم)[3].

● وقال عبد الكريم الجيلي[4]:

وأَسْلَمْتُ نَفْسِي حيثُ أَسْلَمَنِي الهوىٰ وما ليَ عَنْ حُكْمِ الحَبيبِ تَنازُعُ

---

(١) ديوان ابن الفارض د. عبد الخالق محمود، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١٩٩٥م (٣٠٧ـ٣٠٨).

(٢) تنبيه الغبي إلىٰ تكفير ابن عربي، (٢٤٢).

(٣) تنبيه الغبي إلىٰ تكفير ابن عربي، (٢٤٢).

(٤) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، وُلِد سنة (٧٦٧هـ) من كبار المتصوفة، له كتب كثيرة منها: «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل»، وأكثرها لا يزال مخطوطًا، توفي سنة (٨٣٢هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٥٠).

فَطَوْرًا تَرانِي في المَساجِدِ رَاكِعًا وإنِّيَ طَوْرًا في الكَنائِسِ رَاتِعُ
إذا كنتُ في حُكْمِ الشَّريعَةِ عَاصِيًا فإنِّيَ في عِلْمِ الحَقِيقَةِ طَائِعُ)[١]

● وقال جلال الدين الرومي[٢]: (من قصيدة مترجمة عن الفارسية).

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي

بل انظر إلى زنَّار زرادشت حول خصري

أحمل الزنار وأحمل المخلاة

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي

ليس لي سوى معبد واحد، مسجدًا كان أو كنيسة أو بيت أصنام)[٣].

وينقل عنه ر.ا. نيكلسون شعرًا:

إن يكن في الدنيا محب ـ أيها المسلمون ـ فأنا ذلك المحب.

إن يكن في الدنيا مؤمنٌ، أو كافر، أو راهب نصراني، فأنا هو.

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهبًا في الدنيا.

وأقسم بربي إنها ليست شيئًا غيري)[٤].

ومن هنا استنتج هذا المستشرق أن (هذه المذاهب ـ منطقيًّا[٥] ـ تلغي كل

---

(١) فصوص الحكم (٢١٢).

(٢) جلال الدين الرومي: شاعر صوفي فارسي، وُلِد سنة (٦٠٤هـ - ١٢٠٧م) في بلخ إيران يلقب بجلبي أفندي، أسس الطريقة المولوية، ارتحل إلىٰ مكة والشام، ثم استقر في قونية وتوفي بها سنة (٦٧٢هـ - ١٢٧٣م)، من آثاره: «المثنوي» منظومة صوفية شهيرة، و«الروض الكبير» و«الصغير». انظر: المنجد في الأعلام (٢١٥) الطبعة السابعة، ومعجم المؤلفين (٣/ ١٥٣).

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه، (٩٤).

(٤) الصوفية في الإسلام: د.ر.ا، نيكلسون، ترجمة: وتعليق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، طبعة (١٣٧١هـ - ١٩٥١م) ص١٥١.

(٥) أي: كنتيجة منطقية للقول بوحدة الوجود.

قانون ديني أو أخلاقي، وليس عند خيال العارف مثوبات أو عقوبات ربانية، ولا مقاييس للحَسَن أو القبيح... ومن هنا كانت جميع أشكال الأديان متساوية، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية، وليس شيئًا عقيدة يعتقدها الإنسان، أو شعيرة يؤديها)[١].

ثانيًا: الفِرَق الباطنية:

يُطلَق هذا الاسم «الباطنية» على جملة من الفِرَق والحركات والاتجاهات الكفرية، ويجمعها جميعًا مبدأ التحلُّل من النصوص الشرعية في العقائد والأعمال، بدعوى أن لكل ظاهرٍ باطنًا ولكل تنزيل تأويلًا، وجعلوا التأويل رسالة الأئمة، وراموا بذلك التحلُّل من نصوص الشرع كلها، وإدخال أديانهم الباطلة على الإسلام باسم الإسلام، وكلٌّ يتديَّن بدينه باسم الإسلام، قال أبو حامد الغزالي[٢]: (إن الباطنية إنما لُقِّبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصُوَرها تُوهِم عند الجهال الأغبياء صورًا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموزُ وإشارات إلى حقائق معينة)[٣].

وقد نشأت معظم هذه الفِرَق وتفرَّعَت عن شجرة «الرفض» الخبيثة، حيث لا ضابط من نقل صحيح، أو عقل صريح، أو دينٍ رادع، وإنما هي أهواء تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، ولكن القوم ادَّرَعوا بغلالة رقيقة من الإسلام زورًا ونفاقًا ليدفعوا عن أنفسهم غوائل السوء، وإلا فهم كما وصفهم الغزالي، وفضحهم بقوله: (ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر

---

(١) الصوفية في الإسلام، (٨٥).

(٢) محمد بن محمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، زين الدين، الطوسي، وُلِد عام (٤٥٠هـ)، كان من كبار الشافعية وعظماء الفلاسفة والصوفية، من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «الوجيز»، «الوسيط»، «البسيط»، وغيرها، توفي عام (٥٠٥هـ). انظر: الأعلام (٧/ ٢٢)، وفيات الأعيان (١/ ٤٦٣)، طبقات الشافعية (٤/ ١٠١)، شذرات الذهب (٤/ ١٠)، مفتاح السعادة (٢/ ١٩١)، آداب اللغة (٣/ ٩٧).

(٣) فضائح الباطنية (١١).

المحض)[١].

قال عبد القاهر البغدادي[٢]: (الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقِدَم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها؛ لمَيْلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع)[٣].

إخوان الصفا:

ومن أقدم مأثوراتهم الخبيثة جملة من الرسائل تبلغ اثنتين وخمسين رسالة، عُرِفَت باسم: «رسائل إخوان الصفا وخِلَّان الوفا»، اعتنى بإخراجها وقدَّم لها بطرس البستاني[٤]، وقال في مقدمتها: (تألَّفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري[٥] «القرن العاشر للميلاد»، وكان موطنها البصرة، ولها فرعٌ في بغداد، ولم يُعرف مَن أشخاصها سوى خمسة يتغشَّاهم الغموض والشك، ولا يُسفِر

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، عالم متفنن من أئمة الأصول، وُلِد ونشأ في بغداد ورحل إلىٰ خراسان ثم فارقها إلىٰ أسفرائين، من تصانيفه «الفرق بين الفرق» و«أصول الدين» و«الناسخ والمنسوخ» وغيرها، توفي سنة (٤٢٩هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٤٨)، وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨)، طبقات السبكي (٣/ ٢٣٨)، فوات الوفيات (١/ ٢٩٨)، مفتاح السعادة (٢/ ١٨٥).

(٣) الفرق بين الفرق: عبد القادر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، (٢٩٤).

(٤) بطرس البستاني (١٣١٦ ـ ١٣٨٩هـ- ١٨٩٨ ـ ١٩٦٩م): بطرس بن سليمان بن حسن أفرام البستاني، أديب لبناني، حسن الأسلوب من مواليد دير القمر، تعلم المبادئ وأحسن الفرنسية، عمل في الصحافة، وألف كتبًا، منها: أدباء العرب، معارك العرب، آداب المراسلة، وأشرف علىٰ طبع كتب منها: لسان العرب. انظر: الأعلام (٢/ ٥٩).

(٥) تميز القرن الرابع الهجري باستيلاء الرافضة علىٰ معظم الممالك الإسلامية، فقد استولىٰ البويهيون علىٰ مقر الخلافة العباسية في العراق، منذ عام ٣٣٤، وتملكوا بلاد فارس وسائر المشرق، وظهر القرامطة قبلهم في الأحساء والبحرين وعمان واليمن وأجزاء من الشام منذ ٢٧٨هـ حتىٰ ٤٦٦هـ. وانطلق العبيديون من المغرب عام ٢٩٦، واحتلوا مصر عام ٣٥٨هـ، ثم بلاد الشام حتىٰ قضىٰ عليهم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨هـ، وهكذا عم الرفض الأرض في القرن الرابع، وفي ظلهم ترعرعت هذه الجماعات الخبيثة، راجع مبحث نبذة تاريخية في التمهيد.

اليقين عن حقيقة أمْرِهم بما يطمئن إليه الخاطر، وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام)[(١)].

ويتَّضح بجلاء لقارئ تلك الرسائل أن أولئك «الإخوان» جماعة شيعية سرية منظمة، تعتمد أسلوب الدعوة الفردية، للتغلغل في مختلف طبقات الناس، واقتناص من سبقت لهم من الله السوأى، وتنقسم تلك الرسائل إلى أربعة أقسام: رياضية تعليمية، وجسمانية طبيعية، ونفسانية عقلية، وناموسية إلهية. وقد استمدوا معلوماتهم من كلام الفلاسفة، وزوَّقوه بالنصوص الشرعية، فأوَّلُوها تأويلًا باطنيًّا، وصاغوا ذلك بأسلوبٍ متأدِّب متلطِّف، وصدَّروا فصولها بقولهم: (اعلم أيها الأخ البار الرحيم)، وقد صرَّحوا في غير ما موضع:

(أن علومنا مأخوذة من أربعة كتب:

- أحدها: الكتب المصنَّفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة، من الرياضيات والطبيعيات.

- والآخر: الكتب المنزَّلة التي جاءت بها الأنبياء، صلوات الله عليهم، مثل التوراة والإنجيل والفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفية.

- والثالث: الكتب الطبيعية: وهي صور أشكال الموجودات، بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، وحركات الكواكب، ومقادير أجرامها، وتصاريف الزمان، واستحالة الأركان، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، كل هذه صور وكنايات دالات على معانٍ لطيفة وأسرار دقيقة، يرى الناس ظاهرها، ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة الباري جل ثناؤه.

---

(١) مقدمة رسائل إخوان الصفاء (١/ ٥) وانظر: في تحقيق نسبتها كتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، د. محمد أحمد الخطيب (١٦٩ ـ ١٧٧).

● والنوع الرابع: الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة، التي هي بأيدي سفرة كرامٍ بررة...)[١].

ولا أظن باطنيًّا جاء بعدهم إلا واستقى من هذا المستنقَع الآسِن، حتى إذا تضلَّع منه، واستروح زخمه ونتنه، قاءَه دعاوى ومفتريات، وهو قائم على بابٍ من أبواب جهنم؛ من أجابه قذفه فيها، وأورده إياها، وبئس الورد المورود.

وقد نقل البستاني عن المستشرق دي بور قوله: (إن آراء إخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فِرَق كثيرة في العالم الإسلامي: كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفاء)[٢].

وقد تبيَّن مِن سَرْد مصادرهم الأربعة منزلة الأديان عندهم، وكونها على حدٍّ سواء، وأن كتبها المنزلة من توراة وإنجيل وفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء ـ كما زعموا ـ على درجة واحدة في المرجعية، بالإضافة إلى المصادر الثلاثة الأخرى، ولهذا نجدهم يهوِّنون في مواضع كثيرة من شأن اختلاف الشرائع، ويجوِّزون الجميع، ويسوِّغونه بما يُفضِي إلى القول بوحدة الأديان، فمن ذلك قولهم: (اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضارٍّ، إذا كان الدين واحدًا؛ لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يَلِيق بواحدٍ واحد، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه؛ لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرقيق الشفيق، فيما أمر العليل من الحِمية في الصيف من تناول الأشياء الحارة بالطبع، وإجازته شرب المبرّدات في البلدان الحارة، وفيما يرى ويأمر له...

فبهذا الوجه أيضًا اختلاف العلماء رحمة، واختلاف أهل الديانات في أمر

---

(١) رسائل إخوان الصفاء (١٠/ ٤٢).

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام (١١٣)، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، عن المرجع السابق (١/ ٧).

الدين، وسنن أحكامه حكمة جلية لا يعرفها إلا المحققون المستبصرون)[١].
فجعلوا اختلاف الأديان كاختلاف المذاهب في الدين الواحد، والكل سائغ صحيح.

بل إن مذهبهم الباطني يتَّسع لكل شيء، ويقبل كل نِحْلة ومِلَّة، ولا يعادي أحدًا، وبهذا يتواصَوْن قائلين: (ينبغي لإخواننا، أيَّدهم الله تعالى، أن لا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصَّبوا على مذهبٍ من المذاهب؛ لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها)[٢].

ومن ثم تنمحق الأديان كلها في ساح الباطنية الفِسَاح، فلا يميز دين من دين، ولا دين من مِلَّة، ولا مِلَّة من نِحْلة، ولا آية مُحكَمة من فلسفة مظلمة، ومن لَبان هذه المعاني ارتضع أرباب وحدة الوجود، ودهاقنة الباطنية، فقد حكى بطرس البستاني (أن سنان بن سليمان الملقَّب برشيد الدين -من عظماء الإسماعيلية ورؤسائها- كان يُكِبُّ على مطالعة رسائل إخوان الصفاء)(٢).

وقال مصطفى غالب ـ الكاتب الإسماعيلي المعاصر ـ: (هذا هو دين الحب الإنساني الذي بشَّروا به ودعوا إليه، ومن الطبيعي أن يتأثر بأفكارهم هذه عباقرة الفلاسفة من المتصوفين، وعلى رأسهم محيي الدين بن عربي الذي نادى بدين الحب ووحدة الوجود ووحدة المعبود)[٣].

البهائية:

ومن فروع هذه الشجرة الباطنية الخبيثة، فِرقة «البهائية»، المنسوبة إلى مؤسِّسها الميرزا حسين علي المازندراني[٤]، المتلقب بـ «البهاء» أو «بهاء الله»،

(١) رسائل إخوان الصفا، (٩/ ٤٨٧، ٤٩١).
(٢) رسائل إخوان الصفا، (٧).
(٣) إخوان الصفا، مصطفىٰ غالب (١١٧ ـ ١١٨) عن الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (١٨٥).
(٤) البهاء (١٢٣٣ ـ ١٢٠٩هـ): حسين علي نوري بن عباس بن بزرك، الميرزا، المعروف بالبهاء، أو بهاء

الفارسي، المولود سنة ١٢٣٣هـ، الذي ورث دعوة «البابية» إثر إعدام مؤسِّسها الباب علي بن محمد الشيرازي[١] سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م، وكلا الداعِيَيْن أفاك أثيم، عُتُلٍّ زنيم، ادَّعى ما ليس له، وتشبَّع بما ليس فيه، ولكن البهاء كان أكثر مراوغةً وذكاءً، واحتماءً بأعداء الإسلام، فاستحالت دعوته دعوة عالمية، واسعة الانتشار، وإن كانت قليلة الأتباع[٢]، وساعَدَه في ذلك مناداته بالتقارب بين الأديان، والوحد العالمية[٣]، ونسخ الجهاد، والتنصل من أحكام الإسلام، وموالاة اليهود والنصارى، وهي مسوِّغات كافية لدعمه وتشجيعه وتمكين أتباعه من قِبَل الاستعمار الإنجليزي والروسي في ذلك الزمان.

يقول الميرزا حسين المازندراني «البهاء»: (يا علماء الأمم، غُضُّوا الأعين عن التجانب، وانظروا إلى التقارب والاتحاد، وتمسَّكوا بالأسباب التي تُوجِب الراحة والاطمئنان لعموم أهل الإمكان)[٤].

الله، رأس «البهائية» ومؤسسها، إيراني مستعرب، أصله من «مازندران»، اعتنق دعوة «البابية»، واتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال شاه إيران، فاعتقل ونفي إلىٰ بغداد، دعا إلىٰ بدعته في العراق والآستانة، فنفي إلىٰ أدرنة ثم إلىٰ سجن عكا، ثم أفرج عنه والتف حوله مريدوه، ودفن في حيفا، من آثاره: «الأقدس»، و«الإيقان»، و«الهيكل». انظر: الأعلام (٢/ ٢٤٨).

(١) الباب (١٢٣٥ ـ ١٢٦٦هـ): علي محمد ابن الميرزا رضىٰ البزاز الشيرازي، مؤسس البابية، التي هي أصل البهائية، إيراني، تقشف في صباه، فكان يمكث في الشمس ساعات عديدة، وأثَّر ذلك في عقله، ولما بلغ الخامسة والعشرين سنة ١٢٦٠هـ جاهر بعقيدة ظاهرها توحيد الأديان وقوامها تلفيق دين جديد، فادعىٰ أنه «الباب» ثم «المهدي المنتظر» وتبعه خلق كثير، قام عليه علماء الشيعة، فحوكم وسجن، ثم قُتل رميًا بالرصاص، له كتاب «البيان» وغيره. انظر: الأعلام (٥/ ١٧).

(٢) انظر: في تاريخ هاتين الدعوتين وعقائدهما: حقيقة البابية والبهائية: د. محسن عبد الحميد، المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، دمشق ـ سوريا، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، البهائية.. تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، عبد الرحمن الوكيل، البابية.. عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، البهائية، السيد محب الدين الخطيب، البهائية والقاديانية: د. أسعد السحمراني.

(٣) يقول المستشرق جولد تسيهر: (البابية، في حقيقتها ترمي إلىٰ إصلاح الإسلام، يتقدم بهاء الله بفكرة واسعة النطاق، وهي إيجاد ديانة عالمية يتحقق بواسطتها الإخاء الديني بين الناس كافة) العقيدة والشريعة في الإسلام (٢٧٥).

(٤) نبذة من تعاليم بهاء الله، (١٢٣)، عن حقيقة البابية والبهائية، (٢٠٧ ـ ٢٠٨).

وهو لا يدعو إلى مجرد إقرار جميع الديانات القائمة، ولكنه يدعو إلى وحدة الأديان بالانسلاخ من الأديان السابقة، واعتناق ديانة ملفَّقة نحتها عقله المأفون من جميع الأديان، ونسخت ما سبقها، فالبهائية (ليست دينًا جديدًا، إنها الديانة المجرَّدة، والتي تقوم على قمة أهرامات الديانات البرتستنتية والكاثوليكية والإسلامية واليهودية والبوذية... إلخ، التي تتصارع بعضها مع بعض، وهي تحاول أن تجلب الجميع رغم أنوفهم إلى صفوفها؛ لأنها وحدها فقط الديانة الحقيقية، وكل الديانات الأخرى خاطئة، وغير صحيحة)[١]، ولهذا يقرِّر أنه (ليس لأحدٍ أن يتمسك اليوم إلا بما ظهر في هذا الظهور، هذا حكم الله من قبل ومن بعد، وبه زَيَّن صُحُف الأولين)[٢].

ومن ثم فقد نادى البهاء (أن يتحد العالم على دينٍ واحد، ويصبح جميع الناس إخوانًا، وتتوثَّق عُرَى المحبة والاتحاد بينهم، وتزول الاختلافات الدينية)[٣]، ولكن كيف تزول الاختلافات الدينية، ويتحد العالم على دينٍ واحد؟ يكون ذلك بالدعوة إلى «الديانة العالمية» والتبشير بها، وهي البهائية الملفَّقة من شظايا الديانات الأخرى، يقول عباس عبد البهاء[٤] ـ ابن مؤسس الفِرَق البهائية: (لقد خطر ببالي أن أطوف البلاد الغربية، وأدعو في المنتديات الكبرى، وفي الكنائس، إلى وحدة العالم الإنساني حسب تعاليم حضرة بهاء الله، وأروج فكرة الصلح العام، وأرفع عقيرتي على قدر استطاعتي وأقول للعالم:

---

(١) مقالة عن البهائية، للمستشرق الفرنسي دريفوس ص٨ نقلًا عن البهائية والقاديانية د. أسعد السحمراني، (٨٨).

(٢) الأقدس، (١٢)، عن البهائية والقاديانية (٨٦).

(٣) بهاء الله والعصر الجديد، ل: أسلمنت ج.أ (١٢١)، عن البهائية والقاديانية (٩١).

(٤) عباس عبد البهاء (١٢٦٠ ـ ١٣٤٠هـ): عباس عبد البهاء بن حسين علي نوري، الملقب بالبهاء، صحب أباه في نفيه إلىٰ العراق والآستانة وأدرنة وعكا، خلف أباه في قيادة البهائية وتنظيم جماعتها سنة ١٣٠٩هـ، زار أوروبا وأمريكا عامي (١٣٣٠، ١٣٣١هـ)، وعاد إلىٰ فلسطين، فمات بحيفا، وله أتباع في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم، من رسائله: مكاتيب عبد البهاء، الخطابات. انظر: الأعلام (٣/ ٢٦١).

الحمد لله، لقد طلعت شمس الحقيقة من أفق الشرق[١]، وأرسلت أشعتها على جميع العالم، وإن أشعتها هي تعاليم السماء، فهي تدعو العالم بأجمعه إلى الاتحاد والسلام العام، وإلى التحري عن الحقيقة، وتأسيس التآلف والمحبة بقوة الدين، وتحكيم العلم والعقل والدين في المعاملات)[٢].

لقد جهر البهاء بما أَسَرَّه إخوان الصفاء بعد تسعة قرون، وهلك بعد ألف سنة من مهلك سلفه الحلاج سنة ١٣٠٩هـ.

ثالثًا: طلائع العصرانيين:

لعل أول مَن جهر بالدعوة إلى التقريب بين الأديان من الإسلاميين في العصر الحديث مؤسس المدرسة العصرانية الحديثة، وواضع لبناتها الفكرية الأولى: جمال الدين الأفغاني[٣]؛ إذ يقول: (.. هكذا نجد الأديان الثلاثة: الموسوية، والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، إذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... لقد لاحَ لي بارق أمل كبير؛ أن تتَّحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وبهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

---

(١) الحقيقة أنها شمس طلعت بين قرنَيْ شيطان من مشرق الفتن.

(٢) من رسالة بعث بها عبد البهاء إلىٰ مدير مجلة المشرق البريطانية عام ١٩١٣، نقلًا عن المصدر السابق (٩٥).

(٣) هو محمد بن صفدر، وُلِد سنة ١٢٥٤هـ- ١٨٣٨م، قيل: في أسعد آباد التابعة لولاية كنر من أفغانستان، وقيل: في أسدآباد التابعة لهمدان في إيران، كما اختلف في نسبه فقيل: إنه شريف ينتهي نسبه إلىٰ الحسين بن علي رضي الله عنهم، وقيل: بل هو فارسي الأصل، وقد طوَّف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية وكتب في الصحف، وألَّف الكتب، ودعا إلىٰ ما أسماه بـ«الجامعة الإسلامية»، وشخصيته غامضة مريبة، اتُّهِم بالرفض وبالانخراط في الماسونية، توفي سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م. انظر: الأعلام ٦/ ١٦٨ ـ ١٦٩، دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام (٩ ـ ٥٤)، جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية: سمير أبو حمدان، الشركة العالمية للكتاب (دار الكتاب العالمي) بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، (١٥ ـ ٧٤).

وأخذت أضع لنظريتي هذه خططًا، وأخط أسطرًا، وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالِط أهل الأديان كلهم عن قربٍ وكثب، ولا تعمَّقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد، وتفرُّقهم فِرَقًا وشِيَعًا وطوائف، ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهُوَّات العميقة، وأولئك «المرازبة»[(١)] الذين جعلوا كل فِرقة بمنزلة «حانوت»، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدَثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية... علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة، ونبذ الاختلاف، وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعًا إلى أصول الدين الحقة، فذلك الرجل هو هو، يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين، وهو هو في عُرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق، المفرِّق.. إلخ.. إلخ)[(٢)].

● ويتبين من هذا النص ما يلي:

١ ـ أن «وحدة الأديان» في نظر الأفغاني لا تقتصر على الاتفاق في المبدأ والغاية ـ مع أن هذا غير مسلَّم بعد ما طرأ التحريف على اليهودية والنصرانية ـ ولكنها تعني أيضًا «التلفيقية»، بدليل قوله: إذا نقص في الواحدة شيء استكملته الثانية.

٢ ـ أنه لا يرى «الإسلام» ناسخًا لما قبله من الأديان، ولا «مهيمنًا» عليها، بل ينظر إلى الأديان الثلاثة على حدٍّ سواء.

٣ ـ وبه يتبيَّن أي لون من الائتلاف كان يدعو إليه، وأي لونٍ من الاختلاف

---

(١) جمع مَرزُبان (هو بضم الزاي: أحد مرازبة الفرس، وهو الفارس الشجاع المقدَّم علىٰ القوم دون الملك، وهو معرَّب) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مجد الدين، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت ـ لبنان، طبعة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)، (٤/ ٣١٨).

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، د. محمد عمارة، القاهرة، ٢٩٦٨م، (٢٩٠ ـ ٢٩٥).

كان ينبذه، فهو يريدها ديانةً فضفاضة ينضوي تحت لوائها كل جاهل زنديق لا يقيم وزنًا للحدود والرسوم، بل يردِّد شعاراتٍ عامة لا تلتزم بما جاء به ﷺ من الهدى ودين الحق، وهذا ما يفسِّر المقاومة العنيفة التي قُوبِلَت بها دعوته من وَصْفه بالكفر والجحود والمروق... إلخ مما أفصح عنه، وعَدَّ ذلك محافظة على الأرزاق والنفوذ من قِبَل معارضيه المتجرين بالدين بزعمه.

٤ ـ وأخيرًا، فإن هذا الاعتراف الشخصي يدل على قِدم الفكرة في ذهنه، وعشعشتها في خياله في مقتبل عمره، قبل أن يخالط أهل الأديان في الهند وإيران وبريطانيا وفرنسا وروسيا، كما يدل على تخطيط وعمل ودعوة لهذه الفكرة بكتابة الرسائل والتأليف، ثم جاءت سيرته الذاتية شاهدًا عمليًّا على نظريته في توحيد الأديان، فقد كان تلاميذه خليطًا من اليهود والنصارى[(١)].

وقد تبعه على هذا المنهج أخص تلاميذه، وأشهرهم نسبةً إليه، وهو الشيخ محمد عبده[(٢)]، الذي حدَّث عن نفسه قائلًا: (في أثناء نفيي في دمشق سنة ١٨٨٣م كان أحد القسس في إنجلترا واسمه «إسحاق تيلور»[(٣)] يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام،

---

(١) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب: محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، (٣٦٨ـ٣٦٩).

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله، التركماني، وُلِد عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م في قرية محلة نصر في مصر، تعلَّم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، ولما قدم جمال الدين الأفغاني إلىٰ مصر عام ١٨٧١م اتصل به وافتتن به، ناصَرَ الثورة العرابية فسُجن ثم نُفي إلىٰ بلاد الشام سنة ١٢٢٩هـ- ١٨٨١م، ثم سافر إلىٰ باريس، والتقىٰ بشيخه الأفغاني، وأصدرَا معًا جريدة «العروة الوثقىٰ»، وعاد إلىٰ مصر عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م، وعُين قاضيًا، وتوثقت صلته باللورد كرومر، المندوب السامي لبريطانيا أثناء احتلالها لمصر، ثم ولي منصب المفتي العام للديار المصرية عام (١٣١٧هـ - ١٨٩٩م)، وتوفي بالإسكندرية عام (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م). انظر: الأعلام (٦/ ٢٥٢)، الفكر الإسلامي المعاصر (١٣ ـ ٥٤)، الإمام محمد عبده.. جدلية العقل والنهضة.

(٣) نقل محمد رشيد رضا قطعًا من مقالاته في الصحف الإنجليزية في الثناء علىٰ الإسلام والدعوة إلىٰ التقارب مع النصرانية. انظر: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١/ ٨٢٢ـ٨٢٧).

والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية[١]، وكان لي صديق فارسيٌ «اسمه ميرزا باقر»[٢]، يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة، وقد تمكَّن هذا من إقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع، وما إن وصلت هذه الرسالة إلى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعينًا بها على إثبات صحة دعواه)[٣]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تابع الإيراني المتذبذب ميراز باقر مهمته للجمع بين رجالات الدينين الإسلامي والنصراني لتحقيق فكرة التقريب. ويصف محمد رشيد رضا[٤]، تلميذ محمد عبده، ومؤرِّخ سيرته الذاتية ـ الخطوة التالية بقوله: (عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الإنكليز المستقلي الفكر، المحبِّين لحرية البحث في الدين، ولما وُجِد هو والأستاذ الإمام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعَا فيها بالأستاذ بيرزاده، وعارف أبي تراب، تابع السيد الأفغاني، وبجمال بك نجل رامز بك التركي، قاضي بيروت

---

(١) التوحيد في الإسلام ليس مجرد «فكرة» بل هو «عقيدة» راسخة، ربانية المصدر، وليست بشرية من نتاج الأفكار كما عبر الكاتب، أما الكنيسة الإنجيليكية فلا تخالف سائر الكنائس بالقول بالتثليث، وحاشا الإسلام أن يكون موافقًا لها في مسألة الألوهية والتوحيد.

(٢) ذكر محمد رشيد رضا أن ميرزا باقر كان إيرانيًّا قد تنصر، وتسمىٰ بميرزا يوحنا، ونشط في الدعوة للنصرانية، ثم أظهر توبته وعودته إلىٰ الإسلام وشارك في ترجمة بعض المقالات الإنجليزية لجريدة العروة الوثقىٰ، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث علىٰ أصول الإسلام التي يدعو إليها ويعمل بها، وكان له شذوذ في ذلك غريب. انظر: تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨١٧ـ٨١٩).

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، (٢/ ٣١٩) (نقلًا عن مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٣٩م ذي الحجة ١٣٥٧ س٤٧ ص٣٩٠ـ٣٩٣).

(٤) محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، وُلِد ونشأ في «القلمون» من أعمال طرابلس الشام عام ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م، هاجر إلىٰ مصر سنة ١٣١٥هـ، ولازَمَ الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وأنشأ مجلة المنار عام ١٨٩٨م، وقد زار عددًا من الأقطار الإسلامية والأوروبية، وكتب وألَّف، وتأثر أُخريات عمره بالدعوة السلفية، وطبع في مطابع المنار كثيرًا من كتب أئمة السلفية، وتوفي فجأة عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م. انظر: الأعلام (٦/ ١٢٦)، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، (٩ـ٥٥).

الشهير.. وألَّفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها، والتعاون على إزالة ضغط أوروبة عن الشرقيين، ولا سيما المسلمين منهم، وتعريف الأفرنج بحقيقة الإسلام وحقيَّته من أقرب الطرق، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية في الأستانة، وبعض الإنكليز واليهود، وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندرة القس إسحاق طيلر، بل كان هو داعيتها هنالك، ومن رجال الحكومة «جي، دبليو، لينتر» مفتش المدارس في الهند، وكان الأستاذ الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس «السكرتير» العام لها»[(١)].

كما أشار رشيد رضا إلى موقف محمد عبده من أحد دعاة التقريب النصارى، واسمه «خريستفورس جبارة»، الذي كان ناشطًا متحمسًا لهذه الدعوة في أمريكا، فقال: (ثم جاء إلى مصر، وألَّف فيها كتبًا ورسائل كثيرة يوفِّق فيها بين التوراة والإنجيل والقرآن، فحرمته الكنيسة الأرثوذكسية، وكان قد وصل من رُتَبها الكهنوتية إلى رتبة «لارشمندريت»، وكذلك قابَلَه المسلمون بالهزء والسخرية، إلا الأستاذ الإمام، وصاحب المنار، فاحتمل من الإيذاء ما هو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ما هم عليه)[(٢)].

ومن هذه الوقائع والاعترافات الشخصية نستخلص ما يلي:

١ ـ اقتناع الشيخ «محمد عبده» بفكرة التقريب بين الأديان، وأخذه زمام المبادرة، ونظرائه، بالكتابة إلى القس الإنكليزي إسحاق تيلور، داعية التقريب النصراني، وكان ذلك عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م في دمشق.

٢ ـ الانتقال من طَوْر الفكرة إلى العمل بعد عودته من باريس إثر تعطيل

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الأولىٰ (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م)، (١/ ٨١٩ ـ ٨٢٠).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٢٧).

جريدة العروة الوثقى عام ١٨٨٥م، فأسَّس مع موافقيه جمعية التقريب بين الأديان السماوية في بيروت بصفة سرية، وكان صاحب الرأي الأول فيها.

٣ ـ ضلوع الرافضة المبكر، بل وقوفهم خلف قيام هذه الجمعية فكرة وعملًا ومشاركة، كما يتَّضح من جهود الإيراني ميرزا باقر، ومؤيد الملك، وحسن خان، وكلهم إيرانيون.

٤ ـ استمرار هذه الفكرة لديه بعد عودته إلى مصر عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م وتعيينه مفتيًا عامًّا، كما يتَّضح من إيوائه لداعية التقريب «خريستفورس جبارة» وحَدَبه عليه.

وبهذه المواقف الفكرية والعملية لرائدي المدرسة العصرانية تم إرساء دعامة كبيرة من دعائم الاتجاه العصراني الحديث، وهي الدعوة إلى «وحدة الأديان»، وتمييع الحواجز والحدود بين دين الله الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وهو دين الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ عقيدة وشريعة، والأديان المحرَّفة المنسوخة من اليهودية والنصرانية.

وقد تتابَع تلاميذ هذه المدرسة على النسج على منوال أشياخهم، وترديد أفكارهم، بل والتوسع والإيغال فيها بما تقشعر منه جلود المؤمنين، ويذكِّر بمقالات الزنادقة والملحدين.

الفصل الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث

جرت الإشارة في الفصل الأول من هذا الباب إلى الاتجاهات العامة لدعوة التقريب بين الأديان، وفي هذا الفصل نحاول الوقوف عن كثب على حقيقة هذه الدعوة لدى مختلف الفُرَقاء من خلال وثائقهم الرسمية أو كتابات زعاماتهم الدينية في هذه الحقبة من التاريخ المعاصر.

ونظرًا لكون الجانب النصراني هو صاحب المبادرة في هذه الدعوة وتفعيلها على اختلاف طوائفه، وهيئاته الرسمية، فسيتم عرض موقفه بشكل أكثر تفصيلًا، ثم نُتبِعه بالحديث عن اليهود، ثم الإسلاميين العصرانيين، على النحو التالي:

- المبحث الأول: حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية.
- المبحث الثاني: حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي.
- المبحث الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب.
- المبحث الرابع: حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود.
- المبحث الخامس: حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول

حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية

تعني كلمة «كاثوليكية» جامعة، وهو الوصف الذي تضمَّنَه الإيمان النيقاوي الذي أقرَّ في مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥م للكنيسة الشرعية، فجاء فيه: (وأعتقد بكنيسة واحدةٍ جامعة رسولية)[١].

وقد اعتبرت الكنيسة الغربية التي مقرها حاضرة الفاتيكان[٢] في روما نفسها مستحقةً لهذا الوصف دون ما سواها من الكنائس، بدعوى أن مؤسِّسها هو «بطرس» حواري المسيح ورسوله، بل كبير الحواريين ورئيسهم، والباباوات بعده خلفاؤه[٣]، وكان أخطر وأكبر انقسام جرى في تاريخ الكنيسة هو الانفصال بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤[٤]، أفضى إلى تمايُز مزمن بين:

١ ـ الكنيسة «الرومانية» «اللاتينية» «الكاثوليكية».

٢ ـ الكنيسة «البيزنطية» «اليونانية» «الأرثوذكسية».

وقد تبادلتَا قرارات الحجب والحرمان عبر القرون، وتحاولان التقارب في النصف الأخير من هذا القرن[٥].

---

(١) راجع التمهيد، (٩٦ ـ ٩٨).

(٢) الفاتيكان Vatican: مقام البابوات في روما، يتألف من البلاط والمعابد والمتاحف والمكتبة..، ودولة الفاتيكان: دولة اعترفت بها إيطاليا في معاهدة «لاتران» ١٩٢٩م، رئيسها «البابا»، مساحتها نحو ٤٤ هكتارًا، عدد سكانها لا يتعدىٰ الألف شخص، تتألف من كنيسة القديس بطرس، والبلاط البابوي وملحقاته، بالإضافة إلىٰ القصور والبنايات الموجودة في العاصمة الإيطالية، و(كاستل غوند ولفو) خارج حدود مدينة الفاتيكان، المنجد في الأعلام (١٥٦)، وانظر: علىٰ سبيل التوسع كتاب: الفاتيكان عاصمة الكثلكة في العالم، تأليف بول بوبار، منشورات عويدات، بيروت.

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية (١٤٦).

(٤) انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية، (٣٨١ ـ ٣٩٠).

(٥) انظر: تاريخ الحركة المسكونية، الأب روبير كليمان اليسوعي، ترجمة: الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩١م، ج(١، ٢).

وتُعَدُّ الكنيسة الكاثوليكية أكبر الكنائس النصرانية أتباعًا؛ إذ يتجاوز عددهم تسعمئة مليون نسمة موزَّعين في شتى أنحاء العالم، ويتركزون في دول الغرب القديمة: إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا، وغيرها[١]، بالإضافة إلى مستعمرات تلك الدول في أمريكا اللاتينية ـ الجنوبية ـ والفلبين.

وتتميَّز الكنيسة الكاثوليكية بتنظيم هرمي دقيق، يتربع على سُدَّته «البابا» أسقف روما، وخليفة بطرس الرسول ـ كما يزعمون ـ ويلقب بـ«الحبر الأعظم». وقد منحته بعض مجامعهم صفة «العصمة»[٢].

المجمع الفاتيكاني الثاني:

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة «روما»، في الفترة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين من النصارى أتباع الكنائس الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

ولقد كان هذا المجمع حدثًا كبيرًا، ومنعطفًا خطيرًا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، التي آلت إلى حالة من الجمود والشلل في أعقاب الحربين العالميتين، وما أعقبهما من تغيرات كبرى في العالم، وانفتاح بين الشعوب والأفكار والمعتقدات، وكان لا بد لهذه الكنيسة الصارمة أن تنفض عنها غبار القرون الوسطى، ولغتها الإملائية لتتمكَّن من العيش في هذا الواقع الجديد المنفتح، أو تقبل لنفسها ومؤسَّساتها ذات التنظيم الهرمي التراتُبي الدقيق بالموت البطيء، والانحسار التدريجي أمام الأيديولوجيات التي تنافسها بقوة على الساحة العالمية، وعلى الأخص في عقر دارها «أوروبا الحديثة»، التي

---

(١) انظر: تاريخ الكنيسة الشرقية، وأهم أحداث الكنيسة الغربية: المطران ميشيل يستيم، الأرشمندريت أغناطيوس ديك، معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت، حريصا، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، (٣٨٨).

(٢) جرىٰ ذلك في المجمع الفاتيكاني الأول عام ١٨٦٩م.

اعتنقت الديموقراطية والحرية، وانعتقت من نير الكنيسة وسلطانها الكهنوتي.

لقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أمام ثلاثة خيارات فيما يتعلق بصلتها بالعالم:

(١ ـ موقف «الجيتو»[١] الهارب إلى عالمه الخاص، والمنكفئ على ذاته.

٢ ـ موقف التحريم، والاقتراب من العالم فقط بهدف إدانته.

٣ ـ موقف الحوار)[٢].

ولا ريب أن المصلحة اقتضت ترجيح الخيار الثالث، حتى مع بعض التنازلات الجوهرية، والتخلي عن بعض التقاليد والأفكار العتيدة، في سبيل مواكبة حركة المجتمع الإنساني التي لم تنتظر إذنًا من الكنيسة، ولم تَعُد تخشى حجبًا أو حرمانًا منها، ومن ثم كانت ولادة المجمع الفاتيكاني الثاني.

وبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنَّت الكنيسة الخيار التقدُّمي المنفتح على الآخرين، مما يُعَدُّ «تطويرًا لاهوتيًّا» في هذا المجمع (الذي أدخل في الكنيسة نهجًا جديدًا في التفكير اللاهوتي والعمل الراعوي)[٣]، فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها وحدها تمتلك «الحقيقة المطلقة»، وأنه لا سبيل إلى «الخلاص»[٤] إلا

---

(١) الجيتو أو «الغيتو» Ghetto تعني في الأصل حي اليهود، حيث ينعزل اليهود عادة في تجمعات سكنية خاصة، ولا يختلطون بالسكان المجاورين، ثم صار تعبيرًا شائعًا في الدلالة علىٰ العزلة.

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية، إليكسي جورافسكي (١٦٤).

(٣) انظر: مقدمة: المجمع الفاتيكاني، (٢١) للمطران كيرلس سليم بسترس، وانظر: فصل: المجمع الفاتيكاني الثاني ولاهوت التحرر من كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (٧٩ ـ ٩٣)، والراعوي أو الرُّعوي أو الرِّعائي اصطلاح كنسي تنظيمي فـ (الراعي: كل من ولي أمر قوم كالأسقف والبطريرك وغيرهما، والرعية: الخاضعون لأوامره، ومنه: رعية الأسقف ونحوه)، المنجد (٢٦٨).

(٤) الخلاص: مصطلح كنسي عقدي يعني (النجاة يوم الخلاص: الفوز بآخرة صالحة، المخلِّص: لقب السيد المسيح) المنجد (١٩١)، وراجع العقائد النصرانية في التمهيد، (٩٠ ـ ٩٣).

عن طريقها، أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلًا عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة: دستور عقائدي) فقرة ١٦: (... بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يُعلِنُون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناسَ في اليوم الآخر)[١]، وهذا النص (يسجِّل تغيُّرًا جذريًّا في موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة إلى سائر الأديان، وهو تغيُّر لا رجوع ممكن عنه... وهو ملزم بما للمجمع المسكوني من سلطة)[٢].

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (.. والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا مما هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدَّس، وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي -وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلِّمُه- تحمل غير مرة قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس، غير أنها تبشِّر -ويجب أن تبشر بلا انقطاع- بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يو ١٤:٦).

من أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفِطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيمٍ ومُثُل، في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلًا: (وتنظر الكنيسة أيضًا بتقدير إلى المسلمين

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).
(٢) البيانات الإسلامية المسيحية، جولييت حداد (٢٨).

الذين يعبدون الله، الواحد الحي القيوم، الرحمن، القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس، إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده[١]، كما سلَّم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهًا، يكرمونه نبيًّا، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهِلين إليها أحيانًا بإيمان[٢]، ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يُبعثون أحياء، من أجل هذا يقدِّرون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصًا.

ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرِّضهم جميعًا على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعزِّزوا كلهم معًا، من أجل جميع الناس، العدالةَ الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية).

ثم يتوجه البيان الكنسي إلى اليهود، فيذكِّر بأواصر الرحم والقُربى، والتراث الروحي المشترك بين ورثة العهد القديم وورثة العهد الجديد، ويخلص إلى القول: (وبإزاء هذا الواقع -واقع التراث الروحي العظيم- المشترك بين المسيحيين واليهود، يريد المجمع أن يشجِّع ويحرِّض على التعاون والتقدير المتبادل بين المِلَّتَيْن، وذلك خصوصًا بالدراسات الكتابية واللاهوتية، وبطريق الحوار أيضًا).

وفي مسعًى مُلَطَّف لتبرئة اليهود من دم المسيح في زعمهم، ـ خلافًا لما درج عليه النصارى طوال القرون السالفة ـ يتابع البيان قائلًا: (ولئن يكن ذوو

---

(١) يزعم نصارىٰ المجمع الفاتيكاني أن روح المسيح يعمل بطريقة خفية في جميع الأديان والتقاليد الأخرىٰ، وأن ما فيها من حق وصواب فمن أثره الخفي، وسيأتي لذلك مزيد تفصيل.

(٢) هذا من افتراء النصارىٰ علىٰ المسلمين، فالمسلمون لا يبتهلون إلا إلىٰ الله وحده، ولا يدعون أحدًا سواه قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا *﴾ [الجن: ١٨].

السلطان من اليهود ومُشايِعُوهم هم الذين دفعوا على قتل المسيح، فإن ما اقترفته الأيدي إبان آلامه لا يمكن إسناده، في غير تمييز، إلى جميع اليهود الذين عاشوا آنَ ذاك، ولا إلى اليهود العائشين في عصرنا، من أجل ذلك لا يجوز على كون الكنيسة هي الشعب الجديد لله أن يُشَهَّر باليهود بأنهم منبوذون من الله، وأنهم ملعونون، كما لو كان ذلك يستنتج من الكتاب المقدس، فليحرص الجميع إذن في التعليم المسيحي، وفي الوعظ بكلمة الله، ألَّا يعلِّموا شيئًا لا يتوافق مع حقيقة الإنجيل وروح المسيح.

وإلى ذلك فإن الكنيسة التي تستنكر جميع ألوان الاضطهاد لجميع الناس أيًّا كانوا، ولا قِبَل لها بأن تنسى التراث المشترك بينها وبين اليهود، تأسف ـ لا لبواعث سياسية ألبتة، بل بدافع من محبة الإنجيل الدينية ـ للأحقاد والاضطهادات، وجميع مظاهر العداء للسامية التي أَلَمَّت باليهود، أيًّا كان عهدها، وأيًّا كان فاعلوها)[١].

وبالنسبة لموقف الكنيسة الكاثوليكية من الإسلام والمسلمين على وجه الخصوص يصوِّر الكاتب الروسي أليكسي جورافسكي حجم النقلة قائلًا: (للمرة الأولى منذ أربعة عشر قرنًا من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين، معترفًا بوضعهم الديني المتميز، ولهذا شبَّهَت المطبوعات الكاثوليكية التغيُّرَ الحاصل في موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ«الانقلاب الكوبرنيكي»[٢]، وهو تشبيه غير مبالَغ فيه، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رسالة البابا بيوس الثاني عشر Fideil donum الصادرة في أواخر الخمسينيات (١٩٥٧م» رأت في انتشار الإسلام في أفريقيا «خطرًا على الكنيسة»، وأن كتاب «تاريخ الإرساليات الكاثوليكية»، المؤلَّف من أربعة

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

(٢) نسبة إلىٰ العالم الفلكي البولوني «كوبرنيك 1473) Copernic ـ ١٥٤٣) الذي برهن علىٰ دوران الكرة الأرضية علىٰ ذاتها وحول الشمس. انظر: المنجد في الأعلام (٥٩٦) خلافًا للفكرة السائدة آنذاك من كون الأرض مركز الكون، فأحدث انقلابًا كبيرًا في علم الفلك، وهذا وجه التشبيه.

مجلدات، والصادر في المرحلة نفسها، نظر إلى نشاط الإسلام وفعاليته العالمية ككارثة تضاهي خطر الشيوعية)[١].

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، لَتمثِّل موقفًا عقديًّا جديدًا، تُبنَى عليه طريقة عمل جديدة أيضًا، وهي تمثل أساسًا متينًا لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند عليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين، وبتحليل تلك الفقرات نلمس ما يلي:

أولًا: إيجاد المسوغ العقدي لمشروعية الحوار بتوسيع دائرة الخلاص، وإمكان شمولها غير النصارى، وهي خطوة هامة وضرورية بالنسبة للكنيسة حتى تقيم جسور التواصل مع المخالفين الذين كانوا في نظرها سابقًا «كفارًا»، و«محرومين من ملكوت الله». هذا مع عدم التخلي عن البشارة بالمسيح مطلقًا.

ثانيًا: الاعتراف بالأصول الإيمانية، العقائد والشرائع الدينية لدى المسلمين، وإن لم يبلغ الأمر الاعتراف بنبوة محمد ﷺ؛ لما يستلزم ذلك من لوازم تعني نسخ الديانة النصرانية.

ثالثًا: إبداء الأسف على النزاع التاريخي العدائي مع المسلمين، والاعتذار لليهود مما نالهم من اضطهاد وتشهير.

رابعًا: دعوة المسلمين واليهود إلى التفاهم والتعاون عن طريق الحوار الأخوي.

وبالمقابل فقد أبدى الكاتب الروسي إلكسي جورافسكي في تحليله العميق لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني تجاه الإسلام جملة من التعقبات؛ إذ يقول: (.. لكن اللباقة القصوى للنص لم تتمكَّن مع ذلك من إخفاء بعض التناقضات المبدئية، والنقاط الخلافية الجدية بين الديانتين، وعلى الرغم من الحل

(١) الإسلام والمسيحية، (١٣٧ ـ ١٣٨).

الإيجابي الذي قدَّمه المجمع للمشكلة المسيحية القديمة حول موقع المسلمين في عقيدة «الخلاص Salut »، فإنه صرَّح بتحفظٍ وأشار من بعيد إلى وضع الإسلام فيما يتعلق بالتقليد التوراتي وبالوحي.. وقد امتنع المجمع عن الإشارة القاطعة والصريحة إلى اتباع المسلمين «ملة إبراهيم»، حيث يشير إلى ارتباط المسلمين بالتقليد الإبراهيمي، ولكن ليس من الناحية التاريخية، وإنما من حيث التبعية الإيمانية لإبراهيم(١).

وقد سكت المجمع عن مشكلة وُثوقِيَّة وصحة المكانة النبوية لمحمد، مع أن هذه المسألة جرى التعرُّض لها أثناء المناقشات والمداولات، حيث اقترح بعض المؤتمرين إدخال تعديلٍ على القسم السادس عشر من مسودة الدستور العقائدي «الكنيسة» يؤكد أن المسلمين (يعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي كلَّم الناس بالأنبياء)، إلا أن اللجنة اللاهوتية المختصة ألغت هذه العبارة؛ نظرًا لأنها يمكن أن تؤول بشكل مثيرٍ للإشكال، كأن يُفهَم منها أن الله «تكلم عبر محمد»، في حين أن التصريح الختامي صاغ هذه العبارة بصورة مقتضبة: «الذي كلَّم الناس».

من الملاحظ أن كثيرًا من النواحي، وخصوصًا تلك التي تتناقض مع طقوس المذهب الكاثوليكي، ظلَّت خارج دراسة المجمع، كما لم تناقش المشكلات المتعلقة مثلًا برأي الإسلام بالقدرة الكلية ـ المطلقة للإله، وحرية الاختيار

---

(١) يشير الكاتب إلىٰ قضية مهمة وهي اعتقاد النصارىٰ أن عهد الله لإبراهيم قد تحقق عبر فرع إسحاق في عيسىٰ عليهما السلام، ولم يَسْرِ في الفرع الإسماعيلي إلىٰ محمدٍ ﷺ، وكذب النصارىٰ، وصدق الله العظيم إذا قال لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فما أبعد إخوان القردة والخنازير من اليهود، وعُبَّاد الصليب والصور من النصارىٰ عن عهد الله، وملة إبراهيم الذي دعا ربه وهو يرفع القواعد من البيت ـ الكعبة ـ ومعه ابنه البكر إسماعيل عليه السلام، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة: ١٢٨- ١٢٩]، فكانت هذه الأمة وكان هذا الرسول ﷺ.

الإنساني[١].

كما لم يتعرَّض المجمع للمسائل ذات الصلة بمفهوم الأمة والكنيسة، وقضايا الوحي والإيمان، والدنيا والآخرة والعلمانية... إلخ علمًا بأنه بالنسبة للوعي الديني فإن هذه المسائل تشكِّل معطيات محدَّدة للغاية، ولا يمكن فصلها عن النواحي الاجتماعية ـ الثقافية للتعاون والحوار بين هاتين الديانتين)[٢].

ورغم هذه التعقبات المهمة تبقى قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مَعْلَمًا بارزًا في رحلة التقارب بين الأديان.

الكتب والوثائق الكاثوليكية المتعلقة بقضية التقريب بين الأديان:

لِتَبيُّن فهم الكنيسة الكاثوليكية لنصوص المجمع، وأسلوب تطبيق مقرَّراته، نختار بعض الكتابات والوثائق التي تجلي حقيقة التقريب في نظر الكنيسة:

أ ـ (نحو حوارٍ مع الإسلام):

من أقدم البيانات الكاثوليكية بعد المجمع الفاتيكاني الثاني المقالة التي كتبها «لويس جاردت»، ونشرتها أمانة سر شؤون غير النصارى عام ١٩٦٦م بعنوان «نحو حوار مع الإسلام»، واستهلَّها بتوجيه لأبناء مِلَّته قائلًا: (.. إن القيم المسيحية التي تبدو في حياة أولئك الذين يستقر إيمانهم في بواطنهم، لا تستدعي أن يُظهِروا ذلك الإيمان على صيغة سِبابٍ للقيم الإسلامية، وإنما عليهم أن يجعلوا غايتهم «رصف الحجارة» التي توجد حقًّا في الإسلام مثل «الثقة بالله، والصبر على شدة البلاء، والإخلاص والصدق...»، تلك الصفات التي ظهرت في أفضل أشكالها في حياة المسلمين الروحية، على الإنسان أن يتعلم كيف يجد

---

(١) دأب النصارىٰ علىٰ وصف الإسلام بمذهب «الجبرية»! ربما لاعتقادهم أن العقيدة الأشعرية هي المعتمدة.

(٢) الإسلام والمسيحية: (١٤٥ ـ ١٥١).

المسرَّة في الثناء على هذه الصفات دون تحفُّظ)[١].

وبعد هذه المقدمة يختار الكاتب «مواضيع محتملة للبحث» في الحوار الإسلامي المسيحي، هي عبارة عن: (ثلاثة «إرشادات عظيمة» تسيطر ليس فقط على فكر المسلم، ولكن على توجُّهه الكامل إلى العالم والإنسان والله، والتي تدفعني إلى الاعتقاد أنها مفيدة بشكل خاص من أجل استمرار البحث)[٢].

وهذه القضايا «الإسلامية» التي يريد الكاتب أن يجعلها مادة للبحث والحوار، يحاول عرضها بطريقة حَذِرة، ذكية، وبأساليب ملتوية، هي على النحو التالي:

أولًا: (.. القضية الكبرى في الفكر اللاهوتي الإسلامي، مشكلة ازدواجية السببية؛ السببية الإلهية، والسببية الإنسانية، أو مشكلة أفعال الله وأفعال الإنسان، ويتبع ذلك مشكلة حرية الإنسان.

إن المشكلة هنا ليست مجابهة بين الفكر المسيحي والفكر الإسلامي، بقدر ما هي «جهد مشترك للتفكير» في قضية «السلوك»، ونترك المجال للتقدُّم الحديث في علوم الإنسان وفي المعرفة نفسها، وقد يجد الفكر الإسلامي نفسه مدعوًّا إلى التجديد والتقدم، دون إضاعة طبيعته الخاصة)[٣].

أليس هذا الكلام ترديدًا لما افتراه بعض المستشرقين من اتهام العقيدة الإسلامية بـ«الجبر»، بناءً على جنوح بعض الفرق الإسلامية في مسألة «أفعال

---

(١) Towards a Dialoge with Islam، Louis Gardet Secretaraitus pro-non Christainis: Bulletin VOL NO.3 نحو حوار مع الإسلام، لويس جاردت، عن مجموعة وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية، لبيستر، بعنوان الحوار بين النصارىٰ والمسلمين ج(٢)، (٢، ٣).

(٢) المرجع السابق، (٢، ٣).

(٣) المرجع السابق، (٣).

العباد»؟ وليس المقصود نقاش هذه القضية طبعًا[١]، ولكن التنبه لطبيعة القضايا المرشحة للحوار، والتي يتعيَّن على الفكر الإسلامي كما يتوقَّع الكاتب أن يُحدِث «تجديدًا» و«تقدمًا» فيها!

ثانيًا: مفهوم «الشهادة»: بعد تحليل فلسفي لمدلول الشهادة يصل الكاتب إلى جُمَل واضحة لعلها «بيت القصيد»، فيقول: (.. تقوم النصرانية بمواجهة التحولاتً الظاهرية، والعمق النفسي بقضية الشخص وأساسه الوجودي بالمقابلة مع التصرفات ومواضيعها خارج فكره، وتتركز المشكلة الإسلامية على الشهادة، وتهتم بها بشكل ربما كان شديد العنف، ولكنها مشكلة تثير بدورها التساؤل عن الشيء المُثبَت بكل نتائجه وقيمة الحكم على الوجود والحكم على الحقيقة)[٢].

لم يشأ الكاتب أن يستدعي بعض المصطلحات الدينية في معنى الشهادة النصرانية؛ لأن السياق لا يناسب أن يقول في هذا المقام: «المسيح هو السبيل الأوحد إلى الله، ولا خلاص خارجًا عنه»، وتلك هي الشهادة النصرانية في أبسط صورها، ولكنه يلمز الشهادة الإسلامية بكونها تؤدَّى «بشكل ربما كان شديد العنف»، وذلك في إشارة واضحة إلى «الجهاد في سبيل الله» الذي يثمر الشهادة في أعظم صورها، ويسمَّى مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا «شهيدًا» إذا قتل في هذا السبيل.

وبالتالي، فالكاتب يريد أن يُخضِع قضية «الجهاد» التي تَقُضُّ مضاجع المستعمرين النصارى لمِبضَع الجراح، لكن من خلال دائرة أوسع، وتحت عنوانٍ آخر هو مفهوم الشهادة، ويُبدِي تشوُّفه لحدوث تغيير أو تعديل في

(١) العقيدة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تثبت للإنسان إرادة واختيارًا وفعلًا وقدرة، ولكنها تابعة لإرادة الله وقدرته كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ *وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقال ﷺ لأصحابه لما قالوا: أفلا نتكل؟: (لا، اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٠).

(٢) المرجع السابق، (٤).

الموقف الإسلامي حين يقول: (إنني راغب جدًّا في أن أعتقد أن هناك مجالاتٍ جديدة تظهر أمام الفكر الإسلامي ليستكشفها فيما يتعلق بالشهادة...)[١].

ثالثًا: «القيم الخلقية الإسلامية»، يقول الكاتب: (.. إن الإسلام في الماضي لم يقم بصياغة لاهوته الخلقي بنفسه، لقد كان يكفي أن يبرز العناصر حيثما تتطلَّب فرائض الله المتعلقة بمفاهيم القانون الإلهي «التكليف» استجابة أساسية من «المؤمن»، ويبدو غريبًا أن التقدم الحديث في علوم الإنسان لم يجعل المفكر المسلم يُعِيد النظر في مشكلة «التكليف» في إطار الأبعاد المتجدِّدة لعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، وبتعبير آخر ضمن أبعادٍ فلسفيةٍ خُلقيةٍ تأخذ بعين الاعتبار الماديات الأساسية لوضعِ لاهوت خلقي)[٢].

إن الكاتب يُعِيد صياغة شبهات المستشرقين والمبشرين بطريقة «حوارية»، فأحد المطاعن التي يدندن حولها المستشرقون والمبشرون أن الإسلام دين تكاليف و«أحكام شرعية»، وأن «الفلَاح» في نظر المسلمين إنما يكون بحسب التزام المسلم بهذه الأحكام فعلًا وتركًا، بخلاف النصرانية التي تخلي عهدة أتباعها من جميع الالتزامات والأعمال اكتفاءً بالإيمان القلبي بالمسيح[٣].

والكاتب يحاول أن يقرِّر أن هذه الجملة من التكاليف الخُلُقية ليست من أصل الإسلام في صياغتها الحالية، وفي ذلك إشارة إلى ما يزعمه البعض من أن الفقهاء المتأخرين هم الذين قنَّنُوا هذه الأعمال وأكسبوها الصفة الشرعية، ولذلك يُبدِي الكاتب استغرابًا حول عدم تأثير التقدم الحديث في علوم الإنسان في إعادة النظر في مشكلة «التكليف».

وغير خافٍ على كل مسلم أن تديُّنه لله رب العالمين مبني على أساس متين من العقيدة والشريعة المحفوظة التي لم تَنَلْها أيدي التحريف والتبديل، وأن

---

(١) المرجع السابق، (٤).

(٢) المرجع السابق، (٤).

(٣) راجع مبحث الشريعة عند النصارىٰ في التمهيد (٩٨ ـ ١٠١).

مجموع تلك العقائد والشعائر (الإيمان والعمل الصالح) هو الموصل إلى «الفلَاح» الدنيوي والأخروي بعد رحمة الله تعالى، ولكن القوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

ثم يتساءل الكاتب أخيرًا: (ألا تستطيع هذه الإرشادات الثلاثة المتلاقية في نقطة واحدة أن تحدِّد مجالًا ما يمكن فيه القيام بحوار خاص مثمر بين الفكر النصراني والإسلامي؟)[١].

ومن حقنا نحن أن نتساءل: هل الحوار الذي تسعى إليه الكنيسة الكاثوليكية مع المسلمين يعني إثارة شبهات المستشرقين، وإن بشكلٍ مهذَّب، ونقل الحوار إلى قضايا تخص أحد الطرفين، ليقوم الطرف الآخر بتقويمها، وتقديم الحلول المناسبة من خلال المنظور الكنسي؟ لِمَ لم يطرح الكاتب معضلات العقيدة الكاثوليكية وأسرارها السبعة التي تأباها الفِطَر والعقول السليمة كما يشهد التاريخ والواقع، فهي أوْلَى بالاستجلاء والاستكشاف، كعقيدة التثليث والصلب والفداء والخلاص وعصمة البابا... إلخ؟[٢]

إن هذه المقالة تكشف نوعًا من أنواع الأداء المبكر في أسلوب الحوار النصراني الإسلامي، يستهدف بحث مسائل عقدية، يأخذ الجانب النصراني فيها بزمام المبادرة والتخطيط والتوجيه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

ب ـ (توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين):

ومن الإصدارات المهمة للكنيسة الكاثوليكية في مجال الكشف عن حقيقة التقريب بين الأديان لديها ما كتبه الأب «موريس بورمانس»، بعنوان: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين»، وحظي بمراجعة

---

(١) المرجع السابق، (٥).

(٢) راجع مبحث العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ ـ ٩٥).

لفيفٍ من كبار الآباء والخبراء في طبعته الثانية عام ١٩٨٠م، وتبنَّته ونشرته أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين (لتوطئة الحوار وقيام تعاون بين المسيحيين والمسلمين)[١] مما يجعله وثيقة رسمية للكنيسة الكاثوليكية، وشرحًا لعبارات ومقاصد المجمع الفاتيكاني الثاني.

والكتاب في أصله موجَّهٌ إلى النصارى، وبالأخص الكاثوليك منهم، وقد أفصح مؤلِّفه عن غايته قائلًا: (إن الذين يدينون بالإسلام، والذين يتبعون «يسوع» يتساءلون اليوم عما كان لمسيرتهم معًا على الطريق من الأشكال المتنوعة، طوال أربعة عشر قرنًا من التاريخ المضطرب، إن الله يدعوهم اليوم إلى استخلاص العبر من ذلك، ليعرفوا على وجهٍ أفضل -بلا ريب- أن سبل الحوار قد تصل بهم غدًا إلى شهادة أنصع، وتعاوُن أخلص، في خدمة الله لمصلحة الناس وخير العالم، وهذه الفصول إنما كتبت لتساعد المسيحيين، ولا سيما الكاثوليك على ذلك، فقد دعاهم المجمع الفاتيكاني الثاني إلى العودة لما تقتضيه رسالة الحوار الصحيح، فيكون تقبلًا للآخر، وحديثًا عن الإيمان، ومشاركة في القيم، ولضمان هذه المرامي المجردة للحوار الذي كان قائمًا على مر العصور، في الأوضاع التاريخية والحالات الشخصية الأشد تنوعًا، يجد المسيحيون في هذه الصفحات بعض الأفكار السريعة والمقترحات الوجيزة عن الأبعاد المتعددة لحوارهم الحاضر مع المسلمين)[٢]، ومن ثنايا هذا الخطاب الذي يوجِّهه الأب موريس بورمانس إلى مواطنيه، وأبناء مِلَّته نلتقط بعض الجمل الكاشفة لحقيقة الحوار وغايته كما يراها أحد أقطاب المنادين بالحوار والتقارب المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية:

(الحوار في جوهره يهدف إلى تعزيز التعاون بين الجميع، وجعلهم يتعمَّقون في عقيدتهم وتراثهم الديني، وإلى تنشيط التماسهم لمشيئة الله وحدها، ورجوع

---

(١) من مقدمة الرئيس المساعد لأمانة السر، جان جادو للكتاب (١٤).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار (١٩).

كل منهم إلى الرب الذي يخاطبه، ويغفر له، ويغيِّر ما فيه إلى الأفضل، فلا يسوغ إذن -على الإطلاق- أن تكون غاية الحوار سعي المحاور إلى اجتذاب الآخر إلى دينه بأي ثمن، أو حَمْله على الشك في الإيمان الذي يغتذي به، بل على العكس، يعتزم المؤمنون، في «تنافس روحي» وتسابُق مقدس، حيث «يستبقون الخيرات» (القرآن ٥, ٤٨)[١] أن يتعاونوا على «استباق أنفسهم»، فيصيروا خيرًا مما هم عليه، في سياق ما دعاهم الله إليه، ليزدادوا قربًا منه، ويزيدوا من وزن الخير في العالم)[٢].

وفي تقويمه للعلاقة الإسلامية بأهل الكتاب في العهد النبوي يقول: (إن الإسلام الذي نشأ في شبه جزيرة العرب متصديًا للشرك المكي، كان في وسعه أصلًا الاعتقاد بأنه النسيب الداني أو القاصي لليهودية القائمة في يثرب «المدينة» وفي غيرها من المدن، أو الجار الذي تربطه أواصر الود والتكامل مع تلك الجماعات في اليمن والحبشة القائلة بالطبيعة الواحدة، أو مع تلك الكنائس النسطورية[٣] في الإمبراطورية الساسانية، واليعقوبية[٤] أو الملكيّة[١] في

(١) الآية في سورة المائدة: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وهذا الأسلوب في عزو الآيات محاكاة لأهل الكتاب في عزوهم إلىٰ ما يسمونه (الكتاب المقدس) فينبغي الحذر من التشبه بهم.

(٢) توجيهات في سبيل الحوار (٢٠).

(٣) النسطورية: النساطرة أو الأشوريوُّن طائفة من المسيحيين ينتسبون إلىٰ نسطور بطريرك القسطنطينية، قطنوا في كردستان بين الموصل وأرمينية إلىٰ أن تبدد شملهم بعد حرب ١٩١٤م، ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية فأوفدوا المبشرين إلىٰ آسيا الشرقية القرن (٦) ونشروا المسيحية في إيران والهند والصين، انضم قسم منهم إلىٰ الكثلكة في القرن السادس عشر، وهم الكلدان). انظر: المنجد (٧٠٨).

(٤) اليعقوبية: (السريان: هم اليوم النصارىٰ أبناء اللغة السريانية، انفصلت منهم جماعة عن كنيسة أنطاكية، علىٰ أثر المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح، وتلتقي مع الكنيسة القبطية في اعتناقها للمونوفيسية، وقولهما معًا بأن للمسيح طبيعة واحدة، وتنظمت في سورية وفي بلاد ما بين النهرين، بفضل يعقوب البرادعي، كنيسة يعرف أبناؤها باليعاقبة القرن (٦)، كما تفرعت منهم في القرن (٥) الكنيسة المارونيَّة، وقد تكونت في القرن (٧) كنيسة سريانية كاثوليكية، وفي الهند طائفة لا يستهان بها من السريان هم المالنكاريون، ولها أتباع في العراق أيضًا، وطقوس السريان الكنسية مأخوذة من الطقس الأنطاكي، يستعملون فيها اللغة السريانية). انظر: المنجد في الأعلام (٣٥٤)، الموسوعة

الإمبراطورية البيزنطية، ولكن سرعان ما اعتُمد أسلوب التحريم والنبذ، فلم يَعُد الحوار الإسلامي المسيحي، الذي بدأ مأساويًّا عند مباهلة المدينة (٦٣١) (القرآن ٣, ٦١)[٢] حين خضع مسيحيو نجران للدولة الإسلامية الفتية، وقَبِلوا عهد الذمة الذي فرضته، سوى سلسلة من المصادمات السياسية أو الثقافية أو الدينية، أوجدت فيها المماحكات الجدلية، والتحديات الأيديولوجية، جمًّا من الأفكار الخاطئة الناجمة عن إساءة في الفهم أو تسرُّع في الحكم، وتفاقمت الأمور على مر الزمن)[٣].

وفي محاولة لتحديد مفهوم «الحوار»: (إن كلمة «الحوار» وإن درجت في الاستعمال أكثر من اللزوم، وصارت عرضة للالتباس، حتى ليُؤْثِر عليها البعض لفظة «المشاركة» أو «التلاقي» يراد بها هنا: التعبير عن نمطٍ من الوجود والعمل يأبى كل اعتزال، ويعني دائمًا بالآخر، بل يعتقد أن العلاقة بالآخر هي التي تكوِّن الشخصية، فمن الواجب إذن أن يكون الحوار الأمنية العميقة لكل مؤمنٍ جدِّي صادق)[٤].

ويحدِّد الكاتب أربعة استعدادات أساسية في أشخاص المتحاورين، ضرورية في نظره لبلوغ حوار حقيقي، تكشف بدورها عن حقيقة ذلك الحوار وطبيعته:

العربية الميسرة ١٤١٩هـ.

(١) الملكانية: (المَلَكِيُّون: هو الاسم الذي أطلقه العرب علىٰ مسيحيي سورية الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، وهم في ذلك من جهة الإمبراطور، انضم فرع منهم إلىٰ الكنيسة الكاثوليكية القرن (١٨)، والفرع الثاني هم الروم الأرثوذكس لغتهم الطقسية اليونانية والعربية)، المنجد في الأعلام (٦٨٤).

(٢) يشير إلىٰ الآية (٦١) من السورة الثالثة، سورة آل عمران وهي آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *﴾ [آل عمران: ٦١].

(٣) المرجع السابق، (٢٥ـ٢٦).

(٤) المرجع السابق، (٤٥).

(١ ـ قبول الواحد للآخر:... يفترض استقبالُ المسيحيين والمسلمين بعضهم بعضًا قبولَ بعضهم للبعض الآخر، على ما بينهم من اختلافٍ عظيم، واحترام بعضهم بعضًا في تنوُّع تراثهم الديني، ومحاولة اكتشاف الآخر في جِدَّة اللقاء، سعيًا إلى المزيد من التقدير والحب له، من هنا يجب أن يبدأ كل حوار...

٢ ـ التفاهم:... والمطلوب هو التلاقي في سبيل التفاهم، ومعرفة كل واحدٍ للآخر، لا كما هو فقط، بل كما يريد أن يكون أيضًا... ولكن تبادل الإعلام لن يكفي أبدًا لبلوغ التفاهم، فعلى المتحاورين كذلك أن يتحرَّروا مما عندهم من عُقَد النقص أو التفوق، ويكونوا أكثر تقبلًا لما قد يبديه الآخر من توضيحاتٍ لذاته أو لتراثه الديني، بحيث يصبح كل واحدٍ في النهاية قادرًا على أن يضع نفسه في موضع غيره.

٣ ـ التعايش والمشاركة: على المسيحيين والمسلمين المدعوِّين إلى أن يعترف بعضهم ببعض في أصالتهم، ويتبادلوا الشهادة لأمانتهم، أن يتلاءموا بعضهم مع بعض، ويخترعوا مواقف تعزِّز الوحدة، ويتعاونوا حيثما يشعرون بأنهم ملتزمون القيم نفسها، ولن نلح أبدًا بكفاية على ما يتوفَّر للحوار من إغناء عندما يستطيع الجميع أن يأكلوا معًا، ويتعاضدوا في العمل، ويعانوا متضامنين الآلام نفسها، ويتقاسموا في نفس الأعياد الفرح والبهجة... إن الاعتراف لكل فردٍ وللجماعة التي ينتمي إليها بما يحق لهم من أفضال، وما يختصون به من فضائل يقوي حظ الحوار في بلوغ تكاملٍ أسمى.

٤ ـ الجرأة والمخاطرة: والحوار، في كل حال، هو دومًا مغامرة لا يعرف فيها المتحاورون إلى أين ينتهون، وبحسبهم أن تقوم بينهم الثقة، وأن يشرعوا في التخاطب والتعايش، ولا بد لذلك من فسحة من الحرية حتى يجرب كل واحد

فيها حظه، مع اجتهاده في مراعاة محاوره وجماعته)[١].

● ـ ويبرز الكاتب جملة من المحاذير والمحترزات التي تخالف روح الحوار الصادق ـ في نظره ـ.

(ليس أسوأ للحوار من السعي الكاذب إلى التكيف، وقوامه عند المسيحي، انتقاص إيمانه حين عرضه بحيث يجعله مقبولًا لدى المسلمين، إن الحوار يفقد كل معناه إذا انتقص الفريقُ المسيحي إيمانه إلى حدِّ جعله عموميات، وحجب عقائده التي تفترق عما يؤكده القرآن.

وليس المقصود هنا تحوُّلًا بالانتقال من دين إلى آخر، بفعل «مناورات» إيديولوجية أو مداخلات مجتمعية: المؤمنون الحقيقيون كلهم مُجمِعون على نَبْذ أشكال الاجتذاب الديني هذه، التي تليق بالإيمان الذي يعيشونه، وبالله الذي يخدمونه.

فلا مجال عندئذٍ لانتصار الواحد على الآخر، أو لاحتمال ضم الواحد إلى الآخر، أو للتباري في المجاملة والملاطفة، إن الحوار هو تساؤل في الإيمان، وتنافُس أخوي في العمل «باسم الله»، «فما الحوار إلا صبرٌ طويل... (دعوة) تخلَّصَت من أدران الجدل والدعاية... فتصبح أصلًا تفتُّحًا على الغير وانتباهًا إليه، تصبح بحثًا متواصلًا عن الحقيقة، وذلك بالتعمق في فهم القيم الدينية والإيمان بها إيمانًا راسخًا، حتى تصير حياة الإنسان شهادة بحتًا...

إلا أن هناك خطرًا دقيقًا قد يتهدَّد حوارهم المشترك، وهو الارتياب، الصحيح أو الباطل، بنوايا المحاور، فتُنسب إليه أفكارٌ مبيَّتة تهدف إلى الاجتذاب الديني.

أو لا يتهم بعضهم الحوار اليوم بأنه أسلوبٌ جديد، بل «مناورة» بارعة، لضم الآخر إلى أيديولوجية من يقوم بالمبادرة، أو إلى إيمانه، فينبغي إذن تكرار القول

---

(١) المرجع السابق، (٤٩ ـ ٥١).

أن الحوار الصحيح يفترض عند الطرفين العزوف عن السعي إلى حمل الآخر على تغيير دينه، على وجه مصطنع، أو حمله على الشك في معتقده الديني، وسيكون ذلك مسخًا أو خيانة للحوار الحقيقي...)[١].

ويُلِحُّ الكاتب في مواضع كثيرة على «الارتقاء» بالحوار إلى مستوى «الحوار الروحي»، بل «الوحدة الروحية» الناتجة من الانفتاح على الآخر، والإعجاب بما لديه:

(إن حوار القيم الحضارية لا يمكن أن يكون فيه الكفاية للمؤمنين الذين يعلمون أن الحوار الأساسي هو الذي يفتتحه الله وينميه ويقوده إلى غايته مع كل واحدٍ منهم، في إطار تراثه الديني، وحسبما يراه الله في حرية مقتضياته غير المرتقبة...

فإذا كان عند المسيحيين والمسلمين كلامٌ كثير يتبادلونه عن القيم التي تهيمن على التزامهم خدمةَ البشر والمجتمع البشري، فهم يتبيَّنون أيضًا أن بإمكانهم التحادث عن اختباراتهم الدينية بالمعنى الحقيقي، وعن جوابهم الشخصي للتلمسات الإلهية، وعن كنوز القداسة والصلاح التي أَنْمَتْها وادَّخَرَتْها المسيحية والإسلام على مدى التاريخ، إن «الانفتاح في البحث الروحي» يدعو حينئذٍ كل محاور إلى الإعجاب بما يكتشفه عند المؤمنين في الديانات الأخرى...

هذه الدعوة إلى الوحدة الحية في نفوس المتحاورين من المسيحيين والمسلمين تشبه المساعي المسكونية إلى لَمِّ شمل جميع الذين ينتمون إلى يسوع المسيح ربًّا أوحد...)[٢].

● ويقترب الكاتب أكثر في تطبيق هذه الوحدة الروحية بأسلوبٍ عملي

---

(١) المرجع السابق، (٥٧ ـ ٦٢).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار (١٣٧ ـ ١٣٩).

فيقول:

(والمسيحيون الذين يحضرون صلاة المسلم الأمين، التي يردِّدها خمس مراتٍ في اليوم يشعرون بالاحترام والإعجاب، وكذلك المسلمون الذين يشهدون أحيانًا صلاة الساعات، أو صلاة القداس (الأفخارستيا)[١] في جماعة مسيحية، يأخذهم العجب، ويحسون بالتعاطف، ومن مصلحة المسيحيين أن يزدادوا معرفةً لصيغ الصلاة العديدة عند محاوريهم من المسلمين، كما أن هؤلاء يجنون بلا ريب فائدة من إيلائهم الصلوات المسيحية انتباهًا أشد، وعلى حوار المؤمنين إذن أن يسهِّل هذا التبادل لكنوز الصلاة الروحية التي جمعها هؤلاء وأولئك على مدى التاريخ.

وقد يحدث أن يشعر المسيحيون والمسلمون بالحاجة إلى أن يصلُّوا معًا، ولكنهم يرون على الفور صعوبة تلبية تلك الحاجة، ويبدو أن على الجميع أن يحترم كلٌّ منهم احترامًا كاملًا قوامَ الصلاة الطقسية والعبادة المفروضة عند الآخر، دون أن يحاولوا أبدًا المشاركة فيها مباشرة، على أن يتساهَلُوا ويقبلوا أن يشهدوها متعاطفين إذا ما دعوا إلى ذلك، أو طلبوا الحضور باسم الإضافة الإبراهيمية... قد يجد الفريقان في أسوة الأولياء والقديسين الجرأة الضرورية لاستنباط صِيَغ مشتركة جديدة للتسبيح والابتهال تجمعهما في اختبار للصلاة يتم في حياة كل منهما)[٢].

● ونختم هذه النقولات بإماطة اللثام عن موقف الكاتب، وموقف الكنيسة الكاثوليكية بالطبع، من الحوار في أخطر القضايا، وهي قضية التوحيد والألوهية، وحقيقة عيسى عليه السلام، فيقرِّر قائلًا: (ليس من النافع، بل قد يكون من الضارِّ للحوار، إعادة الجدل وتوسيعه كما حصل في أوائل القرون الوسطى، ويبدو أنه من المستحيل التقريب بين المسيحيين والمسلمين في هذا

(١) راجع مبحث الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارىٰ في التمهيد، الأسرار السبعة (١٠١ ـ ١٠٢).
(٢) المرجع السابق، (١٤٧ ـ ١٤٩).

المجال، باعتماد البراهين الفلسفية، أو الاستدلالات اللاهوتية الكلامية)[١].

ونكتفي بهذا القدر من كتاب «توجيهات في سبيل الحوار» لاستكناه حقيقة دعوة التقريب والحوار كما يراها الجانب النصراني، وهو يخاطب مواطنيه، وتتَّضح لنا معالم أساسية نستخلصها من العرض السابق:

أولًا: أن تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية خلَا من الحوار بصورته الصحيحة، وعلى الأخص ما جرى في العهد النبوي مع نصارى نجران، حيث يصفه المؤلف بأنه «مأساوي» انتهى بالمباهلة والإخضاع، واعتمد أسلوب التحريم والنبذ، وما أعقبه بعد ذلك طوال التاريخ كان سلسلة من المصادمات والمماحكات والتحديات.

ومن ثم فالحوار المطلوب وليد هذا العصر الحديث، وأسلوب المناظرة والمجادلة والردود لا يتفق ومشروع الحوار الحقيقي المقترح.

ثانيًا: حقيقة الحوار المطلوب انفتاح مطلق على الآخر يأبى كل اعتزال، ويُعنى دائمًا بالآخر، يتقبَّله ويحترم تراثه، ويحاول أن يكتشفه ويتعرَّف عليه، ومن ثَمَّ يتعايش معه ويشاركه آلامه وأفراحه، وينطلق معه في حوار مطلق بلا قيد ولا شرط إلى المجهول، (كالمسافرين في الطريق لا يعرفون جيدًا إلى أين يقودهم الله، ولكنهم يُقِرُّون بأنه يريدهم أن يسيروا معًا)[٢]، تلك حقيقة الحوار وأسلوبه في نظر الكنيسة الكاثوليكية.

ثالثًا: هدف الحوار تعزيز التعاون بين الجميع، الموصل إلى التعمُّق في العقيدة والتراث الديني، الحامل للتغيير إلى الأفضل، ومحاولة الارتقاء نحو الوحدة الروحية، والمشاركة التعبدية، بل واستنباط صيغ مشتركة جديدة للصلاة والتسبيح يمارسها الطرفان معًا.

---

(١) توجيهات في سبيل الحوار (١٠٩).

(٢) المرجع السابق، (٦٢).

رابعًا: والحوار الحقيقي، والتقارب الصادق يربأ في نظر المؤلف عن محاولات الاجتذاب الديني والدعوي بجميع أشكاله، بل يَعُدُّ ذلك خيانة لا تليق بالهدف النبيل الذي يسعى إليه، كما يرفض الحوار الصادق التكيُّف الكاذب والمجاملة على حساب الضمير والمعتقد، بل يؤكد الكاتب لمواطنيه النصارى أن مجرد التعبير عن إيمانه بعموميات، وحَجْب معتقده الذي يخالف صريح القرآن إلى الحد الذي يجعله مقبولًا لدى المسلمين انتقاصٌ وسعي كاذب، كما لا بد لطرفي الحوار من السلامة من مشاعر الارتياب تجاه بعضهما بعضًا من تبييت نية مسبقة للضم والتشكيك والاجتذاب.

خامسًا: ومع طلاقة الحوار، ورحابة الدعوة إلى الانفتاح، إلا أن للحوار حدًّا لا يجوز تخطيه، بل ولا الاقتراب منه، ذلك ما يتصل بعقيدة التثليث والتجسُّد والفداء في شخصية المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فالحوار هنا ضارٌّ، بل مستحيل.

إن الحوار الذي يصفه الأب موريس بورمانس، شارحًا بذلك مضامين قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني وأهدافه ليمثل نمطًا غريبًا، وبدعة محدَثة على منهج الدعوة الإسلامية في ماهيته وفي أسلوبه وفي غاياته.

إن الكاتب يغالي في تعظيم شأن الحوار وتمجيده، حتى يستحيل في حس القارئ إلى هدف بدلًا من كونه وسيلة، لقد عرف المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن، بالحجة والبيان والدليل والبرهان، وتركوا في ذلك تراثًا ضخمًا، ولكن المحاور النصراني يريد أن يبرئ الحوار الصادق من أدنى تهمة للدعوة والاجتذاب والإقناع، ويرى في ذلك تعكيرًا لصفاء الحوار!

كما استقر عند المسلمين بداهةً أن أهم القضايا التي يجادلون فيها أهل الكتاب هي قضية التوحيد المطلق لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونبذ مظاهر الشرك وعبودية سوى الله تعالى، وعمدتهم في هذا الجدل الشرعي الصحيح قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، ولكن دعاة الحوار الحديث يريدون تنحية هذه القضية الأساسية وتحاشيها؛ لأن الحوار فيها يفسد الحوار، وهكذا يصبح الحوار غاية لا وسيلة، وفضلًا عن ذلك هو غاية غير واضحة يخبط المتحاورون فيه في التيه، بحرية ومغامرة لا يدرون إلى أين ينتهون! وكل ذلك مرفوض عقلًا، فضلًا عن كونه ردةً وزندقةً دينًا وشرعًا، ولا أدل على ذلك من تلك المطالب والمقترحات التي تقدَّم بها الكاتب للمشاركات الروحية من صلوات وابتهالات، لا يمكن أن يقبل بها مسلم يعي حقيقة دينه، وربما وجدت صدًى لدى بعض الزنادقة من المنتسبين إلى الإسلام من غلاة الصوفية الذين يسقطون الحدود والرسوم والشعائر، أو الفرق الباطنية الضالة، وهذا يفسر ميل الكاتب[1] وغيره من الآباء الروحيين للنصارى إلى أقطاب التصوف من القائلين بوحدة الوجود والاتحاد والحلول، وإعجابهم بهم، وتمجيدهم لهم، وذلك لاتفاق المشرب.

ج ـ (حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل):

أثار هذا التحول التاريخي في موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأديان، سواءً ما يتعلق بالقاعدة النظرية حول توسيع فكرة الخلاص، وشمولها مَن هم خارج الكنيسة، أو ما ترتَّب على ذلك من الدعوة إلى الحوار، والبحث عن القيم المشتركة والتعاون في تنميتها، أثار جدلًا واسعًا في أروقة الكنيسة ذاتها وخارجها، واشتعل فتيل الجدل ـ بطبيعة الحال ـ في الملتقيات الأولى للمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٢م بين الدوائر الكنسية المحافظة في الفاتيكان والآباء التقدميين الراغبين في الانفتاح على عالم جديد منفتح.

وفي دورة المجمع الثانية عام ١٩٦٣م، بعد وفاة البابا يوحنا الثالث

(١) انظر: في المرجع السابق، (٨٩ ـ ٩١، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٠).

والعشرين وتتويج البابا بولس السادس، بلغ الجدل ذروته في مناقشة أهم دساتير المجمع المتعلق بتحديد هدف الكنيسة ورسالتها وعلاقاتها، ويصور الأب غابي هاشم البولسي هذه الأزمة بقوله: (احتل مشروع «الكنيسة[١]» مكان الصدارة في هذه الدورة، بل في أبحاث المجمع كله، ولا عجب في ذلك؛ لأن لهذا الموضوع أهميته الأساسية في حياة الكنيسة؛ إذ عليه يتم الاعتماد، وإليه يتم الرجوع في بناء الأسس اللاهوتية وانعكاساتها على سائر مضامير الحياة الكنسية، لقد شكَّل هذا المشروع المنعطف الخطير، وتسبَّب بأزمة حادة، وضعت مصير الكنيسة وتوجُّه المجمع على المحك، وسرى الريب في النفوس الضعيفة، فراحت تتساءل: هل تقوى الكنيسة على مواجهة ذاتها والانفتاح على العالم المعاصر، أم تتمسَّك بأهداب سلطة زمنية، وامتيازاتٍ إدارية، فتدير بالتالي ظهرها للفرصة الذهبية، ضاربةً عرض الحائط بآمال الكثيرين وتطلعاتهم؟ تلك لعمري أوج الأزمة التي بلغتها المناقشات قُبَيْل التصويت التاريخي الذي جرى في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٣م)[٢].

وأسفر التصويت عن تفوُّق النزعة التقدمية، وتمخض المجمع عن تلك الوثيقة التاريخية المسماة «الكنيسة.. دستور عقائدي» متضمِّنة تلك الفقرة المشار إليها آنفًا حول مفهوم الخلاص، والتخلي عن اعتبار الإسلام هرطقة دينية مسيحية، والاعتراف به دينًا رسميًّا جديرًا بالاحترام[٣]، وجرى جدل مماثل حول البيان المجمعي حول «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»[٤]، ولكن الروح الانفتاحية، والعبارات التصالحية سادت في النهاية.

ولكن هذا الجدل الذي حُسِم رسميًّا بصدور دساتير المجمع وقراراته

---

(١) المقصود مشروع صياغة الدستور العقدي الأول للمجمع المسمىٰ «الكنيسة».

(٢) من مقدمة: (المجمع الفاتيكاني الثاني) (١٦، ١٧).

(٣) المرجع السابق، (٥٢).

(٤) انظر: مقدمة البيان في المرجع السابق، (٦٢٥، ٦٢٩).

وبياناته[١] لم تنحسم مادته واقعيًّا في العقول والصدور، فثارت إشكالات متعددة حول بنوده المختلفة، ومن أبرز هذه الإشكالات المتصلة بموضوع بحثنا، معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما، وسنلقي عليها بعض الضوء لكون ذلك يُسهم بشكل جيد في كشف المفهوم الكنسي لقضية «الحوار» وأهدافه ومراميه، عند مقابلته بالقضية العتيدة التليدة لدى الكنيسة وهي «البشارة».

وقد أصدرت أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين عقب الجمعية العمومية التي عقدت سنة ١٩٨٤م وثيقة بعنوان: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» تضمَّنَت ذكر أربعة أشكال من أشكال الحوار، هي:

(أ ـ حوار الحياة: حيث يعمل الناس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار، مقتسمين أفراحهم وأحزانهم، ومشاكلهم ومشاغلهم الإنسانية.

ب ـ حوار الأعمال: حيث يتعاون المسيحيون والآخرون في سبيل تنمية كاملة وتحرُّر للإنسان غير منقوص.

ج ـ حوار التبادلات اللاهوتية: حيث يعمل أخصائيون على تعميق الفهم للتراث الديني لدى كلٍ منهم، وتقدير القيم الروحية الخاصة بكل منهم تقديرًا متبادلًا.

د ـ حوار الخبرة الدينية: حيث يتقاسم أشخاصٌ متجذرون في تقاليدهم الدينية الخاصة ثرواتهم الروحية، من مثل ما يتعلق بالصلاة والتأمل، وبالإيمان

---

(١) (خرجت الكنيسة الكاثوليكية من المجمع بمجموعة من الوثائق التي تتفاوت قيمتها من الناحية الإيمانية، كما تدل علىٰ ذلك العناوين الرئيسة الثلاثة: فالدستور غير القرار، وكلاهما غير البيان، ذلك لأن الدستور يحمل سمة الديمومة، فيما القرار له صفة عملية، وأحكام مرتبطة بظروف الزمان والمكان، وأما البيان فإعلان موقفٍ من موضوع ما، وهو رهن بمناسبته التاريخية)، من مقدمة كتاب: المجمع الفاتيكاني الثاني.. دساتير، قرارات، بيانات) (٢٠).

وطرق البحث عن الله والمطلق)[١].

وبعد تحوُّل «الأمانة» إلى «المجمع البابوي للحوار بين الأديان»، قام المجمع بمعالجة أوسع للقضية، وإعداد وثيقة جديدة بعنوان: «حوار وبشارة.. تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، تم إقرارها في الجمعية العمومية للمجلس البابوي من أجل الحوار بين الأديان في نيسان ـ أبريل سنة ١٩٩٠م[٢]، وقد اشترك في وضع الوثيقة كل من: رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، ورئيس مجمع تبشير الأمم، ووقَّعاها في أيار ـ مايو سنة ١٩٩١م.

ونظرًا لحداثة الوثيقة وأهميتها ورسميتها، فسنعتمدها مرجعًا أصيلًا في استجلاء حقيقة الحوار من وجهة النظر الكاثوليكية بعد خضوعه لمطارق النقد من داخل الكنيسة نفسها.

● في مقدمة الوثيقة تصوير لأبعاد المشكلة: (إن عمل الحوار يبعث في نفوس الكثيرين بعض المسائل، فهنالك مَن يبدو لهم في تفكيرهم الخاطئ أن الحوار في رسالة الكنيسة الحالية يجب أن يقوم مقام البشارة، وهنالك آخرون يقفون موقفًا معاكسًا، ويمتنع عليهم فهم قيمة الحوار بين الأديان، وهنالك أخيرًا مَن تولَّتْهم الحيرة فتساءلوا قائلين: لئن بلغ الحوار بين الأديان هذه الدرجة من الأهمية، فهل فقدت الرسالة الإنجيلية دورها المُلِح؟ هل أصبح العمل على ضم الناس إلى حظيرة الكنيسة أمرًا ثانويًّا، أو بالأحرى نافلًا؟ من

---

(١) حوار بشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان، والتبشير بالإنجيل (٣١) وانظر: شرح هذه الأشكال بمزيدٍ من التفصيل عند: موريس بورمانس في: توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٤٦ ـ ٤٨)، وعادل تيودور خوري في الفاتيكان والحوار الإسلامي المسيحي، مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٤٦ ـ ٥٠).

(٢) انظر: مقدمة: حوارٌ وبشارة.. تأملاتٌ وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل، المجمع البابوي للحوار بين الأديان، تعريب دائرة الترجمة في المكتبة البولسية، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٣م، (٧، ٨).

هنا الحاجة إلى بعض التوجيهات العقائدية والراعوية، ترمي هذه الوثيقة إلى المشاركة فيها، من غير أن تدَّعي التمكُّن من الإجابة الشافية عن شتى الأسئلة المعقدة التي يثيرها الموضوع)[١].

تحاول الوثيقة أولًا إيجاد قاعدة لتسويغ وتبرير عملية الحوار مع غير النصارى بإثبات تضمن عقائدهم وتقاليدهم ما يستحق الاحترام والتقدير أولًا، ثم -وهذا هو الجديد هاهنا- إشعار النصراني أن تلك الجوانب المشرقة لدى الآخرين إنما هي أثر للنعمة الحاصلة بيسوع المسيح بطريقة سرية غير مدركة لدى أولئك الأقوام:

● (... ينتج عن سر الوحدة هذا أن جميع المخلَّصين والمخلَّصات يشتركون، وإن بأشكالٍ مختلفة، بسر الخلاص عينه في يسوع المسيح بواسطة روحه، هذا ما يَعِيه المسيحيون جيدًا بفضل إيمانهم فيما يغيب عن وعي الآخرين أن يسوع هو ينبوع خلاصهم، بيد أن سر الخلاص يشملهم بطرقٍ يعرفها الله، بفضل عمل روح المسيح غير المنظور، والواقع أن أعضاء الديانات الأخرى يستجيبون لدعوة الله، وينالون الخلاص بيسوع المسيح، بممارسة صادقة لما هو خير في تقاليدهم الدينية، واتباع توجيهات ضميرهم، حتى وإن لم يقروا ويعترفوا به على أنه مخلِّصهم)[٢].

● (... إننا حين نؤكد أن التقاليد الدينية الأخرى تحتوي على «عناصر نعمة» لا نعني بذلك أن كل ما فيها ثمرة النعمة. فالخطيئة عملت في العالم، والتقاليد الدينية الأخرى، على ما لها من قيمة إيجابية، تعكس أيضًا حدود العقل البشري الذي يميل بعض الأحيان إلى اختيار الشر، وإن نظرة منفتحة وإيجابية على التقاليد الدينية الأخرى، لا تسمح لنا بالتغاضي عن التناقضات التي يمكن أن تكون بينها وبين الوحي المسيحي، وحيث يقتضي الأمر لا بد من الاعتراف

(١) حوار وبشارة (٩).

(٢) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

بوجود تعارض بين بعض العناصر الأساسية للدين المسيحي، وبعض مظاهر هذه التقاليد)[١].

وهكذا تجمع الوثيقة أزمة «الخلاص» التي سبق أن أثبتها المجمع الفاتيكاني لغير النصارى بيد العقيدة النصرانية، فالآخرون لم يهتدوا في نظر الكنيسة إلى طريق الله، وسبيل الخلاص، بصفة مستقلة، وإنما بنوعٍ من التأثير غير المُدرَك من الروح القدس، أحد أقانيم التثليث النصراني، وبالتالي فكل «عنصر نعمة» موجود في تلك الأديان والتقاليد الأخرى فمن عمل يسوع، وما سوى ذلك مما لا تُقِرُّه العقيدة النصرانية فمن أثر الخطيئة، ولا يمكن حينئذٍ التغاضي عنها.

وبهذا يتَّضح أن عملية «تأنيس» الحوار للرافضين له من الجانب الكاثوليكي، الذين يعتقدون أنه يعارض مهمة «البشارة»، تنطلق من محاولة نسبة ما لدى غير النصارى من معتقداتٍ وممارسات صائبة إلى تأثُّرهم غير الواعي بعمل الخلاص النصراني، ومن هنا فقط تستحق الاحترام والتقدير، فلا تعارض إذًا يقع في ضمير النصراني الذي يعتقد أنه يمتلك «الحقيقة المطلقة»، ما دامت عناصر الخير والصواب لدى الآخرين هي من تأثير الأسرار النصرانية، شعر الآخرون أم لم يشعروا، فما أثر استبطان هذه الفكرة على قضية «الحوار»؟ تخلص الوثيقة إلى القول: (ذلك يعني إذن أن المسيحيين، وهم يعتقدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى يستطيعون أن يَحُثُّوهم سلميًّا على التفكير في محتوى معتقدهم، وعلى المسيحيين أنفسهم أن يقبلوا بدورهم أن يكونوا موضع تساؤل، ومع ما لديهم من ملء الوحي الإلهي في يسوع المسيح، قد تكون الطريقة التي يفهمون بها ديانتهم ويعيشونها بحاجة إلى تنقية)[٢].

وبهذا الوضوح تُفشِي الوثيقة هدف الحوار وثمرته، وتوزِّع المهام على طرفي

(١) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

(٢) حوار وبشارة (٢٥، ٢٦).

الحوار كالتالي:

١ ـ على أصحاب الديانات الأخرى إعادة النظر في مفردات عقائدهم، عَلَّهم أن يكتشفوا أصولها النصرانية التي أثمرت لهم هذه الممارسات والمعتقدات الصائبة.

٢ ـ على النصارى حَثُّهم على ذلك بطريقة سلمية وهي «الحوار»، لا «المجابهة»، وليس عليهم أن يعيدوا النظر في معتقداتهم؛ لأنها حقٌّ مطلق! لكن عليهم أن يقبلوا ـ صابرين محتسبين ـ أن تكون تلك العقائد موضوع تساؤل من قِبَل الآخرين فحسب، ثم لا تنسى الوثيقة أن تكافئ المحاورين النصارى باعتبار ممارسة الحوار تتيح لهم «تنقية» تديُّنهم، و«تجديد» طريقة فهمهم له، وبذلك يلتقي «الحوار» و«البشارة» في هدفٍ مشترك، هو «الخلاص» بالمفهوم الكنسي، تقول الوثيقة: (في هذا الإطار يسهل أكثر فأكثر فَهْمُ السبب والمعنى اللذَيْن يجعلان الحوار بين الأديان عنصرًا جوهريًّا من رسالة الكنيسة التبشيرية، والسبب الأساسي لالتزام الكنيسة بالحوار ليس «أنثروبولوجيًّا»[(١)] فحسب، بل لاهوتي أيضًا، ففي حوار يستمر مدى العصور وهب الله الخلاص، ولم يبرح يهبه للبشر، والكنيسة –وفاءً للمبادرة الإلهية– توجب على نفسها إذن أن تدخل في حوار خلاصي مع الجميع)[(٢)].

ويشرح القرار المجمعي «إلى الأمم» طبيعة هذا الحوار الخلاصي وحقيقته: (إن تلاميذ المسيح المتحدين بحياتهم وعملهم اتحادًا وثيقًا بالبشر يتمنون أن يقدِّموا لهم شهادة المسيح الحقة، ويعملون من أجل خلاصهم حتى حيث لا

---

(١) الأنثروبولوجيا Anthropology: علم الإنسان (علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته) المورد: قاموس إنكليزي ـ عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت طبعة ١٩٧٦م الطبعة العاشرة، (٥٢).

(٢) حوار وبشارة (٢٩).

يتمكَّنون من التبشير تبشيرًا كاملًا بالمسيح. «إلى الأمم ١٢»[١].

وهكذا يتبيَّن أن الحوار ليس مشروعًا مستقلًّا، بل هو مشمول بالمشروع الأساسي العتيد؛ البشارة، وما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه، ولكن الوثيقة تُعرِب صراحةً عن الأمنية النهائية حين تقول: (نظرًا إلى هذا الهدف، أي: قيام الجميع بارتداد أعمق إلى الله، يكون للحوار بين الأديان قيمته الخاصة، وفي أثناء هذا الارتداد «قد يُولَد القرار بالتخلِّي عن موقف روحي أو ديني سابق لاعتناق آخر» «موقف الكنيسة ٣٧»)[٢].

وتمضي الوثيقة قُدُمًا في التأكيد على ضرورة «إعلان بُشرى يسوع المسيح»، وأصالة هذه المهمة، ودور الكنيسة، وطرائق إعلان البشرى، والعقبات التي تواجه ذلك[٣]، حتى إن القارئ ليتساءل في ظل هذه التأكيدات الواضحة لأهمية التبشير المباشر الصريح: لِمَ الحوار إذن، وما الحاجة إليه؟

وتجيب الوثيقة عن هذا التساؤل في نهاية الفصل: (من البديهي إذن أن تكون الكنيسة -لأسباب سياسية أو غير سياسية- في أوضاعٍ يستحيل فيها عمليًّا إعلان البشرى، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس فقط بحضورها وشهادتها، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري، وبالحوار نفسه، وأما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)[٤].

إن هذا النص يدل على أن «الحوار» تَقِيَّة تُتَّخَذ في الظروف غير المناسبة أو بعبارة أخرى: هو «أضعف الإيمان»، فحينما يتعذَّر عمليًّا إعلان البشرى فلا أقل من طرح الموضوع للحوار، فلن يعدم المحاور فائدةً مهما قلَّت: (الحوار

(١) حوار وبشارة (٣٠).
(٢) حوار وبشارة (٣٠).
(٣) انظر: حوار وبشارة (٤٣ ـ ٦٤).
(٤) حوار وبشارة (٦٤).

الحقيقي بين الأديان يفترض من قبل المسيحي الرغبة في حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر، وإعلان يسوع المسيح يجب أن يتم بروح الحوار الإنجيلية، ولا شك أن النشاطَين يبقيان متميزَين، إلا أن التجربة تدل على أن الكنيسة المحلية وحدها، والشخص وحده يستطيعان أن يلتزمَا بهذا أو ذاك)[١].

العبارات واضحة المدلول جدًّا على كون الحوار وظيفة وقتية تُملِيها ظروف محلية يقدِّرها الفرد أو الكنيسة، وهو على كل حال يهدف إلى حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر، لقد سقطت الأقنعة، وظهرت الحقيقة من بين ركام الجمل الغائمة والعبارات المطاطية، والأساليب حمَّالة الأوجه، ونختم بهذا النداء الذي توجِّهه الوثيقة للنصارى:

(جميع المسيحيين مدعوون شخصيًّا ليكونوا شركاء بهاتَين الطريقتَين لإتمام هذه الرسالة الوحيدة للكنيسة، أي إعلان البشرى والحوار، أما شكل مشاركتهم فيرتبط بالظروف، وبدرجة إعدادهم لها، ولكن عليهم أن يتذكروا بأن الحوار كما قيل في السابق لا يكوِّن كل رسالة الكنيسة، وهو لا يستطيع أن يحل مكان إعلان البشرى، إلا أنه يبقى متجهًا نحو إعلانها)[٢].

إن هذه التحولات والتقلُّبات في مناخ الكنيسة الكاثوليكية تجاه قضية الحوار لَتكشف عن صراع مبطَّن بين أجنحة القوى داخل الكنيسة، والتي تمتد جذورها إلى المداولات الحامية التي دارت في أروقة المجمع الفاتيكاني الثاني أثناء مناقشة مسودات الدساتير والقرارات والبيانات بين أصحاب النزعات المختلفة، بل في الحقيقة إلى ما قبل المجمع ذاته فيما يتعلق بالإسلام والقرآن والنبوة، في مجال الدراسات الكاثوليكية المعاصرة (الإسلاميات)؛ إذ يشير إلكسي جورافسكي إلى وجود ثلاثة اتجاهات سابقة للمجمع:

(اتجاه الحد الأعلى: ويعترف أنصاره بصورة أو بأخرى بالطابع الإلهي

(١) حوار وبشارة (٦٧).

(٢) حوار وبشارة (٧٣).

للقرآن، أما الاتجاه المضاد فيمثَّل في التيار «المنغلق» أو «المتحفظ» إزاء الإسلام، ويطلق على أتباعه «أصحاب الحد الأدنى»... الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام مكي لتهويد العرب، مستخدمًا لهذه الغاية «الأمي» محمد[١].

تيار الوسط: الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة ـ موقف الود، والانفتاح، والحوار مع المسلمين، مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ، والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظًا... وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية والسياسية، والثقافية والروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأُسُس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلا الديانتين)[٢].

والحقيقة أن المجمع الفاتيكاني الثاني قد سجَّل انتصارًا لأنصار التقارب والحوار، لكنه لم يقضِ على الاتجاهات الأخرى، بل ظلت تصطرع في الخفاء، (ففي مرحلة ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني برزت في الكاثوليكية ثلاث نزعات من حيث الموقف تجاه الحوار مع الإسلام:

أنصار النزعة الأساسية «الأكبر عددًا»، يؤسِّسون موقفهم المؤيد للحوار انطلاقًا من قرارات المجمع، ووثائق الفاتيكان، والرسائل البابوية اللاحقة، منطلقين من الاعتراف بـ«الصلة الروحية» القائمة بين الديانتَين، والتي تتجلَّى أكثر وضوحًا في العقيدة التوحيدية[٣]، وهي العقيدة السامية التي ستؤدي إلى التفاهم المتبادل، والصون والتعزيز المشترك «للعدالة الاجتماعية والسلام»...

---

(١) قد حكىٰ الله هذه المقولة البائرة عن أمثالهم من المنكرين في مكة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *﴾ [النحل: ١٠٣].

(٢) الإسلام والمسيحية، (١٢٨ ـ ١٣٠).

(٣) أين التوحيد في عقيدة التثليث؟!

أما أنصار النزعة الثانية فإنهم لا يمانعون من حيث المبدأ في إقامة الحوار بين الديانتَين، لكنهم يشترطون إقامته ضمن المجال الدنيوي البحت، بحيث ينأى الحوار عن مناقشة الإشكاليات والمسائل الدينية التي تتصل بمفهومَيِ «الأمة» و«الكنيسة العالمية»...

بينما تتجلَّى مواقف أنصار النزعة الثالثة ومنطلقاتهم في رسالة الأسقف اللبناني ب. بسيم[١] إلى الكاردينال بينيدولي، الذي ترأَّس أمانة سر اللجنة الخاصة بشؤون الديانات غير المسيحية، فبعد أن يعمِّم بعض الآراء السياسية ـ التشريعية للنظرية الإسلامية يؤكد ب. بسيم أن الشكل الوحيد المقبول لدى المسلمين فيما يخص النسق الاجتماعي ـ السياسي هو «الأمة»، أي الجماعة الإسلامية الثيوقراطية[٢]، التي تضع المسلمين الأغلبية في مرتبة «الحامي» و«الراعي» لديانات الأقليات الأخرى، ولهذا فإنه في حدود العالم الإسلامي لا يمكن الحديث عن أي مساواة، بما في ذلك الحقوق المدنية بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، وهذا الواقع يَحُول وحده ـ حسب رأي ب. بسيم ـ دون إقامة أي حوار مفيد بين الديانتين)[٣].

إن هذه النزعات داخل الكنيسة الكاثوليكية عميقة متجذِّرة، وتتأثَّر كل منها قوةً وضعفًا بحسب متغيراتٍ شتى، مثل مستوى الاستجابة الإسلامية للحوار، والأحداث العالمية السائدة في العالمَين الإسلامي والنصراني، وقبل ذلك وأثناءه وبعده المصلحة العليا للكنيسة ورسالتها التنصيرية.

وحيث إننا لا نترقب مجمعًا مسكونيًّا وشيكًا ليفصل بين هذه الاتجاهات، ويرجِّح إحدى الكفتين بقانون التصويت المعتمد في تلك المجامع منذ فجر النصرانية، فإننا لا نملك أن نقطع بالرأي السائد المعتمد إلا من خلال زاوية

---

(١) بلوس باسيم ـ أو: بسيم ـ النائب الرسولي للاتين.

(٢) الثيوقراطية Theocracy: الحكومة الدينية، دولة خاضعة لحكم رجال الدين، المورد (٩٦٢).

(٣) الإسلام والمسيحية، (١٥١ ـ ١٥٣).

رصدٍ واحدة في نظري، وهي منهجية بابا الفاتيكان الذي يملك سلطات واسعة تصل إلى حد «العصمة» عندهم، ويقوم تباعًا بتوجيه الرسائل لأساقفته في مختلف القضايا في نشاطٍ دائب لا نظير له في تاريخ باباوات روما، وبالتالي فإن موقفه من قضية التقريب يعبر عن الموقف الرسمي الراهن للكنيسة الكاثوليكية، ونحاول في الصفحات التالية استطلاع هذا الموقف.

موقف البابا يوحنا بولس الثاني من التقريب بين الأديان:

يقف على رأس هرم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ عام ١٩٧٨م البابا «يوحنا بولس الثاني»، الذي تميَّز بنشاطه وحيويته، ورحلاته المتعدِّدة لمختلف أقطار العالم لنشر النصرانية، وتفقُّد أحوال رعيته الكاثوليكية[١].

ويُعَدُّ بابا روما الرئيس الأعلى لنصارى العالم على اختلاف طوائفهم وتعدُّد انقساماتهم، ولا يداني منصبه هذا أي منصب ديني نصراني في العالم، ويحمل هذا البابا ألقابًا فخمة تَشِي بالمكانة الكبرى التي يتبوَّءُها بين أتباع مِلَّته، مثل: خليفة القديس بطرس، ونائب يسوع المسيح، والحبر الأعظم للكنيسة العالمية، إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على مستوى تمثيله الرفيع للنصارى.

وقد دأب البابا يوحنا بولس الثاني على ترديد نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلِّقة بالمسلمين في كل مناسبة يحصل بها نوع اتصال أو زيارة تتعلق بالمسلمين، والحوار معهم، وقد كان أيام انعقاد المجمع قد تجاوز الأربعين من عمره، وكان من الأعضاء المشاركين الأساسيين بدرجة أسقف[٢].

وفي فترة بابويته كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف «الفاتيكان» العديد من اللقاءات الدينية المنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة

(١) سيأتي مزيد تفصيل لمحاولات البابا يوحنا بولس الثاني العملية للتقريب بين الأديان في فصل: المحاولات الجماعية من الباب الثاني.

(٢) انظر: يوحنا بولس الثاني والإسلام، للدكتورة: زينب عبد العزيز (١٩).

بقضية الحوار والبشارة، وأكَّد البابا بنفسه على تبنِّي الحوار مع الأديان عمومًا، والإسلام خصوصًا، انطلاقًا من مقرَّرات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة، وهي التبشير، فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: (المؤمنون جميعهم، والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)[١]، إلا أنه في خطابه الموجَّه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسيمًا توأمًا للتبشير، فيقول: (.. كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع المسيح هو أيضًا مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر، أو يطرح)[٢].

أما الرحم الجامع لهذَين التوأمَين فيتبين بقوله: (إن الحوار بين الديانات يشكِّل جزءًا من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناءٍ متبادلَين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم، إنه بالعكس، مرتبط بها بنوعٍ خاص، وهو تعبير عنها...

إن الخلاص يأتي من المسيح، وإن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل...

تعتبر الكنيسة أن ليس ثمة من تناقضٍ بين البشارة بالمسيح، والحوار بين الديانات، ولكنها تُشعر بضرورة تنسيقهما في إطار رسالتها إلى الأمم)[٣]، ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار هو أنه يرى فيه معبَرًا ثقافيًا ينفُذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطلح الكنسيون على تسميته بالغرس الثقافي للمسيحية المستنبَت في تربة

---

(١) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني، اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام، جل الديب ـ لبنان، صدرت في روما ١٩٩٠م، (٩٠).

(٢) عن حوار وبشارة (١٠).

(٣) رسالة الفادي (٨٦ ـ ٨٧).

ثقافات أخرى، يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ«تبليغ التعليم الديني»: (إن رسالة البشارة متضمَّنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها، إنها تنتقل عبر حوار رسولي متضمَّن بالضرورة في حوار ثقافي بعينه، إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذٍ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويُضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية)[1].

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة «الحوار» الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية، إنه الحوار المتدسِّس الذي لا يعني في الحقيقة معنى التبادل، والاستعداد للتغيير، والتجرد، والمجازفة من طرفي الحوار كما كانت الكنيسة تدعي ذلك عقب المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه الحوار الذي يشترط مسبقًا أنه: (لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات).

إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر، فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج «الارتداد» الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقفٍ عقدي جديد، ويصف البابا يوحنا بولس الثاني هذه العملية بقوله: (إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو ـ نوعًا ما ـ أداة، وعلى الأخص طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم... إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروحٍ واحد... وفي الواقع إن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تُحسِن حمل الناس ـ سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان، أم هم غرباء عنها ـ على الارتداد والتوبة، عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديدًا عميقًا في ضوء سر الفداء والخلاص...

إن الحوار الصحيح يرمي إذن -بادئ بَدْء- إلى تجديد كل الناس بالارتداد

---

(١) نقلًا عن: تنصير العالم، (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة ـ مصر، الطبعة الأولىٰ (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، (١٠٧).

الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر)[١]، والنص غني عن التعليق.

وإذا تجاوزنا ما بين أقواس التنصيص، والصياغات الرسمية، والجمل ذات الصفة التعميمية الصادرة عن البابا يوحنا بولس الثاني في حاضرة الفاتيكان، وشهِدنا مواقف عملية، وتصريحات ميدانية خاض غمارها في تَطْوافه في بلاد العالم، تستوقفنا زيارته التاريخية لبلدٍ مسلم بأكمله هو «المغرب»، حيث التقى الشبيبة المغاربة في الملعب الرياضي «الاستاد»، في الدار البيضاء يوم الاثنين ١٩/ أغسطس/ ١٩٨٥م، وخاطب ألوف الشباب المسلم الذين حشدوا في بهم مدرجات الملعب، قائلًا:

(.. أما أنا من جهتي، في الكنيسة الكاثوليكية، فأحمل على عاتقي مهمة خاصة، بصفتي خليفة «بطرس الرسول» الذي اختاره سيدنا يسوع لكي يثبِّت قلوب إخوته في الإيمان، فبعد الأحبار العظام الذين تعاقَبُوا على مر التاريخ دون انقطاع، إنني اليوم أسقف مدينة روما، ومثله مدعوٌّ ليكون بين إخوانه في العالم شاهدًا للعقيدة المسيحية، وضامنًا لحرية جميع أبناء الكنيسة...)[٢].

بهذه المقدِّمة الدعائية يعرِّف البابا نفسه أمام جموع المسلمين، دون مواربة أو مراعاة لأدبيات الحوار ومجاملاته التي طمست الحقيقة في النداءات الأولى للكنيسة إثر المجمع الفاتيكاني الثاني، وتمخُّضاته كما في كتابات الأب موريس بورمانس.

ثم يتوجه البابا بالمطالبة التالية للجموع المحشودة: (... وعلينا أن يحملنا هذا الخضوع لله، وهذه المحبة للإنسان على احترام حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي هي تعبير عن مشيئة الله، والتي هي مقتضى الفطرة البشرية كما خلقها الله، فالاحترام والحوار يتطلبان إذًا المعاملة بالمثل في جميع الميادين، ولا سيما في ميدان الحريات الأساسية، وبالأخص، الحرية الدينية، وهما يعزِّزان

(١) عن المرجع السابق، (١٠٩).

(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٨٨).

السلام والوئام بين الشعوب، ويساعدان على الحل المشترك لمشاكل الرجال والنساء في هذه الأيام، وبالأخص لمشاكل الشبان والشابات...)[١]، ماذا يمكن أن تعني المطالبة بالحرية الدينية في بلدٍ جميع أهله من المسلمين، سوى طلب الفسح بالردة عن دين أهل ذلك البلد، وقبول النشاط التنصيري تحت شعار الحرية والسلام والمحبة والحوار، الحوار الذي يفترض في الطرف المقابل إخضاع كل شيء للنقاش مهما كانت قداسته، على حد تعبير البابا حين ينادي:

(أيها الشبان والشابات، إنني على يقين من كونكم قادرين جميعًا على هذا الحوار، فأنتم لا ترضون أن تتقيَّدوا بالأحكام المسبقة، إنكم مستعدون لبناء صرح حضارة قوامها المحبة، وبإمكانكم أن تعملوا على هدم الحواجز التي شيدتها كبرياء الناس في بعض الأحيان، وضعفهم وخوفهم في أغلب الأحيان، وإنكم تريدون أن تحبوا الآخرين بصرف النظر عن أية حدود أمة أو عرق أو دين)[٢].

ومقابل هذا الخطاب الإملائي الداعي إلى التحرُّر من الثوابت، وعدم التقيد بالأحكام المسبقة، والدعوة إلى كسر الحواجز، ينبري البابا يوحنا بولس الثاني في ختام كلمته الكنسية في نشر العقيدة النصرانية الكفرية، مستغلًّا هذا الاجتماع الحاشد للشبيبة المسلمة في المغرب، لتقرير عقيدة ألوهية المسيح، فيقول: (..ومع ذلك فإن الصراحة تقتضي أيضًا أن نعترف بتبايُناتنا، وأن نحترمها، ومن البديهي أن أهم هذه التبايُنات هي نظرتنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصري وعمله، إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يُدخِلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوع من الاتحاد الابنيِّ بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون ويُقِرُّون أنه هو الرب والمخلِّص، إنها لَتبايُنات هامة جدًّا، يمكننا قبولها بتواضع واحترام، وبروح

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٩١).
(٢) المرجع السابق، (١٩٣ ـ ١٩٤).

التسامح المتبادَل، ففي ذلك سر من الأسرار، أنا على يقين من أن الله سينيرنا بشأن خفاياه يومًا من الأيام)[١].

ثم يُنهي هذا الخطاب التاريخي بدعاء وابتهال، وهكذا يتحوَّل خطاب الاثنين إلى موعظة الأحد، وينقلب أسلوب الحوار واحترام ما لدى الآخر إلى قداس كنسي.

ولنا أن نتساءل: أهذا هو التطبيق العملي لفلسفة الحوار التي تنادي به الكنيسة الكاثوليكية على يد حبرها الأعظم، خليفة بطرس؟ أين ذهبت تلك الاحترازات المشدَّدة، والشروط المؤكدة في بيانات الكنيسة في الستينيات والسبعينيات برفض جميع صور الاجتذاب في عملية الحوار؟

هل آنست الكنيسة الكاثوليكية في هذه العقود الأخيرة، ممثَّلة بحبرها الأعظم، أنْ قد آنَ الأوان لزيادة حصة البشارة على حساب حصة الحوار، بعد أن آتى الحوار أكله بكسر الحواجز، وتمييع الحدود لدى الآخرين، فتوصل فقهاء التنصير إلى تغيير نمط الخطاب؟

لقد كانت هذه الزيارة لبلدٍ مسلم عريق، ومخاطبة شبابه الذين يمثِّلون معظم البنية السكانية فيه، سابقةً خطيرة، ظل البابا يوحنا بولس الثاني يتغنى بذكرها، ويلهج بالإشادة بها، فيقول في عام ١٩٩٤م:

(إن الرحلة التي قمت بها إلى المغرب... يمكن اعتبارها بالتأكيد حدثًا تاريخيًّا.

إنها لم تكن ببساطة زيارة ودية، بل كانت بحق ذات طابع رعوي.

لقد كان اللقاء مع الشبيبة في ملعب الدار البيضاء عام ١٩٨٥م غير قابل للنسيان.

---

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٩٦).

إن انفتاح الشباب لكلمات البابا كان مدهشًا عندما تحدث عن الإيمان بالله الواحد، لقد كان بالتأكيد حدثًا لا سابقة له)[١].

وثَم شاهدٌ عملي صارخ على الأسلوب الذي يتناول به البابا يوحنا بولس الثاني قضية الحوار والعلاقة مع الأديان الأخرى، يتمثَّل في دعوته إلى الصلاة المشتركة بين أتباع الديانات في بلدة «أسِّيزي» الإيطالية عام ١٩٨٦م[٢].

وعوضًا عن الجلوس على «مائدة مستديرة» كما تقتضي ذلك روح الحوار والتكافؤ لدى المنادين به، فإن (البابا قدَّم نفسه للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعًا، وأنه حامل رسالة السلام للبشرية جمعاء)[٣].

لقد ظهر البابا يوحنا بولس الثاني في تلك الخطوة الجريئة بصورة الأب الروحي ليس للكاثوليك، أو حتى النصارى فحسب، بل لجميع أتباع الديانات الأخرى من خلال إدارة ذلك اللقاء، وأسلوب تنظيمه وإخراجه، وضم جميع ممثِّلي الأديان تحت ردائه البابوي، كما احتواهم بكلماته الفضفاضة التي تجيش بعبارات الإيمان والمحبة والسلام، وأمام مواطنيه، ورجال دينه قدَّم لهم القاعدة النظرية التي تسوِّغ مثل هذا العمل المشترك مع أطرافٍ لا تؤمن بألوهية المسيح، وأسرار العقيدة النصرانية، فقد (شدَّد البابا يوحنا بولس الثاني في الكلمة التي وجهها إلى الكوريا الرومانية، بعد يوم الصلاة في أسِّيزي، وكرَّر التشديد على الحضور الشامل للروح القدس قائلًا: «كل صلاة صحيحة هي من عمل الروح القدس الحاضر سريًّا في قلب كل شخص بشري»، سواء كان مسيحيًّا أو غير مسيحي، ثم إنه عاد وتطلَّع في هذا الخطاب نفسه إلى أبعد من الأفراد، وذكر بوضوح أهم العناصر التي تقوم من مجموعها القاعدة اللاهوتية

---

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٤) Crossing the thershold of hope.

(٢) سيأتي وصف دقيق لهذه الصلاة المشتركة في الباب الثالث.

(٣) سلسلة تقارير المعلومات، صادر من مركز المعلومات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت برقم ١٥/ ٨٧ بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٨٧م (١٠٠).

للنظرة الإيجابية التي نقابل بها التقاليد الدينية الأخرى، ونمارس معها الحوار بين الأديان)[١].

ونظرًا للنجاح الذي حقَّقَه البابا في أسِّيزي عام ١٩٨٦م عن طريق الحوار والتفاهم، حسب الرؤية النصرانية، فقد انبرت جمعية كاثوليكية عريقة في التنصير، هي جمعية «سانت إجيديو»[٢] للعمل على استمرار هذا المشروع الناجح، وتبنِّي الدعوة لمؤتمرات يحضرها ممثلو الأديان الكبرى سنويًّا، وتُختتَم بصلاة جماعية، كتلك التي أمَّها البابا في أسِّيزي عام ١٩٨٦م، وذلك بتوجيه وتأييد منه، فقد (أصرَّ قداسة البابا يوحنا بولس الثاني على ألا تبقى صلاة أسِّيزي حدثًا منفردًا، وطرح «روح أسِّيزي»، فشاءت جمعية سانت إجيديو أن ترحب بها؛ إذ شجَّعها عدد كبير من الشخصيات المسيحية والإسلامية، والشخصيات المنتمية إلى أديان أخرى، فنشأت هذه اللقاءات السنوية للصلاة من أجل السلام)[٣].

وإذا فحصنا أهم الجوامع المشتركة التي يتذرَّع المجمع الفاتيكاني الثاني، سابقًا، والبابا يوحنا بولس الثاني، لاحقًا، لتكون قاعدة للحوار والتقارب بين المسلمين والنصارى، وهي قضية الإيمان بالله، فسنجد اعترافًا صريحًا من البابا بالتباين بين الديانتين في هذا الأصل الأصيل، ليس فقط من جهة عقيدة التثليث، بل حتى بقصر النظر على أقنوم (الأب) الذي يفترض أن يقابل عند المسلمين العقيدة في (الله) سبحانه وتعالى، بل نجد اتهامًا وتنقُّصًا وطعنًا علنيًّا من داعية الحوار الفاتيكاني في العقيدة الإسلامية.

جاء ذلك في ثنايا كتابٍ صدر عام ١٩٩٤م بعنوان: (عبور عتبة الرجاء: Crossing the Threshold of Hope أو كما يترجمه البعض: (ادخلوا في الرجاء)، طُبِع

---

(١) حوار وبشارة (٢٤).

(٢) انظر: التعريف بهذه الجمعية في الباب الثاني (١٠٦٦).

(٣) عن نشرة «لجنة الصداقة الإسلامية المسيحية» الصادرة عن جمعية سانت إجيديو ـ روما (٤).

منه ملايين النسخ بمختلف اللغات، وفي الفصل المعنون بـ«محمد» حسب الطبعة الإنجليزية، نال البابا يوحنا بولس الثاني من المفهوم القرآني لله سبحانه وتعالى، فقال: (إن كائنًا مَن كان يَخْبرُ العهد القديم والجديد ثم يقرأ القرآن، سيرى بوضوح العملية التي تم بواسطتها تمامًا اختزال الوحي الإلهي، إنه من المستحيل أن لا يلاحظ الابتعاد عما قاله الله عن نفسه، أولًا في العهد القديم من خلال الأنبياء، وانتهاءً في العهد الجديد من خلال ابنه، أما في الإسلام فكل هذا الثراء الإلهي الخاص الذي يُكوِّن ميراث العهدين القديم والجديد قد تُرِك جانبًا بصورة حاسمة.

بعض أكثر الأسماء جمالًا في اللغة البشرية أُطلقت على إله القرآن.

ولكنه في النهاية إله خارج العالم، إله جلالة فحسب، وليس «عمانويل»، أي: إله معنا، الإسلام ليس دين فداء، ليس فيه مجال للصليب والقيامة.

لقد ذكر يسوع، ولكن بصفته نبيًّا مبشِّرًا بالنبي الخاتم محمد فحسب.

هناك ذكرٌ أيضًا لمريم، والدته العذراء، ولكن مأساة الفداء غائبة بالكلية.

ولهذا السبب فليس علم اللاهوت فقط، بل حتى علم الناسوت الإسلامي بعيد جدًّا عنه في المسيحية)[1].

وبصرف النظر عما تضمنه النص من مغالطاتٍ واضحة، وافتراءات كاذبة[2] عن الاعتقاد الإسلامي، في ذات الله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فإن مؤدَّى كلام البابا يوحنا بولس الثاني إثبات إلهٍ للعهدين القديم والجديد مغاير تمامًا لإله القرآن ـ على حد تعبيره ـ فماذا بقيَ يا ترى لكي يكون أساسًا لحوار مشترك مؤسَّس على جوامع مشتركة بين ديانتين لا تتفقان، ولا تكادان تقتربان من بعضهما بعضًا في علم اللاهوت ـ كما الاصطلاح الكنسي ـ ولا علم

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٢، ٩٣) Crossing the threshold of hop.

(٢) انظر: الرد الذي كتبته الدكتورة زينب عبد العزيز بعنوان: (يوحنا بولس الثاني والإسلام).

الناسوت؟! لِمَ التحدث بلغتَين، والكيل بمكيالَين؟ وهل يُظن بقائل هذا الكلام الواعي للفروق الأساسية لمعتقد الديانتين في ذات الله عز وجل، الممتلئ حماسةً وتفانيًا لنشر معتقده ذاك في أرجاء المسكونة، أن يُخضع هذه القضية للنقاش والحوار الحر النزيه الذي يطالب به الآخرين؟! أم أنها مناورة قد قُررت أحكامها سلفًا من جانبهم، وينتظرون من أتباع التقاليد الدينية الأخرى ـ كما يعبرون أحيانًا ـ أن يُعِيدوا النظر في مواقفهم وعقائدهم المسبقة، بتوجيه روحهم القدس المهيمن على المصلين في أسِّيزي؟!

هذا من حيث حقيقة الحوار والتقارب المزعوم، أما من حيث مضمون الادعاءات الواردة فنقول بإجمال: إن أي تراث مزعوم لا يداني ولا يكاد، ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة من التعريف بالله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فقد وصف الله تعالى بصفات الكمال والجلال والجمال، ونزَّهه عن صفات العجز والنقص والعيب بما تحصل به طمأنينة القلوب، وانشراح الصدور، وجلاء الأفهام وقبول العقول، ونقيض هذه المزايا، مجتمع برمَّته في العقيدة النصرانية المتوثِّنة، المليئة بالأسرار الغامضة، والتناقضات الفاضحة، وحسبك بهذا الكتاب الذي تضمن النص السابق دليلًا على ما نقول؛ فقد جاء إجابة عن استفسارات مُقلِقة، وإشكالات مزعجة، جمعها صحفي شهير هو الكاتب: فيتوريو ميسوري، من قلب المجتمع الأوروبي العريق في نصرانيته، ومع ذلك ظلت هذه الأسئلة تعيش معه حتى الألف الثالثة من ميلاد المسيح، وستظل، ما داموا في غَيِّهم يعمهون، وما دامت الكنيسة تمارس دور الإضلال والتعمية والصد عن سبيل الله، وإليك أيها القارئ مسردًا ببعض عناوين فصول الكتاب ومقدماتها:

هل الله موجود؟ ألا يزال موجودًا، وما الدليل؟

إذا كان الله موجودًا فلماذا يختبئ؟

هل عيسى ابن الله حقًّا؟

ماذا تحصَّل من تاريخ الفداء؟ لماذا هذا الكم من الشرور في العالم؟

لماذا يحتمل «الرب» المعاناة؟ هل البوذية عوض عن المسيحية؟

هل ستموت المسيحية؟ هل يمكن للإنسان أن يلعن نفسه إلى الأبد؟

إلى غير ذلك من الأسئلة المُوحِشة التي تكشف عن فزع الفطرة الإنسانية من العقائد الدينية «البالية» التي تفرضها الكنيسة على أتباعها، وتدندن بها حول الحلول وألوهية المسيح والفداء، بما لم يُغْنِ ولم يُسمِنْ من جوع، أما الإسلام دين الفطرة فأتباعه في راحة تامة من هذه التعقيدات، وقد حسم أمرها بمجرد إدراك حقيقة التوحيد المحض السالم من شوائب الشرك والخرافة، التي يعتبرها البابا ثراءً دينيًّا قد تُرك جانبًا في الإسلام.

وحسبنا في هذا المقام أن نميط اللثام عن حقيقة عبارات الاحترام والتقدير، ولغة المجاملات والمراوغات التي يتذرَّع بها أئمة النصارى وهم ينادون المسلمين إلى الحوار والتقارب، وما تخفي صدورهم أكبر مما يظهر أحيانًا على فلتات ألسنتهم، ولحن قولهم.

ونختم الحديث عن حقيقة الحوار في منظور الكنيسة الكاثوليكية بهذا النص الوارد في وثيقة «حوار وبشارة» الآنفة الذكر:

(عندما تقوم الكنيسة برسالتها تتصل بجماعاتٍ من الناس ذوي تقاليد دينية مختلفة جدًّا، فالبعض منهم يصبحون تلاميذ ليسوع المسيح في كنيسته، إثر اهتداءٍ عميق، وبقرار من إرادتهم الحرة، وآخرين يجتذبهم شخص يسوع ورسالته، ولكنهم لا يدخلون حظيرته لأسبابٍ مختلفة، وآخرون أيضًا يلبثون على غير اكتراث، أو على اكتراث ضئيل ليسوع، ومهما يكن من أمر فرسالة الكنيسة تتوجه إلى جميع البشر، وإنه ليمكن أن يكون لها في الحوار، دور نبوي بالنظر إلى الديانات التي ينتمي إليها أولئك البشر، وهي عندما تؤدي الشهادة للقيم الإنجيلية تطرح سؤالًا على هذه الديانات، وهي كذلك بقدر ما تتَّسم بالحدود البشرية! تصبح هدفًا لأن يثار السؤال عنها بالطريقة نفسها، وبتعزيز هذه القيم إذن وفق ذهنية تقوم على التنافس واحترام سر الله، يلتقي أعضاء الكنيسة، ومؤمنو الأديان الأخرى، كرفاقٍ على الطريق المشترك الذي تدعى

إلى سلوكه البشرية بأسرها، وذلك ما أشار إليه يوحنا بولس الثاني في أسِّيزي في ختام نهار الصلاة والصوم والحج! لأجل السلام عندما قال: (لنرَ في هذا الأمر استباقًا لما قد يريد الله أن يراه متحققًا في تاريخ الإنسانية؛ سيرًا أخويًّا نترافق فيه نحو هدفٍ سامٍ يُعِدُّه لنا)[1].

والنص في ضوء ما تقدم غنى عن التعليق، ولنا قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة].

خلاصة وتحليل:

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١ ـ المرحلة الأولى: وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدَّم المسوغ اللاهوتي للحوار، عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة» (١٤/ ١)[2].

---

(١) حوار وبشارة (٦٩).

(٢) العهد الجديد (٣٣٦).

وتميَّزت هذه المرحلة التي امتدت حتى نهاية السبعينيات تقريبًا بـ(الرغبة في المعرفة الموضوعية الهادئة، وفي طلب القربى الروحية، وفي السعي إلى لقاءٍ إنساني عن طريق المشاركة في التربية والمجتمع)[١]، بل التوق إلى «الحوار الروحي»، و«الوحدة الروحية»، والتقاط شواهد التراث الروحي المشتركة بين الديانتين، حتى ولو لم تكن تتمتع بالصفة المرجعية المقبولة لدى الجانب الإسلامي، كالاحتفاء بالتراث الصوفي والفلسفي، لإثبات أواصر القربى والتشابه بين الديانتين.

كما سادت في هذه المرحلة التأكيدات المتتالية على نبذ نوايا الاجتذاب، والتحايل والإيحاء، والتزام النزاهة المطلقة في الحوار.

ومما يمثِّل هذه المرحلة تمثيلًا صادقًا كتاب: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين» للأب موريس بورمانس، الذي سبق عرض جوانب منه، وطُبع طبعة ثانية عام ١٩٨٠م[٢].

ولعل روح الانفتاح والجدة التي كانت سائدة ذلك الوقت، بالإضافة إلى الشعور بالخطر الإلحادي الشيوعي، كانَا وراء صياغة أدبيات تلك الفترة، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في أي وقت مضى أقرب إلى مدلول «الحوار»، من الناحية اللفظية على الأقل، وأصدق لهجةً منها في هذه المرحلة، وقد انتهت بنهاية حياة البابا بولس السادس الذي مهر قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بختمه، وكان مشبعًا بأهدافها، حتى وافاه الأجل في أغسطس ١٩٧٨م، وربما امتد أثرها سنتين إضافيتين، بصفة أقل، حتى وفاة الكاردينال سيرجيو

(١) المسيحية والإسلام، مرايا متقابلة مجموعة من المؤلفين، مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، جامعة البلمند، الطبعة الكاثوليكية، عاريا ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٧م، من فصل: «الحوار المسيحي ـ الإسلامي في الواقع والرؤية» د. طارق متري، (١٧٢).

(٢) مما يصب في هذا الاتجاه أيضًا مقالة بعنوان: (ما هو الاتجاه الديني الذي يجب أن يتبناه المسيحيون) أصدرتها أمانة سر شؤون غير المسيحيين عام ١٩٦٩م ضمن إضمامة من (إرشادات من أجل الحوار بين المسلمين والمسيحيين).

بينيدولي[١] رئيس الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين عام ١٩٨٠م، الذي كان على منهج البابا بولس السادس.

٢ ـ المرحلة الثانية: تمثِّل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، واعتبار أسلوب «الحوار» و«التقارب» خيانة لرسالة الكنيسة، وتخليًا عن البشارة، هذا من جانب النقد الذاتي داخل الأسرة الكاثوليكية، لكن صاحب ذلك ما يشبه «خيبة الأمل» و«الإحباط» تجاه التجاوب الإسلامي مع دعوة الحوار، فنصارى الحوار فضلًا عن معارضيه، لم يجدوا بُغيتهم التي تلبي طموحاتهم في مسلمي الحوار، فضلًا عن معارضيه، وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، وتولي رئيس الأساقفة جان جادوت الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين، الذي لم يكن في مستوى سابقيه رُتبةً كهنوتية، ولا حماسًا ونشاطًا في العمل، مما فسح المجال لنمو الرأي المضاد، حتى استقالته عام ١٩٨٤م.

ويصف الدكتور طارق متري[٢] هذا الموقف قائلًا: (وعندما أطلقت الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وعدد من الكنائس في الغرب خصوصًا، مبادراتها الحوارية تجاه المسلمين، لم تكن مُدرِكة تمام الإدراك عمق التغيير الذي أصاب العقليات والأحاسيس اللاهوتية، ولا واثقة، على نحوٍ كافٍ، بسرعة التجاوب معها في صفوف المسيحيين، ولم يكن بوسعها، من جهةٍ أخرى أن تستبق كل ما سوف تثيره الحركة التي دفعتها من أفكار تتجاوز

---

(١) سيأتي تعريف بالرؤساء الذين تعاقبوا على أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين في الباب الثاني.

(٢) أستاذ جامعي في لبنان، أرثوذكسي، مسؤول العلاقات مع المسلمين في مجلس الكنائس العالمي «جنيف»، له أبحاث وكتابات عديدة في مسائل الحوار الإسلامي النصراني، عضو مؤسس لمجلس كنائس الشرق الأوسط، وفريق العمل العربي في الحوار الإسلامي ـ النصراني، له مساهمات عدة، في آخرها الإشراف على تحرير كتاب: Christian Muslim Discussion Religion Law and Society. انظر: مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٤٢٢).

النصوص العقائدية، أو التوجيهات الرعائية، وسرعان ما وعت أنها، في حقيقة الأمر، اختارت الدخول في ما يشبه المجازفة، وتبيَّن لها أن التجاذب حول مواقفها المُعلَنة، داخل الجماعة المسيحية واقعٌ لا محال، ولم يقتصر التجاذب هذا على المواقف اللاهوتية الجديدة أو على تسويغ الحوار، بل طال أيضًا اختيار مواضيعه، والشركاء فيه، من المسلمين والمسيحيين، بمن فيهم المسيحيون العرب.

لقد واجه الحوار مقاومةً من هنا وتحفُّظًا من هناك، ولم يكن يسيرًا أن يبدل المسيحيون نظراتهم إلى ذواتهم، وإلى المسلمين، مُفْلِتين من قبضة التاريخ، ولم يكن سهلًا أن يضرب المسلمون صفحًا عن الماضي المُثقَل بمشاعر الريبة والعداء، وأن يحلوا الثقة محل الشك بنوايا الكنائس حيالهم، ذلك أن علاقات القوى الاقتصادية والسياسية والثقافية على الصعيد العالمي، ورغم التغيير النسبي الذي سبقت الإشارة إليه، ظلَّت مفتقرة إلى التوازن الذي يسمح للحوار أن يكون منزهًا عن المصالح، ومقدَّمها ما يخص تثبيت السيطرة الغربية، وإن بأشكال جديدة)[1].

هذا هو المناخ السائد في نهاية السبعينيات ومطالع الثمانينيات، فلا عجب حينئذٍ أن تنشغل الكنيسة بحل المعضلة اللاهوتية الناشئة بين أصالة البشارة، وحداثة الحوار، وحيث لا يمكن التنصل من مقرَّرات المجمع الفاتيكاني الثاني وإعلاناته، فقد اتجهت الكنيسة لفلسفة مفهوم الحوار وفق المعطيات الجديدة. فجاءت وثيقة عام ١٩٨٤م الصادرة عن أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، المعنونة بـ: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان.. تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة»، وجرى تطويرها وتنقيحها، حتى أقرَّها المجلس البابوي للحوار بين الأديان، وصدرت مُوقَّعة من رئيسه، ورئيس مجمع تبشير الأمم عام ١٩٩١م بعنوان: «حوار وبشارة.. تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين

(١) المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٣ ـ ١٧٤).

الأديان والتبشير بالإنجيل»، كما سبق التعريف بها، ممثِّلة الهمَّ المسيطر على الكنيسة في هذه المرحلة أصدق تمثيل، وحقيقة الحوار في هذه المرحلة الثانية مساعدة الآخرين على اكتشاف التأثير الجزئي للنعمة الحاصلة بتأثير الروح القدس في تقاليدهم الدينية، والسير بهم إلى اكتشاف كامل الحقيقة، وبذلك يصبح مشروع الحوار مشمولًا بمشروع البشارة لاهوتيًّا وعمليًّا، كما أن من معالم هذه المرحلة المراوحة النسبية بين الحوار والبشارة حسب الظروف المحلية المحيطة بشخصٍ ما، أو كنيسةٍ ما.

ويلتقي مع هذا التحليل المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي حيث يقول: (يمكن القول بعبارة مقتضبة، إن الحوار الذي أريد به أن يكون أسلوبًا جديدًا للتبشير المسيحي لم يَعُد كافيًا على الإطلاق، حيث إن التحول الحاصل في توجه الكنيسة بالنسبة لموقفها من العالم أدَّى بدوره إلى إعادة النظر فيما يخص مفهوم الرسالة المسيحية ومهام التبشير المسيحي في الشرق، ويفضل اللاهوتيون ـ الكاثوليك المعاصرون استعمال صيغة «الاهتداء إلى المسيح»، بدلًا من الصيغ القديمة «التحول إلى المسيح»، بحيث إن ذلك «التحول» أو «الاهتداء» يجري ليس على حساب القضاء على الديانات الأخرى، وإنما من خلال «نضجها» الطبيعي، فالمبشر المسيحي يتوجب عليه أن يساعد في تسريع ذلك النضج)[1].

لم يَعُد «الحوار» بصيغته المطروحة في الستينيات يَفِي بطموحات الكنيسة التنصيرية المتسارعة، بل صار أشبه بمركبة قديمة بطيئة يستعملها صاحبها في بعض المناسبات، دون أن يتخلَّص منها نهائيًّا لما استقل مركبة جديدة سريعة.

٣ ـ المرحلة الثالثة: وهي الفترة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن، وتتَّسم باستمرار التأكيد على أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسرًا لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو

(١) الإسلام والمسيحية، (١٧١).

ما صار يسمى «بالغرس الثقافي»، وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وأفريقيا وأوروبا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م)، وعاد بلا ريب مقتنعًا بعدم كفاءة أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين التي كان يشغلها إذ ذاك رئيس الأساقفة جان جادوت، في تفعيل الحوار الهادف إلى نشر النصرانية، فكان أن عيّن الكاردينال الأفريقي الأصل فرانسيس آرينزي في ذلك المنصب ليرضي طموحه، وفق النظرة الجديدة للحوار، ومن الملاحظ في هذه الفترة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم، ومن أخطرها مشروع Lumen 2000، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصَّص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية، تقول الدكتورة زينب عبد العزيز: (ولا يتوقف الدور القيادي للبابا عند حد التدخل في الشؤون السياسية، والعمل على السيطرة عليها فحسب، وإنما يتعداه لفرض النمط الحضاري الغربي على العالم ليتواكب مع النظام العالمي الواحد، والدين العالمي الواحد! فذلك هو ما طالب به حينما أعلن ضرورة «تنصير العالم» في نوفمبر ١٩٨٢م من مدينة «شانت يقب» بشمال غرب إسبانيا... تلك المدينة التي كانت آخر ما وصل إليه الفتح الإسلامي، وأول ما سقط في حرب الاسترداد، ويكفي أنها تحمل اسم حامل الراية أثناء الحروب الصليبية ضد مسلمي الأندلس.

فبعد أن طالب بتنصير العالم أمام حشد مكوَّنٍ من قرابة مليونين من الأتباع، وأغلبهم من الشباب الذي يحاول استرداده من الضياع، راح يردِّد ذلك النداء الذي جمع فيه بين الكنيسة وأوروبا والحضارة الأوروبية قائلًا: «يا أوروبا... عودي إلى رشدك، كوني نفسك! استكشفي أصولك! أحْيِي جذورك! أحْيِي تلك القيم الأصيلة التي جعلت تاريخك مجيدًا، وجعلت وجودك مثمرًا على القارات الأخرى»[(١)].

(١) تنصير العالم (٩٤ ـ ٩٥).

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية، حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلولٍ فارغ تخدِّرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقًّا، في الوقت الذي تستنفد فيه كافة السبل والوسائل للتبشير، والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار «الحوار» الطعم.

أما المرحلة القادمة فعلمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يَشِي بشيءٍ من معالمها التي ستُسفر عن الوجه الكالح للصليبية الجديدة.

المبحث الثاني

حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي

يمثِّل مجلس الكنائس العالمي الطوائف النصرانية غير الكاثوليكية، ويتمتع بنفوذٍ واسع يضاهي نفوذ «الفاتيكان»، وتنضوي تحته جميع الكنائس البروتستانتية[١] والإنجليكانية[٢] والأرثوذكسية[٣]، التي يبلغ عددها ثلاثمئة وست عشرة كنيسة موزَّعة على أكثر من مئة بلد، ويتبعها قرابة أربعمئة مليون نصراني[٤].

وقد وُلِد المجلس نتيجة لتلاقح عدة اتجاهات في الحركة المسكونية العالمية[٥]، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بغية توحيد العمل التبشيري

---

(١) الكنائس البروتستانتية: (هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير لوثر وكالفن، انتشرت في ألمانيا والبلدان السكندنافية وأسكتلندا وسويسرا ثم في أميركا الشمالية، وهي متشعِّبة إلىٰ كنائس يختلف بعضها عن بعض في عقائدها وقوانينها، أهم فروعها: اللوثرية، والكلفينية والإنجليكانية، وتعرف الفروع الأولىٰ بالكنائس الإنجيلية، وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدس مصدرًا وحيدًا للوحي، ولا تعترف بالكهنوت)، المنجد في الأعلام (١٢٨).

(٢) مذهب الدولة الرسمي في إنكلترا، أنشأه هنري الثامن الذي كان ملكًا في إنكلترا من (١٥٠٩ ـ ١٥٧٤م)، وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية سنة (١٥٣٥م)، وقد واصل إدوارد السادس تثبيت أركان هذا المذهب، ثم أَتَمَّتْه إليزابيث الأولىٰ سنة (١٥٦٢م) «المترجم» الإسلام والمسيحية، جورافسكي (٩٩).

(٣) هي الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية علىٰ أيام ميخائيل كيرولارس، بطريرك القسطنطينية (١٠٥٤م)، انتشرت في روسيا، وبلاد البلقان واليونان ومختلف بلدان الشرق الأدنىٰ، حيث تؤلف كنائس مستقلة تحت سلطة بطاركتها، المنجد في الأعلام (٣٢).

(٤) انظر: نبذة عن المجلس في: تاريخ الكنيسة الشرقية للمطران ميشيل يستيم، والأرشمندريت أغناطيوس ديك، (٣٩٥ ـ ٣٩٧)، وانظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة لسعود المولىٰ (١٣٠ ـ ١٣١)، (١٥٥ ـ ١٦٨).

(٥) الحركة المسكونية: يقول الأب روبير كليمان اليسوعي: (كانت لفظة «مسكونة» تدل علىٰ الأرض المسكونة، وكانت هذه الأرض مساحة الإمبراطورية اليونانية الرومانية في القرنين الرابع والخامس..، أما في الكنيسة فاستعملوا صفة «مسكوني» للدلالة علىٰ لقاءات الأساقفة« مجامع» للبحث في المسائل

في البلدان غير النصرانية.

وأهم هذه الاتجاهات:

١ ـ اتجاه الحركة الإرسالية العالمية ومجلس التبشير العالمي.

٢ ـ اتجاه المسيحية العملية لتنظيم الحركة الاجتماعية.

٣ ـ اتجاه وتيار الحوار اللاهوتي لتوحيد الكنيسة «إيمان ودستور».

وبعد فترة حمل دامت قرنًا كاملًا تمخَّضَت الحركة المسكونية عن ولادة مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٧م، وقد انضمت الكنائس الأرثوذكسية إلى المجلس في مؤتمر «نيودلهي» عام ١٩٦١م، أما الموقف الكاثوليكي للبابوية الرومانية فظل يصر على أنه ليس هناك سوى كنيسة واحدة، فلا مبرِّر إذًا لطرح «اتحاد الكنائس»، وأن على المنشقين العودة إلى الكنيسة الأم «حظيرة بطرس»، إلا أن البابا يوحنا الثالث والعشرين أرسل وفدًا مراقبًا إلى مؤتمر نيودلهي[(١)].

ولكن هذا التجمع المتعدد الأطراف والاتجاهات لا يعتمد البناء التنظيمي الهيكلي الذي تسير عليه الكنيسة الكاثوليكية بدقة وتراتبية وصرامة، بل يكتفي باللقاء حول جوامع مشتركة في العمل التبشيري، وإصدار توصياتٍ ليس لها صفة الإلزام، فـ(ليس مجلس الكنائس سلطة عليا تؤلف بين أعضائها، بل هي حسب تحديده الرسمي: «رابطة أخوية لكنائس تعترف بالرب يسوع إلهًا ومخلصًا وفق ما جاء في الكتب، وتسعى للاستجابة معًا لدعوتها المشتركة لمجد الإله الأوحد، الأب والابن وروح القدس»، هناك قاعدة إيمانية مشتركة هي الحد الأدنى المطلوب من الأعضاء المنتسبين إلى المجلس، وهناك برنامج

المختصة بالكنيسة كلها، وفي مطلع القرن العشرين استعمل هذا اللفظ لوصف الجهود المبذولة لجمع شمل المسيحيين كلهم في كنيسة واحدة)، تاريخ الحركة المسكونية (١/ ١٧).

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسحي ضرورة المغامرة (١٣٠ ـ ١٣١)، وتاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩٥).

عمل يتابع مهام الحركات الثلاث التي نشأ عنها)[١].

إن قطب رحى هذا المجلس يدور حول هدفين بارزين: توحيد الكنائس النصرانية، وتعزيز العمل التبشيري في العالم أجمع، وقد فرض هذا الأخير على المجلس ضرورة دراسة العلاقة بالديانات العالمية الحية التي يحتك بأتباعها حيثما حلَّت إرسالياته في أي مكانٍ في العالم، (ولعل أول محاولة بروتستانتية لفهم الإسلام، ودراسة مسألة العلاقة به قد تمثَّلَت في «البرلمان العالمي للأديان» الذي انعقد في إيفانستون بولاية إيلينوس عام ١٨٩٣م، والذي حضره ألكسندر راسل وب ـ أول أمريكي مسلم وهو دبلوماسي سابق حمل اسم «محمد»)[٢].

أما «الحوار» مع الإسلام فيرجع إلى تاريخ تأسيس المجلس رسميًّا عام ١٩٤٧م، وهو ذات التاريخ الذي ظهرت فيه عبارة «الحوار»، وعلى وجه الخصوص الحوار مع الإسلام في المذهب البروتستانتي[٣].

مواقف الجمعيات العمومية لمجلس الكنائس العالمي من قضية التقريب بين الأديان:

واجهت المؤسسات والهيئات البروتستانتية السابقة لتأسيس مجلس الكنائس العالمي، والمكونة له فيما بعد، معضلة موقف النصرانية من الديانات الأخرى وكيفية التعامل مع أتباعها، وحملت بذور الخلاف اللاهوتي العميق إلى ردهات المجلس الجديد، (ونتيجة لهذه المناقشات، شكَّل مجلس الكنائس مشروعًا دراسيًّا حمل عنوان «كلمة الله والأديان الحية للبشر» استمر منذ ١٩٥٥م حتى عام ١٩٧١م، حيث عملت المجموعة المكلفة به على إجراء دراسات وتقديم تقارير وأوراق عمل وعقد مؤتمرات استشارية.. ولعل أبرز

(١) تاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩٦).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة، (١٥٥).

(٣) انظر: تصورات بروتستانتية حول الإسلام، جان باسِّيه، مجلة الاجتهاد: (٣١/ ٥٩).

نتاجات هذه المجموعة يتمثَّل في كتاب «كنيث كراغ»: «نداء المئذنة»، وهو دعوة إلى فهم الإسلام كما هو بنظر أهله أو معتنقيه، وإلى إعادة التفكير في الموقف المسيحي التقليدي في هذا المجال)[١].

وفي يونيو ١٩٦٦م عقد المجلس ندوة في «برمانا» ـ لبنان ـ لبحث العلاقة مع الإسلام، أعقبها في مارس من العام الذي يليه دعوة بعض المسلمين إلى جنيف للتمهيد للقاء أشمل تم في «كرتينيه» قرب جنيف في الفترة بين ٢، ٦ مارس ١٩٦٩م جاء في نتائجه ما يلي:

(يرى المشتركون في المؤتمر أن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري، وأنه ينبغي التوسع فيه على أصعدة مختلفة، هذه الضرورة تأتي:

أ ـ من القرابة الخاصة والتاريخية بين الديانتين.

ب ـ من النقد الذاتي الذي تمتاز به الديانتان.

ج ـ من الوضع الناجم عن اختلاط السكان.

د ـ من الوضع التاريخي الحالي الخاص.

غاية الحوار الأولى هي حمل الديانتَين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم، فعلاقاتهما قد أثقلتها عصورٌ مشحونة بكثير من سوء التفاهم، والغاية الأخرى هي طرح مشترك للأسئلة التي تؤدي إلى التجدد والتعمق الروحي، ويؤدي مثل هذا الحوار إلى تعهد مسؤولياتٍ مشتركة على الصعيد العملي وتحقيقها)[٢]، وهذا اللقاء هو أول اتصال بين مجلس الكنائس العالمي وممثلين مسلمين يصدر عنه بيان مشترك، ويمثل حدثًا بارزًا في تاريخ العلاقة بين دعاة

---

(١) الحوار الإسلامي ـ المسيحي ضرورة المغامرة، (١٦١).

(٢) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة، نصوص مختارة، جمع: جولييت حداد، إشراف: الأب أوغسطس دوبره لاتور، د. هشام نشابة، جامعة القديس يوسف، بيروت، معهد الدراسات الإسلامية المسيحية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م، (٣٦، ٣٧).

التقارب من الجانبين، أعقبه العديد من الاتصالات الثنائية، وتعدُّد الأطراف.

وفي عام ١٩٧١م تم تأسيس الوحدة الفرعية للحوار مع معتنقي المعتقدات الحية والأيديولوجيات Dialogue With people of Living Faiths and Ideologies (DFI).

(وقد قسمت هذه الدائرة مجالات عملها إلى ٣ هي:

١ ـ الهندوسية والبوذية. ٢ ـ الإسلام والديانات التقليدية! ٣ ـ اليهودية[١].

وأشار الأب الكاثوليكي «موريس بورمانس» إلى أن هذه الوحدة الفرعية (أخذت تمارس نشاطاتها بالتعاون والتنسيق مع أمانة السر الرومانية)[٢]، لقد كان مجلس الكنائس العالمي مدفوعًا في الستينيات إلى الانفتاح والحوار محاكاةً للخطوة الجريئة التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية، المنافس التقليدي، في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م ـ ١٩٦٥م)، ولكنه انفتاح مشوب بالحذر والترقب، يثير التساؤلات أكثر مما يقرِّر التوصيات، كما في بيانات لقاء «كارتينيه» عام ١٩٦٩م: (كيف يمكننا تصوُّر التبشير والدعوة، ومحاولة اجتذاب الآخرين؟

هل بالإمكان القيام بصلاة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين؟)[٣].

في اجتماع اللجنة المركزية للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «أديس أبابا» مطلع عام ١٩٧١م، صدرت إرشادات لشرح سياسة الوحدة الفرعية للمجلس حول الحوار مع معتنقي الأديان والمُثُل «الأيديولوجيات» الحية، تضمَّنَت الفقرات التالية:

(١ ـ إن المجلس العالمي للكنائس من خلال حياة وواقع كنائسه التأسيسية،

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة (١٦٢).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار، (١٦٣).

(٣) البيانات المسيحية الإسلامية، (٣٨).

ومن خلال النشاطات التي يقوم بها بالنيابة عن هذه الكنائس، يلتزم بعلاقاتٍ مزدوجة مع الناس في مختلف الأقطار، والحوار باعتباره نشاطًا إنسانيًّا تشترك فيه العناصر الروحية والفكرية والواقعية، وهو جزء من هذه العلاقة، وفي الوقت الحاضر هو أمر مستعجل لا مَحِيد عنه، وهو مملوء بالفرص.

إنه أمرٌ لا محيد عنه؛ لأن النصارى في كل مكانٍ في العالم يعيشون في مجتمعات تشمل أديانًا عديدة، إنه أمر عاجل؛ لأن الناس جميعًا واقعين تحت ضغوطٍ مشتركة في البحث عن العدالة والسلام والمستقبل المأمول، وهو مملوء بالفرص؛ لأن النصارى يستطيعون الآن بأساليب حديثة أن يكشفوا عن مظاهر جديدة من العبودية والسيادة للمسيح، وعن مضامين جديدة من واقع الكنيسة في مجال التحرك نحو مجتمع إنساني مشترك.

٢ ـ إن إيماننا بعيسى المسيح الذي أصبح إنسانًا من أجل جميع البشر في جميع العصور، يؤيدنا في هذا الحوار، إن التعبير عن هذا الإيمان في حياة وواقع الكنيسة يقودنا إلى تطوير علاقات مع البشر من مختلف الأديان والمثل، إن عيسى المسيح الذي حرَّرَنا هو الذي يُخرِجنا من العزلة إلى الحوار الصادق الذي ندخله مؤمنين بوعد عيسى المسيح، إن روح القدس ستقودنا إلى الحقيقة الكلية)[١]، وبعد سرد موجز لبعض لقاءات الحوار بين الكنائس المحلية والإقليمية مع أتباع الديانات والتقاليد الأخرى، بل وبعض اللادينيين كالماركسيين، خلص البيان إلى القول: (إن النصارى في أقطار كثيرة لا يتحدثون عن الحوار فقط، ولكنهم منشغلون به في الوقت الراهن، وعلى مستويات مختلفة، وهم في نقاطٍ كثيرة مضطرون إليه في سياق العلاقات المعيشية مع أهل الأديان والنظريات الأخرى)[٢].

إن هذا المدخل يشعر أن «الحوار» مع الآخرين بالنسبة لمجلس الكنائس

(١) بيان وإرشادات حول سياسة مؤقتة (١٢) عن وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية، ليستر.
(٢) المرجع السابق، (١٣).

العالمي:

١ ـ اضطراري: فرضته أحوال العالم الراهنة، واختلاط النصارى بغيرهم.

٢ ـ مستعجل: فيتحتم الدخول فيه بسبب الضغوط المشتركة التي تواجهها أطراف الحوار.

٣ ـ وأخيرًا: مملوء بالفرص للتعبير عن الإيمان النصراني، بمباركة الروح القدس، أي البشارة.

وواضحٌ من المسوِّغَيْن الأولَيْن أن مجلس الكنائس العالمي لا ينظر إلى الحوار إلا من زاوية «فرض الأمر الواقع»، وأنه ليس مطلبًا أصليًّا، أما المسوِّغ الثالث فمحل تجربة ونظر، وقد كشف البيان اختلاف التوجهات في مؤتمر «أديس أبابا» حيال قضية الحوار، فقال: (١١ ـ وقد لمس المجلس العالمي آثارًا صريحة، وأنواعًا كثيرة من الإقناع، لذلك فلا يوجد لديه رأي موحَّد حول الحوار مع أهل الأديان الأخرى... يجب أن نفهم ممارسة المجلس العالمي للحوار على أنها مغامرة مشتركة للكنائس)[1].

هكذا بدَا موقف المجلس العالمي للكنائس في مطلع السبعينيات تجاه قضية الحوار أنه أمر اضطراري مستعجل لا محيد عنه، بل هو مغامرة، وبالتالي فهذه الإرشادات «سياسية مؤقتة» كما سماها.

ومَرَدُّ هذا التردُّد والحذر إلى إشكالاتٍ حقيقية لدى القوم تتلخَّص في ثلاثة أسئلة:

١ ـ ما هي المضامين اللاهوتية الأساسية للحوار؟

٢ ـ ما هي العلاقة بين الحوار والبشارة والشهادة؟

---

(١) المرجع السابق، (١٥).

٣ ـ كيف يُفهم الحوار ويمارس في مجال تأهيل الأشخاص[١]؟

وكل سؤالٍ له إجابتان متضادتان لدى القوم، والبيان يقول بكل صراحة: (هناك خلافٌ دقيقٌ بيننا وفي كنائسنا، فيما إذا كان التركيز على الحوار سوف يضعف مضاء هذه المهمة التبشيرية، أم أن المجتمع الإنساني، والحديث الذي سيوجده الحوار سوف يجعلانها تتقدم)[٢].

ولهذا جاءت التوصيات في مؤتمر أديس أبابا منصبَّةً على قضيتين:

الأولى: العناية بتأهيل وتدريب وتهيئة (مجموعاتٍ من الناس قادرين على الاشتغال في حوار موثوق مع أصحاب الأديان والنظريات الأخرى في أقطارهم وأقاليمهم الخاصة، أما في الأماكن التي تم فيها هذا فعلًا فيجب إيجاد الأساليب والوسائل لإشراك الكنائس الأخرى في الآراء التي استخلصت)[٣]، وما يستلزم ذلك من تغيير في المناهج التعليمية والبحثية، ووكلت المهمة إلى المعهد المسكوني في «بوسي».

الثانية: التركيز في الحوار على قضايا إنسانية عامة، كالعدالة والسلام والتطور.

هكذا وُلِدت «اللجنة الفرعية للحوار مع معتنقي الأديان والمُثُل الحية» عام ١٩٧١م متردِّدة حذِرةً متحفظة، وفي المؤتمر العام للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «نيروبي» عام ١٩٧٥م، رأى بعض المشاركين (أن الحوار كان خيانةً للرسالة المسيحية، وبابًا مفتوحًا أمام التوليف)[٤].

وقد حملت هذه التجاذبات لجنة الحوار الفرعية على إجراء استفتاء شامل لمختلف الكنائس المعنية بالحوار تحت عنوان: «استشارة لاهوتية بشأن الحوار

(١) انظر: هذه التساؤلات في المرجع السابق، (١٦).
(٢) المرجع السابق، (١٦).
(٣) المرجع السابق، (١٧، ١٨).
(٤) تصوُّرات بروتستانتية حول الإسلام، جان باسِّيه، مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).

ضمن الجماعات الدينية»، وقد درست نتائجه في مؤتمر «شيانغ ماي» في «تايلند» من ١٨ ـ ٢٧ أبريل ١٩٧٧م[١]، وتمخَّض المؤتمر عن تطوير الخطوط المباشرة للحوار، ثم تبنَّاها مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٧٩م[٢] بعد صدور كتاب ستانلي سامارثا «الدين وسط الأديان، تأملات على الحوار في المجتمع» عام ١٩٧٧م Faith in the Midst of Faiths. Reflections on Dialogue in Commuinity. Cf. S. Samartha. Geneve Wcc 1977.

(وأصبحت هذه الوثيقة فيما بعد أساسًا لعمل قسم الحوار)[٣].

وفي مطلع عام ١٩٧٩م اجتمعت اللجنة العامة لمجلس الكنائس العالمي في «جامايكا»، ونشر المجلس الإرشادات الصادرة عنها، نقتطف منها ما يلي:

(.. إن النصارى يؤمنون بالثالوث المقدس؛ الله خالق جميع البشر، المخلّص في عيسى المسيح، روح التنزيل والتجديد ـ الذي به نُدعى نصارى ـ بالنسبة لعلاقاتنا الإنسانية مع جيراننا الكثيرين، وتشمل هذه العلاقات هذا الحوار الذي نعبِّر به عن أعمق معتقداتنا، ونستمع لمعتقدات جيراننا، إن إيماننا النصراني هو الذي يحرِّرنا حتى ننفتح على إيمان الآخرين، ونخاطر، ونثق ونكون عرضة للنقد، ففي الحوار يتوازن الاعتقاد والانفتاح.

إن الحوار ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات في عالم للنصارى فيه جيران كثيرون، إنه أسلوب حياة لإيماننا النصراني مرتبطين ومختلطين بأولئك الجيران الذين نشاركهم في المدن والشعوب والأرض بمجموعها، الحوار أسلوب حياة مرتبطة بالجيران، وهذا لا يحل محل، ولا يحدِّد واجبنا النصراني

---

(١) انظر: توجيهات في سبيل الحوار، موريس بورمانس (١٦٣).

(٢) تصورات بروتستانتية حول الإسلام، مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).

(٣) إيمان جاري وإيماني، مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان، إصدار مجلس الكنائس العالمي، تعريب: طارق متري، (٧ـ٨).

في الشهادة، كما أنه يجعل الجميع في حوار مع من يخالطونهم)[1].

لقد تضمَّنَت هذه المقدمة التأكيد على قضية الحوار باعتباره أسلوب حياة، يعبِّر فيه الفرد عن إيمانه النصراني، ويتلقَّى النقد من مخالفيه، الذين هم في أحيان كثيرة جيران، وقد شاع التعبير بوصف «الجيرة» في بيانات المجلس فترة الثمانينيات للدلالة على حتمية المواجهة والاحتكاك، وما تتطلَّبه من انفتاح على «الجيران»، ومن ثم فقد انصبَّت الإرشادات على الحديث عن مؤهلات الحوار وشروطه، وتفهُّم الآخرين واحترامهم، وفوق ذلك التركيز على المجالات التعليمية مثل:

(أ ـ برامج التعليم في المدارس والكليات، وأنظمة تعليم الكبار، لزيادة فهم التعاليم الثقافية والدينية والنظرية للإنسانية...

ب ـ برامج التعليم في الكليات والمعاهد اللاهوتية، لتهيئة كهنة نصارى يملكون التدريب والحساسية الضرورية للحوار بين الأديان.

ج ـ الاتصالات الإيجابية بالبرامج في أقسام الجامعة والمعاهد الأخرى للتعليم العالي والتي تهتم بالدراسة الأكاديمية للدين.

د ـ مراجعة المادة المستعملة، والتعليمات العادية، في مناهج التوجيه لجميع المستويات في الكنائس، بما فيها الكليات والمعاهد اللاهوتية، مع ملاحظة إزالة كل ما يشجع التعصب وتبلُّد الأحاسيس نحو أهل الأديان والمُثُل الأخرى.

هـ تطوير مواد مدرسة الكنيسة لأجل دراسة أصحاب الأديان والمُثُل الأخرى.

و ـ إعداد المناهج المناسبة للأشخاص الذين يمكن أن يُرسَلوا للعمل في محيط ثقافات أخرى، أو الذين يمكن أن يسافروا كسائحين في مثل هذا المحيط

(١) إرشادات توصي بها الكنائس للدراسة والتطبيق، (٢٦) عن مجموعة وثائق من إصدار المؤسسة الإسلامية، ليستر.

لترقية مفاهيمهم وأحاسيسهم.

ز ـ رد فِعل مناسب نحو كتب النصوص المدرسية ووسيلة تقديمها، والتي يمكن أن تتحامل على صورة الجيران.

ح ـ الاستعمال البنَّاء لوسائل الدعاية والمذياع والتلفزيون و... كلما أمكن ذلك من أجل الوصول إلى مستمعين أوسع، في نطاق الجهود لزيادة تفهُّم أصحاب الأديان والمثل الأخرى)[1].

إن هذه التوصيات والإرشادات لتكشف رُجحان كفة المنادين بالحوار، ولكنها في الوقت نفسه تكشف طبيعة ذلك الحوار في جانبه الثقافي، إنه حوار البشارة والاجتذاب والأنجلة المؤسَّس على خطط مدروسة، وإدراك ووعي بطبيعة الآخر، وتأهيل للأفراد لاحتراف الحوار، إن النقاط السابقة تدور حول أربعة محاور:

أولًا: دراسة الأديان الأخرى دراسة متعمِّقة تبلغ أعلى التخصُّصات العلمية تحت ستار «زيادة تفهم أصحاب الأديان والمُثُل الأخرى».

ثانيًا: تدريب وتأهيل فرسان الحوار علميًّا وميدانيًّا، ولو عن طريق السياحة.

ثالثًا: تخفيف الحساسيات السابقة والمتوقَّعة التي تستعدي الآخرين، وتثير تعصُّبهم بمراجعة المواد المستعملة في المناهج التعليمية، وإزالة ما لا يناسب الجيران، أو يبلِّد أحاسيس الأتباع.

رابعًا: الاستفادة من جميع الوسائل الدعائية والإعلامية الممكنة للوصول إلى المستمعين.

والحوار لدى مجلس الكنائس العالمي في أواخر السبعينيات يتسع وينفتح إلى أقصى الحدود الشكلية؛ فـ«الغاية تبرِّر الوسيلة»، فلا بأس بالمشاركة في

---

(١) المرجع السابق، (٢٨ ـ ٢٩).

المناسبات الدينية للآخرين! يقول البيان: (لا بد أن يثير الحوار مشكلة المساهمة في الاحتفالات والطقوس والعبادة والتأمل:

تتقارب المجتمعات الإنسانية وتعبِّر عن نفسها، وتتجدَّد في الطقوس والعبادة، والحوار يُفسح المجال لتقديم الاحترام لشعائر الجيران في المجتمع، وتتوسع الأمور أحيانًا، وتُقبل دعوات الزيارة كضيوف ومراقبين في الطقوس العائلية والاجتماعية والمواعظ والاحتفالات، وتهيئ هذه المناسبات فرصًا ممتازة لزيادة الفهم المتبادل بين الجيران، ولا بد أن يثير العمل المشترك في مشاريع ونشاطات عامة، أو الزيارات المنزلية في الأعياد في نهاية المطاف القضية الصعبة، والمهمة جدًّا، وهي المشاركة الكاملة في صلاة أو عبادة أو تأملاتٍ مشتركة، وهذه إحدى مجالات الحوار التي هي أكثر الأمور جدلًا، أو أكثرها حاجةً للاستكشاف الواسع.

وسواء حدث هذا أم لا، فإن المشاركين في الحوار يرغبون أن يواجهوا القضايا الراهنة باهتمام وحساسية بالنسبة للإخلاص المتبادل، وهم يدركون تمامًا دلائل ومقاصد ما فُعِل وما لم يُفعل)[1].

لا شك أن مؤشر مؤتمر نيروبي المنعقد عام ١٩٧٥م، الذي قِيل فيه: إن الحوار خيانة للرسالة النصرانية، قد قفز إلى الجهة المقابلة في جامايكا عام ١٩٧٩م حين يتبنَّى الحوار إلى درجة المشاركة في المناسبات الدينية وربما الصلاة أيضًا، واعتبار ذلك (فرصًا ممتازة لزيادة الفهم المتبادل بين الجيران)، وإن شئت فقل: لأداء الشهادة النصرانية.

أما مادة «الحوار» -كما تبدو لمجلس الكنائس العالمي في نهاية السبعينيات- فلا تختلف عن ذي قبل: (يجب متابعة الحوار بالمساهمة في الأعمال العامة في المجتمع: النشاطات العامة، والخبرات هي أكثر الأمور

(١) المرجع السابق، (٣٠ـ ٣١).

مناسبةً للحوار حول قضايا: الإيمان والنظريات والسلوك، ومن خلال البحث عن مجتمع عادل للبشر جميعًا)[١].

وأخيرًا يرسم المجلس سياسة واضحة حيال منظمات تقارُب الأديان التي تتبنَّى قضايا معينة، ذات صبغة سياسية أو اجتماعية، فيقرِّر: (هناك الآن منظمات كثيرة تربط بين أديان العالم وتبحث في تمكين هذه الأديان من التعاون لأغراضٍ متنوعة، مثل: الكفاح من أجل السلام، والعدالة في المجتمع الواحد وبين الأمم، ويحتاج النصارى المشاركون في الحوار أن تكون لديهم قدرة انتقائية للمشاركة في الاجتماعات التي ترتِّبها مثل هذه المنظمات، يجب أن يكون الممثِّلون النصارى حريصين على الاعتراف المتبادل والاحترام والإخلاص لكل دين، وأحيانًا يكون ضروريًّا أن يوضِّحوا أن مشاركتهم لا تدل بالضرورة على قبول المطالب الضمنية لاجتماع أو منظمة معينة، ويتجنَّب النصارى بشكل عام أن يتحالفوا ضد أديان أخرى، أو مُثُل، من حيث كونها أديانًا ومثلًا، إن المجلس العالمي للكنائس يقبل إيفاد ملاحظين استشاريين إلى اجتماعات منتقاة من هذه النوعية، ولكنه في الوقت الحاضر لن يشارك مباشرة بشكل رسمي في التركيب التنظيمي للمنظمات العالمية ذات الأديان المتعدِّدة)[٢].

إنه انفتاح مدروس، يعرف أين يضع خطاه، فلا يجر إلى مواقف لا يَرتضيها، أو يتاجر به فيها، معياره المصلحة، فحيث وجدت المهمة الرسولية فهو ثمَّ، وإذا تعذَّرت بأي شكلٍ من الأشكال فلا مجال للمجاملة وتضييع الوقت.

هذا وقد صاغ المجلس اعتبارات خاصة باليهود عام ١٩٨٢م باسم:

Ecumenical Considerations On Jewish Christian Dialogue.

اعتبارات مسكونية حول الحوار اليهودي النصراني.

---

(١) المرجع السابق، (٢٩).

(٢) المرجع السابق، (٣١ـ ٣٢).

الكتب والبيانات الصادرة عن بعض منسوبي مجلس الكنائس العالمي:

وخارج قباب المؤتمرات، وبعيدًا عن نصوص البيانات الرسمية نعرض نماذج مستقلة لطروحات بعض دعاة الحوار والانفتاح من أعضاء المجلس، ونصوصًا مقابلة للرافضين للحوار، لمزيدٍ من استيضاح حقيقة التقريب لدى النصارى غير الكاثوليك.

١ ـ (إيمان جاري وإيماني):

في عام ١٩٨٤م أوصت اللجنة المركزية لمجلس الكنائس العالمي بإعداد برنامج دراسي يمتد خمسة أعوام لتحديد معنى الهوية النصرانية في عالم تتعدَّد فيه الثقافات والأديان والأيديولوجيات، فأصدر قسم الحوار كتيبًا عام ١٩٨٦م موجهًا إلى كافة النصارى بعنوان: إيمان جارى وإيمانى. مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان. دليل دراسى . My Neighbour's Faith and Mine .Theological Discoveries in .Interfaith Dialogue A Study Guide.

مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان. دليل دراسي.

أفصح عن «هدف الدراسة» وبواعثها قائلًا: (الدراسة جواب على الحاجة لوضع تفكيرنا اللاهوتي في سياق التعدية الدينية المعاصرة، ولكن هذا لا يعني بالطبع الإجابة على كل الأسئلة اللاهوتية المعقَّدة التي يثيرها الموقف من إيمان الآخرين وشهادتهم، لقد تسبَّبَت هذه الأسئلة في خلافات عميقة بين اللاهوتيين المسيحيين، ولم يأتِ اليوم الذي نصل فيه إلى حلولٍ حاسمة، إن التمييز بين الوحي الطبيعي والوحي الخاص[1] ليس حلًّا نهائيًّا، والنظريات التي تعتبر بعض التراثات الدينية مجرد استعدادٍ لقبول الإنجيل لا تكفي، لكن البحث المتجدد

(١) لعلهم يريدون بالوحي الطبيعي ما تستلهمه الأديان والتقاليد ـ سوىٰ النصرانية ـ من الفطرة والعقل والتجربة، من تجارب صائبة، بينما «الوحي الخاص» هو ما اختصت به النصرانية من الأناجيل.

قد يقودنا إلى اكتشاف ـ أو إعادة اكتشاف ـ مؤشرات روحية داخل تراثنا، تقودنا إلى الأمام.

ليست الغاية من هذه الدراسة تقديم معلوماتٍ عن الأديان الأخرى، لكننا ندعو إلى تفهُّم جيراننا كأهل دينٍ حي، وإلى اعتبار معتقداتهم وممارستهم عنصرًا في تفكيرنا اللاهوتي حول العالم والجماعة الإنسانية.

بعبارة أخرى: إن هذه الدراسة نداء إلى المسيحيين كي يكتشفوا معنًى لاهوتيًّا لإيمان جيرانهم، وهذا أمرٌ لم يَفِهِ التفكير المسيحي حقَّه، ولكن عندما يؤثر دين جيراننا على طريقتنا في ممارسة عقيدتنا ووعيها، نضطر لمواجهة التحدي، والسعي لاكتشاف أبعاد جديدة لإيماننا، ننظر من خلال ذلك إلى جيراننا على ضوءٍ جديد، ونتعلم العيش معهم في جماعة متقاربة...

ومهما يكن من أمر تحاول هذه الدراسة أن تتأمل في أفضل مظاهر سعي الإنسانية الديني، ورغم تحفظاتنا المشروعة حول بعض جوانب الأديان، علينا أن نتعامل مع القيم الإيجابية في حياة المؤمنين وشهادتهم، لذلك ليست الدراسة بحثًا في العقائد الأخرى قدر ما تتناول عقيدتنا نحن، موضوعها الأول: كيفية وعي إيماننا على نحوٍ أفضل فيما نعيش مع أصدقاء وجيران يعتنقون عقيدة أخرى)[1].

وقد تألَّفت الدراسة المذكورة «إيمان جاري وإيماني» من تسعة فصول، يتكون كل فصل من نصوص دينية لأبرز الديانات والتقاليد الحية، فبالإضافة إلى الإسلام واليهودية، ثم البوذية والهندوسية والزرادشتية والكونفوشية وغيرها، يعقب تلك النصوص تعليق يسلِّط الضوء على المادة المراد إبرازها، ثم جملة من الأسئلة اللاهوتية والتطبيقية التي تصبُّ في هدف الدراسة، كما صدر كل فصل بصورةٍ ضوئية «فوتوغرافية» ملتقَطة من الممارسات الدينية

(١) إيمان جاري وإيماني، (٨ ـ ٩).

والاجتماعية للشعوب غير النصرانية، وتقترح الدراسة تأليف مجموعات صغيرة تقوم بتدارُس القضايا المطروحة وتأمُّلها، ثم صياغة النتائج وإرسالها إلى قسم الحوار في المجلس[١]، الذي وعد أنه (ستنظم في عام ١٩٨٩ حلقة استشارية دولية لدراسة الأجوبة والملاحظات الواردة من مختلف أنحاء العالم على أن ترفع خلاصات هذه الحلقة إلى الكنائس)[٢].

إن هذه الدراسة المعنونة بـ«إيمان جاري وإيماني»، من خلال عنوانها وأهدافها ومضامينها التساؤلية، بل وطريقة إخراجها الفنية، لَتكشف عن عمق المعضلة التي يواجهها القوم حين تَجْبَهُهم العقائد والممارسات الأخرى، وتحرجهم أمام ضمائرهم، أو على الأقل تزلزل قناعاتهم الدينية، وفي القصة التالية المنتزعة من ثنايا الكتاب ما يصوِّر عمق هذه المعضلة:

(يروي الكاتب «بوتوك» أن حاخامًا شابًّا كان مسافرًا في اليابان، وعند زيارة معبد بوذي رأى مسنًّا يحمل كتابًا ويصلي، وهو يميل إلى الوراء ثم إلى الأمام. سأل الحاخام صديقه: «هل تعتقد أن إلهنا يُصغي إليه؟»، أجاب: «لا أعرف، لم تخطر المشكلة في بالي قط، فإذا كان لا يصغي، لماذا؟ وإذا كان يصغي، لا بد من التساؤل في ما نحن عليه»...

إن سؤال الحاخام عميق من الناحية اللاهوتية، فإذا كان الله لا يصغي، نتساءل بحق «أيُّ إله هو الذي لا يصغي لصلاة إنسان؟»، وإذا كان الله يصغي يصح التساؤل عما يميِّز الجماعة التي ننتمي إليها؟ مَن نحن الذين نعتبر أن لنا امتيازًا في الوصول إلى سمع الله؟)[٣].

إن مثل هذه المواقف لتهز الفرد النصراني ـ وإن كان الكاتب ألصق الحادثة بغير نصراني ـ وتحمِله على التساؤل فيما هو عليه، وفيما عليه الآخرون، سيما في

---

(١) انظر: المرجع السابق، (١٠).
(٢) المرجع السابق، (٧).
(٣) المرجع السابق، (٥٤).

هذا الزمان الذي انعتق فيه الأفراد من التسلط الكنسي على العقول، وسادت فيه معاني الحرية واحترام الضمير، فكيف إذا رأى أولئك الأفراد تعبُّد المسلمين في صلواتهم ودعائهم وخشوعهم وصومهم وحجهم، وغير ذلك من مظاهر العبادة النقية الصادقة!

إن الاختلاط والتعايش يمثِّل خطورة حقيقية بالنسبة للكنائس على أتباعها، وهمًّا ضاغطًا يتطلب كشفُه تقديمَ «لاهوت» يستوعب أداء الآخرين، ويختصره ويحتويه، ويُظهره ضئيلًا محدودًا بجنب الاعتقاد الكنسي، ومن ثم فإن الأسلوب الأمثل حَمْل الأتباع على التقدم لاكتشاف «إيمان الجيران» بروح مستعلية مهيمنة، تتواضع لـ(تتأمل في أفضل مظاهر سعي الإنسانية الديني)، إن ذلك أجدى، وأقل ضررًا من أسلوب الحجب، وتقديم معلومات مغلوطة تستثير في نفوس الأتباع روح البحث الصادق غير الموجَّه من الخارج، فالتقدم نحو الخصم خيرٌ من مدافعته.

إن الفاحص لعبارات الدراسة ليلمس بوضوح أن المشروع وإن بدَا مؤطَّرًا بالموضوعية والانفتاح، فإنه يؤكِّد بعمق على الانكفاء على الذات، وتوظيف معطيات الآخرين لتعميق الانتماء، تأمَّل في هذه الجمل الواردة في «هدف الدراسة»:

(لكن البحث المتجدِّد قد يقودنا إلى اكتشاف ـ أو إعادة اكتشاف ـ مؤشرات روحية داخل تراثنا تقودنا إلى الأمام...).

(لكننا ندعو إلى تفهُّم جيراننا كأهل دينٍ حي، وإلى اعتبار معتقداتهم وممارساتهم عنصرًا في تفكيرنا اللاهوتي حول العالم والجماعة الإنسانية...).

(عندما يؤثر دين جيراننا على طريقتنا في ممارسة عقيدتنا ووعيها نضطر لمواجهة التحدي، والسعي لاكتشاف أبعادٍ جديدة لإيماننا...).

(ليست الدراسة بحثًا في العقائد الأخرى قَدْرَ ما تتناول عقيدتنا نحن، موضوعها الأول: كيفية وعي إيماننا على نحوٍ أفضل، فيما نعيش مع أصدقاء

وجيران يعتنقون عقيدة أخرى).

ولذلك فإن الدراسة استبعدت منذ البداية نظرية (التمييز بين الوحي الطبيعي والوحي الخاص)، ونظرية (اعتبار بعض التراثات الدينية مجرد استعدادٍ لقبول الإنجيل)، ونحوها من النظريات التي تحاول تقديم معنى لاهوتي لممارسات الآخرين، وتنحى الدراسة منحًى جديدًا في معالجة التحدي الذي تسبَّب في إيجاد خلافات عميقة بين اللاهوتيين النصارى باحتواء ما عند الآخرين، وإلحاقه بجوانب روحية موجودة أصلًا في اللاهوت النصراني لم يتم اكتشافها، أو يُعاد اكتشافها من جديد، ومن ثم لا تمنح الأديان والتقاليد والأيديولوجيات الأخرى صفة القسيم، أو النِّدِّ، أو حتى الفرع؛ إذ هي ـ في جوانبها التي تبدو مشرقة وصائبة ـ مشمولة باللاهوت النصراني.

تلك خطوة إلى الوراء في الحقيقة مقارنة بمفهوم الخلاص الجديد الذي جاء به المجمع الفاتيكاني الثاني وتداعياته.

وبالفعل فقد أَوْلى مجلس الكنائس العالمي قضية التعددية الدينية اهتمامًا خاصًّا، فعقد مؤتمرًا في «نيودلهي» عام ١٩٨٧ بعنوان «التعددية الدينية»، ثم في «نيو وندسور» ـ ميرلاند بأمريكا في العام التالي ١٩٨٨، بعنوان: «تحدي التعدُّدية»، وفي العام الذي يليه ١٩٨٩م أرَّخ المجلس لمبادراته الحوارية مع المسلمين على مدى عشرين عامًا من تأسيس اللجنة الفرعية للحوار بكتاب:

Meeting in Faith: Twenty Years of Christian Muslin Conversations. Geneve. Wcc 1989.

لقاء في الإيمان، عشرون عامًا من الحوار المسيحي الإسلامي.

وفي عام ١٩٩١م أصدر المجلس كتابًا بعنوان:

Ecumenical Considerations on Christian Muslim Relations.

اعتبارات مسكونية حول العلاقات المسيحية الإسلامية.

٢ ـ (الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى):

كتب القس «ويسلي أرياراجا» دراسة في: «الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى»، تناولت موضوع الحوار وإشكالاته، إجابة لطلب الاتحاد العالمي للطلاب المسيحيين في منطقة البسفيك ـ الآسيوية (عما يساعد المسيحي العادي في تعاطيه مع جيرانٍ له ينتمون إلى أديان أخرى، كيف يمكن مسيحيِّ اليوم أن يعيشوا إلى جانب البوذيين والمسلمين والهنود وجماعات دينية أخرى، ويشهدوا لهم من خلال موقفهم الحواري؟ كيف يمكن المسيحي أن يقوم بذلك دون أن يتخلَّى عن إيمانه، بل دون أن يُخفِي إيمانه؟ وهل بإمكانه أن يدخل في حوار ويستمر في قناعاته المسيحية)[١].

وقد قدَّم للدراسة رويدي ويبر، وقرَّظه قائلًا: (إنني لا أعرف بحثًا آخر تناول هذا الموضوع بمثل الوضوح والاختصار والعمق الذي تحلَّت به دراسة ويسلي أرياراجا)[٢]، وأشار إلى استفادته من سلسلة دراسات جمعت تقاريرها في كتاب بعنوان: «الكتاب المقدس.. سُلْطته وشرحه في الحركة المسكونية»، من إصدار مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٨٠م.

وقد قام الاتحاد العالمي للطلاب المسيحيين في منطقة البسفيك ـ الآسيوية ومجلس الكنائس العالمي بالتعاون في نشر هذا الكتاب.

ونظرًا لهذا الإطراء والاهتمام فإن هذا الكتاب يصلح عيِّنة للتعرُّف على موقف غير الكاثوليك من قضية الحوار.

لقد أسَّس الكاتب دراسته للرد على منتقدي الحوار من المنطلق التالي:

(الكثير من الانتقادات الموجَّهة إلى الحوار تزعم أنها ترتكز إلى الكتاب المقدس، هذا ما قاله لي أحد أصدقائي، ففيه أن «يسوع هو الطريق والحق والحياة»، ولكي يتابع المسيحي الحوار عليه أن يتنكَّر لقول الكتاب المقدس في

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرىٰ: القس: ويسلي أرياراجا، تعريب: الخوري بولس الصياح، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م، (١١).

(٢) مقدمة الكتاب السابق، (٩).

يسوع، وفي السبب الذي من أجله أرسله الآب إلى العالم.

ما مدى صحة هذا القول؟ وهل الكتاب المقدس يُنكر على المسيحي إمكانية الحوار مع المؤمنين المنتمين إلى تقاليد دينية أخرى؟ هل فيه تعليم في المسيح ومعنى مجيئه يتنافى ونوايا الحوار الصادق؟)[١].

ونحن لا نريد أن نمضي مع الكاتب في مجادلاته مع أبناء مِلَّته حول مشروعية «الحوار» إلا بالقدر الذي يكشف عن حقيقته في نظر مؤيديه.

يعمد المؤلف إلى إثبات صحة مبدأ الحوار ومشروعيته، وضرورة الانفتاح على أتباع الديانات الأخرى وقبولهم، من خلال عدة محاور، أهمها:

١ ـ التقاط الشواهد الحوارية لأنبياء العهد القديم في دعوتهم لأقوامهم، ومقاطع تتحدث عن الشعوب الأخرى «الأُمَمِيِّين»، ومواقف المسيح عليه السلام وتلامذته التبشيرية ذات الطابع الحواري مع الوثنيين؛ لإبراز منزلة الحوار في الكتب المقدسة[٢].

٢ ـ الدعوة إلى تنحية الكلام في امتلاك النصرانية للحقيقة المطلقة دون غيرها، وعدم مجابهة الآخرين بالادِّعاءات الحصرية، (إن التشبُّث بالحقيقة الموضوعية المطلقة إنما هو وليد تقليد حضاري وفلسفي لا علاقة له بالكتاب المقدس؛ لأن ما نجده في الكتاب المقدس ليس محاولات لتقديم حقائق موضوعية، إنما هناك صراعٌ في سبيل الفهم والشهادة والإعلان... إن مثل هذا الفهم للشهادة من خلال الكتاب المقدس «لا سيما لتلك الفقرات التي تبدو وكأنها حصرية، والتي غالبًا ما اعتُبِرَت وكأنها حقائق مطلَقة، واستُعمِلَت كمرتكزٍ لرفض إيمان الآخرين» سوف يحرِّرنا كمؤمنين، فنتمكن من الدخول في حوار مع مؤمنين من أديان أخرى، فالحقيقة عندما تُفهم على هذا النحو تصبح

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (١٢).

(٢) انظر: الفصلين الأول والثاني في المرجع السابق.

قابلة للمشاركة، فلا يشعر المرء آنذاك أن عليه أن يدافع عن شيء ما، أو يفرض ذلك على الآخرين، أو يُقنِعهم به، فمن المرجَّح أن يترك الإنسان المتواضع المنفتح على المشاركة في الجهاد الروحي والشهادة أثرًا أعمق في نفوس مؤمني الأديان الأخرى، مَن ذاك الذي يدَّعي أنه يملك الحقيقة المطلقة، وأن ليس به حاجةٌ إلى النقاش أو الحوار...

إنه غاية في الأهمية إذًا أن يعي المسيحيون طبيعة الإيمان الذي من الكتاب المقدس، وطريقة التعبير عنه، فيتعاملوا مع الآخرين مقتنعين بأن لدى الآخرين شهادةً يقدمونها، فالادِّعاءات «الحصرية» التي نشعر وكأنها حقائق مطلقة إنما تقودنا إلى الانعزال، فهي ليست «حجر العثار»، إنما هي «حواجز» رُفِعَت في وجه الناس تحُول دون تعرُّفهم إلى المسيح الذي تميَّزت حياته بالتضحية والعطاء الذاتي.

لا يدعو الكتاب المقدس المسيحيين في الحقيقة إلى إطلاق الادِّعاءات، إنما إلى الالتزام بالانفتاح على الآخرين، وللآخرين التزاماتهم أيضًا، فالحوار إذًا لقاءٌ بين التزامَين، وفي مثل هذا اللقاء يمكن لكل من المحاورين أن يُصغِي إلى شهادة الآخر ويراها)[1].

إن هذا النص يكشف لنا بوضوح عن الحوار في نظر المؤلف، إنه وسيلة مؤثرة لتحقيق «الجهاد الروحي» و«الشهادة» النصرانية في نفوس مؤمني الأديان الأخرى، إن الكاتب لا يدعو إلى التنصل من عقيدة امتلاك الحقيقة المطلقة، أو التبرؤ من الادِّعاءات الحصرية التي دأبت الكنيسة على تلقينها لأتباعها، بل غاية ما في الأمر أنه يدعو إلى ترك المجاهرة بهذه الدعاوى، واستفزاز الآخرين بها، لما يترتَّب على ذلك من الآثار العكسية، وعلى حد تعبيره: (سيأتي أناسٌ يطلقون ادِّعاءاتٍ مماثلة ترتكز إلى أقوال كُتَّابٍ يتخذونهم مراجع لهم، فادِّعاء المرء بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة من شأنه أنْ يؤول إلى العجرفة والتعصب،

(١) المرجع السابق، (٤٢ ـ ٤٣).

ومن ثم إلى الحكم على كل التطلعات الإيمانية للآخرين)[١].

إذًا فالنص عبارة عن معالجة نفسية، وتوجيه «رعوي» لأولئك الذين يرون في «الحوار» خيانةً لرسالة المسيح؛ لكونه -من منطلق إخلاصهم لمعتقدهم- يتضمَّن «حجبًا» لبعض حقائق الإيمان، بينما الكاتب يهمس في آذانهم أن: لا داعي لكشف الأوراق دفعةً واحدة، فالتدرج في البشارة، ومراعاة قناعات الآخرين لا بد منه، لا سيما إذا نظرنا إلى الفقرة الثانية هذه في ضوء الفقرة الأولى ومكانة الحوار في الكتب المقدسة.

إن اللاهوت البروتستانتي لم يستطع أن يتقدم خطوة حقيقية في نظرته إلى الآخرين، كتلك التي أعلنها المجمع الفاتيكاني «الكاثوليكي» الثاني بتوسيع مفهوم الخلاص، حتى هذا الكاتب الذي يُعَدُّ من المتحرِّرين المنادين بالحوار يتحدث عن قضية «الخلاص» لغير النصارى على استحياء، ومن جانب السلب لا الإيجاب: (فالاعتقاد بأن مؤمني الأديان الأخرى هم خارج عمل الله الخلاصي هو كلام لا يبلغ الناس فقط، بل الله أيضًا، فإله الكتاب المقدس، الإله الذي دعاه المسيح أبًا، هو سيد الجميع، وهو في صميمنا، وكل شيء فيه كائن.

ما أريد أن أقول -بعبارة أخرى- هو أن رسالة الكتاب المقدس حوارية في صلبها، ومؤسف أن نبني الكثير من مواقفنا تجاه مؤمني الأديان الأخرى على قراءتنا لفقرات «استثنائية» من الكتاب المقدس، وليس على رسالته الأساسية، نحن في حوار؛ لأن إلهنا هو الإله الذي بشَّرنا به يسوع المسيح، ولأننا نؤمن بعمق بحب الله الذي يشمل البشرية بأسرها، فالله حريتنا، وهو يهبنا الحرية والانفتاح فنتمكَّن من لقاء جيراننا، أو نحكم عليهم فقط؛ لأن قبولهم وتفهُّمهم هما حجر الزاوية في رسالة الإنجيل)[٢].

إن الكاتب المتحرر المنفتح لا يجرؤ أن يقول: (بَيْدَ أن تدبير الخلاص

(١) المرجع السابق، (٤١).
(٢) المرجع السابق: (٤٩).

يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق... ثم إن الله نفسه ليس ببعيد عن الذين يتلمَّسون من خلال الظلال والصور إلهًا مجهولًا... فهؤلاء يمكنهم أن ينالوا الخلاص الأبدي...)[1]، كما قاله أساقفة الكاثوليك، بل يُكتفي بالنعي على من يعتقدون أن مؤمني الأديان الأخرى خارج عمل الله الخلاصي، بمعنى أنهم يرفضون الإصغاء إليهم والدخول معهم في حوار، حتى مع عدم وجود شرطٍ مسبق أن الخلاص لا يمكن أن يشملهم، فمرةً أخرى لا يلحظ الكاتب في قضية «الحوار» سوى الجانب التبشيري، من جهة أن قبول المدعو وتفهمه هما حجر الزاوية في رسالة الإنجيل، وليس من جهة أن الطرف المقابل يمتلك ـ على الأقل ـ جزءًا من الحقيقة، أو أن الحوار معه يُثري محاوره ويقود إلى مزيدٍ من المعرفة والفهم.

أما العلاقة بين «الحوار» و«البشارة» في نظر القس البروتستانتي فواضحة غير معقَّدة، ولا تحتاج إلى هندسة فلسفية كتلك التي أجهدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في تفسيرها، إن الحوار يعني ببساطة إعلان الشهادة للإيمان المسيحي في المحافل العامة، وهو يقول ذلك دون مواربة، ويستند إلى وثائق مجلس الكنائس العالمي: (هذا لا يعني أن الحوار نهج جديد للشهادة، أو أننا نتخذ من الحوار مجالًا للتحايل على الآخرين، بل هو يعني بكل بساطة أنه يمكن المرء أن يشهد من خلال الحوار، وأنه في الحقيقة لكذلك، وقد تحدَّث مجلس الكنائس العالمي عن هذا الأمر في «توجهات في الحوار» بالعبارات التالية:

«نحن لا نخالُ أن بين الحوار والشهادة تناقضًا، وما من شك أنه عندما يدخل المسيحي في الحوار وهو ملتزم بيسوع المسيح، غالبًا ما يكون الحوار مجالًا لشهادة حقيقية؛ لذا يمكننا بكل صدقٍ أن نحسب الحوار كإحدى الوسائل التي من خلالها تتم الشهادة ليسوع المسيح في أيامنا، ويمكننا في الوقت نفسه، وبمقدار الصدق نفسه أن نؤكد لمحاورينا أننا نأتي إليهم، ليس كمن

(١) انظر: «المجمع الفاتيكاني الثاني» (٥٢).

يحاول بمكرٍ اجتذابهم، إنما كرفقاء في مسيرةٍ واحدة، لنتحدث معًا فيما نرى أن الله قد حقَّق في يسوع المسيح الذي سبقنا، والذي نحاول معًا أن نبحث عنه من خلال الحوار»)[١].

هل يرى القارئ فرقًا بين ما قبل جملة «ويمكننا في الوقت نفسه» وما بعدها؟ إنها الشهادة النصرانية في الحالَين.

٣ ـ الدعوة إلى إجراء تطوير لاهوتي «بروتستانتي»: لقد أدرك الكاتب أن آفة الحوار تكمن في صميم المعتقد النصراني نفسه، ولذلك أعلن بجرأة أنه: (... قد حان الوقت لكي تجهد الكنائس في سبيل وضع قاعدة لاهوتية جديدة تنير سبيلها في علاقتها مع مؤمني الأديان الأخرى، ومن شأن تلك القاعدة أن تخوِّل المسيحي أن يلتزم بالمسيح ويبقى في الوقت نفسه منفتحًا على شهادة الآخرين...)[٢].

ووضع يده على مكمن الداء حين قال: (لقد ارتفعت أصواتٌ متعددة منتقدة اللاهوت البروتستانتي في تركيزه على المسيح بشكل يكاد يكون كاملًا، وقد قيل: إن هذا التوجه مسؤول أساسًا عن عجز البروتستانتية في التعاطي مع التعددية الدينية، لقد جاهَرَ الرسل[٣] بإيمانهم بأن الله قد أظهر نفسه للعالم بشكل خاص في يسوع المسيح، فتسلَّم بعض اللاهوتيين هذا الإيمان، واتخذوا لهم من بعض النصوص الكتابية حجةً ليطوِّروه إلى ادِّعاء بأن يسوع المسيح هو الوحي الإلهي «الكامل» و«النهائي» و«المطلق» و«الحاسم»، وفي مواقف تبشيرية غالبًا ما يكون الادِّعاء بأنه ما من وحي «حقيقي» لله سواه، وإذا ما حصل ذلك فيكون الوحي جزئيًّا إلى حدٍّ يجعل من يسوع المسيح المصدر الوحيد لمعرفة «حقيقة»

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرىٰ (٧٠ ـ ٧١).

(٢) المرجع السابق، (٨٣).

(٣) الرسل في الاصطلاح الكنسي هم تلامذة المسيح وحواريوه، الذين بشروا بالنصرانية، والعبارة تنطبق علىٰ «بولس» فقط الذي أفسد النصرانية وزعم ألوهية المسيح رغم أنه لم يكن من حواريه، ولا تلاميذه، بل لم يَلْقَه قط، راجع التمهيد.

الله.

فالعودة إلى لاهوتٍ يتمحور حول الله، يتيح المجال للمسيحيين أن يقفوا إلى جانب مؤمني الأديان الأخرى كأبناء الله الواحد، من دون أن يتنكَّروا لشهادتهم ليسوع المسيح.

وحدة المفهوم اللاهوتي «المتمحور حول الله» يخوِّلنا احترام إيمان إبراهيم وانصياع موسى لإرادة الله... علينا أن نُقِرَّ بأن هذا التوجه لا يشكِّل ابتعادًا عن الرسالة الأساسية للكتاب المقدس، إنما هو تصويب يسهِّل على المسيحي العيش في عالمٍ متعدِّد الأديان من دون أن يتنكَّر لدعوته الخاصة، كما يمكِّنه من إعطاء حياة جيرانه وخبرتهم معنًى لاهوتيًّا)[1].

إن الكاتب هاهنا يحاول أن «يخرج من جلد» اللاهوت البروتستانتي، بل قارَب ولمَّا يبلغ الأساس اللاهوتي الكاثوليكي لتسويغ الحوار، ولكن مع الهاجس الذي لا يفارقه؛ تحقيق رسالة الكتاب المقدس، بالاستعانة ببعض «التصويبات» الفنية التي تمكِّنه من إعطاء حياة الآخرين وخبرتهم معنىً لاهوتيًّا.

٣ ـ (تحديات العلاقات بين الأديان الكبرى):

ألقى «جورج ليونارد كاري» رئيس أساقفة كانتربري، رئيس الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا، محاضرة بعنوان «تحديات العلاقات بين الأديان الكبرى»[2] في جامعة الأزهر عام ١٩٩٥م، ونظرًا للمنزلة الكبيرة التي يتبوَّأها في العالم غير الكاثوليكي، ولحداثة هذه المحاضرة فإنها تصلح نموذجًا لاستقراء ما آلت إليه النظرة النصرانية غير الكاثوليكية تجاه العلاقة بالمسلمين.

نوَّه المحاضر بأهمية الدين عمومًا، والمسيحية والإسلام خصوصًا

(١) المرجع السابق، (٨٤ ـ ٨٥).

(٢) انظر: النص الكامل للمحاضرة في مجلة الاجتهاد ٣٠ (٢٠٥ ـ ٢١٥).

بوصفهما (أكبر ديانات العالم، وما زالت كلتاهما محتفظة بكامل عنفوانها)[١].

وخلص إلى ترديد ما أكَّده الرائد اللاهوتي الألماني البرفسور هانز كونج عام ١٩٩٤م أنه: (بدون سلامٍ بين الأديان ستكون هناك حرب بين الحضارات، لا سلام بين الأديان بدون حوار بينها، ولا حوار بين الأديان بدون البحث في الأسس)[٢].

ثم حدَّد المحاضر أربعة أُسُس لبناء علاقة جديدة بين الديانتَين:

(١ ـ الصداقة لا العداء:... الصداقة هي الإطار الذي يحتوي كل الاختلافات في تواصل، والذي يحتضن المعتقدات المخالفة في حب بدون الانزلاق إلى العداوة والبغضاء.

٢ ـ التفهم لا الجهل: إن جهلنا بعضنا بالبعض الآخر هو أمر مريع، فالجهل هو أخطر أمراض الحضارة، وهو ينبع من الخوف وسوء الفهم والتعصب.

سوف يكون بإمكاننا انتزاع التطرف الذي يجنح إلى العنف من جذوره إذا ما وقَّرنا عقائد بعضنا البعض، وأدركنا حقيقة أن الإسلام والمسيحية كلاهما باقٍ بقاء قوة الدين على التفرقة بين الخير والشر.

٣ ـ الانفتاح لا الانغلاق: وإذا كان للحوار أن يستمر من خلال الصداقة فلا مناص من أن نتناول مسألة الانفتاح التي تطرح نفسها بإلحاح، فإذا كنا ننشد السلام والتآلف على ظهر هذا الكوكب المزدحم، فيجب أن تكون روح الصداقة والاحترام متبادلة بيننا وبين هؤلاء الذين يخالفوننا في العقيدة، ولكي ننجح في هذا فإنه علينا أن نواجه المشكلة الأساسية التي تقف عثرة في طريق هذا الانفتاح.

والواقع أن الإسلام والمسيحية ديانتان لهما رسالة يؤديانها، فكلاهما تطرح

---

(١) المرجع السابق، (٢٠٥).

(٢) المرجع السابق، (٢٠٧).

فرضيات مطلقة، وكلانا لديه الرغبة القوية في نشر دينه، وهذا جزء لا يتجزَّأ من دياناتنا، وهي حقيقة لا تتطلَّب الاعتذار عنها أو إنكارها، فقد أمر القرآن الكريم المسلمين بهذا في الآية: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تمامًا كما أمر الكتاب المقدس المسيحيين قائلًا: «اذهبوا إلى جميع الأمم وبشِّروهم بكلمة الله».

ويطرح التساؤل بين الحين والآخر: «هل يمكن للذين يُخلِصون الإيمان بقلوبهم، ويؤمنون بأن دينهم هو عقيدة ذات رسالة تدعو للحقيقة والقداسة أن يدخلوا في حوار؟»، وأجيب: نعم، من الممكن طالما لدينا الاستعداد لسماع الآخرين، وطالما نحن ملتزِمون بالسلام والرغبة في الفهم، وكما يعلم الكثيرون في هذا المقام فإنني متمسك لأقصى الحدود بمعتقداتي كمسيحي، ولكن لا يقلِّل هذا من استعدادي للسماع والتعلُّم والتزود، ولكن من الضروري بالنسبة لنا أن ندرك أن الطريقة التي نتعصَّب بها لها انعكاساتها على عقائد الآخرين، فأي من دياناتنا لا يأمرنا بنشر دعوتنا عن طريق الكبر والخداع واللامسؤولية، ولكن هل لدى دياناتنا الاستعداد الصادق لتنمية هذا الانفتاح؟ هل نسعى نحو منح عقائد الآخرين نفس الحقوق التي نمنحها لعقيدتنا؟

٤ ـ التعاون لا المجابهة:... نحن لا نستطيع أن نتحمَّل الانزلاق إلى العداء والمجابهة، فنحن في حاجة إلى رسم طرقٍ جديدة للتعاون والسلام المبنيَّيْن على الفهم والنوايا الصادقة، فقد ذكرت حتى الآن الاختلافات بين الأديان، فهذه الاختلافات حقيقة ولا يجب إنكارها، كما لا يجب أيضًا أن يُفهم منها أنه ليس هناك شيء مشترك بينها، فهناك تفاهُم واتفاق أكبر مما نعتقد في بعض الأحيان أو مما تعلَّمناه.

تفتح هذه الاتفاقات الأخلاقية والدينية الباب واسعًا لمزيد من التقدُّم بين المسلمين والمسيحيين في محاربة قوى الشر الكبرى التي تهدِّد العائلة الإنسانية. اسمحوا لي أن ألخِّص الطرق التي يمكن من خلالها تقوية أواصر التعاون:

١ ـ التعاون في محاربة الفقر والشقاء الإنساني.

٢ ـ السلام والتآلف بين الشعوب.

٣ ـ التسامح والتفهم.

لقد تكلمت كداعية مسيحي مخلص تمام الإخلاص لدعوة السيد المسيح، ولكني تكلمت أيضًا كإنسان تعلَّم على مدار السنين أن يقدِّر ويشعر بالإكبار نحو الكثير من معتقدات وتقاليد المجتمعات الدينية المخالفة له في العقيدة... نحن مطالَبون بوضع أُسُس الحوار بين الأديان، والعمل المشترك من أجل الأجيال التي لم تُولَد بعد، لكي تعيش يومًا ما في عالمٍ يسوده السلام...)[1].

إن الطرح الذي تقدَّم به رئيس الكنيسة الإنجليكانية أمام رئيس جامعة الأزهر يحمل توجُّهًا معدَّلًا للغة الخطاب المطروحة في السبعينيات، إن مشروعه يستبعد أحلام «التقارب الروحي» و«الشهادة المشتركة»، وغيرها من الشعارات السائدة في العقود الماضية، إنه ينهج منهجًا «واقعيًّا» نحو التعايش والسلام والتعاون، ويؤكد على ذات المعاني الأربعة التي كان يُنادى بها سابقًا، ويُحذِّر من أضدادها، كما كان يُحذَّر منها سابقًا، لكن في هذه المرة من زاوية الآثار الواقعية، المنافية للتعايش السلمي في كوكبٍ مزدحم، كنبذ العنف والتعصب، وحتى حين يقول: (نعم) للحوار فإن ذلك يأتي في سياق المطالبة بالحريات الدينية، وحين يدعو إلى مشاريع تعاونية مشتركة نجدها مفرغةً من أي مضمونٍ دعوي، مقتصرة على الشعارات الإنسانية المجملة.

لعل هذا العرض لمقالة أحد أركان النصرانية غير الكاثوليكية يُفصح عن القناعة التي توصل إليها مجلس الكنائس العالمي أخيرًا، من إخراج الحوار من أُطُره الدينية إلى «مفاوضات» في أسلوب العيش المشترك، كما يتحاور سائر البشر على قضايا حياتية مشتركة؛ إذ لا جدوى من الحوار اللاهوتي ـ حسب تعبيرهم ـ بين ديانتين كل منهما (تطرح فرضيات مطلقة)، وتمتلكان (الرغبة القوية في نشر دينها).

---

(١) باختصار من المرجع السابق (٢٠٨ ـ ٢١٥).

ولعل هذه القناعة هي التي آلت بمجلس الكنائس العالمي إلى إلغاء اللجنة الخاصة بالحوار مؤخرًا، وجعل اللقاء بالمسلمين يندرج في إطار العلاقات الدولية[1]، وهو إصلاح إداري يتناسب مع القناعة المشار إليها.

بقي أن نشير إلى أن هذه المحاضرة المفعمة بعبارات الصداقة والسلام والتعاون والتفهم والانفتاح أُلقِيَت في الوقت الذي كان التعصب الصليبي الحاقد يحصد أرواح المسلمين العُزَّل في بلاد البوسنة والهرسك، ويَدُكُّ المآذن والمنازل على رؤوس المصلين والسكان الأبرياء، هذا لون، ولون آخر يتمثَّل في ضراوة النشاط التنصيري الذي تمارسه الإرساليات النصرانية على اختلاف طوائفها في أوساط المسلمين المشردين، مستغلِّين ضعفهم وبؤسهم وحاجتهم، «لتعميدهم» باسم الآب والابن والروح القدس، فأين النزاهة والاحترام وحماية الحريات الدينية يا ترى؟

أم أن لغة المحافل والمؤتمرات تختلف عن لغة الميدان والواقع؟

وصدق الله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة].

تلك لغة دعاة الحوار ومؤيدوه، أما أعداؤه ومعارضوه من القوم فلا يستهان بهم كثرةً وحجةً ومنطقًا داخل الدوائر الكنسية، مما ينبغي أن يحمل المتهافتين على موائد الحوار من الإسلاميين على التريث، وعدم التوغل في درب يقال لهم فيه بعد حين: ارجعوا أدراجكم، لا حاجة لنا بكم.

يقول أحد مناوئي الحوار: (ليس بإمكاننا أن نكون مجرد مراقبين للأديان الأخرى، فإنجيل يسوع المسيح يُصدِر حكمًا مسبقًا عليها، إنه يمكِّننا من الحكم عليها قبل درسها، هؤلاء يعطون للحياة معنى خارج ذاك الذي أعطاه الله في قصة الكتاب المقدس، الذي تتوَّجت بيسوع المسيح، وينظِّمون حياتهم بمعزلٍ عن

(١) جان باسّيه: (تصوُّرات بروتستانتية حول الإسلام) مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦١).

العهد الذي بيسوع المسيح، فبما أن تلك الأديان تفتقر إلى معرفة الله وقدرته، فهي ليست أعجز من أن تقبل بالناس إلى الناس، بل إنها تقودهم بعيدًا عنه، وتُبقِي عليهم محبوسين في غربتهم، فهذا الحكم الصريح والنهائي... لم يأتِ نتيجة لدراسة تلك الديانات، إنما هو في صلب مضمون الإنجيل نفسه)[١]، لقد اختصر المسافة، وأصَّل القضية، وأصدر الحكم الصريح والنهائي قائلًا: دعونا من العبث.

ولئن اكتفى هذا بمجرد الإعراض والصد عن الديانات الأخرى بحجة أن القضية محسومة مسبقًا بالإنجيل، فإن غيره يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول:

(... لقد اقتصر الموقف من الديانات الأخرى على النظر إليها كمجرد كيانات وثنية، غريبة ومنغلقة على عمل الله في التاريخ، إنها مؤسسات مذاهب تناقض المسيحية، وليس فيها علامات فداء، الأشخاص فيها فقط مخلَّصون، أما هي فلا، فالواجب إذًا أن نواجهها بمواقف إنجيلية من شأنها أن تؤول إلى هدمها كليًّا، وبينما نُحكِم الحصار عليها وندك أسوارها، نحاول أن نُخرِج مَن نستطيع ممن هم في داخلها، فننظِّفهم، ونعمِّدهم، ونستعملهم كرأس حربة في عملية الحصار هذه)[٢].

بل في أروقة مجلس الكنائس العالمي نفسه، وأثناء المداولات الداخلية يقول أحد المشاركين: (إن مفهوم «الشهادة المتبادلة» هو من ابتكارات قسم الحوار في مجلس الكنائس العالمي، إنه مفهوم غير كتابي، ولا علاقة له بمفهوم العهد الجديد للشهادة المسيحية)[٣]، وهذه النبرة الإنجيلية الأصولية ترتفع تدريجيًّا.

---

(١) عن: الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى، (٤٦) The Gospel In Dispute Edmond، Perry، P. 83.

(٢) المرجع السابق، (٥٠)، عن: Sharing Jesus In The Two Thirds World P، 132.

(٣) المرجع السابق، (٥٧).

خلاصة وتحليل:

لقد لفتت مبادرات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان الأنظارَ في أواخر الستينيات، وطوال السبعينيات الميلادية، بتتابعها، وانتشارها في أصقاع متنوعة من قارات العالم القديم، فقد عقد المجلس أكثر من خمسة عشر لقاءً دوليًّا أو إقليميًّا خلال عشر سنوات، موزَّعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا[١]، ولكن هذا النشاط الدائب لم يكن يُخفِي وراءه وضوحًا في الرؤية، ومضاءً في العزيمة، بل كان سلسلةً من التجارب المُشبَعة بروح المغامرة، والرصد لانعكاسات التقارب على الحركة المسكونية.

لقد واجه المجلس بكنائسه البالغة ثلاثمئة وست عشرة كنيسة معضلة العلاقة بين «الحوار» و«البشارة»، وبعبارة أدق: بين «التقارب» و«التنصير»، بصورة أعنف مما واجهته الكنيسة الكاثوليكية، ومَرَدُّ ذلك إلى أمرَيْن:

١ ـ أن قوام الحركة البروتستانتية والكنائس المتأثرة بها هو العمل التبشيري، بشقَّيْه العقدي والاجتماعي، ومن ثَمَّ فالحديث عن الحوار، والاقتراب من العقائد الأخرى طعن بأخص خصوصيات الحركة الذي قامت على أساسه، وخيانة لمبادئها، بينما حُلَّت هذه العقدة بالنسبة للكاثوليك بتوسيع قاعدة «الخلاص» وإنْ بصورة جزئية، وربما مؤقتة.

٢ ـ أن مجلس الكنائس العالمي لا يتمتع بالمركزية في صنع «القرار»، كما المجامع الكاثوليكية، فكنائسه المتعددة والمتباينة حرةٌ في اتخاذ ما تراه مناسبًا، وليس للمجلس صفة الإلزام، بخلاف الصبغة الكهنوتية لمجامع الأساقفة الكاثوليك، الذي يعتقد الكاثوليك أنفسهم أنها موجهةٌ ومُلهَمة من الروح القدس[٢]، ومن ثم فقراراتهم معصومة مقدَّسة، وبالتالي فالمعارضة داخل الأسرة الكاثوليكية تتعثر بالحرج الديني من جهة، والخوف من النبذ والفصل

(١) سيأتي تفصيل لهذه المبادرات في فصل «المحاولات الجماعية للتقريب بين الأديان» من الباب الثاني.
(٢) راجع التمهيد، مبحث «الكتب المقدسة عند النصارى» (٧١ ـ ٧٧).

من سلك الكهنوت، حيث إن «سر السيامة» أصلًا من اختصاص الأساقفة[١].
ومن ثم يحتاج الأمر إلى درجة عالية من الذكاء، والحيل اللفظية، للالتفاف على القرارات المجمعية، بينما يتمكَّن البروتستانت والإنجليكان والكالفينيون من الصدع بآرائهم، مستندين إلى سلطة الكتاب المقدس مباشرة، دون وسائط كهنوتية.

لقد تبلور داخل أروقة مجلس الكنائس العالمي ثلاثة تيارات:

(١ ـ التيار الحصري الضيق: وهو الأكثر قوة وسيطرة؛ إذ إنَّه يستند إلى القناعة الثابتة بأن يسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص.

٢ ـ الاتجاه الاشتمالي الاحتوائي:... وقد قال أتباع هذا التيار... بتأكيد الوجود والنشاط الخلاصي لله في جميع الأديان، وفي نفس الوقت بالتجلي أو التجسد الكامل والنهائي لله في يسوع المسيح وحده... والمسيحية... فريدة ونهائية، ولكن هذا لا يعني أن أعضاءها وحدهم يستطيعون أو يستحقون الخلاص، إنها الطريق العادية نحو الخلاص، مع وجود طرقٍ «غير عادية» ظاهرة في العالم، وناجمة عن القوة الخلاصية ليسوع المبثوثة في التاريخ البشري.

٣ ـ تيار التعدُّدية: أتباع هذا التيار لا يرون في المسيحية الطريق الوحيد للخلاص، ولا يعتبرون أنها تشتمل وتحتوي وتكمل بقية الديانات، بل يؤمنون بتعدُّد طرق الخلاص)[٢].

وبين قُطْبَيْ رحى الحصرية Exclusivisme والاحتوائية Inclusivisme تطاحنت مختلف التيارات، وطوال نصف قرنٍ منذ تأسيس المجلس عام ١٩٤٧م، حتى الآن لم يصدر عن جمعيته العمومية، أو لجنته المركزية، أو الوحدة التي أنشأها

(١) راجع التمهيد، مبحث «الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارىٰ»، «الأسرار السبعة» (١٠١ ـ ١٠٢).
(٢) الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة (١٦٤ ـ ١٦٧)، وانظر: الحوار المسيحي ـ الإسلامي في الواقع والرؤية، د. طارق متري، في كتاب: المسيحية والإسلام مرايا متقابلة (١٨٠ ـ ١٨٢).

للحوار مع أصحاب العقائد والمثل الحية، قرار ذو صفةٍ عقدية يؤيد التقارب أو ينفيه، وذلك بسبب التجاذبات المختلفة بين أجنحة المجلس ومنظِّريه، وإنما ظهر تنوع المواقف حيال قضية الحوار، بصرف النظر عن وجود مسوغٍ عقدي له، ويمكن أن نميز ثلاث مراحل:

١ ـ المرحلة الأولى: مرحلة الدراسة، وقد ابتدأت في وقتٍ مبكر إثر انعقاد المجلس عام ١٩٥٥م، حيث شكل مشروعًا دراسيًّا بعنوان: «كلمة الله والأديان الحية للبشر»، استمر حتى مطلع السبعينيات، وكانت حصيلته الدعوة إلى الانفتاح والحوار مع الإسلام، ومجاراة ما كان سائدًا في النصف الثاني من الستينيات إثر المجمع الفاتيكاني الثاني، وكانت ذروة هذه المرحلة مؤتمر «كارتيني» عام ١٩٦٩م، الذي رأى ضرورة الحوار لحمل الديانتَين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم، وفي ذات العام أنشئت وحدة الحوار.

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة التجربة العملية: وقد استهلت بإصدار الإرشادات لشرح سياسة وحدة الحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية عام ١٩٧١م، وفيها يوصف الحوار بأنه اضطراري ومستعجل ومملوء بالفرص، ومع ذلك يعترف المجلس أنه لا يوجد لديه رأي موحَّد، وأن ممارسة المجلس للحوار مغامرة.

وقد استغرقت هذه المرحلة عقد السبعينيات تقريبًا، فقد نشط المجلس في تفعيل قضية الحوار على مستويات عالمية وإقليمية، وطرح موضوعاتٍ متنوعة تمس الاعتقاد والعبادة، والدعوة والتبشير، واهتم بتأهيل وتدريب متخصِّصين في الحوار.

وفي ذات الوقت كان المجلس يقوِّم بشكل مستمر تجاربَه في كل مؤتمر يضم كنائسه المتعددة، في أديس أبابا عام ١٩٧١م، ونيروبي عام ١٩٧٥م، وشيانغ ماي عام ١٩٧٧م.

٣ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة حوار البشارة: تبتدئ هذه المرحلة عام ١٩٧٩م، إثر صدور إرشاداتٍ بشأن الحوار في اجتماع اللجنة العامة للمجلس في

جامايكا، فقد عُرِّف الحوار بأنه ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات، بل أسلوب حياة للإيمان النصراني، مرتبط بالجيران، يؤدي فيها المُحاور الشهادة، ويتذرَّع بجميع الوسائل الحديثة للوصول إلى مستمعيه.

ومن ثم فقد انحسر عدد المؤتمرات التي يرعاها المجلس بين الأديان بصورة ملحوظة إلى حد إلغاء وحدة الحوار، وإدراجها ضمن إطار العلاقات الدولية للمجلس، فقد استفرغ المجلس وُسْعَه في السعي لاستغلال الحوار ـ من حيث هو حوار ـ للتنصير، فلم يأتِ بطائلٍ يُرضِي طموحه، فاستبقى الاسم ستارًا لمشاريعه، وفرَّغه من المضمون.

المبحث الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب

كان بعض الأفراد والقبائل العربية يدين بالنصرانية قبل بعثة النبي ﷺ، ورغم أن معظمهم قد اعتنق الإسلام عبر القرون، إلا أنه قد بقي بقية أصرَّت على عقائدها السابقة إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى أعراقٍ أخرى «استعربت» إبان الفتح الإسلامي المحمول باللسان العربي، كالقبط، والأنباط، والبربر، والأكراد، وغيرهم، فصاروا جزءًا من المجتمع العربي رغم تمسُّك بعضهم بدياناتهم، واعتُبِرُوا «أهل ذمة» على نحو ما أوضحنا في «التمهيد» من الناحيتين الفقهية والتاريخية.

يقول السيد محمود شكري الآلوسي[(١)] رحمه الله في «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»: (وصنفٌ منهم على دين النصارى، فقد كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكأنهم تلقَّوْا ذلك عن الروم، فقد كان العرب يُكثِرون التردُّد إلى بلادهم للتجارة، وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم «العِباد» بكسر العين وتخفيف الباء... وكان بنو تغلب أيضًا من نصارى العرب، وكانت لهم شوكة وقوة يد، وقد صالح عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(٢)] في أيام خلافته على ألا يغمسوا أحدًا من أولادهم في النصرانية... وكان أهل نجران أيضًا من نصارى العرب)[(٣)].

---

(١) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني، أبو المعالي (١٢٧٣ ـ ١٣٤٢هـ): مؤرخ عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلىٰ الإصلاح، وُلِد في رصافة بغداد، وأخذ العلم عن أبيه وعمه وغيرهما، وتصدر للتدريس في داره وفي بعض المساجد، وحمل علىٰ أهل البدع في الإسلام، برسائل، فعاداه كثيرون وسعوا به لدىٰ والي بغداد..، توفي في بغداد، وله اثنان وخمسون مؤلفًا، منها: أخبار بغداد، وتاريخ نجد، وغاية الأماني في الرد علىٰ النبهاني. انظر: الأعلام (٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) هكذا في الأصل، ولعل صواب العبارة: (وقد صالحهم....) أو (وقد صالحوا...).

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الآلوسي، شرح وتصحيح وضبط: محمد بهجة

وقبل الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان لدى النصارى العرب القاطنين بين ظهراني المسلمين العرب نُلقي نظرة سريعة على ما آل إليه حالهم في العصر الحديث:

لقد كان «الرابح الأول» من المتغيرات السياسية مطلع القرن العشرين الميلادي هم النصارى العرب، فقد شهد اضمحلال الدولة العثمانية الممثِّلة للرابطة الدينية الإسلامية، التي تَعتبر اليهود والنصارى المقيمين تحت ولايتها «أهل ذمة»، على ما اعترى هذه القضية من مساومات وتنازلات في العقود الأخيرة من العهد العثماني، كما أن النصراني العربي كان «الربيب المدلَّل» للدول الغربية الكبرى التي تبحث عن موطئ قدم في أراضي الإمبراطورية العثمانية الشاسعة، تمهيدًا لتقاسُمها بعد وفاة الرجل المريض، فحَظِيَت الطوائف النصرانية المختلفة بحماية وعناية الأسياد، الذين قاموا بتعليم أبناء تلك الطوائف العلوم العصرية، وتأهيلهم للأدوار القيادية في المنطقة، وكان لا بد من ملء الفراغ الفكري الذي خلَّفه سقوط الخلافة العثمانية بفكرة جديدة مناسبة، فلا غرو أن كان رُوَّاد فكرة القومية العربية من النصارى العرب.

ولا ريب أن النصارى العرب في القرن العشرين قد تبوءوا منزلةً ونفوذًا لا يتناسب قطعًا مع تمثيلهم السكاني، الذي أخذ في الازدياد بفعل تمكين الاستعمار الغربي لهم في المنطقة.

(... وتستفيد الديموغرافيا[1] المسيحية من هذا الوضع الملائم، ويصل ثقلها إلى أوج لم تعرفه قط منذ زمن الحملات الصليبية: ٢٦,٤٪ من سكان الشرق الأدنى «سوريا ولبنان وفلسطين في عام ١٩١٤» و٨,٠٪ في مصر، ولكن

الأثري، المكتبة الأهلية ـ مصر، الطبعة الثانية (١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م)، (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).

(١) الديموغرافيا Demography: (الدراسة الإحصائية للسكان من حيث المواليد والوفيات والصحة والزواج..، إلخ) المورد (٢٦٠).

مجرد ٢,٢٪ في العراق...)[١]، كان ذلك في مطلع القرن العشرين؛ حيث نعم النصارى بالمزايا السياسية والاقتصادية والصحية التي قدَّمها الانتداب الفرنسي والإنجليزي لهم، في مقابل التدهور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والصحي الذي عاناه المسلمون في تلك الحقبة، كما تكشف عنه جداول وفيات الأطفال المقارَنة إذ ذاك[٢].

ولكن السنن الإلهية في الكون سرعان ما تعيد الأمور إلى نصابها، أو قريبًا منه، فتنحسر الجماعات النصرانية و(تهبط نسبتها: ١,١٠٪ في مجمل الشرق الأدنى «لبنان، سوريا، إسرائيل [فلسطين المحتلة]، الأردن» في عام ١٩٩٠، ٨,٥٪ في مصر، ولم يكن ذلك نتيجةً لأي عنف، بل نتيجةً للتفاعل الحر للقوى الديموغرافية)[٣].

ويصوِّر الأمير الحسن بن طلال في كتابه الصادر عام ١٩٩٥م بعنوان «المسيحية في العالم العربي» وضع المسيحيين في العالم العربي المعاصر بقوله: (لا يزال للمسيحية، بمختلف طوائفها، وجود ملحوظ في العالم العربي اليوم، في مصر والعراق، كما في الأردن ولبنان وسورية، إضافة إلى العرب المسيحيين في فلسطين، وإسرائيل، ولا يوجد مسيحيون محليون في الجزيرة العربية، ولا في البلاد الأفريقية إلى الغرب من مصر؛ إذ إن جميع المسيحيين في المناطق المذكورة هم من المغتربين العرب أو الأجانب، وتوجد فئة كبيرة من المسيحيين المحليين في السودان، لكنها ليست من أصلٍ عربي، بل إفريقي، وهي محصورة في أغلبيتها في الأجزاء الجنوبية من البلاد.

والإحصاءات المتاحة لأعداد المسيحيين في العالم العربي المعاصر تتفاوت بين رقمٍ مبالَغ فيه، وعددٍ متحفظٍ إلى حد إطلاق النذير بقرب زوال المسيحية

---

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٦٢).
(٢) انظر: المرجع السابق، الجداول (٥، ٦، ٧، ٨) الملحقة بالفصل الثامن.
(٣) المرجع السابق، (٢٦٢).

من بين العرب، ولعل الرقم التقديري المعقول لمجموع المسيحيين في البلاد العربية هو عشرة ملايين، يتوزَّعون على الأقطار المختلفة على النحو الآتي «متبوعًا بالنسبة المئوية التقديرية لمجموع السكان في كل قطرٍ بين قوسين»:

١ ـ في مصر ستة ملايين (٥ , ١٢ بالمئة)[١].

٢ ـ في لبنان مليونان (٤٠ بالمئة حسب التقدير الرسمي).

٣ ـ في سورية نصف مليون تقريبًا (ربما ستة بالمئة).

٤ ـ في العراق نصف مليون (حوالي ٣ بالمئة).

٥ ـ في الأردن وبين عرب فلسطين وإسرائيل نصف مليون مقسم بالتساوي تقريبًا بين أردنيين وفلسطينيين (٦ بالمئة في كلا الحالين).

هذه الأعداد الضئيلة نسبيًّا للمسيحيين في العالم العربي المعاصر لا تعادل إطلاقًا الأهمية التي يتميز بها حضورهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وحضورهم السياسي في بعض الحالات في الأقطار التي ينتمون إليها، بل وفي المجتمع العربي قاطبة)[٢].

ومع تراجُع الفكر القومي العربي، وتَنامِي الصحوة الإسلامية في الثلث الأخير من القرن العشرين، وتفعيل قضية الحوار الإسلامي النصراني مع العالم الغربي، تعود حالة الشعور بالقلق تجاه المستقبل، ومحاولة البحث عن سياق إلى الجماعة النصرانية العربية، لقد كانت «القومية العربية» توفِّر لهم الإطار المناسب الذي ينضوون تحته دون أن يلحقهم تمييز بسبب مخالفتهم دين الأغلبية، ولكن أعلام القومية نُكِّسَت منذ هزيمة القوميين العرب أمام إسرائيل، هزيمة نكراء عام ١٩٦٧م، وسرى في عروق الأمة روح العودة إلى الإسلام،

---

(١) يلاحظ الفرق الكبير في تقدير نسبة الأقباط مع الإحصاءات التي أوردها فيليب فارج ويوسف كرباج لعام ١٩٨٦م حيث بلغ عددهم ٢ , ٨٢٩ , ٣٤ أي بنسبة ٥ , ٨٧٪ من مجموع السكان!

(٢) المسيحية في العالم العربي (١٢٩ ـ ١٣٠).

واستنهاض العقيدة الإسلامية، وتنامت الصحوة الإسلامية في الأوساط الشعبية بشكل أثار مخاوف أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

وفي نفس الوقت نشطت حركة التقريب بين الأديان عمومًا، وبين دين الإسلام والنصرانية خصوصًا، على المستوى الرسمي والأهلي مع الغرب النصراني.

فما هو موقف النصارى العرب من هذه القضية تحديدًا؟

سنحاول تبيُّن ذلك من خلال بعض الكتابات الصادرة عن الزعامات الدينية لطائفتي الأرثوذكس والكاثوليك العرب في بلاد الشام، وطائفة القبط في مصر، ثم نختم ببيان حقيقة التقريب لدى بعض الجدليين من النصارى العرب.

أولًا: الأرثوذكس العرب:

ويُعرَفون بـ «الروم الأرثوذكس»، ويبلغ مجموعهم في البلاد العربية مليوني نسمة تقريبًا، معظمهم في سورية، وهم ثاني أكبر طائفة نصرانية عربية بعد الأقباط في مصر[(١)].

يقول المطران جورج خضر، رئيس أساقفة جبل لبنان للروم الأرثوذكس: (أنا أفهم بسببٍ مِن ظُلم التاريخ أن تتجه أنظار المسلمين إلى مسيحيي الغرب إذا أرادوا مخاطبة المسيحية، فعند أهل الغرب القرار السياسي، وعندهم الثروة التي تستثمر ثروات الشعوب المستضعَفة، ولكن الحوار لا يكتمل ما لم يجر مع مسيحيي الشرق الذين ذاقوا القهر إلى جانب المسلمين، ويمتاز حوارهم في أنه غير مرتهن للقوة، وفي أنهم ساهموا إسهامًا فريدًا كبيرًا بنهضة الشعوب العربية منذ القرن الأخير، واعتبروا الإسلام جزءًا من تراثهم القومي، ولم يكتفوا بتذوق حضارته، ولكنهم أحسوا أنهم منها، إن الإنسان إن لم يكن في موقع القوة قد يكون أكثر صفاءً إن هو حاوَر، وما من ريبٍ أن المسيحيين العرب يتحسَّسون

(١) المسيحية في العالم العربي (١٣٠).

الشدائد الواقعة على المسلمين؛ لأنها واقعة على الناس جميعًا، إن انخراط المسيحيين في القضية العربية بالصدق والزخم اللَّذَيْن عَرَفنا عاد بالخير العميم على المسلمين لكونهم غالبية العرب.

المسيحيون العرب يُحِسُّون بتهميش إذا انحصر الحوار المسيحي ـ الإسلامي بالتلاقي بين المسلمين وأهل الغرب)[1].

إن المطران خضر يُعرب هنا عن أسفه وعَتْبه أن يولِّي المحاورون المسلمون وجوههم شطر الغرب النصراني، غير آبِهين بمواطنيهم من النصارى العرب، ويرى أن الحوار بهذه الصيغة لا يكتمل، أما المسوغات التي يمتاز بها المحاور النصراني الشرقي (العربي) ـ من وجهة نظره ـ فهي كالتالي:

١ ـ أنه لا يحاور من موقع القوة، أي قوة القرار السياسي الغربي، وبالتالي فالحوار أكثر صفاءً لكونه غير مرتهن.

٢ ـ الاشتراك في المُلِمَّات والشدائد التي حاقت بالمنطقة وألَمَّت بمسلميها ونصرانييها.

٣ ـ الدور المتميز للنصارى العرب في نهضة مواطنيهم المسلمين في هذا القرن.

٤ ـ اعتبار النصارى العرب الإسلامَ جزءًا من تراثهم القومي، وتفاعلهم معه.

٥ ـ وأخيرًا تبنِّيهم القضية العربية ـ وأحسبه يقصد قضية فلسطين خاصة ـ بصدق.

وهذه الدعاوى متعقَّبة بما يلي:

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة في الراهن والمستقبل من كتاب العلاقات الإسلامية ـ المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، مجموعة من المفكرين، المشرف علىٰ المشروع: سمير سليمان، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق ـ بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٤م، (٢١٠ ـ ٢١١).

أولًا: أن الطرف النصراني العربي طالما اتخذ من موقعه الضعيف مدعاة لتدخل النصراني الغربي في أرض الإسلام قديمًا وحديثًا، وتواطأ مع الأجنبي من أبناء مِلَّته ضد مواطنيه المسلمين، بل وحوَّل الحوار الذي يصفه المطران جورج خضر بالصفاء وعدم الارتهان إلى ورقة ضغط يلوح بها الأجنبي بإيعاز من حليفه الداخلي.

يقول الدكتور طارق متري ـ وهو أرثوذكسي أيضًا ـ واصفًا موقف بعض النصارى العرب: (.. يأخذ بعض المسيحيين العرب على الحوار «مثاليته»، وابتعاده المفترض عن قضاياهم الحياتية الحرجة، وقد ذهب نفر منهم، لبناني خصوصًا، إلى حد الامتعاض من النظر إلى بلادهم بوصفها مختبرًا للعلاقات المسيحية الإسلامية، غير أنهم فيما ينتقدون الحوار يعملون على الإفادة منه، وعلى طريقتهم، فيتوسَّلون الاهتمام المسيحي العالمي بمحاورة المسلمين ليذكِّروه بواجبه التضامني مع إخوانهم في الدين، وخير مثل نضربه على ذلك دعوة توجه إلى المسيحيين الغربيين لكي يُصِرُّوا لدى المسلمين على مبدأ المعاملة بالمثل حين يتعلق الأمر بأوضاع الأقليات الدينية)[1].

ثانيًا: أما دعوى الشراكة في القهر والشدائد الواقعة على الناس جميعًا فغير مسلَّمة بإطلاق، لا في تاريخ الحروب الصليبية، ولا الاستعمار الحديث.

ثالثًا: ونختلف مع المطران جورج خضر في مفهوم «النهضة» التي نسبها إلى نصارى العرب في هذا القرن، فإنَّا نعتقد أن الدور الذي قاموا به كان تغييبًا للأمة الإسلامية عن دورها وهويتها ورسالتها التي جاء بها نبيها الكريم ﷺ، وأن القوم كانوا جسرًا للغزو الفكري الغربي، وبَثِّ الأفكار العلمانية والإلحادية في جميع المرافق التعليمية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا تزال الأمة تتجرَّع غصَّات ذلك الأثر السيئ، وتجتر عواقبه الوخيمة.

---

(١) المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٧).

رابعًا: وكثيرًا ما يتملَّق بعض النصارى العرب المسلمين باعتبار الإسلام تاريخهم الثقافي وحضارتهم، وإن لم يكونوا مسلمين، وربما أعجبت هذه المقولات بعض المسلمين فردَّدها واستشهد بها، ولعمر الله إنها تحمل في ثناياها من الطعن والإزراء بدين الإسلام ما يتضاءل ما يبدو إلى جوارها من ثناء وإطراء ظاهري؛ إذ ما دام الأمر كذلك فما الصارف لهم عن اعتناق الإسلام وقبوله؟ أم هو لحن قولٍ من جنس قول أسلافهم من أهل الكتاب: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

وخامسًا: أي منَّة يُدِلُّ بها النصارى العرب بانخراطهم في القضية العربية حتى عادت بالخير العميم على المسلمين، على حد تعبير المطران خضر؟

أي فتح مبين، أو نصر مؤزَّر جلبه هؤلاء إلى الأمة الإسلامية بتصريحات قومية صحفية في بعض المحافل والمنتديات يدلي بها بعضهم، حتى إذا ما ادْلَهمَّ الخطبُ -كما في الحرب الأهلية اللبنانية- تنكَّروا للمبادئ، وحالفوا اليهود وأعداء الأمة العربية ـ كما كانوا يعبِّرون ـ وركنوا إلى أبناء مِلَّتِهم ضاربين عرض الحائط بالشعارات المصلحية الوقتية، فما الذي جنته شعوب المنطقة الإسلامية بتظاهر هؤلاء بنصرة القضية سوى اختلاط الرايات العمية في قضية إسلامية صِرفة، وعزل الأمة العربية عن عمقها الإسلامي، وتغذية النعرات القومية الإقليمية، وحل الرابطة الإسلامية، ومن ثم عدم توافر أسباب النصر، وتلاحق الهزائم.

تلك مناقشة لدعوى الدور المتميز لنصارى العرب في قضية الحوار الإسلامي النصراني، كما صوَّره المطران الأرثوذكسي جورج خضر، فماذا عن الحوار نفسه والعلاقة بين الديانتين كما يراها هو أيضًا؟.

كتب المطران خضر في جريدة النهار البيروتية، يوم الأربعاء ١٢ تموز ١٩٧٢م، بمناسبة انعقاد مؤتمر «برمَّانا» للحوار الإسلامي النصراني ما نصه:

(كل حديث عن وحدة الديانتين كما نعرفهما حقًّا إنما هو حديث مجاملة،

ولا يقول به رصين، فالله الواحد الذي نعبده نختلف في صفاته اختلافًا بيِّنًا، ولا الإنسان، موصوفًا هنا وهناك واحد، ولا العلاقة بين الله والإنسان واحدة، ولا مفهوم الوحي يجمع، وأهم ما في الأمر أن المسيحية التي يصفها القرآن لا يعرفها المسيحيون على أنها دينهم، وعندهم أن الرسالة الإنجيلية نهائية، وأنها جوهريًّا قائمة في الكنيسة، فلا الصلب ولا بنوة المسيح لله مقبولة عند المسلم في حال.

ولا ريب أن ما يغري المسيحيين في الإسلام جانبه الروحي، ولا سيما تراث الصوفية، ولكن بعامة لا تنقاد إليها جمهرة المسلمين، ويأباها علماؤهم، زد على ذلك كله أن منهج النقد الأدبي والنقد التاريخي الذي يستعمله اللاهوتيون المسيحيون في دراسة الكتاب المقدس، يرفض علماء الإسلام تطبيقه على القرآن)[1].

بهذا الوضوح يدرك المطران جورج خضر، الذي (وُلِد بطرابلس الشام، وترعرع فيها بين المسلمين، واكتسب من هذه النشأة، ومن دراساته معرفة حميمة بالإسلام والمسلمين)[2]، يدرك الفرق الجذري بين أصول الديانتين، وأن الحديث عن وحدة الديانتين ضربٌ من المجاملة، ولا يقول به رصين، بل إنه يحرص في كتاباته على إبراز الفروق العقدية بين المسلمين والنصارى، ويتفنَّن في العرض لكي يمحص بين ما يمكن أن يتناوله الحوار وما لا يقبل الحوار، فيقول:

(.. إن المسيحي يؤمن بأن المسيح في قوله على الصليب: «قد تم» أبان أنه خاتم النبيين جميعًا، من حيث إنه حقَّق في ذاته، وفي كمال محبته وُعودَ الله كافة، وكشف عمق العلاقة القائمة بين الله والإنسان، فلا مكانة لمستزيد أو تنقيح أو

---

(١) مواقف أحد، (٧٤)، إصدار: دار النهار للنشر.

(٢) جورج خضر والحوار الإسلامي ـ المسيحي.. مقاربة لاهوتية، جورج مسوح، مجلة الاجتهاد ٣١، ٣٢/ ٢١٧.

توضيح أو رسالة جديدة، والمسيحي يؤمن أننا مع السيد بتنا في «ملء الزمان» (غلاطية ٤:٤)، وأنه لا ينتظر إلا حضور المسيح ثانية في اليوم الأخير، وإن امتد بين الحضور الأول في تجسد الكلمة، والحضور الثاني حياة إلهية في الكلية فهي حضرة الباراقليط المعزي «المنبثق من الأب» (يوحنا ١٥:١٦)، الذي لا يحتمل الإنجيل فيما يصفه به أن يكون بشرًا، لكونه روح الله نفسه، فإذا كانت الرسالة الإنجيلية نهائية، كاملة المضمون فلم الحوار؟

ما لا يمكن المسلم تجاوُزُه هو أن محمدًا خاتمة النبيين، بمعنى أنه صاحب رسالة جديدة، تقيم الإنجيل، وتعتبر نفسها مؤيِّدة له، ولكنها تأتي بأحكام جديدة وتقول: «لكل أمة رسول»، تنقِّح المسيحية القائمة، ولا تنقِّح الإنجيل الذي أُنزل على عيسى، بل تريد المسيحيين أن يعودوا إليه، والقرآن عودة إليه، وهو فحواه الحق، ذلك أن عيسى كان مسلمًا حنيفًا كما كان إبراهيم، وهو عبد الله ورسوله، ومخلوق كما خُلِق آدم، وتُنكر إلهية عيسى، وتاليًا تنكر التجسُّد، كما تنكر الصلب الذي هو محور المسيحية المعروفة، ولعله مضمونها كلها بما كان التعبير عن المحبة الإلهية، وبما آل إليه من قيامة المخلِّص، «وإن كان المسيح لم يقم فتبشيرنا باطل، وإيمانكم أيضًا باطل». (١كورنثوس ١٤:١٥).

فكيف التوفيق، وكل توفيق يبدو هنا تلفيقًا، والحوار بادئ ذي بدء مرفوض بسببٍ من أصالة المسيحية وأصالة الإسلام؟ فنحن أمام منظومتَين، ليست واحدة منهما قابلة للاختراق أو للتكامل، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فإذا كانت الرسالة أكملت بآخر التنزيل القرآني يكون هذا مناقضًا لقول السيد على الجلجلة «قد تم» يوحنا (١٩:٣٠)[1].

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل من العلاقات الإسلامية المسيحية.. قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٣)، والجلجلة: اسم تلة صغيرة قرب أسوار بيت المقدس، جرئ عليها الصلب في زعمهم. انظر: العهد الجديد (٣٥٤).

لقد أفصح المطران خضر عن حقيقة التبايُن والتقابل بين العقيدة الإسلامية، واللاهوت النصراني المحرَّف، الذي عليه نصارى اليوم، وكان محقًّا في أن أي محاولة للتوفيق لا تعدو أن تكون تلفيقًا، فما هي حقيقة الحوار الذي يدعو إليه المطران بصفته الشخصية، ويحضر مؤتمراته بصفته الكهنوتية؟ إنه يصوغ السؤال ويجيب عنه قائلًا: (غير أن السؤال الذي يفرض نفسه هو كيف يمكن للمؤمن أن يتقبَّل المسألة في أهم ما عنده في الوجود؟ بعض من جواب عن هذا هو أن ثمة تمييزًا بين دينيٍّ من جهة وتاريخيٍّ من جهة أخرى، فالتاريخ مليء بالخطايا ومليء بالظلم، وأنا أتباعد عن تاريخ ديانتي بقدر ما كان قهارًا، أنا تجاه المسلم في حالة استغفار؛ لأن المسيحيين هدروا دمه واضطهدوه، ويقمعونه هنا وثمة في احتلال بلاده، وكل احتلال إذلال، وأتمنى إن أنا تواضعت أمامه أن يمتحن هو قلبه ليرى ما إذا فعل مثل هذا، هو يسوق نفسه إلى محاكمة تاريخه)[1].

هذا ـ بحدِّ ذاته ـ هدف واضح لتسويغ الحوار والتقارب رغم الاختلاف التام في الاعتقاد، إنها دعوة إلى مصالحة تاريخية، واعتذارٌ عن مظالم الماضي فقط دون المساس بالعقائد الخاصة، وهذا مفهوم، غير أن المطران خضر يتمادى فيخلط بين ما هو «تاريخي» وما هو «ديني»، فيقول: (بعضٌ آخر من الجواب أن ثمة بَوْنًا بين الوحي وتفسيره، فالمفسِّرون كلهم بشر، وبينهم تبايُن، واللاهوتيون وعلماء الكلام والفقهاء بشر، ما جانِبُ الإلهية في ما أتوا به؟ وما جانِبُ الناسوتية المعرض للزَّلَل؟)[2].

لقد حام المطران حول الحمى، ثم وقع فيه حين قال: (الحوار ليس اختراق الأنظومتين الإسلام والمسيحية، ولكنه اختراق ميراثَيْن تاريخيَّيْن بما يتضمنان ما حُسِب خلافًا، وما كان بخلاف، فهل صحيح مثلًا أن الإنجيل محرَّف؟...

(١) المرجع السابق، (٢١٢).
(٢) المرجع السابق، (٢١٢).

مَن هم هؤلاء النصارى الذين يذكرهم القرآن وينسب إليهم ما ينسب من عقائد؟ هل كانوا أسلاف المسيحيين المعروفين اليوم؟... إذا صحت نظريتنا يكون مسيحيو اليوم غير معنيين بما يقوله القرآن عن النصارى إلا بما كان مشتركًا بينهما... ليس هذا مفهوم بنوَّة المسيح لله عند المسيحيين... الثالوث الذي يرفضه القرآن هو غير الثالوث الذي تقول به الكنيسة، ونرى أنفسنا بالتالي في حربٍ لا مسوِّغ لها.

لقد أتيت مستفيضًا على كل ذلك ليس مناظرًا للمسلمين، ولكن استدلالًا على أن البحث التفسيري في القرآن ممكن وروده على غير الطرق المألوفة دون تخطئة القرآن، ولعل المسلمين مدعوُّون للحديث عن المسيحية كما تتحدث هي عن نفسها، وقد أخذت تَعِي كتبها من منظار نقدي تاريخي منذ ثلاثة قرون، غير خارجة بذَا عن تاريخ آبائها الذين قارَبُوها هم أيضًا من منظار تاريخي فيه الكثير من النقد التاريخي والحضاري، ولعل المسلمين مدعوُّون أيضًا أن يبحثوا في القرآن من هذا المنظار، بعد أن تعلَّموا منهج العلوم النقدية وطبَّقوها على الكتاب المقدَّس، فإذا ما سوَّغوا لأنفسهم البحث في العهدين القديم والجديد، كما يبحث في ذلك الألمان ومَن اتبعهم من أهل الغرب والشرق فلماذا لا يسوِّغون لأنفسهم استعمال الأسلوب نفسه في الأبحاث القرآنية دون أن ينكروا الوحي القرآني؟)[1].

● وعلى هذه الدعاوى السابقة التعقيبات التالية:

أولًا: لقد وقع المطران خضر في تناقضٍ فاضح، فبينما يقرِّر مرارًا أن (كل حديث عن وحدة الديانتَين كما نعرفهما حقًّا إنما هو حديث مجاملة ولا يقول به رصين)[2]، ويتساءل بصدق: (كيف التوفيق وكلُّ توفيق يبدو هنا تلفيقًا، والحوار بادئ ذي بدء مرفوض بسبب من أصالة المسيحية وأصالة الإسلام؟

(١) المرجع السابق، (٢١٢ ـ ٢١٨).

(٢) مواقف أحد (٧٤)، تقدم النص كاملًا (٤٣٤).

فنحن أمام منظومتَين ليست واحدة منهما قابلة للاختراق أو قابلة للتكامل)[١].

نجد أن المطران الرصين قد شرع في محاولة الاختراق لأمهات القضايا التي نصبها بنفسه أمثلةً للتقابل والمناعة، وهي إنكار القرآن لعقائد التثليث والبنوة والصلب وختم النبوة بالمسيح.

ثانيًا: حاول المطران خضر أن يسلخ المعتقدات الإسلامية الآنفة الذكر من أصولها القرآنية، ويُلبِسها ثوب التراث التاريخي الذي شَكَّلَهُ في زَعْمه المفسِّرون والفقهاء، ببساطة متناهية، وتأويلات متهافتة[٢]، ولكنه لم يلتفت للتراث التاريخي الذي خلَّفه اللاهوتيون وآباء الكنيسة، ولم يَشْرَع في اختراقه ـ على الأقل، من باب المعاملة بالمثل ـ وقصارى الأمر أن اكتفى بالاعتذار عن المظالم التاريخية فقط، وتمنَّى أن يعامَل بالمثل.

ثالثًا: كيف يطالب المطران خضر المسلمين ـ وحاشاهم ـ بإخضاع القرآن الكريم لمعاول النقد التاريخي التي أهوى بها المستشرقون والملحدون والزنادقة على كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]، بل ويعتبر ذلك من مقتضيات الحوار، فيقول في مقالة نشرتها جريدة النهار البيروتية في ١١/ ١/ ١٩٩٢م، تحت عنوان «هل من حوار إسلامي مسيحي؟»: (الحوار يقتضي منهجًا أكاديميًّا صارمًا، ولست أرى أسلوبًا له سوى النقد التاريخي الذي يقرأ كل كتاب ـ بما في ذلك الكتب المقدسة ـ على الخلفية التي ظهر منها)[٣].

ولئن ارتضى نصارى اليوم، ومنهم أسقف جبل لبنان للروم الأرثوذكس نقد ما يزعمونه كتبًا مقدسة إلهية عندهم، لإدراكهم التام أن أيدي العبث والتحريف نالت منها، ولا أدلَّ على ذلك من تبايُن نُسَخِها وتعدُّدها، بل واضطرابها

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، (٢١٣) تقدم النص كاملًا (٤٣٦).

(٢) المرجع السابق، (٢١٥).

(٣) عن مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٢٢١).

وتناقضها[١]، لئن سوَّغوا لأنفسهم ذلك فإن المسلمين ـ بحمد الله ـ لم ولن تهتز ثقتهم وإيمانهم بسلامة القرآن من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل؛ لِمَا تحقَّق له من أسباب السلامة والصيانة والحفظ التي يستحيل معها وقوع تغيير أو تحريف؛ تحقيقًا لوعد الله القاطع بحفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

والمطران خضر يدرك هذه الحقيقة جيدًا، فقد قطع الله طمع كلِّ مُغرِضٍ يطمح إلى التشكيك في سلامة النص القرآني، ولكنه يحتال على ذلك بدعوى البحث التفسيري على غير الطرق المألوفة دون تخطئة القرآن، على حد تعبيره، ولا يخفى على مسلم يقرأ القرآن أن المسائل التي ينازع فيها المطران خضر قد وردت في القرآن في عدة مواضع صريحة واضحة لا تحتاج إلى تفسير مفسِّر أو تفصيل فقيه، كما أن مَن لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم] قد أكَّد ما جاء به القرآن في سُنَّتِه القولية والعملية[٢].

وحسب المطران خضر وأمثاله من نصارى العرب المنادين بالحوار أن يكتفوا بالدعوة إلى الاعتذار عن مظالم التاريخ، وأن لا يستزلَّهم الشيطان ـ وقد فعل ـ إلى المساس بالعقيدة الإسلامية المتينة، وخير لهم أن يُمعِنوا بإخلاص في نقد كتبهم المقدسة علَّه يتبيَّن لهم ما داخلها من وثنية الرومان واليونان، ويعودوا إلى التوحيد الحق الخالص الذي كان عليه عيسى عليه السلام، وجاء به عبد الله ورسوله محمد ﷺ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

تلك نظرات كبير من أساقفة الأرثوذكس العرب، المطران جورج خضر، في قضية الحوار والتقارب، وهو يتمتَّع بحضور قوي في المنتديات الدينية والسياسية والثقافية، ويعلن آراءه في الصحف السيارة وغيرها من القنوات

(١) راجع مبحث الكتب المقدسة عند اليهود (٣٦ ـ ٤٤)، والكتب المقدسة عند النصارى (٧١ ـ ٨١).
(٢) راجع مبحث أهل الكتاب في التمهيد.

الإعلامية، وهو يؤسِّس مشروعه في التقريب بين النصرانية والإسلام على دعوى التمييز بين ما هو ديني وما هو تاريخي، بحسبان أن الاختلافات العقدية الكبرى بين الإسلام والنصرانية مَرَدُّها إلى خطأ المفسِّرين في فهم موجبات تكفير النصارى، وفي تنزيلهم تلك الموجبات على مَن يسمِّيهم «المسيحيين».

أولًا: التثليث:

يزعم المطران جورج خضر أن التثليث المذموم في القرآن غير التثليث الذي يقول به النصارى! فيقول:

(الثالوث المنسوب إلى المسيحيين تسوده الآية الـ١١٦ من المائدة، وهذا ما فهمه تفسير الجلالين بوضوح، فعندما يورد: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء:١٧١] يوضح أن الثالوث هو الله وعيسى وأمه، ويورد في تفسير سورة المائدة الآية الـ(٧٣): ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ أن الثلاثة هي آلهة أي «أحدها الله، والآخر[١] عيسى وأمه، وهم فرقة من النصارى»، وزعم الإمام البيضاوي أن النصارى عبدوا عيسى وأمه إلهَيْن يتوصَّلان بهم[٢] إلى عبادة الله، ويكون هذا شركًا، ومن الواضح أنه اختلط عليه قضية شفاعة مريم أو توسُّلها إلى الله، وهذا ليس فيه عبادة أو تأليه، وفسَّر الإمام الرازي الآية بقوله: إن النصارى يقولون: إن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى عليه السلام ومريم، والله تعالى ما خلقهما[٣]، وبالتالي يكون عيسى وأمه إلهَيْن، ومن الواضح أن هذا ينافي كل ما ورد عند المسيحيين، فالمسيح ما كان ينسب إلى ناسوته قدرة عمل مستقلة عن الله: «أنا لا أستطيع أن أعمل من نفسي شيئًا» يوحنا ٣٠: ٥، ومن الواضح أن

(١) هكذا، والذي في الجلالين: (والآخران).
(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: يتوصلون بهما.
(٣) هكذا، والذي في التفسير الكبير: (ما خلقها).

الكنيسة لا تنسب إلى مريم، أو أولياء الله قدرة قائمة فيهم، «إلهين من دون الله» تبقى مصطلحًا من الشرك العربي أُطلِق على الثالوث المسيحي.

نحن لا نعرف إلا فِرقة ذكرها القديس أبيفانيوس القبرصي في القرن الرابع، كانت تقدِّم قرابين لمريم، ونَشتَمُّ بكثير من الغموض عند هذه الفرقة تأليهها لمريم، ولكن بعد ذلك لم يوثق استمرار هذه الفرقة في الجزيرة، ومهما يكن من أمر فالكنيسة الرسمية لم تعرف شيئًا من هذا، فيكون أن الثالوث الذي يرفضه القرآن هو غير الثالوث الذي تقول به الكنيسة، ونرى أنفسنا بالتالي في حربٍ لا مسوِّغ لها)[1].

ويبدو للوهلة الأولى أن الخلاف غير مؤثر على النتيجة، فظاهر السياق يُشعِر أن المطران خضر ينازع في تعيين أحد أركان الثالوث أهو مريم أم الروح القدس؟ بصرف النظر عما تضمَّنَه النقل من ملاحظات أخرى، إلا أنَّا نجده يؤسِّس دفاعه على فكرة غريبة مفادها أن العرب (كانوا يؤلِّهون القمر ويزوِّجونه الشمس، فتنتج الزهرة من هذه المجانسة، إنها العقيدة الوثنية المعروفة بالثالوث الكوكبي، هذا هو الشرك الذي على خلفيته يفهم العرب أن مقولة «ابن الله» مقولة جنسية: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، والشرك في أن العرب القدامى جعلوا لله بنات. النحل (٥٧) والقرآن يرفض هذا النوع من البنوة)[2].

ونجيب قائلين: إن القرآن أبطل جميع أنواع الشرك، سواءً ما كان منها

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية ـ قراءة مرجعية في التاريخ الحاضر والمستقبل (٢١٦ ـ ٢١٧)، وليس أمر اعتبار مريم أحد أركان الثالوث عند النصارىٰ بهذه الدرجة من التجاهل التي يبديها المطران جورج خضر، يقول روجيه جارودي: عندما نُبذت، فكرة أن مريم هي الشخص الثالث في الثالوث لدىٰ المسيحيين، فإن إدانة هذه العبادة «عبادة مريم» كان لها علىٰ وجه الدقة تاريخها، كان أوريجين قد هاجم هذه البدعة لدىٰ الكوليريديين، ولدىٰ شعب الأورفيت، الذي كان لا يميز مريم العذراء من روح القدس) الإسلام (١١٢).

(٢) مقالة: «هل من حوار إسلامي مسيحي؟» جريدة النهار ١١/ ١/ ١٩٩٢م.

مؤسَّسًا على فكرة جنسية وثنية، أو ما كان سوى ذلك، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على تأثُّر النصرانية المحرَّفة بالوثنية، كما أن هذا التخريج الذي زعمه المطران لا يغيِّر من أصل الحقيقة شيئًا، سواءً كان الأقنوم الثالث مريم فتتبادر فكرة الزيجة ـ تعالى الله عن ذلك ـ أو كان الروح القدس، فالكل شرك.

بقي أن نستدرك على المطران خضر ما استدركه على الإمام البيضاوي رحمه الله حين رماه بالخلط بين قضية طلب الشفاعة من مريم ودعائها، والتوسط بها إلى الله، وبين العبادة، حيث لا يرى المطران في ذلك عبادةً وتأليهًا، لكن المسلمين الموحِّدين يعتقدون أن الدعاء حق خالصٌ لله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]، وأن الشفاعة لله جميعًا، كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، فالشفاعة تُطلَب من الله تعالى، وهو سبحانه يهبها من شاء من عباده، فمن صرف الدعاء والشفاعة لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرِج عن التوحيد، وبالتالي فاتخاذ النصارى مريم رضي الله عنها إلهًا حاصل عمليًّا وإن لم يعتبروها أقنومًا، كما شدَّد على ذلك المطران خضر، واعتبره قولًا شاذًّا لفرقة مندثرة.

ثانيًا: بنوة المسيح:

يُجهِد المطران جورج خضر نفسه ـ مرة أخرى ـ في صرف دلالة القرآن عن معتقد نصارى اليوم، وما يتبع ذلك من لوازم التكفير والتضليل، فيقول: (فإذا قرأنا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم] ومثيلاتها من الآيات، وكان لنا شيءٌ من قراءة التاريخ الكنسي، لا نستطيع أن نرى هذه الآيات طاعنة بالمسيحية كما نعرفها، فهي ترفض هذا الاتخاذ، أي رَفْع مخلوقٍ إلى مصافِّ الألوهية، ولكن الاتخاذ كان بدعة معروفة بالتبنوية، وقالت بها الغنوصية التي ذهبت إلى أن الله جعل المسيح ابنه عند اصطباغه في نهر الأردن، المسيحيون ليسوا معنيِّين بهذا التكفير، وإذا قالت سورة الإخلاص عن الله إنه لم يلد ولم يولد، فالمسيحية تقول: إن الله من حيث هو جوهر إلهي لا يتجزَّأ، ولم يَلِد ولا يُولَد من سواه، وإذا أخذنا الولادة أفلا ينفيها القرآن صراحةً عن الملائكة، ويكفِّر القائلين بأنهم

بنات الله، ويكون هذا ردًّا على الجاهلية.

ينزِّه القرآنُ اللهَ عن أن يكون له ولد، ذلك لأن هذه المفردة «ولد» ذات معنى حسي، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ليس هذا مفهوم بنوة المسيح لله عند المسيحيين الذين ينزِّهون الإله غير الحسي أن يكون ذا صلة بمريم حسية، إنه مفهوم العلاقة الأزلية بين الله والكلمة، قبل اتخاذه صورة بشرية، وهذا في زعمي غير مكفَّر في القرآن لمجرد غيابه عنه)[(١)].

غير خافٍ من السياق أن المطران خضر في سبيل رفع وصمة التكفير يحاول التفريق بين مادة «الولادة» ومادة «البنوة»، في حين أن اللغة لا تفرِّق بينهما، قال الفيروزابادي[(٢)]: (الابن: الولد... وألحقوا ابنًا الهاء فقالوا: ابنة)[(٣)]، وجعل الله الأولاد شاملًا للبنين والبنات، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ها هو ذا المطران خضر في كلامه السابق يثبت نفي القرآن للولادة بنفي مقالة القائلين الملائكة بنات الله، فكذلك نقول نحن فيمن قال: عيسى ابن الله، ثم إن القرآن لم يقتصر على النكير على مَن زعم اتخاذ الله للولد، بل عبَّر صراحةً بلفظ «الابن» الذي يلتزمه سائر النصارى فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٦).

(٢) الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم، أبو طاهر، مجد الدين الفيروزآبادي، إمام اللغة والأدب، وُلِد سنة ٧٢٩هـ، بشيراز، وتنقل في البلدان حتىٰ ذاع صيته، وتوفي في زبيد سنة ٨١٧هـ. أشهر كتبه «القاموس المحيط»، «المغانم المطابة في معالم طابة»، وينسب إليه «تنوير المقباس في تفسير ابن عباس»، «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، الأعلام (٧/ ١٤٦)، البدر الطالع (٢/ ٢٨٠)، الضوء اللامع (١٠/ ٧٩)، التاج (٤/ ٦٧)، العقود اللؤلؤية (٢/ ٢٦٤، ٢٧٨، ٢٩٧)، أزهار الرياض (٣/ ٣٨).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، (٤/ ٤٤٢).

وهكذا لا نرى فرقًا بين نصارى الأمس ومسيحيي اليوم ـ كما يسمُّون أنفسهم ـ في هذه القضية أيضًا.

ثالثًا: ألوهية المسيح وعقيدة «التجسُّد»:

يقول المطران جورج خضر: (أليس التجسد شبيهًا بالقرآن، «لوحًا محفوظًا»، كلامًا غير مخلوق، اتخذ شكل كلمات قابلة للإعراب، ومتصلة بتاريخ العرب وحضارتهم، ولها أسباب نزول متعلقة بحياة الرسول، ومنها بعض كلمات أعجمية متصلة بحضارة الفرس، نحن نقول عن المسيح ما يقوله المسلمون عن القرآن، المسيح هو قرآننا... لو اتخذنا بشرًا اسمه «عيسى»، وأقمناه في الألوهية لكنا مشركين، ولكنا نتخذ كلمة الله «وإلهًا كان الكلمة» يوحنا: ١٠١، ونقيمه في البشر «والكلمة صار جسدًا» يوحنا ١٤:١، هذا التوضيح ضروري لكي يصحِّح المسلمون نظرتهم إلى الأحداث التاريخية وتسلسلها في ما يخص حياة يسوع المسيح، فالمسلمون يعتقدون مستندين في ذلك على الآيتَين القرآنيتَين: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞﴾ [مريم]، ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞﴾ [مريم] وغيرهما من الآيات، أن المسيحيين قد رفعوا ولدًا إلى مرتبة الألوهية، وهذا خطأ؛ لأنهم يؤمنون أن كلمة الله الذي هو إله منذ الأزل قد صار إنسانًا في التاريخ، من دون أن يتخلى عن ألوهيته)[1]، ويقول أيضًا: (إن القائلين بأن كلام الله غير مخلوق كانوا على حق، السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كان عند الله كلام أو كلمة واحدة تنحدر منه الكلمات، كل الكلمات التي كانت قبله أو جاءت بعده، وهل هذه الكلمة المعيار الوحيد لحقيقة الكلمات؟ بعد هذا ليس من صعوبةٍ أن يسكن الكلمة جسدًا، أن يظهر بشرًا، لماذا يُعقل أن يلبس الله لباس كلمات في كتاب، ولا يُعقل أن يلبس جسدًا؟ أليست الألفاظ واللغة والكتب جسدًا؟ أن نقول: إن كلام الله في هذا الكتاب أو ذاك غير مخلوق، وأن نقول: إن الكلمة

(١) هل من حوار إسلامي مسيحي، جريدة النهار، ١١/ ١/ ١٩٩٢م.

الذي حلَّ فينا غير مخلوق، قولان في معقولية واحدة)[١].

إن المطران يستشفع لعقيدة الحلول الوثنية بفهم خاطئ لعقيدة أهل السنة والجماعة في كون القرآن غير مخلوق، لقد توهَّم أن دلالة هذه الجملة: أن كلام الله الذي هو صفة من صفاته استحال ألفاظًا وألواحًا وكتبًا مخلوقة، أو سكن أو تلبَّس أو تجسَّد فيها، ليَسْلَم له بالتالي أن تكون كلمة الله حلَّت جسد المسيح وتلبَّسَت به وسكنته فصار إلهًا بالكلمة.

إن المسلمين المتَّبِعين للكتاب والسنة، لا يعتقدون مطلقًا أن صفة من صفات الله حلَّت في مخلوق كالمداد والأوراق، أو تلبَّست بالأصوات والأدوات، أو سكنت في الألسن أو الآذان، ولهذا يفرِّقون بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام البارئ، والكتابة خط الكاتب، والمكتوب كلام الخالق سبحانه، قال الإمام البخاري رحمه الله: (سمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال أبو عبد الله: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المُثبَت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق، قال الله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال إسحاق بن إبراهيم: فأما الأوعية فمَن يشك في خَلْقها؟ قال الله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج] فذكر أنه يحفظ ويسطر، قال: «وما يسطرون»)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكر اضطراب الناس في مسألة اللفظ: (.. إذا رجع أحدهم إلى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام

---

(١) الكلمة والجسد، عن مجلة الاجتهاد، العددان (٣١، ٣٢) (٢٢٢).

(٢) خلق أفعال العباد: البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، (٣٤)، رقم (٩٧) وقال: إسناده صحيح.

المسموع، فيقال: هذا كلام زيد، وبين أن يقول: هذا صوت زيد، ويجد فطرته تصدِّق بالأول وتكذِّب بالثاني، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»، وكل أحد يعلم بفطرته ما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن الكلام كلام الباري والصوت صوت القاري...)[(١)]، ثم ذكر بدعة «اللفظية المثبتة»، فقال: (وكذلك أنكر بدعة «اللفظية المثبتة» ـ الذين يقولون: إن لفظ العباد، أو صوت العباد به غير مخلوق، أو يقولون: إن التلاوة التي هي في فعل العبد وصوته غير مخلوقة ـ الأئمةُ الذين بلغتهم هذه البدعة مثل الإمام أحمد بن حنبل، وأبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح ـ وسرد بعدهما اثنين وعشرين إمامًا ثم قال: ـ ومن شاء الله تعالى من أئمة أهل السنة وأهل الحديث، من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، يُنكِرون على مَن يجعل لفظ العبد بالقرآن، أو صوته به، أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره)[(٢)].

إن محاولة المطران خضر تأنيس القول بألوهية المسيح، وتجسُّد الكلمة للمسلمين بقياس ذلك على كون كلام الله «القرآن» غير مخلوق محاولة فاشلة، وقياس فاسد مرفوض، قد تنبَّه لمثله الأئمة من قبل فأنكروه، ومن ثم فليس المسلمون بحاجة لأن يصحِّحوا نظرتهم، فما نطق به القرآن قبل أربعة عشر قرنًا عن عقائد النصارى، وما يعتقده نصارى اليوم سواء.

ثانيًا: الكاثوليك العرب:

في شهر أغسطس من عام ١٩٩١م تأسَّس «مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك»، وهو مكوَّن من الكنائس الشرقية التي اتحدت مع الكنيسة الكاثوليكية في روما وخضعت لها، مع محافظتها على طقوسها الخاصة،

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

وعُرِفت باسم الكنائس الكاثوليكية الاتحادية، وأقدمها اتحادًا وتبعية لكرسي روما الكنيسة المارونية في لبنان (ق١٢م)، ثم الكنيسة الآشورية «الكلدانية» (ق١٦م) في العراق، وأخيرًا كنائس «الروم الكاثوليك»، و«الأرمن الكاثوليك»، و«السريان الكاثوليك» (ق١٧م) في بلاد الشام، بالإضافة إلى الكنائس اللاتينية التي أنشأها المبشِّرون الكاثوليك في المنطقة، واجتذبت بعض السكان المحليين[١].

وقد أصدر المجلس الذي يضم بطاركة هذه الكنائس[٢] بضع رسائل إلى رعاياهم، ومعظمهم من النصارى العرب، لبيان مواقف كنائسهم الموحَّدة من الأحداث الراهنة، وتوجيههم، ولا يعزب عن البال أن إنشاء هذا المجلس جاء في أعقاب الحرب الأهلية اللبنانية ذات الطابع «العقدي» و«الطائفي»، التي استمرت زهاء خمسة عشر عامًا (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠م)، وأثارت المخاوف الكبيرة حول مستقبل النصارى في المشرق العربي[٣]، كما أن هاجِسَ «الصحوة الإسلامية» المتنامية في المنطقة العربية والعالم بأسره كان ماثلًا.

جاء في رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك الأولى، الصادرة عام ١٩٩١م ما نصه: (إن عيشنا المشترك الذي يمتد على قرون طويلة يشكِّل -بالرغم من كل الصعوبات- الأرضية الصلبة التي نبني عليها عملنا المشترك حاضرًا ومستقبلًا، في سبيل مجتمع متساوٍ ومتكافئ لا يشعر فيه أحد، أيًّا كان، أنه غريب أو منبوذ، إننا ننهل من تراثٍ حضاري واحد نتقاسمه، وقد أسْهَم كلٌّ منا في صياغته انطلاقًا

---

(١) انظر: الفصل التاسع من: (المسيحية في العالم العربي)، (١٠٧ ـ ١١٥).

(٢) وهم: (بطريرك الإسكندرية للأقباط الكاثوليك، ٢ ـ بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم للروم الملكيين الكاثوليك، ٣ ـ بطريرك أنطاكية للسريان الكاثوليك، ٤ ـ بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للموارنة، ٥ ـ بطريرك بابل للكلدان، ٦ ـ البطريرك الأورشليمي للاتين، ٧ ـ بطريرك الأرمن الكاثوليك.

(٣) انظر: علىٰ سبيل المثال مقدمة كتاب: (حياة مسيحيي الشرق وموتهم، من البدايات حتىٰ أيامنا) للفرنسي المتعصب: جان ـ بيار فالونيو.

من عبقريته الخاصة، إن قرابتنا الحضارية هي إرثنا التاريخي الذي نُصِرُّ على المحافظة عليه، وتطويره، وتجذيره، وتفعيله كي يكون أساس عيشنا المشترك وتعاوننا الأخوي، إن المسيحيين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية للمسلمين، كما أن المسلمين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية للمسيحيين، ومن هذا المنطلق فنحن مسؤولون بعضنا عن بعض أمام الله والتاريخ، ولذا يتحتَّم علينا أن نبحث، بشكل مستمر، عن صيغة، لا للتعايش فحسب، بل للتواصل الخلّاق والمُثمِر الذي يضمن الاستقرار والأمان لكل مؤمن بالله في أوطاننا، بعيدًا عن آلية الحقد والتعصب والفئوية ورفض الآخر)[1].

وفي السنة التالية ١٩٩٢م أصدر المجلس الرسالة الثانية بعنوان: (الحضور المسيحي في الشرق.. شهادة ورسالة، رسالة راعوية مشتركة يوجهها بطاركة الشرق الكاثوليك إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم)، خُصِّص الفصل السادس منها للحديث عن «حضور الحوار»، جاء فيه: (.. الحوار موقف روحي قبل كل شيء، يقف فيه المرء أمام ربه محاورًا، فتسمو نفسه، ويطهر قلبه ووجدانه، فينعكس ذلك على حواره مع نفسه وعلى حواره مع الآخرين، أفرادًا وجماعات...

ويعني الحوار مع الآخر معرفته والتعرُّف عليه والاعتراف به، معرفته كما يعرف هو نفسه، والتعرف عليه بكامل شخصيته، والاعتراف به كمكمِّل لنا أكثر منه خصمًا أو منافسًا أو عدوًّا، وذلك بعيدًا عن الأفكار المسبقة من أي نوعٍ كانت، والمصالح والأنانيات، في مثل هذه الأجواء يتحول الحوار إلى غنىً متبادَل من غير أن يتنازل أي من الطرفين عن ذاته أو عن تراثه أو عن شخصيته أو عن كيانه، ولا ريب أن التعصب بكافة أشكاله ـ باسم الله أو الدين أو القومية أو الطائفة أو الأرض أو العرق أو اللغة، أو باسم الانتماء الحضاريِّ أو الثقافي أو

(١) رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك الأولىٰ.

الاجتماعي ـ هو عدو الحوار الأول)[١].

ثم يتوجه الحديث إلى الحوار مع المسلمين خاصة، فتقول الرسالة: (إن حوارنا هو حوار مع إخوتنا المسلمين قبل كل شيء، إن العيش المشترك بيننا على مدى قرونٍ طويلة، يشكِّل خبرة أساسية لا عودة فيها، وجزءًا من مشيئة الله علينا وعليهم، وفي الوقت الذي فيه تبحث المسيحية والإسلام معًا في عالمنا عن صيغة للتواصل والحوار والتلاقي، يجدر أن تستجوب خبرة كنائسنا في هذا المضمار، علمًا بأن هذه الكنائس تودُّ أن تكوِّن جسرًا من الحوار بين الشرق والغرب، بين المسيحية والإسلام؛ لما لنا من قرابة إيمانية مع الغرب المسيحي، وما لنا من قرابة حضارية مع الشرق المسلم)[٢].

ثم تُفصِح الرسالة عن الهم الدائم لدى نصارى الشرق، فتقول تحت عنوان مسؤولية متبادلة: (في زمن المخاض الحالي الذي يجتاح عالمنا العربي، يبقى أن إحدى المشاكل الكبرى التي يواجهها، هي علاقته مع مختلف الفئات الوطنية على اختلاف معتقداتها، إن المسيحيين والمسلمين تشارَكُوا في «العيش والملح» قرونًا طويلة، وهذا ما يُلقِي على الطرفين مسؤولية متبادلة، فالإسلام يتحمل مسؤولية كبرى في هذا المجال؛ إذ إنه مدعوٌ إلى تطمين المؤمنين المسيحيين الذين يعيشون معه في الوطن الواحد، إن المسلم في الشرق لا يستطيع أن يطوِّر أيَّ مشروعٍ لنظامٍ اجتماعي وسياسي من غير أن يأخذ بالحسبان الجماعة المسيحية بشكلٍ يعطيها الثقة، لا بأن حقوقها الدينية محفوظة فحسب، بل أيضًا بأنها جزءٌ لا ينفصل عن حياة المجتمع، وكاملة العضوية في الجماعة الوطنية، بما فيها من حقوقٍ وواجبات، والمسيحيون من جانبهم يتحمَّلون مسؤولية مماثلة تدعوهم إلى التخلص من العقد الاجتماعية

---

(١) الحضور المسيحي في الشرق، شهادة ورسالة: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، المطبعة البولسية، الطبعة الثانية ١٩٩٥م، (٤٢، ٤٣).

(٢) الحضور المسيحي في الشرق شهادة ورسالة (٤٣).

والنفسية التي خلَّفها لهم التاريخ... وحبذا لو تشكَّلَت منابر أو مؤسسات حوارية، فيها نلتقي بشكل دوري كي نبلور ونطور معًا نمط تواصل وتبادل وتعاون يعود بالخير على الجميع)[١].

أما مخلفات التاريخ التي تدعو الرسالة إلى التخلُّص من آثارها الاجتماعية والنفسية فيكشف عنها النص التالي: (إن الظروف التاريخية التي عاشتها المنطقة والمسيحيون في بلادنا منذ أكثر من قرن من الزمان[٢] أعطت الانطباع بأن المسيحيين يتطلَّعون إلى الغير طالبين منهم ضمان وجودهم وحمايتهم، أضِفْ إلى ذلك الرغبة الأجنبية في الهيمنة على الشرق، مما حمل إلى الظن أن الرهان المسيحي هو الطريق السهل في بعض الأحيان للوصول إلى هذه الغاية، وهذا ما أدى إلى الاعتقاد السائد أن المسيحيين في الشرق فئة غريبة عن المنطقة، مع العلم بما قامت به شخصيات مسيحية، رائدة وفريدة وشجاعة، من نضال في سبيل التحرُّر القومي، والاستقلال الوطني، والتطور الثقافي، مهما يكن من أمر فإن كنائسنا ترفض أي تغريب ثقافي أو سياسي، وتؤكد تضامنها واندماجها الملتزم بمجتمعاتها، من منطلق إيمانها وهويتها ودعوتها ورسالتها في هذا المنعطف الخطير من تاريخ المنطقة)[٣]، وفي الوقت نفسه يعلن البطاركة قائلين: (وفي هذه المناسبة نودُّ أن نُعلِن ما يربط كنائسنا الكاثوليكية في الشرق من شركة الإيمان والمحبة مع كرسي روما)[٤].

وفي عام ١٩٩٤م أصدر مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك رسالته الثالثة المعنونة بالعبارة التالية: (معًا أمام الله، في سبيل الإنسان والمجتمع، «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي»)، جاء في مقدمتها: (نوَدُّ

---

(١) المرجع السابق، (٤٥، ٤٦)، وقد وجه المجلس رسالة مماثلة إلىٰ اليهود (٤٦، ٤٧).

(٢) المراد بذلك: الاستعمار الأوروبي الذي تقاسم ولايات الدولة العثمانية، واتخذ من دعوىٰ حماية الأقليات النصرانية ستارًا له. انظر: المرحلة الخامسة في نبذة تاريخية من التمهيد.

(٣) المرجع السابق، (٥١).

(٤) المرجع السابق، (٥٥).

في هذه الرسالة الجديدة أن نخص العلاقة الأخوية والبنَّاءة التي يجب أن تربط بين المسيحيين والمسلمين، بمزيد من التعمُّق والتفكير، علمًا بأن هذه العلاقة كانت موضع مداولات مطوَّلة بيننا في اجتماعات الدورة الثالثة لمجلسنا، التي عقدت في عمَّان في أيار (مايو) سنة ١٩٩٣)[١]، وعظم المجتمعون شأن هذه العلاقة فقالوا: (لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن العيش المشترك بين البشر في الألف الثالث من تاريخنا يقرِّره التلاقي الإيجابي والبنَّاء بين أبناء الديانات المختلفة على وجه العموم، وبين أبناء الديانتَين المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص)[٢].

لقد خصَّصت هذه الرسالة لقضية «العيش المشترك» تحت غطاء من الشعارات العاطفية من أمثال: «الحوار والتلاقي»، «العيش والملح المشترك»... إلخ.

ولكنها جاءت كعريضة مَطالب للطائفة النصرانية؛ لتحسين وضعها في المجتمعات الإسلامية، يتَّضح ذلك في الفقرات التالية من الرسالة:

● تحت عنوان: «المشاركة في الحياة العامة»: (.. من حق كل فئة وطنية أن تُسهِم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه «أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها»، وهذا يعني ألَّا يُهمَّش أحد لسبب انتمائه الديني، أو لأي سبب من الأسباب، بل تتاح الفرص لكل مواطن، أيًّا كان، ومهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة بعيدًا عن الحدود والحساسيات الطائفية)[٣].

● وتحت عنوان: «الأسرة»: (والمجال الثاني هو الأسرة وكل ما يتصل بها،

---

(١) معًا أمام الله، في سبيل الإنسان والمجتمع: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، نشر الأمانة العامة ـ بكركي ـ لبنان، طبعة ١٩٩٥م، (٧،٨).

(٢) المرجع السابق، (٩).

(٣) معًا أمام الله، (٢٢).

ولا سيما الزيجات المختلطة بين المسلمين والمسيحيين، والتي قد تُحدث المآسي في البيت والمجتمع.. وقد يحصل أحيانًا أن بعض المسيحيين أنفسهم لافتقارهم إلى العمق الديني، يستغلون حماية القوانين الدينية الإسلامية، ليتهرَّبوا من واجباتهم الزوجية والأسرية، ومهما كانت القوانين الدينية في الإسلام والمسيحية مختلفة، ومهما كان من الصعب التوفيق بينها، فإن هذا لا يعفي المسؤولين وأولي الأمر في كلا الديانتَين من تنظيم الأمور، وتلافِي ما يعكِّر صفو المجتمع الواحد، ومن الملاحَظ أيضًا أن المتهرِّبين من واجباتهم الزوجية، واللاجئين إلى قوانين الدين الإسلامي[1]، قد لا يهمهم غالبًا أمر الدين في شيء، وإنما هم فقط مستغلون للدين، وأصحاب أغراض أنانية)[2].

● وتحت عنوان: «التربية الدينية» تقول الرسالة: (يظل الطالب المسيحي في المدارس الحكومية موضع قلقٍ لنا في بعض البلدان العربية، حيث لا تُوَفَّر له، بخلاف زملائه المسلمين، التربية اللازمة في مدرسته الحكومية نفسها، وفي بعض البلدان لا يتاح له ذلك حتى في المدرسة المسيحية الخاصة.

ويشمل هذا المجال أيضًا الكتب المدرسية التي لا تأخذ بعين الاعتبار الطالب المسيحي، وواقع تعدُّد الأديان والثقافات في وطننا العربي، وهذا ما يسبِّب لدى الطالب المسيحي اضطرابًا في عقيدته، فيصبح في تردُّد بين العقيدة المسيحية التي يؤمن بها ويتشرَّبها في الأسرة والكنيسة، وبين ما عليه استيعابه منذ نعومة أظفاره في المدرسة من خلال الكتب المقرَّرة)[3].

وفي القسم الثاني من الرسالة يتساءل بطاركة الشرق الكاثوليك: «كيف نبني المستقبل؟»، وتأتي الإجابات دائرة حول نَبْذ الطائفية والتعصب الديني،

(١) في هذا الكلام طعن في الشريعة الإسلامية بأنها ملاذ للمتلاعبين المضيعين للواجبات الزوجية، وكأن البطاركة يتوجَّعون من ترافع بعض أبناء طوائفهم إلىٰ المحاكم الشرعية في قضايا الطلاق والنفقات والعشرة، حيث لم يجدوا في شرائعهم المحرَّفة حلًّا لمشاكلهم الأسرية.

(٢) المرجع السابق، (٢٢، ٢٣).

(٣) المرجع السابق، (٢٣، ٢٤).

والتحرُّر من الأفكار المسبقة، وقبول التعددية والتنوع، وتطوير الخطاب الديني بإحلال الاحترام المتبادل محل التشويه والجدل، ونحو ذلك من الشعارات التي لا تخدم في الحقيقة سوى الطرف الأضعف، الذي يعاني من عقدة «الأقلية»، وتطالب الرسالة المراجع التربوية ممثلةً بالبيت والمدرسة والجامع والكنيسة والمؤسسات الفكرية والإعلامية، بترسيخ المبادئ السابقة في نفوس الناشئة والناس[1].

وفي القسم الثالث الذي يحمل عنوان: (من أجل مجتمع عربي متكافئ» يتحدث البطاركة عن المجتمع والمواطنة والمشاركة المتكافئة في مختلف المناشط، ثم يَصِلُون إلى «بيت القصيد»، وهي قضية الدين والسياسة، في وقتٍ تتعالى فيه مطالبات المسلمين بالعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، فيقولون: (... يعلِّمنا تاريخ المجتمعات البشرية المختلفة أن خَلْط الدين والسياسة ما يلبث أن ينتج عنه ضرر عميق على الدين والسياسة معًا، فعندما يتحول الدين إلى أيديولوجية سياسية فإنه يبتعد عن هدفه الأساسي، ويصبح أداة وصول إلى السلطة، وأحيانًا أداة قمع وتسلُّط، وإذا تحوَّلَت السياسة إلى أيديولوجية دينية فإنها تستغل الدين وتوظِّفه كوسيلة لتثبيت مصالحها الخاصة، وفي كلتا الحالتين تَفسُد السياسة، ويُشوَّه المعنى الحقيقي للدين، والتاريخ شاهد على هذا الفساد وهذا التشويه شرقًا وغربًا.

إن ربط الدين بالسياسة يثير الكثير من الأسئلة المُلِحَّة: كيف يستطيع الدين أن يؤثر في الحياة العامة تأثيرًا حقيقيًّا، مع الحفاظ على استقلاليته واستقلاليتها؟ كيف يمكن التمييز بين المؤسسات السياسية والدينية دون الفصل بينهما، فلا يسخَّر الدين للسياسة، ولا تكون السياسة استغلالًا للدين؟ كيف يمكن أن يظل الدين عامل وحدة وتقريب بين جميع فئات المجتمع من غير تمييز أو تهميش أو استثناء؟ الأسئلة كثيرة والموضوع شديد الحساسية، ويستحق أن يستمر النقاش

(١) انظر: «معًا أمام الله» من (٢٧ ـ ٣٧).

حوله والحوار بشأنه بين التيارات المختلفة، للوصول إلى صيغة يطمئن إليها الجميع)[١].

وتكرِّر الرسالة الثالثة ما جاء في سابقتَيْها عن الدور المميز للنصارى العرب كجسر للتواصل بين الإسلام والغرب المسيحي[٢].

استنادًا إلى الرسائل الثلاث التي وجهها بطاركة الشرق الكاثوليك «إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم»، نحدِّد أبعاد قضية «التقريب» و«الحوار» في نظر النصارى الكاثوليك العرب، مع استدعاء بعض الإيضاحات التي لا تقدمها البيانات الرسمية المحترزة، من أحد أساقفتهم المعروفين، وهو المطران كيرلس سليم بسترس، رئيس أساقفة بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك.

أولًا: الحوار الذي ينادي به الكاثوليك العرب مع الآخر يعني: (معرفته والتعرُّف عليه والاعتراف به، معرفته كما يعرف هو نفسه، والتعرُّف عليه بكامل شخصيته والاعتراف به كمكمِّل لنا أكثر منه خصمًا أو منافسًا أو عدوًّا... بعيدًا عن الأفكار المسبقة)[٣]، هذا هو حَدُّ الحوار وتعريفه لديهم، فعلام ينطوي هذا الكلام، يقول المطران كيرلس: (إن العلاقات بين المسيحية والإسلام لا يمكن أن تبنى اليوم وفي المستقبل على أساس ما ورد في القرآن، فالمسيحية اليوم ليست النصرانية التي التقاها القرآن، والمسيحيون اليوم ليسوا «أهل الكتاب» وحسب، كما يَرِد ذِكْرُهم في مختلف سور القرآن، وتعاليمهم ليست التعاليم التي يكفِّرها القرآن، هذا ما يجب تأكيده بكل جرأة وصراحة، وذلك ليس من باب المساومة، بل من باب الأمانة للحقيقة، فإني أنا اللاهوتي المسيحي عندما أقرأ ما يقوله القرآن عن التثليث، وعن ألوهية السيد المسيح، أَخْلُص إلى أن هذه الأوصاف لا تعبر عن إيماني المسيحي بالتثليث وبألوهية السيد المسيح،

---

(١) المرجع السابق، (٤٣ ـ ٤٤).

(٢) انظر: المرجع السابق، (٥٢ ـ ٥٣).

(٣) تقدم#.

وبالتالي فإن تكفيرها لا يطالني، وهذا في رأيي هو الحل الوحيد للخروج من المأزق الذي يقع فيه المسيحيون والمسلمون على السواء.

فالمسيحيون يتساءلون كيف يدخلون في حوار مع مسلمين يعتبرونهم كفرة؟

والمسلمون يؤمنون من جهة بأن القرآن كلام الله، ويريدون من جهة أخرى الدخول في حوار ديني مع المسيحيين، ولا يعرفون السبيل إلى ذلك، الطريق الوحيد لتخطي هذه المشكلة هو الإقرار بأن ما ورد في القرآن حول إيمان «أهل الكتاب النصارى» لا يعتبر التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحي الذي يعتنقه المسيحيون اليوم.

انطلاقًا من هذه المقولة التمهيدية يمكن المسيحية والإسلام الدخول في حوار ديني يَبنُون عليه علاقاتهم في الحياة والعيش المشترك)[1].

بهذه البساطة المتناهية حسم المطران المشكلة وأخرج الطرفين من المأزق! إنه باختصار يطالب المسلمين برفع الأحكام الربانية، والمعتقدات القرآنية المعلومة بالضرورة من دين الإسلام عن نصارى اليوم، دون أن يتزحزح هو ومِلَّته قيد أنملة عن موقفه العقدي، وبذلك يكون الطرفان مهيَّئَين للحوار، وتحل المشكلة! وهو يردِّد في هذا ذات المقولة التي قالها المطران جورج خضر من أن نصارى اليوم ليسوا نصارى الأمس الذين واجههم القرآن، ويزيد عليها تخريجًا متهافتًا لفرية التثليث، فيقول: (وهنا لا بد لنا من التأكيد أن إيماننا هذا بالله الواحد لا يناقض إيماننا بالتثليث، ذلك أن الآب وكلمته وروحه ليست في اعتقادنا ثلاثة آلهة منفصلة أحدها عن الآخر، بل إله نميز فيه ثلاثة أقانيم، أي صفات ذاتية غير منفصلة أحدها عن الآخر، فكما نميِّز بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك، وإن ميزنا في الله الواحد بين الله وعقله وكلمته وروحه، إلا إننا لا نفصل بين الثلاثة، لذلك نعلن في صلاتنا

(١) العلاقات المسيحية ـ الإسلامية تاريخًا وحاضرًا ورؤية مستقبلية، من كتاب العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، (٢٢٥).

إيماننا «بالثالوث الواحد في الجوهر وغير المنفصل».

لذلك نؤكد أن المسيحية ديانة توحيدية، وقولها بالتثليث هو تعمُّق في سر الله، وتفسير لتجلِّي الله في عالم البشر، فلا تكتفي بالقول أن الله أرسل إلينا أنبياءه، بل إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدس، فكلمة الله وروحه حضرًا في ما بيننا، أما التثليث الذي يكفِّره القرآن فهو عبادة كائنين من دون الله أي لا علاقة لهما بالله، وهذا التثليث نحن منه بَراء؛ لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله، إنما هما صفات ذاتية في الله الواحد نفسه)[1].

وقبل أن نحلِّل ما قاله المطران نستدعي بداهة العقل والفطرة حيال نص القرآن: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء].

ترى! هل قال القرآن عن النصارى سوى ما يقوله النصارى اليوم عن أنفسهم؟ هل ظلمهم القرآن، أو لنقل ـ تنزلًا ـ مفسِّرو القرآن؟ أم أنها حقيقة واحدة، ومقالة واحدة، رغم حركات الالتفاف اللفظية؟

إنها عقدة النصارى الأبدية؛ محاولة التوفيق القسري بين التوحيد والتثليث، وأنى لهم، إن مدار خطاب المطران كيرلس حول اعتبار الكلمة، وروح القدس بمثابة الصفات الذاتية للآب، وبالتالي فالله وصفاته الذاتية شيءٌ واحد.

والجواب عن ذلك ببساطة أن صفات الله الذاتية ملازمة لذاته سبحانه، غير منفصلة عنه بحالٍ من الأحوال، كحياته، وسمعه، وبصره، وعلمه... إلخ، أما ما

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية.. قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٣٢).

أُضِيف إليه سبحانه مما يستقل بنفسه فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وقد يكون في بعض الأحوال إضافة تشريف لذلك المخلوق، كوصفه تعالى لعيسى عليه السلام بأنه رسول الله، وكلمته، وروح منه، و«من» هنا ليست للتبعيض قطعًا؛ إذ لا يعقل ولا يمكن أن يكون «بعض» من الله منفصلًا عنه، سبحانه وبحمده.

ولنا أن نُلزِم المطران كيرلس من منطلق هذه الدعوى باعتبار الكلمة والروح صفات ذاتية تكمل مع الآب «الثالوث الأقدس»، لنا أن نقول: فاجعلوا الأقانيم أربعة، بل خمسة، بل أكثر بقدر ما نعلمه من صفاته الذاتية سبحانه، أوَلستم تقولون صبحًا ومساءً في صلاتكم: «أؤمن بإله واحد آب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى»، فلِمَ لا تجعلون ـ طردًا للقاعدة ـ الخالق، الضابط، من الأقانيم، فيكون اعتقادكم بـ«خاموس» لا «ثالوث»؟!

والعجب كيف يزعم المطران المذكور عدم اعتقاد القوم بآلهة منفصلة، وهو يؤكد في نفس السياق: (إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدوس)، إذًا فثم آتٍ هو الله ـ في زعمهم ـ وثم شخص يمشي على وجه الأرض وهو يسوع، وثم روح القدس.

وأخيرًا فلنا وقفة مع قول المطران: (أما التثليث الذي يكفِّره القرآن فهو عبادة كائنَيْن «من دون الله»، أي لا علاقة لهما بالله، وهذا التثليث نحن منه براء؛ لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنَيْن من دون الله)، فينبغي أن يُعلَم أن تكفير القرآن لأهل التثليث هو من جهة شركهم في الربوبية، قبل أن يكون شركًا في العبادة، إنكم معشر النصارى لم تحرِّرُوا توحيد الربوبية فضلًا عن أن تُخلصوا توحيد الألوهية[1].

بقي أن نجيب عن تساؤل المطران كيرلس سليم بسترس: (فالمسيحيون

(١) انظر: العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ ـ ٩٥).

يتساءلون: كيف يدخلون في حوار ديني مع مسلمين يعتبرونهم كفرة؟)[١].

والجواب: تمامًا كما يدخل النصارى مع مسلمين يعتبرهم النصارى كفرة، إن الكنائس النصرانية لم تَزَل تُصدر قرارات الحرمان والكفران والهرطقة ضد مخالفيها من الكنائس الأخرى والأفراد، فكيف بمن هم خارج دائرتهم أصلًا، وحتى هذا اليوم ورغم بيانات المجاملة من بعض الدوائر الكنسية تجاه المسلمين لم ترتق لغة الخطاب إلى الاعتراف بنبوة نبينا محمد ﷺ، فكيف يطالبون محاوريهم من المسلمين بالاعتراف بإيمان النصارى، ورفع صفة الكفر التي حقَّقها القرآن عليهم في مواضع متعددة!

لقد سبق بيان تهافت هذه الدعوى، وبيان أن لا فرق بين الأولين والآخرين[٢]، ولكن رئيس أساقفة بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك يتخطى هذا القدر حين يشارط المسلمين قبل الدخول في حوار أن يرفعوا وصف الكفر والشرك الذي وضعه القرآن على رقاب عباد الصليب، ولا يكلِّف نفسه أن يفترض سؤالًا مقابلًا يمكن أن يطرحه المسلمون الموافقون على مشروع الحوار: كيف ندخل في حوارٍ ديني مع نصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن كلام الله، وأن الدين عند الله الإسلام؟ وحسبك من حوارٍ هذه عتبة بابه! فماذا في ثنايا الدار؟

إن الحقيقة تضيع وسط حشدٍ من العبارات العاطفية السلمية التي يطلقها هؤلاء المماحكون، من جنس قوله: (الهدف من الحوار العقائدي هو إزالة الالتباسات والأفكار الخاطئة لدى كل من الطرفين حول عقائد الطرف الآخر، وذلك بُغية التوصل إلى تعايش أخوي واحترام متبادل)[٣]، وقد تبيَّن نوع الالتباسات والأفكار الخاطئة التي يهدف المحاور النصراني إلى إزالتها من

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية.. قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٢٥).

(٢) انظر: ما سبق في الرد علىٰ المطران جورج خضر.

(٣) المرجع السابق، (٢٢٧).

جانبٍ واحد.

ثانيًا: والحوار لدى الكاثوليك العرب فرصة للتخلص من العقد الاجتماعية والنفسية التي خلَّفها التاريخ القديم والحديث لهم، فهم يعانون من عقدة الشعور بالذنب والخيانة والتواطؤ مع الغزاة والمستعمرين من أبناء طائفتهم الصليبيين الغربيين، وهذا يُورِثهم الشعور بعقدة «النبذ» و«الغربة» و«الأقلية» في الوسط الذي يعيشون فيه، وبالتالي يُكثِرون الحديث عن الإرث الحضاري المشترك، ودور نصارى الشرق في بناء الحضارة الإسلامية، رغم اختلاف المعتقد، ورفع العقيرة بالانتماء إلى الوطن.. إلخ، مع التأكيد المستمر على الارتباط بكرسي روما.

وها هنا ملحظ لافت للانتباه في مجال المقارنة بين الأرثوذكس والكاثوليك في نظرتهم إلى الحملات الصليبية، فالأولون يشجبونها لكونهم كانوا إلى حدٍّ ما من ضحاياها، كما يردِّد ذلك المطران جورج خضر كثيرًا، ويعتذرون للمسلمين عما تسبَّب به أبناء ديانتهم المخالفين لهم في المعتقد، أما الكاثوليك فلا يزيدون عما أطَّرَه لهم بيان المجمع الفاتيكاني الثاني من الدعوة إلى نسيان الماضي فقط، دون أن يتضمَّن اعترافًا صريحًا بالمظالم التي أوقعوها بالمسلمين.

والمقصود أن الحوار والتقارب مركب يمتطيه هؤلاء للوصول إلى مصالح خاصة، هم المستفيد الأول والأخير فيه، فيعلنون براءتهم من وصمة الخيانة والتواطؤ مع الأجنبي، والتأكيد على الأصالة والتجذر في المنطقة الإسلامية مهما ضَؤُل تمثيلهم العددي.

ثالثًا: أن الحوار في نظرهم ـ كما هو الحال لدى الأرثوذكس العرب ـ بديلٌ مناسب يملأ الفراغ الذي أحدثه تراجُع فكرة القومية العربية، ويعطيهم دورًا مميزًا في المنطقة، بوصفهم «وسطاء» مناسبين للحوار بين الشرق المسلم والغرب النصراني، ويُلِحُّ هؤلاء على فكرة «خبرة الكنائس الشرقية» ودورها في إقامة الجسور بين الحضارتَيْن الإسلامية والنصرانية.

رابعًا: وأخطر وأهم الأمور في مناداتهم بالحوار والتقارب والتواصل، قضية

«العيش المشترك» الذي يحمل بؤس الماضي، ومعاناة الحاضر، وهَمَّ المستقبل في زعمهم.

إن الحوار بالنسبة لنصارى العرب منبرٌ للمطالبة بتحقيق مكاسب جديدة، فضلًا عن المكاسب التي تحقَّقَت بانتقالهم من حال «أهل ذمة» إلى «مواطنين» من الدرجة الأولى، فهم يريدون استئصال جميع صور التمييز ورواسبه في العقل المسلم، والكتاب المدرسي، والإنتاج الفكري، والخطاب الإعلامي، بل وحتى الخطاب الديني الذي يشير أو يذكِّر بالوضعية الخاصة لأهل الكتاب في المجتمع المسلم، وينبغي أن نتذكر أن كل هذه المطالبات لحساب طرفٍ على طرف، دون أن يكسب الطرف الآخر شيئًا، وذلك خلاف العدل والإنصاف، لو كان ذلك الطرف نِدًّا مساويًا للآخر في مشروع الحوار، والقوم أقلية ضئيلة.

والطامة الكبرى لدى هؤلاء النصارى هي الخوف من «تطوير أي مشروع لنظام اجتماعي وسياسي من غير أن يأخذ بالحسبان الجماعة المسيحية» كما تقدم، والمطالبة بإقصاء الدين عن السياسة، وبعبارة أخرى فالقوم يريدون «علمنة المجتمع الإسلامي»، ويشرح المطران كيرلس سليم هذه الجملة بعباراتٍ أصرح وأجرأ من الرسائل السابقة فيقول: (إن الكلام على «دولة إسلامية ـ أو «دولة مسيحية» نعتبره نحن المسيحيين من مخلفات العصور الوسطى...

نسمع اليوم بعض المسلمين يقولون بسذاجة: المسيحية ليس لها نظامٌ سياسي واقتصادي خاص، فالإنجيل يكتفي بمبادئ عامة في الأخلاق والحياة الاجتماعية، ويطلب من المسيحيين الخضوع للسلطات المنصَّبة، أما الإسلام فله نظام سياسي واقتصادي واجتماعي يشمل جميع مرافق الحياة، فليقبل المسيحيون هذا النظام الإسلامي الذي هو نظام إنساني عام وتحل المشكلة.

نحن المسيحيين نعجب من طرحٍ كهذا، ونرفضه جملةً وتفصيلًا.

فكيف يطلب منا بعض المسلمين أن نقبل دولة إسلامية، ونظامًا إسلاميًا نعتبرهما من مخلفات العصور الوسطى؟

إن وجود المسيحيين والمسلمين في دولةٍ واحدة لا يمكن أن يثبت في سلام إلا إذا كان الجميع متساوين في نقطة الانطلاق، فلا يمكن أن يكون تعايش في دولةٍ واحدة بين مسيحيةٍ تحمل في ذاتها إمكانية التطور في الأنظمة السياسية والاقتصادية، وإسلام يحمل في عقيدته نظامًا جامدًا يعتبره منزَّلًا من الله، وفي نيته أن يفرضه على المسيحيين عاجلًا أم آجلًا)[1]، الأمر جد واضح، فالحوار الذي يغلِّفه هؤلاء بأغلفة التفاهم، واكتشاف الآخر، والتعاون... إلخ محسوم النتائج سلفًا، وقضاياه غير قابلة للنقاش أصلًا، إن من يقف على هذا الكلام ولديه أدنى ذرة من إدراك طبيعة الدين الإسلامي ورسالته إلى البشرية، يعلم يقينًا أن القوم يدعون محاوريهم المسلمين إلى الانسلاخ من دينهم، ونقلهم إلى الفهم الكنسي الضيق لمهمة الدين في الحياة، التي لا تختلف عن الطقوس الوثنية التي ورثوها عن اليونان والرومان، أما الشرع الإسلامي المطهَّر فإنه رباني المصدر صالح لكل زمانٍ ومكانٍ وأمة، والفقه الإسلامي ـ كما يشهد التاريخ والواقع ـ يتَّسِع لجميع الوقائع والنوازل، ولا يضيق بها ذرعًا كما ضاقت بها الكنيسة في العصور الوسطى التي يدندن المطران حولها، وقد أوجد الفقه الإسلامي مكانًا «لأهل الذمة» يحفظ حقوقهم، ويحميهم، في إطار المجتمع المسلم، لم تصل إليه أي أقلية على مدار التاريخ. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة].

ثالثًا: القبط:

يمثل الأقباط أكبر طائفة نصرانية في العالم العربي من الناحية العددية، وتتراوح نسبتهم التقديرية إلى مجموع السكان في مصر ما بين ٨٧ , ٥٪ إلى

(١) المرجع السابق، (٢٤٣ ـ ٢٤٤).

ضعف هذه النسبة، ويتبعون كنيسة الإسكندرية التي انفصلت عن سائر الكنائس إبان الانشطارات المبكرة في تاريخ الديانة النصرانية، وعلى وجه التحديد إثر مجمع «خلقيدونية» المنعقد سنة ٤٥١م لمناقشة معضلة «طبيعة المسيح» عندهم، وقد كان بطريرك الإسكندرية يتبنى مذهب «الطبيعة الواحدة»، ولكن المجمع المذكور أسفر عن انتصار القائلين بالطبيعتين، وتبع ذلك حوادث شغب واضطهاد أدت إلى انفصال الكنيسة المصرية انفصالًا تامًّا عن الكنيسة الغربية[١]، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن الأقباط استقبلوا الفتح الإسلامي بالترحاب، وربما بالمساعدة[٢]، ولعل مرد ذلك إلى سوء المعاملة، والاضطهاد الذي كانوا يرزحون تحت وطأته من قبل النصارى الرومان الذين يخالفونهم في المعتقد. كما أن المؤرخين يسجلون ظاهرةً تاريخية ملفتة، وهي سرعة انقياد الأقباط للدخول في الإسلام في العقود الأولى من الفتوح الإسلامية. يقول الكاتبان فيليب فارج، ويوسف كرباج تحت عنوان: الانتشار السريع للإسلام في مصر: (كان مصير مصر فريدًا، فهذا البلد الذي تم فتحه بسهولة منذ الساعة الأولى يبدو أنه كان موعودًا بأسلمة سريعة وتامة، لكن هذا البلد الأقل تمردًا والأقرب، خلافًا للمغرب، سوف يكون مع ذلك البلد الوحيد في أفريقيا الذي لا يفقد أبدًا جميع مسيحييه... إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحوَّلون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة؛ ٢٦٪ بين عام ٦٤٤، ٦٦١، ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده بين عام ٦٦١، ٦٨٠)[٣]، ولم تخلُ الأمور بطبيعة الحال من استثناءات، فقد وقع العديد من حركات التمرد والانتقاض لأسباب متعدِّدة، ويرى المقريزي[٤] رحمه الله أن خاتمتها كانت في عهد الخليفة

(١) انظر في هذا: تاريخ الكنيسة المسيحية، أفغراف سميرنوف (٢٦٢ ـ ٢٧٠)، محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة (١٣٧ ـ ١٤١) المسيحية في العالم العربي، الحسن بن طلال (٥٧ ـ ٦٩).

(٢) انظر: الأقباط في مصر في العصر العثماني، د. محمد عفيفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مصر، طبعة ١٩٩٢م، (١٩ ـ ٢٠).

(٣) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

(٤) أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية، وُلِد ونشأ في القاهرة،

العباسي المأمون سنة ٢١٦هـ، قال: (ومن حينئذٍ أذلَّ الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم، فلم يقدر أحدٌ منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بإعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكَّنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج، وكان للمسلمين فيهم وقائع...)[١]، وقد تقدَّم في النبذة التاريخية إلماحات إلى بعض الأحداث التي جرت أثناء الحملات الصليبية، ثم إبان الاستعمار الأوروبي الحديث[٢].

أخذ النفوذ القبطي بالظهور مجددًا منذ عهد «محمد علي وخلفائه»، وأُلغِيَت الجزية عنهم عام ١٨٥٥م، ونالوا عددًا من المناصب الإدارية والقضائية، كما امتلكوا مساحات كبيرة من الأطيان الزراعية، وصار عددٌ منهم من كبار الملاك. وفي عهد الاحتلال البريطاني عُيِّن «بطرس غالي باشا»[٣] رئيسًا للوزراء عام ١٩٠٨م، وقد قاوَم الأقباط الحركة الوطنية ذات الطابع الإسلامي العام الممثَّلة في «الحزب الوطني» بقيادة مصطفى كامل[٤]؛ لتعاطفها مع الخلافة العثمانية،

وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرات، من تأليفه: كتاب «المواعظ»، «السلوك في معرفة دول الملوك»، «تاريخ الأقباط» وغيرها، وقد زادت مؤلفاته علىٰ مئتي مجلد كبار، مات سنة ٨٤٥هـ. الأعلام (١/ ١٧٧)، خطط مبارك (٩/ ٦٩)، آداب اللغة (٣/ ١٧٥)، البدر الطالع (١/ ٧٩)، مجلة الكتاب (١/ ٨٨٦)، المجمع العراقي (١٣/ ٣٠١).

(١) الخطط المقريزية (١/ ١٤٣).

(٢) انظر: (١٩٨) من التمهيد.

(٣) بطرس «باشا» ابن غالي نيروز (١٢٦٢ ـ ١٣٢٨هـ)، (١٨٤٦ ـ ١٩١٠م): وزير مصري من الأقباط الأرثوذكس..، وُلِد بالميمون «من قرىٰ بني سويف»، وتعلم بمصر وأوروبا، وحذق بضع لغات، وتقلَّب في المناصب، وولي نظارة المالية فالخارجية فرئاسة مجلس النظار، ونقم عليه الوطنيون المصريون إمضاءَ اتفاقية السودان، وترؤُّسه محكمة دنشواي، وإعادته قانون المطبوعات، ومقاومته الجمعية العمومية، ورضاه بمشروع قناة السويس، فانبرىٰ له «إبراهيم ناصف الورداني» «شاب من أقباط مصر» فقتله وقُتِل به، الأعلام (٢/ ٥٩).

(٤) مصطفىٰ كامل (١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ): مصطفىٰ كامل باشا، ابن علي محمد، أحد مؤسِّسي الوطنية المصرية، نال شهادة الحقوق من فرنسا، كان فصيحًا، بليغ اللسان، قاوم الاحتلال الإنجليزي بقلمه

ومناوأتها للاستعمار الإنجليزي، فأنشأوا «حزب مصر» عام ١٩٠٨م.

وبعد اغتيال بطرس غالي باشا عام ١٩١٠م بلغ الخلاف والتوتر بين المسلمين والأقباط ذروته، وعقد الأقباط مؤتمرًا كبيرًا في مركز ثِقَلِهم بمدينة أسيوط بصعيد مصر عام ١٩١١م، ضمَّنوه مطالبهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وقد قابلهم المسلمون بعقد مؤتمر إسلامي أسْمَوْه «المؤتمر المصري» لمناقشة المسألة القبطية، تمخَّض عن رفض بعض المطالب القبطية، وأذكى روح الانتماء الإسلامي للمجتمع المصري، ثم ألقى الأقباط بكامل ثِقَلِهم في ثورة عام ١٩١٩م التي تزعَّمها سعد زغلول[1]، ورُفِعت شعاراتٌ وطنية مثل «وحدة الهلال والصليب» و«الدين لله والوطن للجميع»، ومع تنامي حركة «الإخوان المسلمون» وانتشار مبادئها الداعية لأسلمة المجتمع المصري تنامى القلق القبطي من المستقبل، ووقفوا منها موقفًا عدائيًّا. ورغم حل الجماعة رسميًّا سنة ١٩٥٤م فقد ظلت روح العداء الشعبي لدى الفريقين في ازدياد، وأسفرت عن مواجهات دامية، وفتن متلاحقة، وظهور متطرفين من الجانبَين، لا سيما في عقدَي السبعينيات والثمانينيات الميلادية، ومن الطبيعي في هذه الأحوال المتقلِّبة أن تظهر معالجات متنوعة لطبيعة العلاقات الإسلامية ـ النصرانية في المجتمع المصري، تتراوَح بين الرفض والتنديد بالآخر،

ولسانه، أنشأ جريدة «اللواء» بالعربية والإنجليزية والفرنسية لنشر دعوته، ودعا إلىٰ إنشاء «الحزب الوطني»، وانتخب رئيسًا له مدىٰ الحياة سنة ١٩٠٧م توفي شابًّا، فرثاه شعراء مصر وكُتَّابها، من مؤلفاته: المسألة الشرقية، مصر والاحتلال الإنجليزي، دفاع مصري عن بلاده. انظر: الأعلام (٧/ ٢٣٨).

(١) سعد زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ): سعد باشا بن إبراهيم زغلول، زعيم وطني مصري، تعلم في الأزهر أربع سنين، واتصل بجمال الدين الأفغاني، ولازمه، اشترك في الثورة العرابية سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م، وقبض عليه وسجن سنة ١٢٩٩هـ بتهمة الاشتراك في جمعية سرية تسعىٰ لقلب نظام الحكم، بضعة أشهر، تزعَّم حزب الوفد المصري المطالب بالاستقلال، فنفاه الإنجليز إلىٰ مالطة سنة ١٩١٩م، ثم عاد، ثم نفوه إلىٰ جزيرة سيشل سنة ١٩٢٢م، وتولىٰ رئاسة مجلس الوزراء ومجلس النواب، وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام (٣/ ٨٣).

والمجاملة والوفاق الظاهري على الأقل، ونحاول أدناه استطلاع الموقف القبطي من قضية التقريب والحوار من زوايا رصدٍ متنوعة.

١ ـ الكنيسة القبطية:

ظلت الكنيسة القبطية «كنيسة الإسكندرية» تمارس مهامها الدينية التقليدية بين رعاياها في مصر والسودان والحبشة وغيرها منذ تأسيسها، وتنأى بنفسها وأتباعها عن الدخول في صدامات سياسية أو اجتماعية، أو تحالفات خارجية صريحة مع الغزاة والمستعمرين، محافِظة على وضع الأقلية النصرانية في وسط إسلامي عريقٍ وكثيف، وظلَّ هذا التوجُّه سائدًا حتى انقضاء ولاية البابا «كيرلس السادس» بطريرك الإسكندرية والكرازة المرقسية ١٩٥٩ ـ ١٩٧١م، فـ (قد كانت فترة رئاسته للكنيسة المصرية فترة استقرار حميم للعلاقات بين الدولة والكنيسة)[(١)]، ورغم توافق الكنيسة مع مواقف الحكومات المتعاقبة على مصر من الأحداث السياسية في المنطقة، وصدور بيانات رسمية مؤيِّدة من قِبَل الكنيسة القبطية على الدوام، ورغم المجاملات المتبادلة بين رجال الدين النصارى ومشيخة الأزهر في المناسبات الدينية للفريقين، إلا أن المتتبِّع لا يلاحظ تطوير أي مشروع للتقارب والحوار الديني ـ باعتباره دينيًّا ـ على النحو السائد في لبنان والغرب النصراني، الذي شرع في تفعيل قضية «التقريب» في مطالع الستينيات، وقد حضر وفدٌ من الكنيسة القبطية ـ بصفة مراقب ـ إلى المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٣م، برئاسة القمص باخوم عطا الله المحرقي (الأنبا غريغريوس فيما بعد)، وأعلن أن: (نقط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية أعظم من نقط الالتقاء بين اليهودية والمسيحية)[(٢)]، كما أصدرت الكنيسة القبطية منفردة، ومتَّحدة مع كنيسة أنطاكية وثيقةً بإدانة مشروع تبرئة اليهود

(١) الأقباط في وطنٍ متغير: د. غالي شكري، دار الشروق، القاهرة ـ مصر، طبعة (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، (٢٠).

(٢) عن: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: طارق البشري، دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، (٦٩٤).

والاعتذار إليهم، من قِبَل المؤتمر الثالث لمجلس الكنائس العالمي المنعقد في نيودلهي عام ١٩٦١م، والمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٤م[١]، وكان لها موقف مماثل من دولة إسرائيل والصهيونية العالمية.

ولعل عدم حماس الكنيسة القبطية لقضايا الحوار الإسلامي النصراني في هذه الفترة الهادئة نسبيًّا راجعٌ إلى أمرَيْن:

أحدهما: الطبيعة الانعزالية التاريخية للكنيسة تجاه الكنائس الأخرى، وعدم تجاوبها مع خطط التطوير والتحديث التي تبنَّتْها الكاثوليكية الرومانية، ومجلس الكنائس العالمي ذو الأغلبية البروتستانتية، مما قد يُشكِّل اختراقًا فكريًّا للوضعية العقدية والنمطية التي سارت عليها الكنيسة القبطية طوال القرون السالفة.

الثاني: الإدراك الأفضل لطبيعة الدين الإسلامي بحكم المعايشة التاريخية على أرضٍ واحدة، والاختلاط المستمر الذي أورث الكنيسة القبطية خبرة بأصول الدين الإسلامي، تفتقدها الكنائس الغربية القائمة خارج دار الإسلام، أو حتى بعض الكنائس الشرقية التي يتكتل أبناؤها في تجمُّعات خاصة، ويرتبطون إداريًّا بالكنائس الغربية، أما الأقباط فهم منتشرون بين ظهرانَي المسلمين في مصر، وليس لهم مناطق خاصة أو ارتباطاتٌ خارجية، وبالتالي فليس ثمَّ جديد يسوِّغ مبادرتهم إلى الحوار الديني بعد هذه العشرة الطويلة سوى التعرض للتهمة.

وقد لا يكون هذان السببان كافيَيْن لتعليل هذه الملاحظة، لكن السبب الذي جاء لاحقًا منذ أن تقلَّد البابا شنودة[٢] الثالث منصب بابا الإسكندرية عام

---

(١) انظر: نص الوثيقة «الأقباط في وطن متغير» د. غالي شكري (٦٤ ـ ٦٦).

(٢) البابا شنودة الثالث: بطريرك الأقباط الأرثوذكس، المئة وسبعة عشر واسمه: نظير جيِّد، وُلِد في مركز (أسيوط) ١٩٢٣م، تخرج من الكلية الأكليريكية عام ١٩٤٩م ثم درس فيها، ترهب في دير السريان عام ١٩٥٤م، أسقف التعليم الكنسي ١٩٥٤م، بطريرك عام ١٩٧١م. انظر: المنجد في الأعلام

١٩٧١م قطع الطريق على جميع الفرص الممكنة لطرح فكرة التقريب، ذلك أن فترة السبعينيات وما تلاها تميَّزت بتصعيد قبطي خطير تجاه الطروحات ذات الصبغة الإسلامية، مثل إضافة عبارة «والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي من مصادر التشريع» إلى المادة الثانية من دستور ١٩٧١م «الإسلام دين الدولة»، ثم عُدِّلت عام ١٩٧٩م لتصبح «والشريعة المصدر الرئيسي للتشريع»، ثم شروع لجان من الأزهر بإعداد قوانين الحدود، ومنها قانون حد الشرب، وقانون حد الردة، والنص في اعتبار الشهادات على المسلم دون غيره.. وغير ذلك[١]، وقد قابلت الكنيسة القبطية هذه التوجهات بالاعتراض، وعقد المؤتمر القبطي بالإسكندرية في مطلع عام ١٩٧٧م، ومما جاء في مذكرةٍ قدَّمها «المجمع المقدس» للأقباط إلى مجلس الشعب حول مشروع قانون الردة: (إننا لن نستطيع أن نقبل مشروع هذا القانون، ولن نخضع له إذا نُفِّذ، وبحكم ضمائرنا سنسعى وراء كل مسيحي ترك مسيحيته لكي نرده من جديد، مهما حكمت مواد هذا القانون بالقتل على هذا التحريض، ومستعدون أن ندخل في عصر استشهاد جديد من أجل ديننا والثبات فيه)[٢]، وقد ردَّ الأزهر على المؤتمر القبطي بالدعوة إلى (مؤتمر الهيئات والجماعات الإسلامية) في نفس العام، جاء في توصياته:

- (إن كل تشريع أو حُكمٍ مخالف لما جاء به الإسلام باطل، ويجب على المسلمين رَدُّه، والاحتكام إلى شريعة الله التي لا يتحقَّق إيمانهم إلا بالاحتكام إليها.

- الأمر بتطبيق الشريعة الإسلامية، فليس لأحد أن يُبدِي رأيًا في وجوب ذلك، ولا تُقبل مشورة بالتمهُّل أو التدرج، وإن التسويف في إقرار القوانين

(٣٩٣).

(١) انظر: الأقباط والقومية العربية، أبو سيف يوسف، مركز دراسات الوحدة العربية، (١٧٠ ـ ١٧٥).

(٢) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

الإسلامية معصية لله ورسوله، واتِّباع لغير سبيل المؤمنين...)[١]، وتمادى البابا شنودة في تصلُّبه، وجعل من الكنيسة القبطية منبرًا سياسيًّا، خلافًا لعادة أسلافه، وصدرت منه (تصريحات وتعليمات لأبناء طائفته تتضمن زيادة نسلهم، انطلاقًا من أن مصر أساسًا دولة قبطية استعمرها المسلمون، وناشدهم بالاهتمام بالتبشير بالدين المسيحي، وتعبئة الرأي العام المسيحي بالخارج ضد السلطات والنظام في مصر للتدخل والضغط على المسؤولين لمنع تطبيق الشريعة الإسلامية... واتخاذه (شنودة) قرارًا بإعلان الصوم الانقطاعي تعبيرًا عن رفض أبناء الطائفة لمشروع قانون الردة، وتشكيل لجنة للرد على نشاط لجنة المطبوعات الإسلامية، ونقدها لبعض المعتقدات المسيحية، وإيعازه بعقد مؤتمر عام لمناقشة موضوع تعديل المادة الثانية من الدستور للضغط على المسؤولين، وإشعارهم برفض الشعب المسيحي ذلك التعديل معترضًا على تطبيق الشريعة الإسلامية، وتهديده بأنه في حالة عدم موافقة المسؤولين على الضمانات التي طلب إدخالها على تعديل المادة الثانية من الدستور سيجعلها دمًا للرُّكب من الإسكندرية إلى أسوان)[٢].

في مثل هذه الأجواء المحمومة، وإفرازاتها الميدانية تتلاشى فكرة الحوار والتقارب المؤطر بشعارات التواصل والتعاون، والقيم المشتركة، والشراكة الإيمانية الإبراهيمية، التي يدندن حولها الآخرون خارج مصر، وفي محاولة للتعرُّف على الخطاب القبطي حشد د. غالي شكري كمًّا من الأسئلة المتنوعة، ألقاها على البابا شنودة الثالث في حوار طويل استغرق عدة أيام عام ١٩٨٨م، وضم أجوبته بين دفتي كتاب في قرابة مئتين وخمسين صفحة أسماه: (الأقباط في وطنٍ متغيِّر)، ومع ذلك لا يجد القارئ إشارة إلى أدنى توجُّه لتبنِّي قضية الحوار والتقريب الديني مع المسلمين، كما تُطرَح في مواقع أخرى من العالم، وفي ثنايا

(١) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

(٢) العلاقات الاجتماعية الدينية في المجتمع المصري المعاصر، د. عبد الوهاب إبراهيم، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة ـ القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٧م، (٤١).

الكتاب يجد الحديث عن الحوار مع المذاهب الأخرى في أخطر القضايا التي تفصل بين الكنيسة القبطية والكنائس الغربية، وهي مسألة «طبيعة المسيح»، وهو حوار بدأه البابا شنودة الثالث مع بابا روما حينما زاره عام ١٩٧٣م[١]، ونخلص من هذا العرض إلى أن الكنيسة القبطية لم ترفع شعار التقريب بين الأديان للأسباب الثلاثة الآنفة الذكر.

٢ ـ أقباط المهجر:

إثر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م التي قام بها مجموعة أطلقت على نفسها لقب «الضباط الأحرار»، اتجهت الإصلاحات الاقتصادية والزراعية نحو «التأميم» للشركات الكبرى والأراضي الزراعية، وقد تضرَّر من هذه الإجراءات كبار ملاك الأراضي من الأقباط، فحدث في أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات موجات من الهجرة القبطية نحو العالم الغربي؛ أوروبا، وأمريكا، وكندا، وكذلك أستراليا، واستقرت هناك[٢]، وقد حقَّق هؤلاء قدرًا من النجاح المهني، وأتاحت لهم أجواء الحرية الغربية التعبير عن مكنونات صدورهم، ورصد ما يجري داخل مصر لطائفتهم، وكوَّنوا هيئاتٍ سياسية في المهجر لهذا الغرض، لعل أبرزها: «الهيئة القبطية الأمريكية».

يعرِّفها أبو سيف يوسف بأنها (حركة سياسية انعزالية في صفوف أقباط المهجر... تأسَّست عام ١٩٧٤م، في نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية، ولها مجلة ناطقة باسمها هي «الأقباط»، وتصدر باللغتين الإنكليزية والعربية، وأهداف الهيئة المُعلَنة هي: خَلْق مجتمع دولي قبطي متحد، والمساهمة في دعم كيان الأقباط بمصر، والمطالبة برفع الظلم الواقع عليهم، وإشعار المجتمع الدولي بقوة الفكر القبطي، والتراث المصري، وتأسيس معهد للدراسات

---

(١) الأقباط في وطن متغير (١٨٠).

(٢) انظر: الأقباط والقومية العربية ص١٥٣ ـ ١٥٤، ومقالة: الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث، ميلاد حنا، مجلة الاجتهاد ٣٠ـ ١٤٢.

القبطية.

وتنطلق كتابات المجلة ـ وعلى الأخص تلك التي تعبر عن قيادات «الهيئة» من منطلقات رئيسة تُحكِم رؤيتها لمجمل الأوضاع الراهنة لقبط مصر، ولعلاقاتهم بالمسلمين، ولتاريخ مصر تحت الحكم العربي الإسلامي، ومؤدى ما تذهب إليه هو أن هناك مخططًا يستهدف إبادة المسيحيين في مصر، وهذه المؤامرة جزء من مؤامرة أكبر، فالحكومات المتعاقبة الإسلامية في الشرق الأدنى تستهدف تحطيم المسيحيين اجتماعيًّا وسياسيًّا وتعليميًّا، وتحويلهم إلى الإسلام، وتتوسَّع المجلة دائمًا في عرض اعتداءات الجماعات الإسلامية على أرواح القبط، وحرق الكنائس، ومحاولة فرض الشريعة على غير المسلمين...

وعندهم أن العرب لم يقيموا في مصر حضارة، فقد زحفت عليها قبائل من البدو المتخلفين لم يكن لهم همٌّ سوى نهب البلاد، وأنهم قوَّضوا الحضارة المصرية، فضاعت المدنية والمعرفة...)[1]، فأمر هذه العيِّنة القبطية من قضايا التقارب والحوار واضح لا يحتاج إلى تعليق.

٣ ـ الوطنيون الأقباط:

لم تكن الكنيسة القبطية في جميع الأدوار هي الصوت الأعلى لأبناء الطائفة، ولم يكن «البابا» الإسكندراني هو «الرمز» الذي يلتفُّون حوله عند كل أزمة، بل ربما كان هذا هو الاستثناء، والأصل خلافه، يقول الكاتب القبطي ميلاد حنا[2]: (طوال تاريخ الأقباط كان التمثيل يتركَّز في طبقتي الباشوات الإقطاعيين والأفندية، وكان رجال الدين في كَنَفهم، فكنا نرى العمدة أو الصرَّاف أو الرجل الثري في القرية، ثم القسيس الذي يتبعه ويحصل منه على مرتب وبعض

(١) الأقباط والقومية العربية، (١٨٣ ـ ١٨٤).

(٢) محام وأستاذ مصري، له مقالات في أوضاع الأقباط المصريين في العصر الحديث، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٩٠).

المكاييل من الغلة كل عام)[١].

هكذا كان الأمر في القرن التاسع عشر وحتى السبعينيات من القرن العشرين، كان ممثلو الأقباط من الوجهاء وأصحاب الأموال، أما رجال الدين (الإكليروس) فكانوا منكفئين على أنفسهم في أديرتهم، وربما نشأ صراع بين «المجلس المِلِّي» ذي الصبغة الوطنية، و«الإكليروس» الديني المحافظ[٢]، فما الذي حدث وعكس الأمر في الثلث الأخير من هذا القرن الميلادي؟ وما آثاره؟ يجيب عن هذا التساؤل الكاتب القبطي «رفيق حبيب» في كتابه «الاحتجاج الديني في مصر» قائلًا: (مع وصول البابا شنودة الثالث إلى الكرسي البابوي في عام ١٩٧١م، وصل العديد من الرهبان إلى مناصب الأساقفة، ومعظمهم من جيل البابا شنودة، الأمر الذي أتاح أحد أهم الأهداف التي أرادها هذا الجيل، لجهة إنهاء عصر القيادات التقليدية الكنسية، والاهتمام بالقضايا السياسية التي فتحت باب الصراع السياسي بين الدولة والكنيسة، من خلال الكشف عن مضمون الموقف السياسي للكنيسة، ورغم أن الصراع بينهما لم يكن مقصودًا بحد ذاته، فإن اعتلاء البابا شنودة الثالث الكرسي البابوي، وهو مقتنع بأن هذه المكانة القيادية هي الطريق لتحقيق آمال الطبقة الوسطى، والمطالبة بحقوق الشعب القبطي، جعل النبرة السياسية أعلى من النبرة الاجتماعية، وأصبح الصراع حتميًّا، وقد اتخذت قيادات الكنيسة طريقًا خاصًّا بها في هذا المجال كان أقرب إلى أساليب الاحتجاج والاعتراض، هذه الأساليب التي كانت ترمي لعدة أهداف:

١ ـ قيام الكنيسة بدور الممثل للشعب القبطي، بدلًا من الصفوة القبطية.

٢ ـ فرض سلطة الكنيسة على الصفوة القبطية.

٣ ـ تحقيق آمال الطبقة الوسطى القبطية التي تسعى لتحقيق مكانة مقبولة في

(١) الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث، ميلاد حنا، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ١٤٠).

(٢) انظر: الأقباط في إطار الجماعة الوطنية.

المجتمع والحياة.

٤ ـ كسر حالة السلبية التي ميَّزت الكنيسة والأقباط لفترات طويلة.

ولكن مواقف الكنيسة لم تستطع تحقيق كل هذه الأهداف، وكان الصدام بين الدولة والكنيسة عاملًا مهمًّا في إحباط هذه الأهداف، هذا الصدام كان نتيجة لاستخدام أساليب الاحتجاج، والتي تمثَّلت في البيان القبطي لعام ١٩٧٧م، والامتناع عن إقامة شعائر العيد في عام ١٩٨٠م وسواها، والتي كانت سببًا في خَلْق العديد من المشكلات التي جعلت المجتمع القبطي يعيش في عزلةٍ إعلامية؛ اختيارية أحيانًا، وإجبارية أحيانًا أخرى، حيث إن الشعب المصري لا يعرف الكثير عن الكنيسة واتجاهها، ولا يستطيع بسهولة معرفة أهدافها، وهذا الأمر يُبرز مأزق النجاح عند البابا شنودة وجيله الذين استطاعوا الوصول إلى الكنيسة، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق أحلامهم وأهدافهم التي نشدوها)[(١)].

إن نبرة التململ في صفوف المثقَّفين من الأقباط آخذة في التصاعد حيال مواقف الكنيسة، أو على التحديد مواقف البابا المجازفة، مما حمل أحدهم – ميلاد حنا– أن يتساءل: (إلى أين تتجه الكنيسة القبطية؟ خصوصًا أن البابا قد تجاوز السبعين، ويشكو بعض المتاعب الصحية)[(٢)].

وينتظم في الاتجاه الوطني عامة المثقفين الأقباط، باعتباره الخيار الأصلح للطائفة، كما أنه الأسلوب المتعقل لمواجهة الفتن الطائفية، ويركز هؤلاء على شعارات الوطنية والتآخي بين مكوني المجتمع المصري؛ المسلمين والأقباط، بل والحديث عن «القومية المصرية» أكثر من «القومية العربية»، ونبذ التعصب من الجانبين، وإبراز الرموز الوطنية، ومن أبرز هؤلاء الكتاب: وليم سليمان قلادة، فقد كتب فصلًا مطوَّلًا في الكتاب الذي أصدره مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بعنوان: «العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في

(١) عن عرض للكتاب المذكور لـ: ياسر زغيب في مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٢) الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ١٤٧).

الواقع المصري.. المفهوم الأساسي في الماضي والحاضر والمستقبل» من (ص٢٤٩ إلى ص٣٦٧) عرض فيه مجمل العلاقات التاريخية والراهنة بلغة تصالحية ودية، استعمل فيه مصطلح «الحوار العلائقي الإسلامي المسيحي»، وقسَّمه إلى عشر مراحل، تتراوح بين الجدال إلى اللقاء إلى الردة، حسب الرؤية الوطنية البحتة، وفي المرحلة السابعة التي أسماها «الحوار العلائقي» لا يجد الكاتب ما يستشهد به سوى سياق قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، وجهود مجلس الكنائس العالمي فقط، ولا شيء من الشواهد المحلية، ويكتفي بالتعقيب قائلًا: (هذان الموقعان ـ نِسيان الماضي، والاعتراف بالذنب[١]- لا محل لهما في الحوار الإسلامي المسيحي على الأرض العربية، خصوصًا في «اللقاء» الذي يجري في مصر، فالعدوان على الأرض العربية من مختلف مراحل التاريخ لم يكن على الإسلام والمسلمين وحسب، ثم إن مقاومة هذه الهجمات اشتركت فيها جميع مكوِّنات الجماعة العربية ـ خصوصًا المصرية- بل إن الخاصية المميزة للِّقاء هنا هي الاشتراك في الحركة الوطنية والدستورية في مختلف مراحلها، ثم إن «الماضي» في اللقاء العربي -خصوصًا المصري- مُعطًى يتعيَّن التمسك به وتذكُّره، لا نسيانه، فمن خلال هذا الماضي قامت العلاقة الحميمة بين المسيحيين والمسلمين المصريين، إنه الركيزة المأمونة التي يجري الاستناد إليها لصياغة مفهوم نظري لهذا «اللقاء»، وممارسته، والتقدم به إلى آفاق أوسع وأكثر فاعلية)[٢].

وهكذا لم يجد الكاتب في تتبُّعه لمراحل العلاقات بين المسلمين والأقباط في المجتمع المصري مادة يُسهم بها في قضية «التقارب» و«الحوار» الذي نشط منذ أوائل الستينيات الميلادية، سوى حواشٍ واستدراكات على متن مقرَّرات

---

(١) الإشارة إلىٰ ما تضمنه بيان المجمع الفاتيكاني الثاني من الدعوة إلىٰ نسيان الماضي والاعتراف بالمظالم.

(٢) العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في الواقع المصري، من: العلاقات الإسلامية ـ المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، (ص٣٤٥ـ٣٤٦).

المجمع الفاتيكاني الثاني، تَصُبُّ في الفكرة الوطنية التي يتبنَّاها الكاتب، مما يدل على خلو الساحة المصرية من أي أثر لمشروع حوار أو تقارب من هذا النمط، وقد أَلَّف الكاتب في صميم الموضوع كتاب (الحوار بين الأديان) عام ١٩٧٦م وضع فيه أربع قواعد للحوار، هي:

(القاعدة الأولى: فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهومًا: الحوار هو اللقاء مع الآخر الحقيقي الحي، وليس مع فكرتي عنه، الحوار هو منهج الحياة في المجتمع التعدُّدي، وهو يفترض الخلاف بين أطرافه، وهو لا يهدف إلى أن يحتوي الطرف الآخر وعقيدته.

القاعدة الثانية: عن عقيدة الشخص: الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهمًا لدينه، كي يستطيع عرضه للآخر بأسلوبٍ مقبول ومُقنِع، فليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد.

القاعدة الثالثة: عن المطلَق: إن ارتباط الإنسان بالمطلَق في المسيحية والإسلام واليهودية أيضًا يجعله موضوعًا نموذجيًّا للحوار بين الأديان.

القاعدة الرابعة: عن الممارسة؛ لأن هدف الدين ليس مجرد المعرفة، ولكن الممارسة والحوار الناجح هو الذي يؤدي إلى اتخاذ الطرفين موقفًا عمليًّا؛ لأن الحوار النظري هو وسيلة للهروب وللمهادنة، والحوار عملية متطوِّرة، تراكمية، والتزام الممارسة يؤثر في الطرفين ويقارب في اتجاهاتهما الفكرية)[١]، ولكن هذا الكتاب ليس نتاج حوار ديني محلي، بل هو باعتراف مؤلفه: (متابعة للندوات التي عُقِدَت بين المفكرين المنتمين إلى مختلف أديان العالم، ومن بينها ندوات الحوار المسيحي ـ الإسلامي)[٢]، ولذلك لا يجد القارئ فرقًا بين هذه القواعد

(١) الحوار بين الأديان، نقلًا عن مقالة «الحوار المسيحي الإسلامي» لعفيف عثمان، مجلة الاجتهاد عدد (٣١ـ ٣٢/ ١١٨).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية في الواقع المصري، من: العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٣٥٢).

وما كتبه موريس بورمانس وغيره من الكتاب الغربيين.

● خلاصة وتحليل: تبيَّن مما سبق أن الأقلية النصرانية في مصر ـ وعامَّتها من الطائفة القبطية ـ لم تَتبَنَّ قضية التقريب والحوار بالصيغة السائدة عالميًّا في النصف الأخير من القرن العشرين الميلادي، وهي في أحسن الأحوال تلوذ بعباءة الوطنية لإيجاد موقعٍ لها في نسيج المجتمع المصري الحديث، وهي بذلك توافق الأقلية المسيحية في بلاد الشام حين تعبِّر عن ذلك بمصطلح «العيش المشترك»، وتُفارِقها من جهة أن نصارى الشام عروبيون، يرفعون شعار القومية العربية بقوةٍ وحماسة، كرمز للرابطة البديلة عن الإسلام، ولكن «العروبة» وصف لا يسوغ أن يلجأ إليه نصارى مصر، حيث إنهم عرقيًّا سلالة أجنبية تمامًا عن العرق العربي.

ومن جهة أخرى يُقدِّم نصارى الشام من أرثوذكس وكاثوليك أنفسهم كوسيط حواري بين الإسلام والغرب النصراني، بينما لا يدَّعي ذلك أقباط مصر، ولا يُدلُّون به، نظرًا للشروخ العميقة التي تفصلهم عن النصرانية الكاثوليكية والبروتستانتية، التي تحتاج إلى وقتٍ طويل لترميمها.

ولا ريب أن للأحداث الطائفية، والتعصب من الجانبَين الذي تستفزه طبيعة التغلغل الاجتماعي، والضغوط المعيشية، دورًا كبيرًا في إقصاء فكرة التقريب بالحوار، والاستعاضة عنها بعرائض الشكاوى والمطالبات باسم الوطنية، فهل تُفلِح الوطنية لتكون عروةً يستمسك بها أقباط مصر في مزدحم المحيط الإسلامي؟ أم تكون قشةً يتعلَّق بها الغريق ولا تغني عنه شيئًا؟ كالقومية العربية لنصارى الشام، الذين سرعان ما شرعوا في البحث عن بديل مناسب عنها كالحوار والتقريب، يُقدِّم الكاتب محمد عفيفي، المعني بشؤون الأقباط إجابة تقريبية على هذا السؤال فيقول: (.. جاءت المحاولات في القرن التاسع عشر لتقديم الوطنية كصيغة بديلة للعلاقة بين المسلمين والأقباط، وإنهاء عهد الذمة.

ولكن في رأينا ـ للأسف[١]- لم يُرْسِ القرن التاسع عشر ولا القرن العشرين أُسُسًا متينة لمفهوم «المواطنية»، ولم يترجم هذا المفهوم بصورة واقعية ملموسة، وبقي مفهوم الوطنية مفهومًا هلاميًّا إلى حد كبير، يردِّده البعض دون محاولة الاقتراب منه ووضعه في صيغة عملية، ولا يأتي كلامنا هذا جزافًا، ولكن نتيجة لمحاولتنا في قراءة التاريخ المصري الحديث، فنحن نزعم أن مفهوم الوطنية مفهوم من مستحدَثات القرن التاسع عشر، وهو مفهوم غربي حَدَّت منه إلى حدٍّ كبير الرابطة الدينية، والجامعة الإسلامية، ثم بعد ذلك «القومية»، وما زالت مصر تبحث عن الطريق منذ دعوة «مصر للمصريين» في الثورة العرابية، وتعريفات لطفي السيد[٢] للوطنية المصرية في مطلع القرن العشرين، وتيار الوعي الوطني الذي أحدثته ثورة ١٩١٩م، ودعاوى طه حسين[٣] ولويس عوض[٤] بإحياء مصر القديمة ذات العلاقات المتوسطية، ودعاوى الفرعونية؛

---

(١) كان الأجدر بالكاتب المسلم أن يتأسف علىٰ انفراط عقد الذمة الذي جاء به الشرع الحنيف، وليس علىٰ عدم تحقيق مكاسب للأقلية النصرانية علىٰ حساب الأصول العقدية والتشريعية للمجتمع المسلم، الذي يحفظ حق الذميين ويصونهم من العدوان علىٰ أنفسهم وأموالهم.

(٢) أحمد لطفي السيد (١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ) (١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م): رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ينعت بأستاذ الجيل، عمل في المحاماة وشارك في تأسيس حزب الأمة سنة ١٩٠٨م، وكان من أعضاء الحزب الوطني القدماء، ومن أعضاء حزب الوفد، وتحول إلىٰ حزب الأحرار الدستوريين، عُيِّن مديرًا لدار الكتب المصرية، فمديرًا للجامعة عدة مرات، فوزيرًا للمعارف والداخلية والخارجية، تأثَّر بالأفغاني، وتأثر به طه حسين، وكان ذا توجه تغريبي في الفكر والاجتماع والسياسة، من آثاره: علم الطبيعة، السياسة، الكون والفساد. انظر: الأعلام (١/ ٢٠٠).

(٣) طه حسين (١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ): طه بن حسين بن علي بن سلامة، دكتور في الأدب، أصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكُفَّ بصرُه، درس في الأزهر، ثم بالجامعة المصرية القديمة، سافر في بعثة إلىٰ باريس، فتخرج بالسوربون، وعاد إلىٰ مصر عام ١٩١٨م، فعين محاضرًا في كلية الآداب، ثم عميدًا لها، فوزيرًا للمعارف، تأثر بالمستشرقين، وضمَّن كتبه بعض آرائهم الضالَّة، ترك مؤلفات عديدة، منها: في الشعر الجاهلي، الأيام، قادة الفكر. انظر: الأعلام (٣/ ٢٣١).

(٤) لويس عوض (١٣٣٣ ـ ١٤١٠هـ): لويس بن حنا عوض، كاتب مصري، وقف من الحضارة العربية وإسهاماتها موقفًا معاديًا، لا يراها شيئًا، وأن دورها قد انتهىٰ، والعرب عنده إما جهلة أو ناقلون، تخرَّج بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧م، وأوفده أساتذته الإنكليز إلىٰ جامعة كمبردج البريطانية فعاد

أو التيار الإسلامي، والجامعة الإسلامية على يد مصطفى كامل، ثم الأُمَمِيَّة الإسلامية على يد الإخوان المسلمين في أربعينيات هذا القرن، ثم الجماعات الإسلامية في السبعينيات، أو التيار القومي العربي، لا سيما في الحقبة الناصرية، فأين الأقباط من كل ذلك؟)[1].

إنها إجابة مختومة بسؤال يوحي بالإجابة، لقد ضاع الأقباط بين دعاوى القوميين، ولم يفلح الوطنيون في إرساء مبادئهم في الخضم الإسلامي المتجدد.

رابعًا: حقيقة التقريب عند بعض الجدليين من النصارى العرب:

لم يَزَل السجال العقدي، ومجادلة أهل الكتاب ظاهرة متصلةً بين المسلمين الذين أمرهم ربهم بمجادلة مخالفيهم بالتي هي أحسن: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا مَن ظلم: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[2] [العنكبوت: ٤٦]، وبين خصومهم من اليهود والنصارى الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِنۡ عِنۡدِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما لم تَزَل حجة الله بالغة، قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾[الأنعام: ١٤٩] وحجة المعاندين داحضة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]، والقرآن يعلو ولا يُعلَى عليه، وقد تكفَّل الله بإظهار دينه، وإعلاء كلمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]، ولم يكن يجرؤ عُبَّاد الصليب

بالماجستير، ثم إلىٰ جامعة برنستون بأمريكا ونال الدكتوراه، وعمل أستاذًا في جامعة القاهرة، وتولىٰ تحرير صحيفة الأدب والفن، وهو من دعاة إحلال اللغة العامية محل الفصحىٰ وكسر عمود الشعر، نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٨، وقد ردَّ عليه، وكشف زيفه شيخ العربية محمود محمد شاكر في كتابه الدامغ: أباطيل وأسمار. انظر: ذيل الأعلام ١٦٠.

(١) الأقباط بين عهد الذمة والوطنية، محمد عفيفي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٩٨).

(٢) انظر: فصل: المنهج الشرعي في دعوة أهل الكتاب، من الباب الثالث.

ممن عاشوا بين ظهرانَيِ المسلمين، وخبروا متانة دينهم، على محاجَّتهم عَلنًا طوال القرون الخالية حتى دبَّ إليهم إخوانهم من نصارى الغرب في فترة ضعفٍ وانحلال، وغلبة هوًى وجهل في القرنَيْن الأخيرَيْن من تاريخ الإسلام، فأوحوا إليهم بعض الشبهات ليجادلوا المسلمين، ومن أقدم شبهات المستشرقين، من يهودٍ ونصارى، دعوى أن الإسلام خليطٌ مُلَفَّق من الثقافات اليهودية والنصرانية، تمت إعادة كتابتها بلسانٍ عربي، على يد رجلٍ ذكي ألمعي موهوب، وليس نبيًّا يوحى إليه من الله، هو محمد ﷺ، ضمَّها بين دفتي كتابٍ، هو «القرآن»[(١)].

وقد اقتات نفرٌ من النصارى العرب على هذا الفتات، واجترُّوه برهة من الدهر، حتى مجَّه عقلاؤهم واستهجنوه، ولسنا بصدد نقض هذه الشبهة البائدة، وإنما نلفت النظر إلى أن بعض هؤلاء النصارى نقلها من ميدان الطعن المجرَّد، إلى ساحة الحوار الإسلامي النصراني، في محاولةٍ «احتوائية» للإسلام، باسم التقريب بين الأديان.

ولعل أول مَن سبق إلى هذا الاستدراج المفضوح الماروني اللبناني الأب «خليل إدّة» بكتابَيْن صدرَا عام ١٩٣٩م بعنوان: «المسيحية في الإسلام»، فقد أراد أن يتخذ من أوجه التشابه العامة بين الإسلام والنصرانية ـ في نظره ـ ذريعة للقول: إن الإسلام مسيحية مقنَّعة. وهو حين يدَّعي ذلك، لا يفعله لأغراضٍ جدالية، بل سعيًا للتقارب مع المسلمين، عن طريق اكتشاف أرضية مشتركة[(٢)].

---

(١) ممن زعم ذلك من المستشرقين اليهود: جايجر، وهوروفيتز، وتري، وكاتشر، ومن النصارىٰ: مير، وزويمر، ورودلف، ولامنس، وأندريه، وستاركي. انظر: مقالة: جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٣) د.رضوان السيد، وقد حكىٰ الله هذه الفرية عن مشركي العرب، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *﴾ [النحل: ١٠٣].

(٢) يقول د. رضوان السيد: (أما المحاولة التي تحولت إلىٰ نهجٍ أفاد منه سائر المجادلين المسيحيين العرب في مواجهتهم للإسلام؛ فهي المغامرة الحياتية للأستاذ يوسف درة الحداد، التي تعتبر من

وقد طُويت فكرة الأب إدة، باعتبارها نوعًا من محاولة الالتقاء في منتصف الطريق ـ على الأقل ـ في ظل مناخ اجتماعي وسياسي معين، تلقَّف هذه الفكرة البسيطة الأب الكاثوليكي «يوسف درة الحداد (١٩١٣ ـ ١٩٧٩م)»، فشرَّق بها وغرَّب، وغاص وحلَّق، وجعل منها مشروع العمر، فسوَّد آلاف الصفحات في تقريرها، والاستشهاد بما قَرُب وبَعُد من الأخبار والأشعار والقصص والأساطير المتصلة بوجود النصارى في بلاد العرب، فنظم سلك هذا المتناثر في عقدٍ خيالي مبهرَج، ساعَدَه في ذلك قلم سيَّال، لا يكل ولا يملِ من تكرار الفكرة الواحدة في عشرات المواضع من الكتاب الواحد، وكأنما يلقِّن قارئه كما يلقن معلِّم الصبيان، وقد سلَّط فكره الضالَّ على آي الكتاب العزيز، فصار يهرف بما لا يعرف، ويفسِّر القرآن بهواه وما يتفق مع أسطورته التاريخية[1].

طرق الحداد مجموعةً من الكتب تحت مسمى: «في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي» تضمَّنت:

١ ـ مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

٢ ـ القرآن دعوة «نصرانية».

٣ ـ القرآن والمسيحية.

وقد أتى بالعجب العجاب الذي لا يتفق مع لغة العصر، بل شحنها بمقدمات مرفوضة نصًا وروحًا لدى أدنى مسلم، بل لدى أدنى عاقل منصف، استظهر فيها شبهات المستشرقين البائدة في القرآن ونبي الإسلام ﷺ، وصاغها في نظرية مُوغِلة في الغرابة تبعث على السخرية والاستهجان، ولولا أنه قدَّم هذه الأفكار بوصفها أساسًا للحوار الإسلامي النصراني في نظره، وإلا لما استحقت الإشارة

وجهة نظري أهم الجدليات الحديثة ضد الإسلام، بعد كتاب «ميزان الحق» للقس البروتستانتي Pfander، ويرجح أن تكون صدرت مؤلفاته بين عامي (١٩٥٦ ـ ١٩٧٠م)، جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٣).

(١) المرجع السابق.

والمناقشة، وكان موضعها الصحيح في حقل التصنيف مع شبهات النصارى والمستشرقين المتهافتة أمام الدين الحق.

ويظهر لي أيضًا أن تلك الأفكار المُغربة موجودة لدى المؤلف سلفًا، وليس الباعث لها مشروع حوار طارئ، فقد قرَّر المؤلف هذه الدعاوى وردَّدها في مجموعة أخرى من كتبه أسماها «دروس قرآنية»! تضمَّنَت ثلاثة كتب أيضًا، هي:

١ ـ الإنجيل في القرآن.

٢ ـ القرآن والكتاب، في جزأيْن: بيئة القرآن الكتابية، وأطوار الدعوة القرآنية.

٣ ـ نظم القرآن والكتاب، في جزأيْن: إعجاز القرآن، ومعجزة القرآن.

ثم وجد المؤلف بُغيته في قضية «الحوار»، فصنع لها إطارًا ضم تلك الأفكار المسبقة، وسمَّاه «مدخلًا»، وختم بها باعتبارها محور ذلك الحوار، وبَيْن المدخل والخاتمة يجترُّ الكاتب دعاويه المزيفة التي سوَّد بها مئات الصفحات، وحشد فيها مئات الشبهات التي تحتاج لدحضها وبيان عوارها لمؤلفات موازية في ضخامتها للأصل الفاسد المراد نقضه[(١)]، مما يخرج بنا عن خصوصية البحث، ونكتفي بإشارات جامعة للافتراءات التي يدندن حولها المؤلف مقدِّمًا إياها أساسًا للحوار الصحيح ـ في نظره ـ بين الإسلام والنصرانية.

يؤسِّس الأب يوسف الحداد مشروعه التقاربي بين الإسلام والنصرانية على دعوى مفادها أن الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن ما هو إلا ثمرة جهود طائفة النصارى، وهم الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام من بني إسرائيل بوصفه بشرًا يوحى إليه لا إلهًا، وبقوا مستمسكين بالتوراة والإنجيل معًا، بخلاف أتباع بولس الذين هم عامة النصارى اليوم.

---

(١) ألف المحامي أحمد عمران عام ١٩٩٥م كتابًا ضخمًا بعنوان «القرآن والمسيحية في الميزان»، نقض فيه دعاوى الحداد في كتابه: «القرآن والمسيحية».

ويحلو للأب الحداد أن يُنظِّر افتراق القوم على النحو التالي: (هذا السلوك المختلف في الجماعة الواحدة، شق المسيحية منذ تأسيسها إلى سنة وشيعة: سُنَّة المسيحيين الذين يتبعون شِرعة الرسل في مجمع أورشليم[١]؛ وشيعة النصارى اليهود الذين ظلوا يُقِيمون التوراة والإنجيل معًا بزعامة آل بيت المسيح أسقف أورشليم)[٢].

وقد احتدم النزاع العقدي بين الفريقَيْن، وآلَ إلى اعتبار «النصارى» مبتدعة وهراطقة ومرتدين، (فالردة «النصرانية» موضوعها: الكفر بإلهية المسيح، والكفر بالفداء في صلبه، وينتج عن ذلك الكفر بالتثليث، والكفر بالتجسُّد، هذه هي عقيدة «النصارى» في المسيح، وسيقومون عليها طوال عهد الفترة ما بين الإنجيل والقرآن»[٣].

ونصل مع المؤلف إلى مبتغاه من إبراز هذا الانقسام وما تلاه من أحداثٍ تاريخية أدَّت إلى نمو المسيحيين أتباع بولس وضمور النصارى، فيقول:

(بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة عند الروم هاجَرَ اليهود إلى دولة الفرس يعتصمون بها، ويعملون لها بين العرب، ووقع النصارى من بني إسرائيل بين نارَيْن؛ نار بني قومهم اليهود، ونار بني دينهم المسيحيين؛ فلم يبقَ لهم من ملجأٍ سوى الحجاز الذي تحميه صحاريه من استعمار الدولتَيْن)[٤].

وهنا يحلِّق الأب الحداد في أجواز الخيال، فيضخِّم دور النصارى، الذي يجمع مؤرخو النصرانية على انقراضهم، فيجعل منهم (أساس النهضة الجاهلية في السياسة والتجارة والثقافة والديانة، ومن القرائن القرآنية نرى أن النصارى من بني إسرائيل أطلقوا في مكة والحجاز لنشر دعوتهم ثلاث حركات:

---

(١) راجع التمهيد: المبحث الثاني.

(٢) القرآن دعوة نصرانية: الأب: يوسف درة الحداد، (٥٦).

(٣) القرآن دعوة نصرانية، (٦٦).

(٤) القرآن دعوة نصرانية، (٢٢٩).

أولًا: الحركة الحنيفية:... وربطوها باسم إبراهيم؛ جد إسرائيل وإسماعيل، وأسْمَوْها «ملة إبراهيم»... وزعيمها «ورقة بن نوفل» قس مكة.

ثانيًا: الحركة الإسلامية: ثم سمَّى النصارى من بني إسرائيل دعوتهم «الإسلام»، وذلك قبل القرآن... وذلك في محاولة منهم لتعريب «النصرانية» باسم الإسلام، وتأليف العرب إليها بحجة أنها ليست اليهودية ولا المسيحية؛ فلا يتعرَّضون فيها لغضب الفرس مع اليهود، ولا لغضب الروم مع المسيحيين، فالحنيفية والإسلام صيغتان «للنصرانية».

ثالثًا: الدعوة القرآنية:... الدعوة القرآنية هي دعوة النصارى من بني إسرائيل، ومَن «تنصَّر» معهم من العرب، فهم أُولُو العلم المعنيُّون بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] الذين يشهدون مع الله وملائكته ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والدعوة القرآنية «تأييد» للطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، على ﴿عَدُوِّهِمْ﴾، الطائفة اليهودية التي كفرت به: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤][1].

وبعد هذا التحليق الشاهق يهبط الكاتب ليرسم التفاصيل، ويضع النقاط على الحروف، فيعقد بحثًا بعنوان: «محمد على درب «النصرانية» من وحي السيرة، يتفنَّن فيه بكل ما أوتي من حيلة وسيولة قلم في جمع متناثر الأخبار، فيلوي أعناقها، ويخطم آنافها، ليثبت أن محمدًا ﷺ ربيب النصرانية، وابن بَجْدَتِها ـ حاشاه ـ (فيكون جد محمد، عبد المطلب، أول مَن «تنصَّر» من قريش... ويكون محمد قد وُلِد في بيت «نصراني» في زعامة الدين والدنيا)، بل إن كرمه يَسَعُ أبوَيْ نبينا محمد ﷺ، وعمه أبا طالب، فيمنحهم صكًّا باعتناق النصرانية، (وكان أول عمل للكفيل الكبير أنه ختن حفيده في اليوم الثامن على عادة النصارى من بني إسرائيل... كان العمل الثاني أنه وجد له حاضنةً نصرانية

(١) القرآن دعوة نصرانية، (٢٣٠ ـ ٣٢١).

اسمها «بركة الحبشية»... فكان محمد طفلًا في حضانة مسيحية... فجاءت الحاضنة المسيحية بمحمد الصبي إلى ورقة بن نوفل، قس مكة، وهو بمعبده ومَنْسكه في حِرَاء، فعمَّده بماء زمزم، وهذا معنى أسطورة «شق الصدر»)[١].

أما قصة (بحيرا) الواهية سندًا ومتنًا عند المحققين[٢] فليست أسطورة عند الأب الحداد، بل هي (برهان على انتساب أبي طالب ومحمد إلى مذهب بحيرا «النصراني»، واعتماد الإمام الأكبر في «علم النصرانية» الذي ينتهي إليه ـ كأنه بابا تلك الأيام، في الفاتيكان- «على كتاب يتوارثونه كابرًا عن كابر»، هو إشارة واضحة إلى «إنجيل النصارى»... فزيارة محمد الفتى له كانت حَجًّا إلى الإمام الأكبر «للنصرانية»؛ وفي هذه الحجة تقرَّر مصير محمد، في قول بحيرا عنه: «سيكون نبي هذه الأمة»... وسترى بعد اثنتَيْ عشرة سنة أخرى قَسَّ مكة يقول لابنة عمه خديجة التي تستفتيه في زواجها من محمد، أن افعلي؛ لأنه «سيكون نبي هذه الأمة»، فذهبت كلمة السر في مصير محمد)[٣].

وخديجة رضي الله عنها -في زعم الكاتب- كانت على النصرانية، وزواجها من محمد ﷺ كان بمشورة ورقة بن نوفل؛ لاطِّلاعه على كلمة السر[٤] من

(١) القرآن دعوة نصرانية، (٢٩٨ ـ ٣٠٢)، وحادثة شق الصدر في صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، وليس فيها علىٰ تنوع سياقاتها ذكر لورقة بن نوفل.

(٢) انظر دراسة الدكتور أكرم ضياء العمري للقصة في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٠٦ ـ ١١١).

(٣) القرآن دعوة نصرانية، (٣٠٤ ـ ٣٠٦)، والكاتب يستقي خيالاته من روايات نصرانية شرقية حُكِيَت حول شخصية الراهب «بحيرا»، طُوِّرَت، وجُمِعت في كتابٍ عرف باسم «سفر بحيرا» (وهو كتاب مسيحي من المحتمل أن يكون قد وُضع في صورته الحالية في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر..، يتألف من ثلاثة أجزاء..، وقد ورد في الجزء الثاني، الذي يكوِّن أسطورة بحيرا المنحولة كيف لقَّن سرجيوس محمدًا ﷺ عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن، وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإلهٍ واحد، ومن الواضح أن هذا الجزء من الكتاب يراد به إظهار محمد أنه نبي كاذب تلقىٰ وحيه من راهب منشق هرطقي). انظر: حاشية مترجم الإسلام والمسيحية، (٧٢)، وهكذا انتهت سلسلة الكذب بالأب يوسف الحداد.

(٤) لعله يقصد «سر السيامة» ـ أحد الأسرار السبعة ـ الذي يزعم النصارىٰ أنه يحصل به انتقال السلطة الروحية من المسيح إلىٰ الرسل الأساقفة. انظر: مبحث النصرانية في التمهيد.

مرجعه الأعلى بحيرا، ولهذا (أقام محمد خمسة عشر عامًا في بيت خديجة، يتمتَّع بالجمال والمال والسيطرة التجارية على قريش والجزيرة، ويتدرَّب في كنف القس ورقة على الرسالة «النصرانية» بين العرب، ويَحْضُر ترجمة ورقة لإنجيل النصارى من العبرانية إلى العربية، ويتعلَّم «المِثل» القرآني)[١] (الأحقاف: ١٠) الذي فيه «علم الكتاب» (الرعد: ٤٥)؛ ويستعد لأن يكون «أول المسلمين» (الأنعام: ١٦٣)، (الزمر: ١٢) متى دقَّت ساعة الله.

وحُبِّب إليه الخلاء، فكان يختلي مع قَسِّ مكة شهرًا من السنة، شهر رمضان، في الصيام والنسك والتعبُّد، على طريقة الرهبان، يتأمل في الوجود، ويستذكر ما تعلَّمه من أستاذه القس، وهو مجاور بجواره)[٢].

هكذا يعبث الأب الحداد بالتاريخ، وينسج خيوط روايته الوهمية، بلا مستند أو أثارة من علم.

وماذا بعد نزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، هل انتهت فترة الحضانة النصرانية للدين الوليد؟ يقول القاصُّ: (توسَّم زعماء «النصرانية» بمكة في ابن قرابتهم محمد بن عبد الله الكفاءةَ لخلافة أئمتهم في الدعوة إلى «النصرانية» وفرضها بالدعوة، وبالجهاد إذا اقتضى الأمر، على مكة والحجاز والجزيرة، «أمة وسطًا» بين اليهودية والمسيحية، ودولة وسطًا بين الفرس والروم، فكان لهم بعد خمسة عشر عامًا من الاستعداد الديني والنفسي والفكري، في تلك «الليلة المباركة»، «ليلة القدر» من شهر رمضان، بتلك «الرؤيا الصالحة»[٣]،

---

(١) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والآية تدل علىٰ عكس مراده، فالإسرائيلي المؤمن في الآية شاهد علىٰ صدق ما جاء به النبي ﷺ وليس معلمًا له.

(٢) القرآن دعوة نصرانية (٣٤٢).

(٣) يعرِّض الكاتب بإنكار الوحي، وأن ما حصل للنبي ﷺ في غار حراء كان مجرد رؤيا، ويُعَمِّي علىٰ القارئ المسلم بالاستشهاد بالآية الدالة علىٰ الرسالة، ومن المعلوم أن الرسالة عند النصارىٰ وظيفة كبار الدعاة وليست وصفًا لأنبياء الله، ولهذا يقولون: الرسول بطرس، وبولس..، ولا يقولون الرسول

الصادقة، وكان الله نفسه من وراء قصدهم، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤])[1].

ولكن إلامَ يقودنا الأب الحداد في هذه الرحلة المضنية المليئة بالأكاذيب والمغالطات، وما علاقة هذا الهراء بقضية «الحوار الإسلامي المسيحي» وكيف كان مدخلًا له؟

على القارئ أن يحبس أنفاسه؛ لأن الأب الحداد سيعلن مفاجأةً تاريخية في ختام كتابه: (سأفاجئ المسلمين والمسيحيين في هذا الكتاب بأنهم إخوة على دين واحد، وهم لا يشعرون، وإن افترقوا إلى سُنَّة وشيعة، ما بين مسيحية وإسلام.

لا أقصد فقط وحدة التوحيد بينهم، وهي على حرفٍ واحد في التوراة والإنجيل والقرآن: «قل هو الله أحد»، إنما أقصد الوحدة المصدرية التي تجمع الإسلام والمسيحية في الإيمان بالإنجيل، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، ﴿وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ من العرب [المائدة: ٤٩]، وفي الإيمان بالمسيح، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] ، في جامع واحد مشترك هو «النصرانية» القرآنية.

أبدأ بتبديد وهم شائع يقع فيه الجميع حتى اليوم، وهو أن النصرانية والمسيحية شيء واحد؛ فهما في الرأي العام الموهوم اسمان لعقيدة واحدة، مع أن الحقيقة والواقع غير ذلك.

وهذا الوهم المتواتر يستند إلى واقعٍ قرآني، فالقرآن لا يذكر اسم «مسيحيين» على الإطلاق، بل يشملهم باسم «نصارى» مما يخلُق تعارضًا في تصاريحه، تزيله القرائن، وتلك الظاهرة القرآنية الكبرى ليست مسألة لغة فحسب، إنما هي

عيسىٰ، كما أنهم يثبتون نزول الروح القدس علىٰ الرسل، بل وغير الرسل، دون أن يكون ذلك مستلزمًا للنبوة، راجع التمهيد، مبحث النصرانية.

(١) القرآن دعوة نصرانية، (٣٤٣).

مسألة عقيدة، والخلط بين اللغة والعقيدة كان سبب تواتر الفهم الخاطئ للقرآن والإسلام، وهذا الفهم المشبوه كان سبب سوء التفاهم المتواتر ما بين الإسلام والمسيحية، ومصدر الصراع الأليم الأثيم فيما بينهما عبر التاريخ.

وقد آنَ لنا أن نعرف الحقيقة القرآنية التي تجمع بين الإسلام والمسيحية في أصل واحد هو «نصرانية» محمد والقرآن، لتقييم المفاهيم، وتحسين الصلات الأخوية لفتح حوار أخوي جديد ما بين الإسلام والمسيحية، طليعة عهد جديد من الإخاء الأصيل، والولاء النبيل، لأمد طويل)[1].

هكذا أسَّس الأب الحداد بنيان مشروعه الحواري على شفا جُرُفَيْن هارِيَيْن:

أحدهما: اعتبار الدين الإسلامي ونبيه وكتابه مرحلةً من المراحل التاريخية للنصرانية المنشقة ـ في نظره ـ عن المسيحية القويمة، كما انشقت الشيعة عن أهل السنة في الإسلام، وبناءً عليه فحوار الإسلام مع المسيحية ـ حسب اصطلاحه ـ هو حوار الفرع مع الأصل، فالإسلام كله نسخة عربية من «النصرانية»، والقرآن «دعوة نصرانية» بحروفٍ عربية تم استنساخها من نصارى مكة، الذين مهَّدوا لظهور الإسلام، ورَبَّوْا نبيه وعلَّموه عقيدتهم، (فهذه «النصرانية» الشيعة، هي التي هاجرت من دولة الروم لما أعلنت المسيحية فيها دين الدولة، إلى مكة والحجاز، وهذه «النصرانية» هي التي تبنَّاها القرآن باسم الإسلام في دعوته، فكان القرآن دعوة نصرانية، وبما أن الإسلام القرآني هو «النصرانية» عينها، فالإسلام في نسبه الشيعة إلى المسيحية السنة، فهما فرعان لأصل واحد، وهذا ما يجهله أو يتجاهله المسلمون والمسيحيون)[2].

فالمطلوب إذًا أن يرجع الفرع إلى الأصل، وينضوي الإسلام تحت المسيحية ليتحقَّق الحوار والوئام في نظر الأب الحداد الذي يُذكِّر أهل مِلَّته قائلًا: (فلا ينسَ أهل الإنجيل قول السيد المسيح: «ولي خراف أُخَر ليست من

(١) القرآن دعوة نصرانية، (٦٧١ ـ ٦٧٢).

(٢) القرآن دعوة نصرانية، (٦٧١ ـ ٦٧٢).

هذه الحظيرة؛ فهي أيضًا ينبغي لي أن أجيء بها، وستسمع صوتي، فيكون القطيع واحدًا، والراعي واحدًا» «يوحنا ١٠:١٦»، فالمسلمون هم أيضًا مثال المسيحيين، خِراف المسيح؛ لإيمانهم به على هذه الشهادة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء])[(١)].

الثاني: التفريق بين «النصرانية المذمومة في القرآن» و«المسيحية التي يتسمى بها نصارى اليوم»، يقول الكاتب:

(.. يجب التمييز بين النصارى من بني إسرائيل، والمسيحيين من الأُمَمِيِّين، ومن الظلم والخيانة للقرآن إطلاق اسم «نصارى» الوارد في القرآن على المسيحيين المنتشرين في العالم، لم يتعرَّض القرآن للمسيحية الرسمية على الإطلاق، ولم يتصل النبي العربي إلا بوفد نجران[(٢)]، وقد وزَّعُوا حوار القرآن معهم على السور المدنية، وإجماع المفسِّرين أن وفد نجران كان من أهل البدعة اليعقوبية في المسيحية: فمن الظلم والخيانة للقرآن إطلاق أحكام القرآن في بدعة مسيحية، على المسيحية جمعاء، فالقرآن دعوة «نصرانية» في «أمة وسط» بين اليهودية والمسيحية، و«نصرانية» القرآن هي صلة الوصل بين الإسلام والمسيحية، وسبيل الحوار الصحيح بينهما، متى زالت الأوهام وبانت الحقائق في الدعوة القرآنية)[(٣)].

---

(١) القرآن دعوة نصرانية (٧٨٣)، ونحن نعكس الأمر علىٰ الحداد وندعوه وأهل مِلَّته ممن يسميهم مسيحيين وهم في الحقيقة بولسيون، إلىٰ الرجوع إلىٰ نصرانية أتباع المسيح عليه السلام وحوارييه الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، ونصرانية من سار علىٰ نهجهم من الذين قالوا إنا نصارىٰ وكانوا أقرب الناس مودة للذين آمنوا، فحينئذٍ يحصل الاتحاد بقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

(٢) يتعامىٰ الكاتب عن كتاب رسول الله ﷺ لهرقل عظيم الروم، سدنة الكنيسة النصرانية الرسمية.

(٣) القرآن دعوة نصرانية، (٧١١)، وقد تشبث بهذه الدعوىٰ؛ دعوىٰ أن نصارىٰ اليوم غير معنيين بتكفير القرآن وذمه، دعاة الحوار من نصارىٰ العرب من أمثال جورج خضر، وكيرلس سليم بسترس وأضرابهم، فضلًا عن الجداليين العدوانيين من أمثال الأب الدكتور جوزيف القزي، المتستر بلقب أبي موسىٰ الحريري في كتابه «قس ونبي»، وإلياس المر في كتابه «الإسلام بدعة نصرانية». انظر: بحث

ويقرِّر الأب الحداد ـ بكل جرأة ـ ضابطًا في فهم القرآن فيقول:

(كل تأييد أو استشهاد بأهل الكتاب أو ببني إسرائيل هو للنصارى من بني إسرائيل، وكل تكفير لأهل الكتاب أو لبني إسرائيل هو لليهود، أما المسيحيون فليسوا من بني إسرائيل، وهم أهل «الغلو» في شأن المسيح بلغة القرآن، وإن سمَّاهم أيضًا أهل الكتاب)[١].

لقد أخرج الكاتب المسيحية التي ينتمي إليها من حلبة الصراع، وبرَّأها من جميع صور النقد والتخطئة والتكفير التي صرَّح بها القرآن، ووجه هذه الحملة على «اليهودية» فقط، وفي الحالات التي لا يُسْعِفه المقام بلَيِّ أعناق النصوص بما يتَّفق ونظرته التي فاجأ بها العالمين يحمل تلك النصوص على مَن يسميهم «بعض جُهَّال نصارى الحجاز»، أو بعض البِدَع المسيحية، الخارجة عن المسيحية الرسمية كاليعاقبة والنساطرة[٢]، ثم يختم بحثه بصياغة شهادة جامعة بين أهل الإنجيل وأهل القرآن، نصُّها: (أشهد أن لا إلا الله، وأن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)[٣].

بعد هذا نتساءل: هل يظن الأب الحداد ـ في نفسه ـ أنه يسعى في طريق الحوار فعلًا؟ أم هي محاولة للتغرير بالبسطاء والسُّذَّج من المنتسبين إلى الإسلام؟ لا إخال مسلمًا لديه أدنى مُسْكَة من دينه يرضى أن يقال له: إن دين الإسلام هو النصرانية عينها، وهذا ما أدَّى بالكاتب تركي علي الربيعو أن يستنتج العكس، وأن المراد إلغاء الحوار، فيقول معلقًا على كتاب «القرآن دعوة نصرانية»: (إن هذا النوع من الخطابات، والمسكون بها جنس الصياغة التبشيرية بدين المسيح كما تعبِّر عنه ألفاظه وتراكيبه، والذي يقوم على احتقار الآخر ورده إلى باب

الدكتور رضوان السيد: جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية.

(١) القرآن دعوة نصرانية، (١٠٣).

(٢) انظر: القرآن دعوة نصرانية، (٢٨٥ ـ ٢٨٨).

(٣) القرآن دعوة نصرانية، (٤٥٧).

الخراف الضالَّة، والمسكون بشبح الدراسات الاستشراقية لا يهدف فعلًا إلى إقامة الحوار بل إلى إلغائه؛ لأن الحوار يحميه الاختلاف، وتعزِّزه الخصوصية، في حين أن الضم بالقسر والإلحاق والتبعية تقوم على إلغائه، وتقود إلى فوضى وعشوائية يزخر بها الكتاب)[١].

ويرى الربيعو أن هذا اللون من الخطاب «المستتر» في الحوار الإسلامي المسيحي يعكس «المأزق البنيوي» للأقلية المسيحية في الأكثرية المسلمة؛ لكون (الحوار المسيحي ـ الإسلامي، هو حوار متعدٍّ، بمعنى أنه مضمر بما هو سياسي، فالبعد السياسي في الحوار هو الحاضر/الغائب دائمًا، والغائب/الحاضر ابتداءً.

البعد السياسي للحوار المسيحي ـ الإسلامي يدفع بالمؤرخ أو الفيلسوف أو الهاوي للتاريخ، أو رجل الدين المؤرخ إلى تغليب أحد أبعاد الزمان على الأخرى، إنه البعد المستقبلي، وفي هذه الحالة يندفع إلى الوقوع في الاحتمالية، يبني احتمالًا على احتمال، فينتهي إلى تغليب الظن والوقوع في العشوائية، ليس هذا فحسب، بل إنه سرعان ما ينزلق إلى ساحة الأدلوجة[٢]، لينتهي إلى تضخيم تاريخ الأقلية على حساب الأكثرية، وإظهارها على أنها المبدأ والمعاد، والفرع الذي يريد أن يكون أصلًا، بهذا تصبح كل قراءة لتاريخ العلاقة الإسلامية المسيحية قفزًا جديدًا على التاريخ، وهروبًا إلى الأمام، وقفزًا فوق مستوى الحوار، بهدف إلغائه وتأجيله إلى أجل غير مسمى)[٣].

وأيًّا كان هدف الأب الحداد في قرارة نفسه إقامة الحوار أم إلغاءه، وأيًّا كانت البواعث وراء هذه الصياغة المُغرِبة، فإن النتيجة النهائية لفكرته أنه لم يأتِ بجديد في مجال الحوار، ذلك أننا لو سلَّمْنا جدلًا بوجود تطابق كامل بين

---

(١) الخطاب المستتر في الحوار المسيحي الإسلامي، مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٣٩).

(٢) الأدلوجة: يَعُدُّها بعض الكتاب تعريبًا لكلمة «أيدلوجي» Ideology أي فكري.

(٣) الخطاب المستتر في الحوار المسيحي الإسلامي، مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

العقيدة القرآنية، وعقيدة النصارى، شيعة المسيح، حسب اصطلاح المؤلف، الذين انشقوا على المسيحيين، فغاية ما في الأمر أننا أعدنا الأمر جَذَعًا، ونصبنا الخلاف على قواعده الأولى، التي أفرزت قرارات الحجب والحرمان، والوصم بالكفر والبدعة والهرطقة للمخالف، فأي ثمرة يجنِيها الأب الحداد «في سبيل الحوار الإسلامي ـ المسيحي» مؤسسة على نبش أحقاد الماضي، وبعث معضلات عقدية عميقة فشلت الكنائس في تجاوزها طوال القرون.

كما أن فكرة التفريق بين «المسيحية» والانحرافات «النصرانية» المذكورة في القرآن، بهدف تبرئة «المسيحية» من «الكفر» و«الغلو» لم تأتِ بجديدٍ أيضًا، ولم تَحُلَّ إشكالًا أصلًا، فالكاتب مع براعته في التلفيق وتحريف الكلم عن مواضعه، حين يصل هذه المباحث يعترف أنه خلافٌ أكبر، فيقول: (إن الخلاف الأكبر، في الحوار بين الإسلام والمسيحية يقوم على صلة التثليث المسيحي بالتوحيد الإسلامي)[١]، ثم يُعمِل الحيلة لإثبات أن التثليث الذي يكفِّره القرآن ليس بالتثليث الذي يؤمن به المسيحيون! في الوقت الذي يردِّد فيه قانون الإيمان النصراني: (أومن بالله الواحد الآب، والرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، وبالروح القدس، الرب المُحيي، المنبثق من الأب، (بالابن)، الذي هو مع الأب والابن معبود ومحمود..)[٢].

عجبًا لهاتيك العقول المغيَّبة في عماء التعصب والتقليد، كيف تسمي هذا التثليث الشركي «توحيدًا»، لقد جمع قانون إيمانهم شِركَيْ الربوبية والألوهية، فكان مشركو الأمم من الوثنيين أحسن حالًا منهم؛ لوقوعهم في شرك الألوهية دون الربوبية.

وتذهب محاولات الأب الحداد سُدى وهو يحاول أن «يُفَلْسِف» القضية ويجمع النقيضين؛ التوحيد والتثليث، فيقول: (فالتثليث المسيحي هو الله

(١) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي المسيحي، الأب يوسف درة الحداد، (٢١٧).
(٢) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي المسيحي، (٣٠٥ـ٣٠٦).

وكلمته وروحه، في وحدة الكيان الإلهي، إنه تثليث في التوحيد الخالص)[١].

فليقضِ القارئ عجبًا من «وحدة الكيان الإلهي»، والتوحيد الخالص، وهو يقرأ في نص قانون الإيمان النيقاوي الذي يردِّده النصارى في جميع الأرض: (.. وبالرب الواحد، يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، النور من النور، الإله الحقيقي من الإله الحقيقي، مولود غير مخلوق، في جوهر واحد مع الأب، وهو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد بالروح القدس من مريم العذراء، وتأنس وصُلِب لأجلنا على عهد بنطيوس بيلاطس، وتألَّم وقُبِر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وارتفع إلى السماء وجلس على يمين الأب)[٢].

إله مولود من إله، نزل، وتجسَّد، وتأنَّس، وصُلِب، وتألَّم، وقُبِر، وقام، وارتفع، وجلس على يمين الإله الأول! ومع ذلك فهما إله واحد!!

إن الأب الحداد ينعي على المسلمين جهلَهم بهذا التوحيد الخالص، ويدعوهم إلى حوار قاعدته الأساسية (صحة التوحيد الخالص المنزَّل ما بين الإنجيل ـ الذي يعتقده ـ والقرآن)[٣].

هل داعية الحوار المسيحي يتعامل بوجهَيْن، فيقول لمحاوريه من المسلمين ما يُوهِم التوحيد، فإذا خلا إلى بني مِلَّته أبحر في التثليث؟

إننا نجده في كتابه (الحواري) يقول متنصلًا من مقالة لـ «اليعقوبية»: (إن مقالة اليعقوبية قد كفَّرَتْها المسيحية قبل القرآن والإسلام، والمليار من المسيحيين يكفِّرونها اليوم، فمن الجهل والظلم المتاجرة بها في الحوار الإسلامي المسيحي)[٤]، ثم يعلِّق في الحاشية مستدركًا قائلًا: (نعتذر إلى

(١) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي (٣٠٨).
(٢) المرجع السابق، (٣٠٥).
(٣) المرجع السابق، (٢٨٦).
(٤) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي (٢٨٨).

الإخوان الذين يسمِّيهم التاريخ الإسلامي «يعاقبة»، ونحن على يقين بأن خلافهم مع جميع المسيحيين شكلي، إنه خلاف في التعبير، لا في العقيدة والتفكير)[١]! مع أن السبب الذي حمل المجمع المسكوني الرابع عام ٤٥١م على تكفير اليعاقبة ـ وتُمثِّلهم إذ ذاك كنيسة الإسكندرية ـ هو قولهم أن المسيح إله اتَّحَد فيه اللاهوت والناسوت وصارَا طبيعة واحدة، بينما يقول المجمع المذكور أنه إله بطبيعتَيْن[٢]، أما السبب الذي لأجله كفَّرهم القرآن فهو القول بألوهية عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة].

وهو قول تشترك فيه سائر طوائف النصارى المعاصرين، مهما تحذلقت في التعبير عنه، على نحو قول الأب الحداد: (فالمسيح في عقيدة المسيحيين إلهٌ من حيث هو «كلمته ألقاها إلى مريم»، وكلمة الله ليس الله على الإطلاق؛ لأن الله هو الآب والكلمة والروح في وحدة الطبيعة الإلهية، فتكفير القرآن لا يطال المسيحية مطلقًا)[٣].

ونرى أن لا فرق في الحقيقة بين مقالة اليعقوبية، ومقالة الملكانية «النصرانية الرسمية» من حيث إثبات كل منهما ألوهية المسيح كما في النص أعلاه، وإنما اختلفوا في تفاصيل الباطل[٤]، ولنا في هذا المقام قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي

---

(١) المرجع السابق، (٢٨٨).

(٢) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة (١٣٧)، المسيحية في العالم العربي (٥٧ ـ ٦٩).

(٣) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي المسيحي، (٣٠٢).

(٤) يقول الأب الحداد، نفسه: (كل الفرق المسيحية في مطلع القرن السابع الميلادي كانت مسيحية لا نصرانية، فالملكية، واليعقوبية، والنسطورية كلها تؤمن بإلهية المسيح من حيث هو كلمة الله ألقاها إلىٰ مريم، مهما اختلفت في التفكير والتعبير علىٰ صيغة تلك العقيدة)، القرآن دعوة نصرانية (١٠٧).

رحمه الله: (فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهًا شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحقَّ منه، فإنه خُلِق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبدٌ من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى بكونه خُلِق من أمٍ بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى[١].

وأنه «كلمته ألقاها إلى مريم» أي: تكلَّم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من إضافة التشريف والتكريم، وكذلك قوله: «وروح منه» أي: من الأرواح التي خلقها، وكمَّلها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة)[٢].

لقد كانت محاولة الأب يوسف درة الحداد في مجال التقريب بين الإسلام والنصرانية ضربًا من الاحتواء المكشوف الذي تأباه لغة العصر، فضلًا عن الحقائق الثابتة.

يقول الدكتور رضوان السيد[٣]: (أراد الأستاذ الحداد من المسلمين الاقتناع بأنهم نصارى/ مسيحيون في الأصل، وبالتالي فلا حاجة للاستقلالية الدينية، «فالاجتماعية والسياسية»؛ إذ إن هذه الاستقلالية الموهومة بالذات هي علة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣٨٧).

(٢) المرجع السابق: (٢/ ٢٢٥).

(٣) د، رضوان السيد: حصل علىٰ الدكتوراه في الفلسفة (قسم الإسلاميات) من جامعة توبنغن بألمانيا الغربية عام (١٩٧٧م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية، ومدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية في بيروت منذ ١/ ١١/ ١٩٩٤م، درس في جامعات هارفارد وشيكاغو بالولايات المتحدة الأميريكية، أستاذ زائر لعددٍ من الجامعات ومراكز البحوث، له حضور قوي في المؤتمرات والندوات الفكرية، يشغل منصب رئيس تحرير مجلة «الاجتهاد» منذ عام ١٩٨٨م، من مؤلفاته: «الأمة والجماعة والسلطة»، «دراسات في الفكر السياسي العربي والإسلامي ١٩٨٤م»، «مفاهيم الجماعات في الإسلام ١٩٨٥م»، «الإسلام المعاصر ١٩٨٧» وغيرها بالإضافة إلىٰ تحقيق بعض كتب التراث. انظر: ملاحق مجلة الاجتهاد (٢٩ ـ ٣٢)، وكتيب: «حركات الإسلام السياسي والمستقبل» (٣١).

النزاع بينهم وبين المسيحيين)[١].

وتلك صفاقة ما بعدها صفاقة! وهو لا يقتصر على نفث مكنون صدره من الحسد متخفيًا خلف صفحات الكتب، غاضًّا صوته تحت هدير المطابع، بل يبلغ به النزق أن يرتجل خطابًا في دار «الفتوى اللبنانية» ببيروت، أمام الشيخ حسن خالد[٢] مفتي الجمهورية، في أواخر الستينيات الميلادية، حين جاء مرافقًا البطريرك مكسيموس حكيم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم للروم الملكيين الكاثوليك ـ في إطار زيارات المجاملة والتهاني بين الجانبَين ـ ويؤكد فيه على الوحدة الدينية الجذرية، وينادي في محفل الخزي والعار متكلمًا بلسان الجميع: (أيها الحفل الكريم، تسمحون لي بهذه الشهادة الجامعة، وهي عنوان إيماننا جميعًا بالسيد المسيح: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فحرف إيماننا جميعًا بالسيد المسيح واحد: إنه لكلمة الله، ولكن قد نختلف في تأويله، ومهما اختلفنا في تأويل هذا الاسم الكريم فلا يصح أن نفسِّر «كلمة الله» بمعزلٍ عن «روح منه»، إنهما مترادفان يفسِّر بعضهما بعضًا، فليس «كلمة الله» مجرد كلام الله، أو أمر الله؛ إنما هو «روح منه» تعالى، فهو ذات قائمة «منه» و«فيه» قبل إلقائه إلى مريم، فنحن على وحدة لنا جذرية في إيماننا نفسه بالسيد المسيح، وهذا محور إيماننا، وحوارنا بالحسنى والحكمة، في «أمةٍ واحدة»)[٣].

ولم يُحفظ أن أحدًا في ذلك المقام، في دار الفتوى، موئل علماء المسلمين في

(١) جدالٌ مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٧).

(٢) حسن خالد (١٣٤٠ ـ ١٤٠٩هـ): مفتي لبنان، وُلِد في بيروت وتعلَّم في مدارس المقاصد الإسلامية بها، ثم انتقل إلىٰ مصر، وتخرَّج في كلية أصول الدين بالأزهر عام ١٩٤٦م، وتقلَّد مناصب عديدة في القضاء، حتىٰ عُيِّن مفتيًا للجمهورية اللبنانية عام ١٩٦٦م، له حضور سياسي وعلمي، كان عضوًا في رابطة العالم الإسلامي، ومجمع البحوث الإسلامية في الأزهر، توفي إثر انفجار سيارة ملغومة، إبَّان الحرب الأهلية اللبنانية، من مؤلفاته: آراء ومواقف، الإسلام والتكامل المادي في المجتمع، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية. انظر: تتمة الأعلام (١/ ١٣٠).

(٣) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي المسيحي (٤٦٣).

ذلك البلد، ردَّ عليه كُفرَه وشِرْكَه، وقولَه بالحلول، وتحريفَه لشهادة المسلمين بإسقاط شهادة أن محمدًا رسول الله، بل إنه ليفتخر بشهادته هذه قائلًا: (وقد أعلناها على رؤوس الأشهاد، بحضور أئمة رجال الدين، من المسيحيين والمسلمين، في دار الإفتاء ببيروت، وسط عاصفة مدوِّية من التصفيق)[1].

ولم تستطع هذه التلفيقات والمداهنات أن تبنيَ وحدةً وطنية، فضلًا عن وحدةٍ دينية كما طرق الحداد، وأطرق له مستمعوه، وتحوَّلت عاصفة التصفيق الفاجر بعد سنيَّات معدودة، إلى فرقعة قنابل، ودويِّ انفجارات، وإطلاق مدافع، واستبدلت زيارات التهاني بالمناصب الدينية إلى اغتيالات أثيمة، كان من بين ضحاياها الشيخ حسن خالد ـ رحمه الله وعفا عنه ـ وصدق الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود].

(١) مدخل إلىٰ الحوار الإسلامي المسيحي (٤٥٧).